النظم والحضارة الأوربية
في العصور الوسطى

دكتور
محمد محمد مرسي الشيخ
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

١٩٩٨



تقديم

درجنا في الشرق على النظر إلى حضارة أوربا في العصور الوسطى نظرة ازدراء وتعالي ورسخ في أذهاننا أن أوربا في العصور الوسطى، كانت ضاربة في أطناب الجهل والأمية والتخلف، إذا قسنا حضارتها بالحضارة الإسلامية في الشرق، على اعتبار أن المسلمين أقاموا أعظم حضارة عرفتها الدنيا في العصور الوسطى، حتى أصبح من المسلم به أنه لا وجه للمقارنة بين الحضارتين : الحضارة الإسلامية في الشرق وحضارة أوربا في العصور الوسطى ، لأن المقارنة لم تكن في صالح الأخيرة .

ولا شك أن هذا فيه كثير من الصدق، وإن لم يكن كل الصدق. حقيقة تفوقت الحضارة الإسلامية في الشرق في تلك الفترة على ما عداها في كل أنحاء الدنيا، وسمت الحضارة الإسلامية فعلا وبزت كل مثيلاتها في العصور الوسطى، وفي نفس الوقت انحدرت الحضارة الأوربية في العصور الوسطى واضمحلت كثيرا وضرب الغرب الأوربي بالذات في أطناب الجهل فترة ليست قصيرة في تلك الحقبة الزمنية الهامة، إلا أن ذلك لم يكن كل جوانب الصورة ولم يحمل كل الحقيقة.

ذلك أنه مهما كانت نتيجة المقارنة بين الحضارة الإسلامية ومثيلتها في الغرب الأوربي في العصور الوسطى، فلا أحد ينكر أن أوربا لم تعدم وجود شكل من أشكال الحضارة ربما قل عطاؤها في جانب أو آخر، وربما اضمحلت في ناحية أو أخرى بالنسبة للحضارة الإسلامية، ولكنها كانت قطعاً تمثل حضارة لشعوب متعددة، المفروض أنهم ورثوا حضارات قديمة وعريضة، وانتهت إليهم حضارات بزت وتفوقت في العالم القديم وهى الحضارة الإغريقية والحضارة الرومانية التي شهدتها العصور المزدهرة للإمبراطوريتين الإغريقية والرومانية ، وعلى امتداد حقبة ليست بالقليلة في تاريخ العالم القديم ، وكان لابد وأن تصل كثير من جوانب هذه الحضارات العظيمة للشعوب الغربية في

العصور الوسطى مهما كانت هذه الجوانب ومهما كان حجمها .

إذن فما السبب في تدهور حضارة الغرب الأوربي في العصور الوسطى، لاسيما في النصف الأول من هذه العصور، طالما شهد العالم القديم معطيات لحضارات عريقة؟ ولماذا تخلفت حضارة الغرب في تلك الفترة التي شملت عدة قرون حتى القرن الثاني عشر والجزء الأخير من العصور الوسطى، حين بدأت نهضة أوربا تتصاعد من قرن إلى قرن حتى العصور الحديثة؟

والإجابة على هذا التساؤل بسيطة جدا وواضحة، ونجملها في عدة أسباب : أولها انهيار القسم الغربي من الإمبراطورية الرومانية في مستهل الربع الأخير من القرن الخامس الميلادي تحت وطأة الجرمان، وانسياب هؤلاء فوق الرقعة الأوربية، وقضائهم على ما كان للرومان من دلائل السيطرة والنفوذ والتفوق المادي والحضاري والسياسي بما في ذلك الناحية العسكرية. وثانيها بروز ممالك الجرمان في كل أنحاء الغرب الأوربي في أسبانيا وشمال أفريقيا وإيطاليا وغالة (فرنسا) والجزر البريطانية وجزء كبيرا من ألمانيا الحالية، بما كان معروفا عن هذه العناصر الجرمانية من تخلف حضاري وبداوة وعدم ميل للتعلم ونفور من التعليم والثقافة، والتركيز على النواحي العسكرية والسياسية، واستثمار الفرص الاقتصادية والرخاء الذي أملوا في تحقيقه بغزوهم لأقاليم الإمبراطورية الغربية . ولهذا اتفق كثير من المؤرخين الغربيين على تسمية حقبة الغزو والاستقرار الجرماني في الغرب بالعصور المظلمة في تاريخ أوربا . وثالثها الفجوة التي حدثت بين العصور القديمة بما عاشته من حضارات قديمة والعصور الوسطى التي لم تتح لأصحابها فرصة الاستفادة التامة من تلك الحضارات وتابعهــــا ، وما كانوا يأملونه من استمرار في عطاء هذه الحضارات. ورابعها هيمنة الكنيسة على التعليم في فترة هامة وصبغ هذا التعليم بصبغة دينية بحته، وجمود رجال الدين ووقوفهم في وجه التقدم، وصرف الناس عن البحث والدرس في الأمور الدنيوية العلمانية وقصر ذلك على الشئون الدينية والروحية ،وما ترتب على ذلك من ركود الحضارة وتخلفها وبقاءها في

موقعها ،بينمـا كانت الحضارة في الشرق تتقدم من ميدان إلى آخر ومن تحقيق رقي إلى رقي آخر في مختلف جوانب الحياة .

وعلى الرغم من ذلك كان لأوربا حضارتها . وكان لها نظمها وأنظمتها في العصور الوسطى، ربما بدت لنا أقل في جانب أو في آخر عن مثيلاتها، إلا أنها كانت تمثل عناصر حضارة عاشها الغرب الأوربي بما كان يسود فيه من ظروف سياسية واقتصادية واجتماعية وتيارات فكرية. ولهذا لا ينبغي أن يكون هدفنا هو المقارنة فقط بين الحضارة الغربية في العصور الوسطى ومثيلتها في الشرق في ظل الإسلام، فليس هذا موضوعنا، وإنما هدفنا إلى جانب ذلك هو دراسة الحضارة والنظم الأوربية في تلك الحقبة باعتبارها حضارة قسم هام من أوربا في تلك العصور من ناحية وباعتبارها حضارة لشعوب عاشت ظروفاً سياسية واقتصادية واجتماعية وفكرية ودينية خاصة من ناحية أخرى، وكانت عناصر هذه الحضارة في نظر أهلها مناسبة كثيراً للعصر وصالحه كثيراً أيضاً للحقبة الزمنية التي يعيشونها . فلا معنى إطلاقاً لمقارنتها بغيرها من الحضارات دون أخذ في الاعتبار هذه الظروف وهذه الملابسات.

وشملت عناصر تلك الحضارة في العصور الوسطى الإقطاع كنظام سياسي وعسكري واقتصادي واجتماعي ساد في أنحاء الغرب الأوربي فيما بين القرنين الثامن والثالث عشر وربما إلى القرن الرابع عشر الميلادي. كما شملت أيضاً دراسة المدن والتجارة ونشأة مدن العصور الوسطى في أوربا في القرن الحادي عشر الميلادي وجانباً هاماً من الحياة الاقتصادية من خلال دراسة النقود والأسواق والمعارض والمصارف وغير ذلك مما يختص بالنشاط الاقتصادي التجاري والصناعي في أوربا في ذلك الوقت .

كما شملت أيضاً دراسة التعليم ونشأة الجامعات في العصور الوسطى ابتداءاً من القرن الثاني عشر بما أدته هذه الجامعات من دور خطير في توجيه الفكر والثقافة في أوربا في الجزء الأخير من العصور الوسطى، وما ترتب على جهود رجالها من نقلة حضارية كبيرة في حياة المجتمع الأوربي في ذلك الوقت

والتمهيد لظهور عصر النهضة ثم العصر الحديث في أوربا، وكذلك دراسة الدين والنظم الدينية وهى دراسة هامة لما كان للدين من تأثير شديد في حياة المجتمع في ذلك الوقت وما كان لرجال الدين من تسلط على الناس في كل أنحاء الغرب الأوربي مع دراسة الكنيسة ونظمها وعمق تأثيرها في حياة الشعوب الغربية.

كذلك تضمنت دراسة الرهبنة والديرية في أوربا في العصور الوسطى وكيف انتقلت هذه من الشرق إلى الغرب فأسهمت كثيراً، في إنعاش الحياة الدينية والاقتصادية بل والفكرية في أوربا في العصور الوسطى وتعددت الجماعات الديرية وتتابع ظهورها لإصلاح ما كان يحدث من خلل في نظم الأديرة بين الحين والحين وإيضاح ما كان للأديرة ورجال الأديرة من أثر في حياة الشعوب الغربية وكيف غدت الأديرة في فترات كثيرة مراكز ثقافية ودينية في آن واحد وأسهمت كثيراً في بعث نهضة ثقافية وخدمة تعليمية في أوربا في ذلك الوقت.

وشملت هذه الدراسة أيضاً الفكر السياسي وتطور القانون الديني والدنيوي وكيف نظر المفكرون إلى بعض المشكلات في حياة المجتمع في ذلك الوقت مثل مسألة قيام الدولة ونظرتهم للرق والعبودية والملكية الفردية، للحكم على فكر علماء أوربا ومفكريها من خلال نظرتهم لمثل هذه المشكلات. أما دراسة العلوم فهي لتحديد مستوى حضارة أوربا في تلك العصور وإلى أي مدى حقق علماؤها إنجازات في هذا الجانب ومعرفة قدر الحضارة من ذلك ارتفاعاً وانخفاضاً. ونستطيع أن نقول مطمئنين أن فضل العرب على أوربا في هذا المجال لا ينكره إلا جاحد فقد تأثرت أوربا لاسيما في الجزء الأخير من العصور الوسطى بعلوم العرب ودراستهم في مجال العلوم حتى أقر كثير من علماء أوربا بفضل العرب والحضارة الإسلامية على أوربا في تلك الحقبة بل وصرح بعضهم بقوله: " تعلمنا على أيدي أساتذة من العرب " لا سيما في العلوم التجريبية أو التطبيقية، التي انتقلت إلى أوربا من المعابر الحضارية المعروفة في أسبانيا وصقلية وجنوب إيطاليا والشرق.

ثم أخيراً كانت دراسة الآداب في أوربا في العصور الوسطى فرصة

للحكم على الحضارة الأوربية في هذا المجال في اللغة والأدب بشقيه النثري والشعري وغير ذلك من جوانب الحياة الأدبية مما يعطي فرصة للوصول إلى نتيجة فيما يتعلق بمستوى الحضارة الأوربية في تلك الحقبة، وللإجابة على التساؤل : هل تستحق أوربا منا في تلك الفترة أن نزدري حضارتها وننظر إليها بتعال؟، أم أنه ينبغي أن نعتبرها قد عاشت مرحلة حضارية أو شكلا من أشكال الحضارة إن لم تسم كثيرا أو تتفوق على غيرها، فقد مثلت حضارة في نظر شعوبها كانت مناسبة لأوضاعها وأحوالهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية بل والدينية أيضاً بكل ما تحمله هذه من معاني.

وبعد فبين يدي القارئ كتابا بذلنا في إخراجه كثيراً من الجهد في سلسلة كتب تتناول تاريخ وحضارة القارة الأوربية في العصور الوسطى ظهر منها حتى الآن : الممالك الجرمانية في أوربا في العصور الوسطى - ودولة الفرنجة وعلاقاتها بالمسلمين في الأندلس حتى نهاية القرن العاشر الميلادي - وتاريخ أوربا في العصور الوسطى - وتاريخ الإمبراطورية البيزنطية وهذا هو الكتاب الخامس في هذه السلسلة يختص بدراسة النظم والحضارة الأوربية في العصور الوسطى. أرجو أن يحظى بقبول القارئ وأن يجد فيه الطلاب والدارسون ما يؤملون وأن يفيد منه طلاب الدراسات العليا وكل من يهتم بتاريخ وحضارة الغرب الأوربي في العصور الوسطى، فنحن نحتسب هذا الجهد عند الله وحده ونسعى للمثوبة بهذا العمل الجاد.

والله أسأل أن تعم بهذا الكتاب الفائدة وأن يهيئ لنا من أمرنا رشدا إنه نعم المولى ونعم النصير وهو ولي التوفيق .

محمد محمد مرسي الشيخ

الإسكندرية في يناير سنة ١٩٩٦ م

الموافق شهر شعبان سنة ١٤١٦ هـ

الفصل الأول

الإقطاع والنظم الإقطاعية في أوربا في العصور الوسطى :

تكون المجتمع الأوربي في العصور الوسطى من ثلاث طبقات هي : طبقة رجال الدين ، وطبقة المحاربين من النبلاء والفرسان ، ثم طبقة الفلاحين . ولدراسة طبقة النبلاء وطبقة الفلاحين يحسن أن ندرس الإقطاع والنظم الإقطاعية في أوربا في العصور الوسطى لإلقاء الضوء على هاتين الطبقتين[١] . أما طبقة رجال الدين فسوف ندرسها فيما بعد من خلال دراسة النظم الدينية ونظام الرهبنة والديرية في أوربا في العصور الوسطى لتكتمل دراسة الطبقات الكبرى الثلاث للمجتمع الأوربي في تلك الحقبة

فلو جارينا المؤرخين المحدثين فيما ذهبوا إليه لقلنا أن أوربا في العصور الوسطى لم تعرف استخدام لفظ " إقطاع **Feudalism** " بالمعنى الذى استخدمه المثقفون بعد ذلك في العصر الحديث ، ولأصبح من الحكمة أن يتجنب المؤرخون المهتمون بتاريخ وحضارة أوربا فى العصور الوسطى استخدام هذا المصطلح ، وأن يستخدموا بدلاً منه كلمات شاعت فى العصور الوسطى مثل التبعية **Vassalage** والسيادة **Lordship** أو نحو ذلك[٢] .

والنظام الإقطاعى هو مجموعة من النظم والقوانين خضع بموجبها رجل حر لرجل حر آخر هو السيد ، أدى له يمين الولاء والخدمة لاسيما الخدمة الحربية ، ونظير ذلك التزم السيد بحماية تابعه والانفاق عليه ، ثم تطور الأمر حد منحه قطعة أرض اتخذت اسم إقطاع[٣] وبعبارة أخرى أو تعريف آخر للإقطاع هو : بعد تداعى

---

(1) Thompson : The Middle ages , v. 2 , p. 721

(٢) كانتور : التاريخ الوسيط ق١ ص ٣٣١ (ترجمة د. قاسم عبده قاسم)

(3) Ganshof (F.L) : Feudalism , p. 4 (trans. by Ph. grierson)

الدولة وانهيارها ، انتقلت السلطة السياسية إلى مجموعة من الأفـراد ، أخذوا يمارسونها ممثلة في تبعية شخصية من قبل الآخرين لهم بحكـم تميزهم واحتلالهم مكانة في المجتمع ، وخاصـة وأنهـم كـانوا يحتلـون مكانة هامة في الحرب[٤] . فكأن الإقطاع في عرف فريـق مـن المؤرخـين نمط محدد من نظم الحكم اللامركزية ، التي سادت أوربـا فيمـا بـين القرنين الثامن والثالث عشر ، ونظر إليه فريق آخر علـى اعتبـار أنـه نظـام شـامل تـتركز فيـه كـل جوانـب الحيـاة لا السياسـية فقـط بـل والاقتصادية والاجتماعية بما في ذلك الجوانب الدينية والثقافيـة[٥]. أي أنه مرحلة من مراحل التطور الاجتماعي لغرب أوربا في تلك الحقبة أو شكل من أشكال التنظيم الاجتماعي ركـز غالبيـة السـلطات السياسـية والاقتصادية في أيدي النبلاء الذين توارثوها جيلاً بعد جيل[٦] .

وقد ساد النظام الإقطـاعى فـى غـرب أوربـا في القـرن : العاشـر والحادى عشر والثاني عشر فظهر في فرنسا (غالة) وبرجنديـا وإيطاليـا وفي إنجلترا وبعض الممالك المسيحية في أسبانيا والإمـارات الصليبيـة في بلاد الشام[٧] . معنى ذلك أن جوهر النظام الإقطاعي هو الارتبـاط بـين التبعية وحيازة الأرض ، أى أن يبذل الشخص التبعية الإقطاعية لسيد أقوى منه ويؤدى له الخدمـة العسـكرية ، علـى أن يمنـح نظـير ذلـك قطعة من الأرض تفى بحاجته اتخذت أسم إقطاع[٨].فالتماس الشخص الحر الحماية لدى من هو أقوى منه ووضع نفسه تحـت حمايتـه ، وفي خدمته ليصبح تابعاً لم يكن أمراً جديداً فى ذلك الوقـت وإنـما الجديـد

---

(4) Ibid. p. 4

(٥) كانتور : المرجع السابق ق١ ص ٣٣٢

(٦) كانتور : نفس المرجع ق١ ص ٣٣٣

(7) Camb. Med. Hist. v. 3, pp. 457-8

(8) Ganshof: op. cit. p. 4

في ذلك هو شيوع هذا النظام وانتشاره ، لأن ما يعرف بنظام الأتباع له أصول رومانية وأصول جرمانية أيضاً ، ثم اجتمع الأصلان ونتج عنهما ما عرف بعدئذ بالأتباع الإقطاعيين[٩] ، مما يربط بين النظم الإقطاعية التي تكونت ، من خلال أشكال سياسية واقتصادية معينة جرمانية في بعض الأحول ورومانية في أحوال أخرى ، وذلك استجابة لحاجة اجتماعية بعد انهيار الإمبراطورية الرومانية في الغرب[١٠] .

فقد عرف الرومان نظام التبعية وخاصة في الفترة الأخيرة من العهد الروماني ، فإذا وهب الروماني للعبد حريته ، فإن هذا العبد المعتوق كان يظل من أتباع سيده ، كما لجأ كبار الأمراء والأعيان الرومان إلى اتخاذ الحرس الخاص المسلحين المأجورين[١١] ، وإذ يمنح العبد حريته ، ويصبح تابعاً لسيده ، فإن السيد في ذلك العهد ، يلتزم برعاية تابعه وحمايته وإن لم يلتزم التابع بتقديم الخدمة العسكرية ، وإنما يقتصر الأمر على الاشتراك مع حاشية السيد في المناسبات العامة ، وكان بوسع الأحرار الفقراء في العهد الروماني أيضاً أن يلتمسوا الحماية من أحد السناتوريين فيمنحهم الحماية والملاذ ،وينفق عليهم أو يهبهم قطعة أرض ، دون أن يخل ذلك بوضعهم ومكانتهم كرجال أحرار ، على أن يصبحوا بذلك أتباعاً له[١٢] .

وفي غمار الاحوال المضطربة التي سادت الإمبراطورية الرومانية المتأخرة ، جمع بعض الأرستقراطيين حولهم الشباب القادرين على

---

(٩) ديفز : أوربا في العصور الوسطى ص ٩٤ – ٩٥ (ترجمة د. عبد الحميد حمدى)
(١٠) كانتور : التاريخ الوسيط ق١ ص ٣٣٤
(11) Ganshof: op. cit. p. 4
(12) Ibid. pp. 4-5

القتـال ، وأغدقـوا عليهـم الهبـات والحمايـة في مقـابل ولائهـم وخدماتهم[١٣] ؛ بل ومنحوهم الأرض مقابل تأدية الخدمـات للشخص الذى منح هذه الحيازة وعرفت الأرض التى حصل عليهـا المقطـع هـذا لقاء تقديم خدمـات عرفـت باسـم " الأرض المقطعـة " Benefice[١٤] ، أى أن المجتمـع الرومـانى اعـترف منـذ أقـدم العصـور بوجـود روابـط اختيارية من هذا القبيل تحت اسم الحماية[١٥] .

أما فى العهد الجرمانى ، فطبقاً لما وصفه تاكيتوس ، فإن نظـام الحرب الجرمانى قام على أساس ولاء المقاتلين لرئيسهم مقابل حمايـة الأخير لهم وكرمه معهم ، وظل هذا الضرب من ضروب الولاء قائماً فى القرنين الخامس والسـادس الميلاديـين[١٦] . كمـا كـان هنـاك فئـة مـن الأتباع مُيزوا عن غيرهم بتسليحهم القـوى ، وانتمـائهم للملـك مباشـرة وتمتعهم بمكانة اجتماعية عالية كأتباع لملـوك الفرنجـة المـيروفنجين ، وبجانب هؤلاء كان هناك من عرفوا بالأتباع أو الأفصال Vassals وكانوا من الأحرار الذين تكفل الملوك أو الأمراء الأقويـاء بإعاشـتهم . إذ كـان من المعتاد أن يلتحق الشبان بخدمة محارب عظيم يأكلون على مائدتـه ويقاتلون فى معاركه ، فـألفت هـذه بـين السـيد والمسـود ألفـة وزمالـة وترتب عليها بعض الحقوق[١٧] . ومثل هؤلاء دعامة الجيـش ، وألفـوا فئة الفرسان المدربين ، وربمـا منحـوا أراض ليواجهـوا بهـا التزاماتهـم

---

(١٣) كانتور : المرجع السابق ق١ ص ٣٣٥
(١٤) هلستر : أوربا فى العصور الوسطى ص ١٤١ (ترجمة د. محمد فتحى الشاعر)
(١٥) كولتون : عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة ص٤٢ (ترجمة د جوزيف نسيم)
(١٦) كانتور : التاريخ الوسيط ق١ ص ٣٣٥
(١٧) كولتون : عالم العصور الوسطى ص ٤١

الحربية ، وكانوا أعلى منزلة دون شك من بقيـة الفئـات الأخـرى[(١٨)] . ولما كانت هذه العادات قوية ومتأصلة على جانبى الحـدود قبـل الغـزو الجرمـانى ، فقـد حـرص الجرمــان علــى الحفــاظ عليهــا ونشــرها وتقديسها[(١٩)] .

وبمرور الوقت اندمج النظامان فى نظـام واحـد ، فنظـام التبعيـة الذى عرفه الرومان ، ونظام الأتباع الذى عرفه الجرمــان ، تمثـلا معـاً فى طبقة المحاربين الذيــن استعان بهـم الأعيـان الرومـان مـن الجنـد الجرمان ، وهم الذين عرفـوا بالمحـاربين البقلاريـين Bucellerii[(٢٠)] . وغنى عن البيان أنه كان للجند المأجورين دور هام فى الحـروب التـى جرت فى القرن الخامس الميلادى . وهكذا كان الافصـال الذيـن عرفـوا فى القرنين السادس والسابع الميلاديين ، وبعد ذلك ، استمراراً لعصبة الحرب الجرمانية التى أشرنا إليها ، والتبعية اللاتينية التى عهدناهـا فى العهد الرومانى ، فكـأنهم كـانوا رجـالاً أحـراراً أخضعـوا أنفسـهم طواعيـة لأحـد سـادة الجنـد البـارزين ، ورحـب بهـم هـذا ، إذ كـان مؤهلهم الوحيد هو قدراتهم القتالية[(٢١)] .

ولذلك اعتمد الوضع الاجتماعى للافصال فى البداية على سـيدهم الذى يقومون بخدمته بصرف النظر عن أنهم كانوا جميعاً مـن الرجـال الأحرار ، إذ لم تكن التبعيـة الإقطاعيـة Vasslage ترتبـط حتـى ذلـك الوقـت بملكيـة الأرض ، بـل تكفـل سـيدهـم بـاطعامهـم وكسـوتهـم

---

(١٨) ديفز : أوربا فى العصور الوسطى ص ٩٧ – ٩٨

(١٩) كولتون : المرجع السابق ص ٤٢

(20) Ganshof: op. cit. p. 4

(٢١) كانتور : المرجع السابق ق١ ص ٣٣٥

وتسليحهم[٢٢] ، ثم تطور الأمر فى المرحلة التالية ، فتم الربط بين التبعية الإقطاعية وملكية الأرض ، وقصد به مكافأة الأفصال على خدماتهم وتأييدهم لسيدهم ، وإن جرى هذا التطور بطيئاً للغاية[٢٣]. فكأن التقاء الاتجاهات عند الجانبين الرومانى والجرمانى قد مهد الطريق لهذا التحول الأرستقراطى للجماعة البشرية[٢٤] . ونستطيع أن نميز مراحل ثلاثة مر بها النظام الإقطاعى فى غرب أوربا : مرحلة النشأة وبداية النمو ومرحلة اكتمال هذا النمو والنضوج ، ثم مرحلة الانهيار والاضمحلال للنظام الإقطاعى[٢٥] .

أولاً : نشأة الإقطاع وبداية نموه فى غرب أوربا :

كان العالم الرومانى الجرمانى إذن قد عرف فكرة منح الأراضى للرجال الأحرار للإنتفاع بها واستغلالها على الأقل منذ القرن السابع الميلادى ، فلاشك أن جذور الإقطاع بمعناه الدقيق امتدت أبعد من ذلك بكثير ، منذ ظهور الالتزام بالإخلاص والولاء والخدمة العسكرية التى كان يقدمها المحارب للسيد الإقطاعى لقاء تعهد المقطع بتقديم المساعدة العسكرية له منذ أواخر عصر الميروفنجيين ، وأوائل عصر الكارولنجيين[٢٦] . لكن لازالت مسألة تحديد ظهور الإقطاع بصورته التى عرفتها أوربا فى العصور الوسطى ، وهل ظهر قبل القرن الثامن أم لا ، موضوع جدل ومناقشة ، ولكن من المؤكد أن الكارولنجيين هم

---

(22) Heer : The Medieral world, pp. 29-30

(٢٣) كانتور : المرجع السابق ق١ ص ٣٣٥ - ٣٣٦

(٢٤) موس : ميلاد العصور الوسطى ص ٣٨٣ (ترجمة جاويد ومراجعة العرينى)

(٢٥) كوبلاند وفينوجرادوف : الاقطاع والعصور الوسطى فى غرب أوربا ص١٥-١٦ (ترجمة د. زيادة)

(٢٦) هلستر : أوربا ص ١٤١

الذين حولوا هذه الحيازة إلى نظام فرنجي عام[٢٧] ، فقد كان الجرمان عموماً يستخدمون المشاة في جيوشهم في أغلب الأحوال ، ويستدعون جماهير المزارعين الأحرار للمساعدة في الحروب ، ولكن اتضح لزعمائهم تفوق الفرسان المسلحين الذين شاركوا في القتال ضد جيوش الإمبراطورية الرومانية والهون وبعض القبائل الجرمانية الأخرى ، وبدا هذا التفوق واضحاً بمرور الوقت[٢٨] .

وما أن بزغت شمس القرن الثامن الميلادى حتى التمس عدد متزايد من سادة الجند المستنيرين بناء جيوش ترتكز على الجنود الراكبين المدرعين أى الفرسان .. إلا أن معدات تجهيز الفارس كانت باهظة التكاليف ، فكان على السيد الذى يرنو إلى تكوين جيش قوى من أفصاله أن يمنحهم الضياع أو الإقطاعات التى قد يحصلون منها على الدخل الذى يكفى لتجهيز أنفسهم للحرب[٢٩] . إذ كان الجيش الفرنجي القديم يتألف من المشاة أى من سائر الرجال الأحرار الذين يهرعون بأسلحتهم للقتال دون أن يتقاضوا أجراً ، حتى غدا شارل مارتل دوقاً على الفرنجة ، فأدرك كما أدرك زعماء الجرمان من قبل أن القوة الفتية فى الجيش لاتكمن فى المشاة ، وإنما تكمن فى المحارب الفارس صاحب السيف والرمح المسلح بالترس والخوذة والزرد[٣٠] ، كما أدرك حاجته إلى مثل هذه القوة التى تمكنه من السيطرة على نبلاء الفرنجة المنشقين من ناحية وحماية المملكة من الأخطار الخارجية المثلة فى هجمات السكسون على الأطراف الشمالية وتوغل المسلمين فى الجنوب بعد استيلائهم على مملكة القوط

(27) Stephenson : Med. Feudalism , p. 11

(٢٨) كانتور : المرجع السابق ق١ ص ٣٣٦

(٢٩) كانتور : نفسه ق١ ص ٣٣٧

(30) Ganshof: op. cit. p. 16

الغربيين فى أسبانيا وعبورهم جبال البرانس من ناحية أخرى. وبعبارة أخرى كان الإقطاع نتاجاً لرد فعل فرنسا تجاه الغزوات[٣١] .

وحيث أن الاسلحة الثقيلة مثل الدروع والتروس والخيل باهظة الأثمان ، فإنه لم يستطع حيازتها سوى فئة قليلة من النبلاء الفرنج الذين كان يتحتم عليهم التدريب المستمر عليها وممارستها زمناً طويلاً[٣٢] . فالفارس يحتاج إلى فرس مدرب تدريباً حسناً ودرع ثقيل وأسلحة وعدد من الرجال الذين يسهرون على خدمته ويستغرق تدريبه عدة سنوات[٣٣] . ولهذا فطن شارل مارتل إلى أنه لن يستطيع بناء تلك القوة الفتية من أولئك الرجال الذين يعملون فى الزراعة ويجهدون لانتزاع أقوات يومهم منها ، وحيث أن شارل مارتل لا يملك المال اللازم لإنشاء الجيش القوى أو الحصول على جند مأجورين ، إذ كانت السيولة النقدية غير متوفرة على امتداد العصور الوسطى الباكرة، وكان من المستحيل تقريباً بالنسبة لحاكم أن يقدم الأجور لجنده، وانما كان من المتيسر له أن يأوى أتباعه ويطعمهم داخل منزله أو ضيعته[٣٤] فإنه لم يجد أمامه سوى أن يمنح الجند الأرض ويوفر لهم سبل استغلالها والافادة منها ، فقد أدرك شارل مارتل مدى ما يمكن أن يحقق من مزايا عسكرية من خلال إسباغ الإقطاعات على أفصاله خاصة ، وأنه كان يحاول أن يبنى جيشه لمواجهة المسلمين فى أربعينات القرن الثامن ويسعى للحصول على أكبر قوة عسكرية ممكنة من الفرسان[٣٥] .

---

(٣١) هلستر : أوربا ص ١٤١

(32) Stephenson : op. cit. p. 11

(٣٣) هلستر : نفسه ص ١٤٢

(٣٤) هلستر : نفسه ص ١٤١

(٣٥) كانتور : التاريخ الوسيط ق١ ص ٣٣٧

وعلى هذا فقد تبلور معنى الإقطاع الحربى فى أولى مراحله فأضحى يمثل مكافأة يقدمها السيد لتابعه نظير ما يؤديه هذا من خدمة حربية خاصة[٣٦] . ونظراً لأن الكنيسة كانت تملك أراضى شاسعة تمنحها للمستأجرين ، فقد أرغمها شارل مارتل على أن تمنح تلك الأراضى لجنده الذين حلفوا له يمين الإخلاص وبذلوا الطاعة والولاء ، وآلوا على أنفسهم أن يخدموه مدى الحياة ، فكأن شارل مارتل قام بعمليات مصادرة لممتلكات الكنيسة بشكل ثقيل الوطأة ، ومنح تلك الأراضى الزراعية لأفصاله العسكريين[٣٧] . وهكذا بقيت أراضى الكنيسة فى أيدى الملك أو صاحب البلاط يمنحها لأتباعه لاستغلالها مدى الحياة[٣٨] .

فنجح فى انتزاع الإقطاعات لأفصالة من أراضى الكنيسة من ناحية ، ومن أراضى الإقطاعيات الكبرى المأخوذة من الأراضى الملكية ذاتها من ناحية أخرى ، وسرعان ما أخذ السادة الكبار فى النصف الغربى من المملكة الكارولنجية فى محاكاة شارل مارتل ، فحولوا فرسانهم إلى فرسان مقطعين[٣٩] .

وعلى هذا فقد اتضحت العناصر الأساسية التى كونت النظام الإقطاعى كما عرفه العهد الكارولنجى ، ممثلاً فى نظام أتباع السيد وإقطاعاتهم ، فتابع السيد يحلف يمين الإخلاص لسيده ، ويمنح قطعة أرض ينتفع بها ، ويؤدى للسيد نظير ذلك خدمة حربية[٤٠] ،

(36) Camb. Med. Hist. v. 3, pp. 458-9

(٣٧) هلستر : المرجع السابق ص ١٤١

(38) Ganshof: op. cit. p. 17

(٣٩) كانتور : التاريخ الوسيط ق١ ص ٣٣٧

(٤٠) ديفز : أوربا فى العصور الوسطى ص ٩٧ – ٩٨

وتطور الأمر بعد ذلك فحصل التابع على امتيازات أخرى ارتبطت بحيازته الإقطاع ، وصار له من الامتيازات ما كان لرجال الدين من قبل ، كما سنفصل فيما بعد ، إذ صار من حقه أن يباشر القضاء ، ويجمع الضرائب المحلية ويجبى الغرامات ويجند الجند ، ويحصل على خدمات لصيانة الطرق وإقامة الجسور وتدعيم وصيانة الاستحكامات[٤١] .

هذا ولم يكن منح الإقطاع fief يعنى أن يمنح الفصل الإقطاعى كافة حقوق ملكيتها ، إذ كان له أن يفيد من عائد الأرض كمكافأة له على خدماته ، ولكى يتمكن من إعداد نفسه الإعداد اللائق كفارس ، بينما كانت ملكية الأرض بصفة نهائية حقاً للسيد الذى يمكنه استعادتها إذا لم يلتزم الفصل بالولاء له ، فإذا ما توفى الفصل كان الإقطاع يعود إلى السيد بشكل تلقائى[٤٢] . ولقد سعى الأفصال بمرور الوقت إلى تأكيد الصفة الوراثية للأرض التى حازوها من سيدهم ، وعلى الرغم من أنه من الناحية الفنية لم يكن الإقطاع وراثياً وكان يؤول إلى السيد بعد موت الفصل ، فإنه بمنتصف القرن العاشر صار الإقطاع وراثياً بالفعل[٤٣] .

ومنذ النصف الثانى من القرن الثامن الميلادى زادت نسبة الأتباع بالنسبة للمجموع الكلى للأحرار ، وزادت صفة الأتباع العسكرية دون شك ، وأطلقت عليهم ألفاظ مختلفة ترمز لتبعيتهم وتشير إلى صفتهم ، وشاع فى القرن التاسع لفظ Vassus أو الفصل Vassal للدلالة على التابع و Vassal كلمة من أصل كلتى استخدمت فى الفترة الفرنجية

---

(41) Thompson : op. cit. V. I, p. 348

(٤٢) كانتور : المرجع السابق ق١ ص ٣٣٧

(٤٣) كانتور : نفسه ق١ ص ٣٣٨

للدلالة على محارب فى خدمة سيد كبير ، أى رجل حر وضع نفسه تحت حماية شخص آخر اكثر غنى واكثر قوة فأصبح فصلاً وتابعاً له(٤٤) . وليس من شك فى أن ازدياد نسبة الأتباع ارتبط بانتشار نظام الضياع ، وبما كان يقوم به السيد من توزيع الضياع على أتباعه وما يقوم به الأتباع من توزيع إقطاعاتهم على أتباع لهم بدورهم(٤٥) .

ارتكز النظام الإقطاعى إذن فى الامبراطورية الكارولنجية والأقطار التى انتقل إليها على الارتباط الوثيق بين التبعية وحيازة الأرض ، ويمكن اعتبار النظام الإقطاعى فى جوهره نظاماً سياسياً ، على الرغم من أنه يمس نواحى اقتصادية هامة وذلك طالما جرى الارتباط بين التبعية وحيازة الأرض بهدف خدمة الحكومة أو الدولة(٤٦) ، كما كان الاقطاع نظاماً سياسياً ونظاماً اجتماعياً أيضاً له قيمته ومثله العليا ونظاماً اقتصاديا لأننا نستطيع دراسة الاقتصاد الاقطاعي ونظاماً دينياً لأننا نجد الكنيسة المتأثرة بالاقطاع ونظاماً ثقافياً لظهور الأدب الاقطاعى والملاحم الإقطاعية مثل الحرب الإقطاعية التي وضحت في جوانب الأدب نثره وشعره(٤٧) . وفى ظل ذلك يمكن فهم السياسة التى سار عليها الكارولنجيون فى الاكثار من الأتباع وخاصة حينما أحسوا بوادر التفكك والانهيار وتداعى الدولة بعد عهد شارلمان(٤٨) .

وعلى هذا يمكن أن نميز عناصر ومصطلحات سادت وشهدتها

(44) Heer : The Medieval Europe from 1100 to 1350, pp. 29-30

(45) Ganshof : op. cit. p. 19

(46) Rowling : Everyday life in Medieval Times , pp. 41-42

(٤٧) كانتور :التاريخ الوسيط ق١ ص ٣٣٢ – ٣٣٣ ، ق٢ ص ٥٦٥

(٤٨) ديفز :المرجع السابق ص ٩٧

فرنسا بالذات فى فترة نشأة الإقطاع وبداية تطوره منها السيادة Lordship والتبعية Vassalage والضيعة Fief ولامركزية الحكم والقضاء ، فضلاً عما أصبح الإقطاع يشكله من مثل وقيم اجتماعية(٤٩) .
كما يمكن أن نلحظ بداية نمو وتطور للنظم الإقطاعية ساعدت عليها الظروف التى مرت بها أوربا فى ذلك الوقت ، إذ كان للفوضى التى استشرت فى البلاد فى القرنين التاسع والعاشر أى منذ وفاة شارلمان سنة ٨١٤م حتى قيام هيوكابيه فى الحكم سنة ٩٨٧م ، أثر كبير فى نمو النظم الإقطاعية ورسوخها ، فقد عم البلاد الإضطراب ، وأغار المتبربرون على أطرافها بل توغلوا فى جوفها ، وتعرضت الامبراطورية لأشد أنواع المحن(٥٠) .

واستمر نمو الإقطاع والنظم الإقطاعية وسط الظروف التى كانت تمر بها أوربا حينئذ ، إذ أغار الفايكنج على سواحل فرنسا ، وتوغلوا فى البداية إلى أبعد من مصبات أنهارها(٥١) ، وأغار المجريون على الشطر الشرقى من غالة ، بينما وصل المسلمون إلى دلتا نهر الرون ، وأحدثوا الخراب والدمار فى الجهات المجاورة(٥٢) . هذا فضلاً عما حدث من فوضى داخلية وحروب أهلية بين أفراد البيت الكارولنجى نفسه ، ثم بين الكارولنجيين وآل كابيه ، ولم تعد ثمة حكومة قادرة على حماية البلاد من الأعداء ووضع حد للفوضى التى عمت فيها .
فمعاهدة فردان Virdun سنة ٨٤٣ م بين أحفاد شارلمان ، لم تؤد إلى

---

(٤٩) كانتور : نفسه ق١ ص ٣٣٤ ،
Huizinga : The Waning of the Middle Ages, pp. 65-7
(50) Keen:A Hist. of Med. Europe, p. 32
(51) Haskins : The Normans in European Hist. p. 33,
هلستر : أوربا ص ١٤٠
(52) Camb. Med. Hist. V. 2, p. 129

تسوية شامله نهائية لأنها قسمت البلاد إلى ثلاث ممالك[٥٣]، تعرضت أولاها وهى مملكة لوثر، الواقعة فى الوسط، والتى شملت فريزيا ولوثارنجيا وبرجنديا وبروفانس ولمبارديا وبقية إيطاليا، تعرضت للانهيار، إذ انقسمت هى الأخرى إلى ثلاث ممالك وتوالى تجزئة هذه الممالك، أما الثانية وهى مملكة لويس الجرمانى الواقعة إلى الشرق والتى شملت ألمانيا، فقد أخذت تتعرض لأطماع السكسونيين والفرانكونيين[٥٤].

وفى ظل الانقسام والضعف وغزوات المتبربرين انهارت السلطة وضعفت الممالك واستشرت الفوضى وضربت فى طول البلاد وعرضها، وتعرضت أجزاء كثيرة للضغط والغزو والاجتياح[٥٥]. والدليل على ذلك أن المملكة الثالثة وهى مملكة شارل الأصلع فى الغرب والتى شملت فرنسا، فقد انتقلت السلطة فيها لأيدى الأمراء المحليين من العلمانيين والكنسيين، وغدت هى الأخرى مملكة متداعية[٥٦]. هذا ولم يؤد قيام آل كابيه فى الحكم إلى أثر حاسم فى مجريات الأمور هناك، لأنهم قنعوا بحكم مملكتهم دون محاولة لعمل شىء يعيد الوحدة إلى البلاد، بل إن مملكتهم قد تقلصت إلى ما عرف بجزيرة فرنسا **Ile de France** فى الوقت الذى بدأت فيه تنقسم إلى عدة أقسام أو وحدات سياسية مستقلة أشهرها تولوز وغسقونيا وأقطانيا وبريتانى وأنجو وبلوا وشامبانيا وبرجنديا والفلاندرز ونورمانديا[٥٧].

---

(53) Oman : The Dark Ages 476-918 , pp. 409-10

(٥٤) فشر : تاريخ أوربا فى العصور الوسطى ق١ ص ١٣٦– ١٣٧

(55) Keen : op. cit. p. 39

(56) Oman : op. cit. p. 411

(57) Camb. Med. Hist. V. 3, pp. 128-130

وترتب على هذه الفوضى التى ضربت فى أطناب البلاد بطولها وعرضها أن تعمقت النظم الإقطاعية ونمت بل وانتشرت، لأن كبار الملاك أستطاعوا أن يتخذوا لأنفسهم جنداً بفضل ما بذلوه من الإقطاعات والأراضى للمحاربين الأقوياء[٥٨] ،بينما التمس صغار الملاك الحماية ممن هم أعلى منهم شأناً، وأقوى منهم جنداً للدفاع عن أنفسهم من ناحية، وللحفاظ عاى مكانتهم من ناحية أخرى، ولهذا بادروا لتقديم التبعية أى صاروا أتباعاً، بأن يتنازل الواحد منهم لسيده عن أملاكه ثم يستردها على هيئة إقطاع[٥٩] . ولما كان الملوك الكارولنجيون قد نشروا نظام الأتباع بفضل ما بذلوه من الإقطاعات الكبيرة، فإنهم بذلك ضمنوا أن يتوافر لهم وقت الحاجة رجال يقدمون الخدمة والمساعدة يساندهم عادة فئة جديدة من أتباعهم[٦٠] .

وهكذا انتشر الإقطاع انتشاراً واسعاً، وفى عصر شارلمان تعهد أقطاب الفرنجة الكبار للولاء لإمبراطورهم، وبذلك أعترفوا بأنهم أتباعه وأنه سيدهم الإقطاعى وزيادة على ذلك، فإن هؤلاء الأتباع الملكيين كان لهم أتباع يدينون بالولاء لسادتهم الإقطاعيين المباشرين أكثر من ولائهم للامبراطور، ووافق شارلمان نفسه على هذه الحال وشجع مملكته على أن تصبح جماعة من الأتباع للسادة الاقطاعيين الكبار[٦١] . وعلى هذا إذا أردنا أن نرتب أجناد الدولة الفرنجية فى القرن العاشر الميلادى، فإنه يتضح لنا هرم إقطاعى يرتبط أفراده معاً بإيمان التبعية، يتخذ الملك قمة هذا الهرم باعتباره السيد الأعلى فى البلاد، ثم يتلوه أتباعه المباشرون الذين كانوا فئة قليلة من الأدواق والكونتات ولهؤلاء

---

(58) Keen : op. cit. pp. 39-40
(59) Ganshof : op. cit. pp. 16-17
(60) Ibid. p. 17

(٦١) هلستر : أوربا ص ١٤٢

بدورهم أتباعهم، ثم يتلوا هذه الفئة أتباع الأتباع وأتباع أتباع الأتبـاع، وفى قاعدة هذا الهرم استقر الفارس الذي تهيأ له من الأرض والعمل ما يكفل له العيش والغذاء له ولأسرته وخيله(٦٢) .

وطبقاً لهذا فكل حائز للأرض تقريباً - ماعدا الملك - تابعاً لفـرد من الأفراد ومن النادر أن نجـد تابعـاً إقطاعيـاً لم يكـن سـيداً إقطاعيـاً لآخرين ظلوا أتباعاً أقل فـى المسـتوى الإقطـاعى(٦٣) ،وغـدت القـاعدة التى نادى بها رجال قانون الإقطاع، والتى تشير إلى أنه لا أرض بدون سيد، ظلت فى مجموعها قاعدة سليمة إلى حد بعيد(٦٤) ،وعلـى الرغـم من ذلك، فهذا الهرم الإقطاعى الذى يتربع الملـك علـى قمتـه، يعطـى انطباعاً غير دقيق عن هذا النظام، فقد كـان ملـك فرنسـا فـى القرنـين العاشر والحادى عشر سيداً على كبار الأمراء الإقطـاعيين، بيـد أنـه لم يكن يتمتع بأى سلطان حقيقى على أفصاله من الدوقـات والكونتـات، لأنه لم يكن السيد الأعلى لأفصالهم الصغار، وطالمـا كـان الملـك القـابع فى باريس عاجزاً عن أن يهزم دوق نورمانديا أو كونت تولوز، فإنه لم تكن له أى سيطرة حقيقية عليهما أو على غيرهما، وذلك علـى الرغـم من أنهما يتبعانه من الناحية الرسمية(٦٥) .

إلا أن النظام الإقطاعى الحقيقى وجد فـى انجلـترا فـى النصـف الثانى من القرن الحادى عشر أى بعد الغزو النورماندى لانجلترا سنـة ١٠٦٦م، إذ كـان الـدوق النورمـاندى قـد تعلـم خـلال القـرن العاشـر والنصف الأول من القرن الحادى عشر، كيف يستخدم النظم الإقطاعية

(٦٢) كوبلاند وفينوجرادوف : الإقطاع ص ٢٢

(٦٣) هلستر : نفسه ص ١٤٣

(64) Stephenson : op. cit. 233-4

(٦٥) كانتور : المرجع السابق ق١ ص ٣٤٢

بطريقة خاصة تزيد من سلطة الحكومة المركزية ، ولم تكن هذه هى الطريقة التى سار عليها النظام الإقطاعى فى الامبراطورية الكارولنجية المتأخرة(٦٦) .

وكان السيد يرتبط بتابعه والتابع يرتبط بسيده بعد اتخاذ اجرائين هامين أولهما أن يبذل التابع لسيده التبعية أى الولاء، والثانى أن يؤدى له يمين الاخلاص وهكذا التزم كل فارس بالولاء والإخلاص للأمير الإقطاعى السيد، أى أنه كان يأخذ على نفسه عهداً بالولاء الشخصى لسيده الاقطاعى المباشر(٦٧) . وتشير الدلائل إلى أن ذلك كان يتم وفق تقاليد معروفه فى احتفال معين يقام لهذه المناسبة، إذ يركع التابع أمام سيده، ويضع يديه مضمومتين بين يدى سيده، على حين يحتضن هذا يدى الفصل بين يديه(٦٨) ،ثم يقسم الفصل يمين الاخلاص، واضعاً يده أحياناً على صندوق معين يحوى بعض المخلفات الدينية(٦٩) ،ويبدو أن الكنيسة أضافت هذه الواجهة المسيحية المعتادة على احتفال الولاء، بل وألزمت الفصل أداء اليمين المقدس بالولاء لسيده(٧٠) . وحفظت لنا الوثائق المعاصرة لشارلمان نص يمين الإخلاص الذى ردده أحد الأتباع أمام شارلمان قائلاً :

" أعد أن أكون فى إخلاصى للسيد شارل أطيب الأباطرة، وابن الملك بيبن والملكة برتا، مثلما ينبغى على التابع أن يكون لسيده، فى المحافظة على مملكته وحقوقه وسوف اوفى بهذا اليمين منذئذ بفضل

---

(٦٦) كانتور : المرجع السابق ق١ ص ٣٤٣

(٦٧) هلستر : المرجع السابق ص ١٤٣-١٤٤

(٦٨) كانتور : نفسه ق١ ص ٣٣٩

(69) Ganshof: op. cit. pp. 27-8

(٧٠) كانتور : نفسه ق١ ص ٣٣٩

ا الله خالق السموات والأرض والمقدسات الدينية " (٧١) .

ويذهب البعض إلى الاعتقاد فى أن نواة هذا الاحتفال ربما كانت لها أصول قديمة ترجع إلى العصر الجرمانى المتبربر، إذ يشير بعض المؤرخين المحدثين إلى أن مراسم احتفال الولاء هذا، كانت تقوى العلاقات بين السيد والفصل، لأن الفصل كان يركع غير مسلح بين يدى سيده واضعاً يده بين يديه واعداً ومتعهداً بأن يصبح رجله (٧٢) ، فيؤكد التابع بذلك انتماءه لسيد من السادة الإقطاعيين وتبعيته له، ولابد وأن الكنيسة حرصت على إضافة يمين الإخلاص والولاء ووضع يد التابع على صندوق المخلفات الدينية، لأن صيغة القسم تذكرنا بالأصول الجرمانية لهذه المراسم، فبعد ان يركع التابع ويضع يده بين يدى سيده ثم يقول : " Sire , I became your man "، ثم يتلو قسم الولاء والاخلاص ويتعهد بالولاء لسيده حتى نهاية حياته (٧٣) .وربما أدى البعض يمين الإخلاص فقط لحاكم أو سيد دون أن يقترن ذلك بالتبعية (٧٤) .

وعند منح الإقطاع للفصل كان السيد فى العادة يسلمه رمزاً

---

(٧١) انظر نص القسم فى كتاب: Rowling : op. cit. p. 18 ومن هذا القسم: "I promise that , from this day forward, I will be the most faithful man, of the most pious Emperor, My Lord Charles..."

(72) Heer : op. cit. p. 30

(73) Keen : op. cit. p. 41

(74) Stephenson : op. cit. p. 19
Gansho : op. cit. pp. 29-30

للإقطاع على هيئة سنبلة أو سكين أو غير ذلك ، وبمرور الوقت أصبح من المعتاد، أن يتم التصديق على منحة الأرض بعمل قانونى[٧٥] كان يسمى " الحجة " أو الوثيقة، وكانت تتألف من خمسة أجزاء : التحية التى كانت توجه فى العادة إلى الرجال البارزين فى المناطق المجاورة للإقطاع . ثم الخطبة التى توضح سبب المنحة، ثم الفقرة التى تتحدث عن الحيازة، وتوضح موضع الإقطاع وحدوده، ثم اللعنة التى توجب عقوبة الحرمان على الشخص الذى يجرؤ على مخالفة شروط الحجة أو الوثيقة، وأخيراً قائمة الشهود التى كان يصدق عليها بأختامهم الخاصة وهم الذين شهدوا عملية منح الإقطاع . وهكذا كانت الحجة فى العصور الوسطى وثيقة رائعة مؤثرةوكانت كافية لأن تكون دليلاً حاسماً فى أى دعوى أو قضية مدنية تتعلق بملكية الأرض[٧٦] .

وإذا تم عقد التبعية فلا يصح نقضه من جانب واحد[٧٧] . لكن أحد مرسومات شارلمان دلت على حالات استثنائية يمكن فيها للتابع أن يتخلى عن سيده : إذا تآمر السيد على تابعه أو حاول اغتياله، أو حاول الاعتداء عليه بالضرب، أو ارتكب الزنا مع زوجته أو ابنته أو حاول اغتصاب أى منهما، أو حاول أن يجعل من تابعه قنا أو عبداً، أو إذا أهمل فى الدفاع عنه. غير أنه تكررت الإشارة زمن خلفاء شارلمان من الكارولنجيين الى أنه لايجوز للتابع أن يتخلى عن سيده إلا بموافقته، ولاينقض عهد التبعية عادة إلا بوفاة أحدهما السيد أو التابع[٧٨] .

---

(75) Keen : op. cit. p. 41

(٧٦) كانتور : المرجع السابق ق١ ص ٣٣٩-٣٤٠

(77) Heer : op. cit. p. 30

(78) Cantor : Feudal institutions and Ideals , pp. 176-7 in The Med. World , by Cantor .

حقوق السيد والتابع وواجباتهما الإقطاعية :

جرى في البداية استخدام أتباع كبار الملاك فى الشؤن السياسية والقضائية والادارية، وكذلك أتباع الكونتات، الذين استخدموا فى تلك الشئون أيضاً من آن لآن، على أن الامر تدرج بحكم ظروف العصر، فصار للخدمة العسكرية الأولوية بالنسبة لما هو مطلوب من التابع، فمتى حصل التابع من سيده على إقطاع التزم بتقديم الخدمة العسكرية فى كامل عدته وحصانه، متجهزاً بكل أسلحة الفارس[٧٩] . أى أن الفصل كان ملزماً بتقديم الخدمة العسكرية لسيده، وإذا كان الفصل رجلاً هاماً يحوز إقطاعاً كبيراً، كان عليه أن يقدم علاوة على الخدمة العسكرية فرقة من الفرسان لجيش سيده[٨٠] .

وعلى الرغم من حرص الكارولنجيين على ألا تتهيأ الفرصة أمام أتباعهم لتحويل ما حصلوا عليه من الضياع بطريق الإقطاع إلى أملاك خاصة بهم، فإننا نسمع أن ملوكاً وأمراء فى القرن التاسع منحوا أتباعهم ضياعاً أو إقطاعات، على أنها أملاك خاصة بهم، يتمتعون فيها بكافى حقوق الملكية[٨١] . لكن عقد المنحة نص صراحة على أنها منحت مقابل ما يؤديه التابع من خدمة . هذا فضلاً عما حدث من محاولات الأتباع لتحويل ما أقطعوه إلى أملاك خاصة منتهزين فرص الاضطرابات والفوضى لاسيما فى النصف الثانى من القرن التاسع فى غرب دولة الفرنجة، وكان ذلك بسبب عجز الكارولنجيين الأواخر عن الحفاظ على سيطرتهم على الدوقات والكونتات الذين اغتصبوا السلطة فى دوقياتهم وكونتياتهم وحولوها إلى إقطاعات[٨٢] ، وسعوا إلى تأكيد

---

(79) Stephenson : op. cit. p. 28

(٨٠) كانتور : المرجع السابق ق١ ص ٣٤٠

(81) Robinson : An Introduction to the Hist. of Western Europe, V. I, p. 127 (Boston 1934)

(82) Heer : op. cit. p. 32

الصفة الوراثية للأرض التى حازوها من سيدهم،وعلى الرغم من أنه من الناحية الفنية لم يكن الإقطاع وراثياً، وكان يؤول إلى السيد بعد موت الفصل . فإنه بمنتصف القرن العاشر صار الإقطاع وراثياً بالفعل(٨٣) . كما نجح الأمراء الاقطاعيون فى القرن التاسع فى أن ينتزعوا من الملكية الضعيفة حق جمع الضرائب وعقد المحاكمات فى القضايا الهامة، وخول لهم شنق المجرمين فى دوقياتهم وكونتياتهم(٨٤) .

وليس من شك فى ان الخدمة – لاسيما الخدمة العسكرية – هى السبب المباشر لمنح الإقطاع وأنها أهم واجبات التابع نحو سيده(٨٥)، فإذا لم يقدم التابع لسيده الخدمة المطلوبة أو لم يؤدها كما يجب، اختفى المبرر، وجاز حينئذ استرداد الإقطاع منه ومصادرته. وهكذا تتضح العلاقة بين العامل الشخصى فى التبعية وعامل الحيازة فى العلاقات الإقطاعية(٨٦) . والدليل على ذلك أن لويس التقى حين نصب ابنه الأكبر شارل فى حياته على الإقليم الواقع بين فريزيا ونهر السين، حتم على الكونتات وأتباع الملك والاساقفة الذين حصلوا على اقطاعات بهذه الجهات أن ينتموا إليه ويقسموا له يمين الإخلاص(٨٧).

وبطبيعة الحال كانت حقوق السادة الإقطاعيين هى فى حقيقتها التزامات وواجبات على الأفصال والأتباع يؤدونها فى حدود ما قضى به العرف الاقطاعى، فجوهر الإقطاع هو مفهوم الحقوق والواجبات المتبادلة(٨٨). وقد اختلفت هذه الالتزامات وتنوعت فكان منها بالاضافة

---

(٨٣) كانتور : المرجع السابق ق١ ص ٣٣٨
(٨٤) كانتور : نفسه ق١ ص ٣٣٨ – ٣٣٩

(85) Heer : op. cit. p. 31
(86) Ganshof : op. cit. p. xv1
(87) Ibid. p. 98

(٨٨) هلستر : أوربا ص ١٤٦

إلى الإلتزامات الحربية ، التزامات مالية وثالثه اجتماعية ،نهض بها الأتباع نظير ما حصلوا عليه من الحماية . فإذا كان واجب السيد الإقطاعي حماية فصله وتأمين أرضه ، فإن من حقوقه عليه أن يؤدى الفصل الخدمة العسكرية المشار إليها آنفاً Servitium Militis لسيده[٨٩]، وهكذا كان الأفصال يهرعون لساندة أميرهم إذا طلب منهم ذلك ، أى أن المقطع كان ملزماً بتقديم الخدمة الحربية[٩٠]، فحينما يخطط السيد للقيام بحملة عسكرية فعلى كل الداخلين فى هذا النظام والتابعين لهذا السيد، أن يتجمعوا تحت قيادة سيدهم وقائدهم فى الحرب ومعهم كل متطلبات ولوازم الحرب[٩١]، فى حين يقوم الأمير الإقطاعي على رأس عدد من الفرسان ليساند الملك إذا دعاه لذلك .

وكانت لهذه الأمور خطورتها بسبب التزام التابع بتقديم خدمات عسكرية لسيده مباشرة، حتى ولو استغل ذلك فى حرب خاصة أو وجهها ضد الملك ذاته. وإذا لم يكن قد جرى فى البداية تحديد الخدمة العسكرية أو تقييدها، فإن الأمر تدرج نحو ذلك بمرور الوقت والتفرقة بين ما يشنه السيد الإقطاعي من حرب هجومية أو حرب دفاعية ، وفى الحالة الأولى جرى تحديد التزامات الأتباع تجاه سيدهم كثيراً[٩٢]، كما جرى تحديد مدة هذه الخدمة العسكرية بحيث لاتتجاوز أربعين يوماً فى السنة[٩٣] .

ويرتبط بالخدمة العسكرية التى يؤديها الفصل لسيده، مايعرف

---

(89) Thompson : op. cit. v. 2, p. 702

(٩٠) هلستر: نفسه ص ١٤٦

(91) Rowling : op. cit. pp. 18-19

(92) Ganshof : op. cit. pp. 90-91

(٩٣) كانتور : المرجع السابق ق١ ص ٣٤٠

بالحصون الإقطاعية التى بدأ ظهورها وانتشارها فى غرب أوربا فى القرن العاشر الميلادى، ويتركز جانب كبير من سلطة وقوة السيد الإقطاعى فى قلعته، فخلف أسوارها وحوائطها كان يمكنه أن يستقبل الوافدين عليه، ويعقد مجالسه ويحاكم الخاضعين له[٩٤] . وغدا لكل أمير إقطاعى تقريباً فى القرن الحادى عشر قلعة على الأقل يناط بأفصاله التناوب على حمايتها وحراستها على مدار السنة، وتراوحت المدة التى كان يقضيها الفصل فى حراسة قلعة سيده بين ثلاثين يوماً وأربعين يوماً فى السنة[٩٥] . فإذا لم يف الفصل بقسم الولاء الذى قطعه على نفسه لسيده، كان يتعرض لأن ينتزع منه إقطاعه بعد محاكمته فى محكمة سيده . أما إذا تصرف السيد تجاه فصله على وجه غير لائق، يكون للفصل حق التحلل من الرابطة الإقطاعية، وعادة ما يكون بتكسير السنبلة الرمزية أو السكين الرمزى الذى كان يعنى انتقال الإقطاع إليه[٩٦] .

هذا فيما يتعلق بالالتزامات الحربية، أما ما يتعلق بالواجبات الاجتماعية، فمنه ما فرضته طبيعة العلاقات الإقطاعية بين السيد وأتباعه، فكان على الفصل أن يتكفل بنفقته الخاصة فى الحضور إلى مقر الأمير الإقطاعى عندما يطلب منه ذلك، حين يعن أمر يحتم اللقاء، وكثيراً ما كانت تعن مثل هذه الأمور التى تقضى التشاور[٩٧] : كأن يأخذ السيد الإقطاعى رأى أفصاله فى شن حرب هجومية أو المشاركة فى حملة صليبية ، وحتى فى اختيار زوجة له أو لأحد ابنائه ، أو زوجاً لأحدى بناته ، ومن ناحية أخرى كان يتحتم على

---

(94) Keen : op. cit. p. 42

(95) Ganshof : op. cit. pp. 80 -81

(٩٦) كانتور : المرج السابق ق١ ص ٣٤٠ -٣٤١

(97) Stephenson : op. cit. pp. 30 - 31

الفصل أن يستطلع رأى سيده فى كثير من الأمور، فحيث أنه يمكن انتقال جزء أو جانب من الإقطاع الخاص به إلى زوج ابنته، فإنه كان يتحتم عليه أن يأخذ رأى السيد قبل أن يقدم على زواج ابنته، وإذا توفى الفصل وترك ابناً قاصراً أو بنتاً لم تتزوج، ففى هذه الحالة يعين السيد الإقطاعى أحد أقارب المتوفى للوصاية على الإقطاع[٩٨]، وأحياناً كان يقوم هو نفسه بهذه المهمة، أى أنه احتفظ بحق الإشراف واستثمار الإقطاع فى حالة وجود قاصر[٩٩]، حتى يبلغ ابن المتوفى سن الرشد أو تصبح الإبنة فى سن الزواج، فيزوجها ممن يستطيع أن يؤدى الالتزامات المفروضة على الإقطاع، أما إذا توفى الفصل ولم يعقب، فإن إقطاعه فى هذه الحالة يؤول إلى السيد بطريق الإرث، لأن صاحب الإقطاع فى هذه الحالة كان يمارس سلطة الرفض إذا ما رغبت أرملة حائز الاقطاع فى الزواج[١٠٠] . وهناك أمثلة متعددة لهذه الحالة فى تاريخ الإقطاع فى أوربا فى تلك الفترة[١٠١] .

فإذا توفى الفصل دون عقب أو قصر فى أداء الخدمة أو فشل فى أدائها، يمكن للسيد أن يسترجع الأرض التى سبق أن منحها له، وهنا تأكيد على أنه يمكن أن يفشل الفصل فى أداء الخدمة فيحرم من أرضه[١٠٢] . وكان الفصل ملزماً أيضاً بأن يحضر إلى محكمة السيد الخاصة للمداولة فى القضايا التى قد تنشب بين أقرانه، أى بين أفصال السيد الآخريين، وأن يقدم المشورة لسيده إذا طلبها[١٠٣] . ومن

---

(٩٨) كوبلاند وفينوجرادوف : الإقطاع ص ٧٧

(٩٩) هلستر : المرجع السابق ص ١٤٦

(١٠٠) هلستر : نفسه ص ١٤٦

(101) Strayer , Munro : The Middle Ages , p. 118 (N.Y. 1942)

(102) Keen : op. cit. p. 41

(١٠٣) كانتور : المرجع السابق ق١ ص ٣٤٠

بين تلك الالتزامات الاجتماعية واجب التابع فى الانضمام إلى حاشية سيده فى جولاته فى الضيــاع، وعليـه تقديـم الخدمـة لـه فـى سـاحة القضاء إذا طلب منه ذلك[١٠٤] .

وفيما يختص بالالتزامات المالية أو المادية، فقد ألزم الفصل بأداء بعض الضرائب والمكوس لسيده، أخذت صفة الحقـوق الثابتـة للأمـراء الاقطاعيين، أى أن يقدم الأموال لسيده الاقطاعى فى مناسبات معينـه ومتنوعة[١٠٥] منهـا : ضريبـة تشبه ضريبـة الميراث أو التركـات هـى ضريبة الحلوان Relief يدفعهـا كـل وارث جديـد للإقطـاع مـن نسـل صاحب الإقطاع الراحل[١٠٦] ، أو تحصل من أمـلاك الفصـل إذا مـات دون أن يترك وريثاً بالغاً، فيقوم السيد بالوصايـة علـى أملاكـه مقـابل هذه الضريبة[١٠٧] . وفى العموم لم يكن وارث الإقطاع يستطيع أن يرث إقطاع والده ما لم يؤد ضريبة مالية لسـيده، ويقسـم قسـم الـولاء الـذى سبق أن أقسمه والده[١٠٨] .

وعليـه أن يـؤدى ايضـاً ضريبـة أخـرى هـى ضريبـة الإعانــة أو المعونة aid ، وهى أموال يدفعها الفصل لسيده فى مناسبات معينة إذا ما طلب من هذا السيد مثلاً تأدية ضريبة الحلوان للسيد الأعلـى وقصـر فى ذلك أو أعسر، فإنه يلجأ إلى أفصاله الأدنـى لجمعهـا، وفـى هـذه الحالـة تعتبر الأمـوال التـى تدفـع لـه ضريبـة إعانة أو معونة يدفعهـا

---

(١٠٤) هلستر : أوربا ص ١٤٦

(١٠٥) هلستر : نفسه ص ١٤٦

(106) Bloch : Feudal Society, p. 203 (trans. by Manyon 1962)

(١٠٧) كانتور : نفسه ق١ ص ٣٤٠

(108) Keen : op. cit. p. 41

الأفصال له ،وكذلك تدفع هـذه الضريبـة فـى مناسـبات مختلفـة[١٠٩] ، كأن يتعاون الأفصال فى دفع الفداء لإطلاق سراح سـيدهم، إذا تعـرض مرة للأسر[١١٠] ،أو للمساهمة معه فى تأهيل كبرى بناتـه أو الاحتفـال معه بتنصيب أكبر أبنائه فارساً، أو المساهمة معه فـى الإعـداد لحملـة صليبية، أو التوجه للبلاط الملكى أو غير ذلـك مـن الأمـور[١١١] ، وفـى كل الأحوال كانت هذه الأموال تدفع للسيد من أفصالـه، وفـى المقـابل كان على السيد أن يحافظ على فصله، فلم يكن من حقه أن يحـط مـن شأنه بطريقة أو بأخرى[١١٢] .

وفضـلاً عـن ذلـك كـانت هنـاك ضريبـة أخــرى هــى ضريبــة "الضيافة"، تلزم الفصل أن يكرم سـيده وحاشـيته حيثمـا حلـوا عنـده وفى أى وقت يشـاءون[١١٣] ،فيقـدم لهـم الطعـام والمـأوى والاسـتضافة لسيده وحاشيته إبان زيارتهم المتكررة الحدوث فى فترات متفاوتـة[١١٤] . ولم تكن هذه الزيارات فى البداية محددة بعدد المرات فى كل سـنة، ثم جرى بعد ذلك تحديدها بمرات معينة فى كـل سـنة تخفيفـاً علـى الأفصال وحداً لأعبائهم[١١٥] ،وعلى الرغم من أن كثيراً من هـذه النظـم ارتبطت بالإقطاع فى مرحلة اكتمال نمـوه أو علـى الأقـل ظهـرت فـى فترة نضوجه فـى المرحلـة التـى سـنتحدث عنهـا بعـد قليـل ، إلا أن كثـيراً مــن خطواتهـا ومراحلهـا تدرجـت مـع النظـم الإقطاعيـة فـى مراحلها الأولى.

---

(109) Stephenson : op. cit. pp. 30 - 31

(١١٠) هلستر : نفسه ص ١٤٦

(111) Heer : op. cit. p. 30

(١١٢) كانتور : نفسه ق١ ص ٣٤٠

(113) Ganshof : op. cit. pp. 87-92

(١١٤) هلستر : المرجع السابق ص ١٤٦

(115) Stephenson : op. cit. p. 30

ثانياً : مرحلة اكتمال نمو الإقطاع من القرن العاشر إلى القرن الثالث عشر :

إذا كانت الفترة السابقة على القرن العاشر الميلادى قد شهدت نمو الإقطاع، فإن الفترة الممتدة من القرن العاشر حتى القرن الثالث عشر الميلادى هى الفترة التى اكتمل فيها نمو النظم الإقطاعية وتطورها. ووصل الإقطاع الفرنسى مثلاً ذروته فى القرنين العاشر والحادى عشر، فقد أصبح النظام الإقطاعى استجابة منطقية لمتطلبات الدفاع المحلى واستمراراً لقدر من كان بيدهم السلطة السياسية، وحتمت ندرة الأموال منح الأرض مقابل الخدمة، بدلاً من دفع الأجور المالية، لذلك كان السيد الإقطاعى الكبير يمنح الأرض الإقطاعية إلى تابعه، ويقوم هذا بدوره بمنح قطعة من الأرض التى حصل عليها لتابع آخر أصغر، وهكذا استمرت عملية منح الاقطاعات[١١٦] تسود وتنتشر فى جهات كثيرة من أوربا فخلال تلك الفترة شاعت النظم الإقطاعية فى أوربا، بل انتقل النظام الإقطاعى عن طريق الحروب الصليبية فظهر فى مملكة بيت المقدس الصليبية والامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية[١١٧] .

وكما سبقت الإشارة أخذت العلاقة بين الفصل والسيد تتحدد بصورة أكبر من ذى قبل فى مختلف المجالات، ففيما يختص بالحقوق والواجبات، بدأت تتضح حدودها فيما يختص بالخدمة العسكرية Servitium Militis ، فأصبح لها صوراً عديدة، فيصح أن ينهض التابع بنفسه وفرسانه لأداء الخدمة ، ويصح أن يكتفى بإرسال عدد معين من الفرسان من أتباعه . وإذا كانت حراسة القلاع التى تنطوى على نوع من الخدمة الحربية قد رسخت فى هذه الفترة ، فقد

---

(١١٦) هلستر : نفسه ص ١٤٣

(117) Ostrogorsky : Hist. of the Byzantine State, p. 376

كان على التابع أن يجعل قلعته تحت تصرف السيد الأعلى إذا طلب منه ذلك[١١٨] ، ويبدو أن الأمر تدرج قرب نهاية تلك المرحلة نحو الإستعاضة عن الخدمة الحربية ببذل أموال عرفت بالبدل النقدى Scutage ،كما حدث فى انجلترا مثلاً، وربما أرتضى الملوك ذلك طالما مكنهم هذا المال من الاستعانة بالجند المأجورين[١١٩] ،الذين اعتبروا فى كثير من الأحيان أكثر إخلاصاً وأكثر طاعة من الجند الإقطاعيين، هذا بعكس ما جرى فى فرنسا وألمانيا من سيادة الخدمة الحربية ورسوخها[١٢٠] .

وتجدر الإشارة إلى ناحية هامة لابد وأنها كانت نتاج تعمق النظم الإقطاعية وازدياد نموها وتطورها، وهى تختص بالنظم القانونية والتشريع، إذ جرى العرف على أن يقوم السيد باستدعاء أفصاله للتصديق على قانون من قوانين الحكومة، أو يؤلف منهم محكمة، فلم يعد فى استطاعته أن يفرض عليهم ضريبة أو يجبى منهم مكوساً، إلا ماقرره العقد الإقطاعى، ولم يعد له سلطة تحكمية فى التشريع[١٢١]، إذ أن القانون ليس سوى العرف الشائع فى الإقليم، وكان للقضاء الإقطاعى خصائص وسمات معينة، فكانت المحاكمات تجرى عن طريق القتال، فإذا حدث نزاع على أرض أو اتهم شخص بقتل آخر، بدون إثبات أو حجة ، وكلت المحكمة الإقطاعية للمتنازعين بتسوية نزاعهما عن طريق القتال أو المبارزة[١٢٢] ؛ فإذا هزم أحدهما تعرض

(118) Ganshof: op. cit. pp. 80 -81
(119) Coulborn : Feudalism in Hist. pp. 292 -3 (Princeton 1950)
(120) Ganshof: op. cit. p. 88
(١٢١) كوبلاند وفينوجرادوف : الإقطاع ص ٨٥ – ٨٨ ، ص ٩٤
(١٢٢) كولتون : المرجع السابق ص ٤٣

للعقوبة التى ينص عليها القانون الإقطاعى[١٢٣] . وتدرج الأمر حد انتقال السلطة الحكومية والقضائية إلى كبار الأفصال الذين نقلوها بدورهم إلى أفصالهم، فتضمنت السيادة على الضياع الإقطاعية دائماً السيطرة السياسية والقضائية على سكان تلك الضياع، فاستطاع الأمراء الاقطاعيون أن ينتزعوا من الملكية الضعيفة حق عقد المحاكمات فى القضايا الهامة وسلطة شنق المجرمين فى دوقياتهم وكونتياتهم - كما سبق أن أشرنا - وجاهد السادة الإقطاعيون الأقل قدراً فى سبيل كسب بعض السلطات العامة لأنفسهم، وممارسة بعض السلطات السياسية والقضائية داخل إقطاعهم[١٢٤] ، إذ أقاموا العدل وجمعوا الضرائب دون الأخذ بعين الإعتبار للإرادة الملكية[١٢٥] .

وثمة ناحية اخرى تتعلق بالعلاقة بين السيد والتابع، فقد اكتسبت فى هذه المرحلة أبعاداً جديدة،وأضيفت إليها نواحى إنسانية أخرى،فكما أن الإلتزامات المفروضة على التابع، أكدت ضرورة حفاظه على يمين التبعية والإخلاص لسيده، فإنها حتمت على السيد فى هذه المرحلة العمل على عدم إلحاق الأذى أو الضرر بحياة تابعه أو خدش شرفه أو الإضرار بأملاكه،بل واظهار المودة والعطف نحو تابعه، وكلها جوانب أضافت إلى العلاقات الإقطاعية عمقاً ووضوحاً[١٢٦].

ويأتى بعد ذلك موضوع علاقة الكنيسة بالإقطاع أو ما يعرف بالتبعية الكنسية وحيازة الإقطاع،والأصل فى هذا الموضوع يتلخص فى

---

(123) Lea : Superstition and Force , p. 318 (Phila. 1892)

(١٢٤) كانتور : المرجع السابق ق١ ص ٣٣٩

(١٢٥) هلستر : المرجع السابق ص ١٤٢

(126) Fullbert of Charteres on the Duties of Lord and Vassal , in Med. world, by cantor , pp. 176 - 7

أنه جرى فى البداية إقطاع الكنيسة إقطاعات لتستعين بها فى مباشرة الشعائر الدينية دون أن يتحول رجال الديـن إلى أتباع يـؤدون واجـب التبعية، لأن التبعية تعتبر فى جوهرها علاقـة حربيـة، فـى حـين أن القانون الكنسى يحرم سفك الدماء . ولهذا وجه فى بداية الأمـر رجـال الدين فى الأمبراطورية الكارولنجية انتقـادات مريـرة إلى نظـام السـيادة الإقطاعية، لأنهم كانوا يعتقدون أن هذا النظام سوف يؤدى إلى انهيـار الإمبراطورية المسيحية[١٢٧] . وجـرى الحظـر فـى البدايـة علـى رجـال الدين أن يتحولوا إلى التبعية الإقطاعية، أى التحول إلى لأتبـاع يـؤدون واجب التبعية لكـن لم يلبـث رجـال الكنيسـة أن توافقـوا مـع النظـام الإجتماعى الجديد، واندمجـوا فيـه، وصـار الأسـاقفة ومقدمـو الأديـرة سادة إقطـاعيين وأفصـالاً شـأنهم فـى ذلـك شـأن النبـلاء، كمـا أنهـم اندمجوا فى شتى وجوه حياة المجتـمع الإقطـاعى، اللهـم إلا المشـاركة الشخصية فى أمور الحرب الإقطاعية[١٢٨] .

وهكذا وجدت أمثلة عديدة للتغاضى عن هذا الحظر فى القرنـين التاسع والعاشر الميلاديين، وغض الطرف عـن هـذا المنـع[١٢٩]، ثـم لم يكتـف الأسـاقفة ورجـال الأديـرة بحيـازة الإقطـاع وبـذل التبعيـة الإقطاعية، بل شاركوا أيضاً فى القتـال كبقيـة الأتبـاع، فقـد أشـادت أنشودة رولان باستشهاد رئيس الأساقفة تيرين فى ساحة القتال، ولعل ذلـك يفسـر المحـاولات التـى بذلهـا البابويـة لتخليـص الكنيسـة مـن السيطرة الدنيوية[١٣٠]، بل وبذل رجال الكنيسـة كـل مـا فـى وسـعهم لإقرار السلم فى المجتمع الإقطاعى ، ومـحاولـة إضفـاء الصيغة المثالية

(١٢٧) كانتور : المرجع السابق ق١ ص ٣٤١ – ٣٤٢

(١٢٨) كانتور : نفسه ق١ ص ٣٤١ – ٣٤٢

(١٢٩) ديفز : المرجع السابق ص ٩٢ ، ص ٩٦

(130) Durant : The Age of the Faith , p. 546

المسيحية على العلاقات الإقطاعية، فأضافوا إلى طقوس الاحتفال الذي يقوم فيه الفصل بأداء يمين الولاء لسيده فجعلوه احتفالاً دينياً، كما صاغوا الالتزامات المتبادلة بين السيد وتابعه على شكل شروط كان يفترض مسبقاً توفر مستوى حضارى وأخلاقى سام فيها[١٣١] .

وعلى الرغم من ذلك، فقد انتهى النزاع على التقليد العلمانى إلى الإتفاق على أن يكون للسيد الإقطاعى الحق فى ان يبذل الإقطاعات لرجال الدين، ومع أنه من الواجب أن يمتنع رجال الدين عن سفك الدماء والاشتراك فى الحرب، فقد جاز أن يفى بالخدمة الحربية بطرق بديلة، أو تجزئة الإقطاع، مع قيامه بأداء بقية الإلتزامات الاقطاعية من ضرائب ومساعدات وضيافة وغيرها، مع استثناءات قليلة يمكن التجاوز عنها[١٣٢] .

ومن مظاهر تطور وتعمق النظم الإقطاعية فى هذه المرحلة أيضاً، بصرف النظر عن عيوبها أو ميزاتها، ما حدث من ظهور تعدد التبعية[١٣٣] ،فحيث طغت الحيازة الإقطاعية على كل الصور والأشكال السابقة لامتلاك الأراضى، فقد كان من المستحيل على التابع أن يزيد موارد ثروته، إلا بالحصول على إقطاعات جديدة، فأصبح التابع النشط هو الذى يوفق فى بذل تبعيته لأكثر من سيد بقدر ما يحصل منهم على إقطاعات، إذ أصبح بوسع التابع الإقطاعى أن يحوز العديد من الإقطاعات من سادة إقطاعيين عديديين[١٣٤] ، وكانت هذه إحدى

---

(١٣١) كانتور : نفس المرجع ق١ ص ٣٤٢

(132) Stephenson : op. cit. pp. 237-8

(133) Heer : op. cit. p. 30- 31

(١٣٤) هلستر : المرجع السابق ص ١٤٤ .

نتائج الربط المتزايد بين التبعية الإقطاعية والإقطـاع أو حيـازة الأرض، فقد نشأ نوع من الجوع إلى الأراضى فى أوساط الأفصـال فـى المجتمـع الإقطاعى، الذى استمر على حاله الطيبة حتى القرن الثانى عشر، فقد كان الإقطاع يعتبر قبل ذلـك مكافأة لقاء الخدمـة والـولاء ، أمـا فـى المرحلة التالية فقد أخذ الأفصال يبحثون عن سادة جدد يكون بوسعهم أن يقدموا لهم الإقطاعات، حتى أولئك الذين كانوا يملكـون إقطاعـات بالفعل أخذوا هم أيضاً يبحثون عن امتلاك المزيد من الإقطاعـات كمـا سعوا إلى تأكيد الصفة الوراثية للأرض التى حازوهـا مـن سـيدهم علـى الرغم من أنه من الناحية الفنية لم يكـن الإقطـاع وراثيـاً(١٣٥) ، وبعبـارة أُخرى جاز أن يكون التابع تابعاً لعدد من السادة ملاك الأرض(١٣٦) .

وأدى ذلك فى القرن الثانى عشر إلى التفرقـة بـين الـولاء للسـيد والتبعيـة العاديـة ، فـالولاء لايبـذل إلا للسـيد الأول ويحـدد إلتزامـات التابع نحو سيده، أى أن التـابع كـان يديـن بـالولاء لصـاحب الأرض الأول، الذى يتبعـه مباشـرة وهـو الشـخص الـذى اسـتمد منـه الأرض رأساً، على الرغم من أنه يمكن أن يكون له سـادة عديـدون(١٣٧) . أمـا النوع الثانى من التبعيـة فيجـوز أن يبـذل لسادة عديديـن للوفـاء بمـا تتطلبه الإقطاعات من التزامات، وبمـرور الوقـت تطـور الأمـر بالنسبة لأولئك الذين اضطروا إلى أن يصبحوا أفصالاً لاثنين أو أكثر من السـادة الإقطاعيين بسبب جوعهم للأرض ورغبتهم فى الحصول على إقطاعات إضافية(١٣٨) ، فإذا تمكـن أحد السادة الإقطاعيين أن يؤكد حقوقه على

---

(١٣٥) كانتور : المرجع السابق ق١ ص ٣٣٨
(١٣٦) كولتون : عالم العصور الوسطى ص ٤٣
(١٣٧) كولتون : المرجع السابق ص ٤٣
(138) Heer : op. cit. p. 31

هؤلاء الأفصال، كسيد أعلى حلت المسألة برمتها، أما إذا لم يستطع واضطر السيدان الإقطاعيان الذى يتبع الفصل لكل منهما، إلى قتال بعضهما لبعض، وطلب كل منهما من الفصل أن يسهم فى القتال إلى جانبه، فإن الفصل كان عادة ينضم إلى السيد الذى يرجح فوزه حتى يتخلص الفصل بذلك من ورطته[١٣٩] . ومع هذا فقد ظل الجانب الأكبر من نظام التبعية التقليدى أو القديم هو البارز، حتى نهاية العصور الوسطى[١٤٠] .

جانب من حياة المجتمع الأوربى فى ظل النظم الإقطاعية :

ا - المجتمع الحربى :

كان من نتائج رسوخ النظم الإقطاعية وتطورها، أن تميزت الطبقة الإقطاعية وبرزت مكانتها وأضاف إلى مميزاتها قيامها بمهمة الحرب وممارسة القتال، فقد كانت طبقة الفرسان ثمرة لنظام إجتماعى قديم، كما كانت تتمتع بامتيازات عظيمة، وتوكل إليها مسؤليات خطيرة[١٤١] . ومن دراسة نظام الفروسية فى العصور الوسطى يمكن فهم دور هذه الطبقة فى المجتمع الأوربى الوسيط[١٤٢] .

فقد جرت العادة أن يؤخذ أبناء هذه الطبقة فى سن السابعة أو الثامنة إلى دار الأمير الإقطاعى الذى هو فى أغلب الأحيان السيد الإقطاعى لوالد الطفل ، حيث ينشأ الصبى تنشئة حربية

---

(١٣٩) كانتور : المرجع السابق ق١ ص ٣٤١

(140) Ganshof: op. cit. pp. 151-2

(١٤١) كولتون : المرجع السابق ص ١٣٦- ١٣٧ وانظر أيضاً :

Coulton : Social life in Britain , p. 28 ,

Seidlmayer:Currents of Med.Thought, pp.80-3(tr.Barker)

(142) James : Hist. of Chivalry , p. 14 (London 1830)

خاصة، فيتعلم استعمال الأسلحة ، وأدوات الحرب كالدروع والتروس وركوب الخيل ويتدرب عليها[١٤٣] ، ويحيى حياة خشنة تعده مستقبلاً لحياة الفروسية، وأحياناً كان ينتقل ليعمل مساعداً لأحد الفرسان، حيث يتمرس على أنواع القتال ويتلقى فنون الحرب[١٤٤] ، وعندما يبلغ سن العشرين أو الحادية والعشرين ويثبت أنه غدا مستعداً لمباشرة الحرب ويثبت تفوقاً في ذلك، يجرى تدشينه فارساً في احتفال مهيب، حيث يركع متقلداً أسلحته أمام فارس مجرب، يتلقى منه ضربة خفيفة على كتفه رمزاً لتنصيبه فارساً، ومتى تقلد الشاب سلاحه، وتلقى تلك الضربة، أضحى فارساً كاملاً[١٤٥] .

ويبدو أن المغالاة في هذه الطقوس - التى ارتبطت في أذهان العامة غالباً بالاقطاع - غدت في حقيقة أمرها نتاجاً لمرحلة التدهور في النظام الاقطاعي، لأنها أصبحت الوسائل التى حاولت الطبقة الإقطاعية من خلالها أن تحافظ على مكانتها في المجتمع[١٤٦] . وكان لابد للفرسان أن يتحلوا بمستوى معين من الأخلاق والسلوك في علاقاتهم بعضهم مع بعض، دون أن يعني ذلك التزامهم بهذه المعاملة تجاه غيرهم من الطبقات الأخرى، فينبغي أن يتصف الفارس بالشجاعة التى تصل لحد التهور، وأكد ذلك ما جاء في كتابات كل من جوانفيل في مذكراته عن القديس لويس، وكذلك فرواسار في حوليته . فقد أكبر جوانفيل شجاعة سيده الملك لويس التاسع في القتال وثباته الملفت للأنظار الذى لم يزايله حتى عندما كان أسيراً في

---

(١٤٣) هلستر : أوربا ص ١٤٢

(144) Stephenson : op. cit. p. 45

(145) Ibid. p. 48

(١٤٦) كانتور : المرجع السابق ق٢ ص ٧٢٨

أيدى المسلمين[١٤٧] . وعلى الفارس أيضاً أن يقاتل طبقاً لأساليب خاصة قائمة على الشرف، لاتنحدر إلى حد الخديعة أو تهبط إلى مستوى الأساليب الرخيصة لتحقيق هزيمة الخصم، وأيضاً ينبغى أن يتحلى الفارس بالوفاء والاخلاص لأصدقائه وزملائه، واحترام الوعود والبعد عن نكث العهود[١٤٨]، ومعاملة المهزوم معاملة إنسانية ، واحترام المرأة وتبجيلها[١٤٩] .

وقد أمدتنا أغانى المآثر وأشعار الملاحم بصور متعددة من حياة الفرسان والنبلاء الإقطاعيين فى العصور الوسطى، ومن أمثلة ذلك أغنية رولان التى دونها قسيس نورمانى من وحى الحروب بين المسيحيين والمسلمين فى أسبانيا أواخر القرن الحادى عشر الميلادى، والتى تدور حول شخصية رولان الذى خر صريعاً فى ممرات البرانس أثناء عودة شارلمان من حملته على أسبانيا، فقد أبرزت هذه الأغنية رولان فى صورة البطل الصليبى المدافع عن المسيحية كلها، وأهم ما فى هذه الأغنية هو معالجتها التبعية الإقطاعية والنظم الإقطاعية فى تلك العصور[١٥٠] . وهكذا كان المحاربون مثلما كانوا فى كل مجتمع، حتى البدائى منه، ذخراً ثميناً تعتز به الدولة ومن ثم لم يكن بد من استرضائهم حتى لقد كان لهم فى بعض الأحيان نصيب فى تدبير السياسة[١٥١] .

---

(147) Joinville : Hist. de Saint Louis , pp. 2-4

وانظر أيضاً : كولتون : المرجع السابق ص ١٣٠ – ١٣١

(١٤٨) ديغز : أوربا فى العصور الوسطى ص ١٠٥

(١٤٩) ديغز : نفسه ص ١٠٦

(150) Song of Roland, trans. D.Sayers, pp. 7-29(Mid. 1957)

(١٥١) موس : ميلاد العصور الوسطى ص ٣٨٤ (مترجم)

وكان الفارس يلبس رداء حرب بسيط غير ذى تعقيد يهدف إلى حمايته أثناء النزال ، ولايعوق حركته فى نفس الوقت أو مرونته فى أداء المناورات القتالية ، فهو يكسو الجزء الأعلى من جسمه بصدرة مزردة Hauberk تتألف من حلقات متداخلة من المعدن(١٥٢) ،وهى مشقوقة طولياً من أسفلها حتى لاتعوق الفارس عن الحركة ، أو امتطاء جواده ، ويكسو الجزء الأسفل من جسمه بأربطة من القماش أو الجلد تمتد من الركبة حتى أسفل الساق ، ثم يغطى رأسه بخوذة حديدية ، مخروطية الشكل يمتد مقدمها إلى أسفل ليحمى الأنف ، ويحمل على ذراعه الأيسر درعاً مستطيلاً يتقى به الضربات والطعنات(١٥٣) . أما الأسلحة التى يستخدمها الفارس فأهمها ، سيف صليبى المقبض ، ثم حربة يمسكها الفارس بيده اليمنى طولها ثمانية أقدام ، فضلاً عن البلطة التى استخدمت بنوع ما فى فرنسا وانجلترا ، ويعد الفرس الذى يمتطيه الفارس الجهاز الأساسى للحرب ، فبدونه لايعتبر الفارس فارساً ، وهو فرس مطهم مزود بالسرج والركاب واللجام(١٥٤) .

وحيث أن هذه العدد والأسلحة تكفل جانباً كبيراً من سلامة الفارس ، فقد نشأت فكرة عدم مهاجمة الفارس قبل أن يتمكن من ارتدائها ، أى يتوفر له الوقت الكافى لارتدائها وتجهيز نفسه للقتال(١٥٥) . وترتبط هذه الفكرة بالقيم الأخلاقية لدى الطبقة الأقطاعية التى كونت أيضاً العرف الخاص باعتبار الأسير ضيفاً يحسن معاملته بل وإطلاق سراحه ليتمكن من جمع فديته ، ثم العودة إذا لم يوفق فى

(152) Camb. Med. Hist. V. 6, p. 808

(153) Stephenson : Med. Feudalism , p. 64

(١٥٤) عاشور : أوربا فى العصور الوسطى ج٢ ص ٢٧٨ (ط ١٩٧٦)

(155) Stephenson : op. cit. p. 45

جمعها، وأحياناً كان يطلب منه تقديم رهينة هى فى الغالب ابناً له أو ابن أخ له حتى يؤدى الفدية المقررة عليه، ومنها أيضاً ما كان ينبغى أن يتحلى به الفارس من فضيلة الكرم والسخاء والجود والعطاء، ولازالت القصص والملاحم المختلفة تتحدث عن ذلك[١٥٦] .

ونظراً لأن الصفة التى كانت غالبة على هذا المجتمع هى القتال وممارسة الحرب الإقطاعية، فقد حاولت الكنيسة أن تحد من تلك الحروب، وأن تحول جهود الفرسان إلى ما اعتبرته أكثر نفعاً وفائدة، فبذلت الكنيسة كل ما فى طاقتها لمحاولة حصر نطاق الحرب فى المجتمع الإقطاعى خلال القرن الحادى عشر بصفة خاصة[١٥٧]، إذ قررت الكنيسة مايعرف بهدنة الله، والسلام اللإلهى Pax Dei و Treaga Dei ،وهى الفترات التى يتحتم فيها تحريم القتال، وفرضت على النبلاء الإقطاعيين أن يكونوا جماعات لحفظ السلام، وأن يعدوا بعدم القتال فى أيام معينة[١٥٨] . ويبدو أن رجال الكنيسة كانوا قد نزعوا إلى فكرة تحويل نشاط الفرسان إلى قتال المسلمين، وفى القرن الثانى عشر راح الكتّاب الكنسيون يحاولون تنمية فكرة الكنيسة عن الفارس المثالى المسيحى الورع الهادف إلى حماية الكنيسة المدافع عن عقيدتها، الذى ينكر الجرائم ويرعى الضعفاء، وأخذ رجال الكنيسة فى تشجيع استخدام الطقوس الدينية فى احتفالات تنصيب الفرسان وتدشينهم كما سبق أن ذكرنا[١٥٩] .

---

(156) Haskins : op. cit. p. 39
Trevelyan : Hist. of England , p. 75

(١٥٧) كانتور : المرجع السابق ق١ ص ٣٤٢

(١٥٨) كانتور : نفسه ق١ ص ٣٤٢

(159) Williamson : From Feudalism to Despotism, p. 36
(London 1925)، وانظر أيضاً :ديفز :المرجع السابق ص ١٠٢ -١٠٣

ب - بعض جوانب الحياة السلمية فى المجتمع الإقطاعى :

على الرغم من كل هذه المظاهر المميزة للطبقة الإقطاعية فى أوربا فى العصور الوسطى، إلا أنه من الثابت أن هذه الطبقة، لم تأخذ فى الإقتراب من حياة الترف إلا عند إحياء التجارة، فالقلاع التى كان يملكها النبلاء الإقطاعيون، كانت فى أغلبها مبنية من الأخشاب وفروع الأشجار، وحتى القرن الثالث عشر لم تكن أى قلعة تزيد عن حجرتين إلا نادراً، يباشر السيد أعماله فى قاعة منها، ويستقبل فيها ضيوفه وأتباعه، ويعقد فيها محاكماته[١٦٠] ،ويتاول فيها هو وأسرته وحاشيته الطعام على موائد مختلفة، وفى الليل تستخدم هذه الموائد أسرة للحاشية والضيوف، وتخصص الحجرة الأخرى للسيد وزوجته وأطفالهما . ولقد كانت هذه القلاع والحصون فى أول أمرها ملاذاً ومأوى من الأعداء والبرابرة[١٦١] ،لكنها غدت بمرور الوقت مقر السيد وحاميته، ومنذ القرن الثالث عشر جرى بناؤها من الكتل الحجرية، لتصمد فى وجه الأعداء، وعلى هذا فقد غدت هذه الحصون مسرحاً لجانب كبير من النشاط الإجتماعى لطبقة الفرسان فى العصور الوسطى، ومقراً للأمراء الإقطاعيين. ومن ثم فقد جرى تصميمها أوسع وأرحب وتعددت طوابقها[١٦٢] ، فخصص الطابق الأسفل كمخازن للمؤن والأسلحة والعتاد الثقيل والأوسط منزلاً لإقامة السيد وأسرته، أما الطابق الأعلى فخصص لقذف السهام والدفاع، إذا تعرضت القلعة للهجوم، وحوت القلعة أيضاً كنيسة صغيرة ومطبخاً للطعام وحجراً منفصلة، هذا بخلاف ما كان يمتلكه السيد الإقطاعى من بيت ريفى أو دوار فى ضياعه التى كان يتنقل بينها فى وقت السلم[١٦٣] .

---

(160) Keen : op. cit. p. 42

(١٦١) كوبلاند وفينوجرادوف : الإقطاع ص ٣١

(162) Stephenson : Med. Feudalism, p. 70

(163) Cantor : Manorial life in Med. world, pp. 186 - 7

وعلى الرغم مما كانت تحفل به مـآدب النبلاء الإقطاعيين من أنواع الطعام، فإنها لم تكن أطعمة منوعة، إذ تألفت من الطيور والحيوانات التى كان يصيدها السيد الإقطاعى، مضافاً إليها الخبز وكميات النبيذ، هذا فضلاً عن الأسماك والبيض والجبن، أما التوابل المستوردة من الشرق، فلم تكن متوفرة إلا على موائد كبار الأمراء[١٦٤]. وخلاصة القول فى ذلك أن طعام السادة الإقطاعيين اقتصر على ما يحصل عليه كل منهم من عمله فى الصيد ومن موارد أرضه.

ولقد شغل الأمراء أوقاتهم أيام السلم بالتلهى بالصيد والتنقل بين الضياع أو قضاء أوقاتهم فى منازلهم وقلاعهم، يعاقرون الخمر ويلعبون الميسر أو يلعبون الشطرنج، إلى غير ذلك من وسائل التسلية[١٦٥].

ج – مركز المرأة فى ظل النظم الإقطاعية :

أما بالنسبة للمرأة فقد كان مركزها ثانوياً فى ذلك المجتمع، فكانت دائماً فى رعاية رجل سواء كان أباها أو زوجها، أما الأرملة فتعتبر فى حماية سيدها او ابنها الأكبر، ولم يكن للمرأة شيء من الحقوق إزاء زوجها. حقيقة كانت تستطيع أن ترث إقطاعاً، ولكنها لم تكن تديره إلا بواسطة زوجها، ولم تكن تصبح سيدة القلعة أو الإقطاع إلا فى حالة غياب الزوج إذ تصبح الحاشية والأتباع والموظفون طائعين لها[١٦٦].

---

(164) Ibid. p. 268

(١٦٥) كوبلاند وفينوجرادوف : نفسه ص ٣٢ – ٣٣

(166) Stephenson : op. cit. p. 268

ويبدو أن هذه المنزلة الثانوية التى احتلتها المرأة ، نبعت من إحساس ذلك المجتمع أن الوظيفة الرئيسية للنبلاء الإقطاييين هى الحرب، التى لاتستطيع المرأة ممارستها . وعلى الرعم من أن الطبقة الإقطاعية هى التى ساعدت على نمو فكرة تبجيل المرأة فى تلك العصور، الأمر الذى تعكسه جيداً أشعار التروبادور التى تحدثت عما كان يستهوى الرجل فى المرأة من جمال ورقة وحب، ففى أغنيات التروبادور تتم مخاطبة السيدات بأسلوب رقيق عاطفى لم يكن يعرفه السادة الافظاظ فى العصور الوسطى الباكرة(١٦٧). فشعراء التروبادور في فرنسا وألمانيا الذين جعلوا من حب وتبجيل المرأة موضوع شعرهم الرئيسى، هدفوا أيضاً من رفع عواطفهم للطبقة العليا فى المجتمع على أن يكون ذلك باسم وبأمر الفروسية وطبقاً لقواعدها وقوانينها(١٦٨). إلا أن المرأة مع ذلك لم تحظ بأية حقوق لدى زوجها، وحتى فى حالة غيابه أو أسره، فإن ما مارسته من حقوق هى في الواقع حقوق الزوج تجاه الغير، وليست حقوقها هى تجاه زوجها(١٦٩) .

وباشرت نساء السادة الإقطاعيين الإشراف على منزل السيد وصناعة الجعة والنبيذ والإشتغال ببعض الحرف لاسيما أولئك الأرامل والعوانس من النساء، فضلاً عما لقيته الحياة الديرية من إقبال لدى بعض النساء(١٧٠) ، أما نساء المدينة، فقد مارسن الغزل والنسيج والحياكة . أما زوجات الفلاحين والأقنان، فقد عشن حياة بالغة القسوة شاركن فيها أزواجهن فى العمل والكفاح من أجل لقمة العيش

---

(١٦٧) كانتور : التاريخ الوسيط ج٢ ص ٥٦٨ – ٥٦٩

(168) Rowling : op. cit. p. 95

(١٦٩) سعيد عبد الفتاح عاشور : أوربا ج٢ ص ٢٩٨

(١٧٠) ديفز : المرجع السابق ص ١٠٦

فكانت المرأة تعمل فى حز أصواف الأغنام وغزلها ونسجها وتربية الدواجن وصناعة مستخرجات الألبان، فضلاً عن تربية الأولاد وخارج المنزل عملت فى قطع الأعشاب وجمع الحطب[١٧١]، وبناء الأكواخ وجمع المحصول وتخزينه . وهكذا لم تنعم بالراحة التى كفلت لنساء الطبقة الأخرى الإقطاعية[١٧٢]، أى أنها كانت تكد وتشقى بين رعاية وتربية الأطفال، وتقوم بتغذية الدجاج وتجمع بيضها وترعى قطعان الخنازير، وتعنى بأشجار الكروم وتغزل وتنسج، وتفصل الملابس الوطنية وتصبغها وتفصل كذلك العباءات وأغطية الرأس للناس ثم لنفسها وبناتها[١٧٣] .

د – المجتمع الزراعى ونظام الضياع :

تعتبر الطبقة الثالثة من طبقات المجتمع ، وهى طبقة الفلاحين فى المجتمع الأوربى فى العصور الوسطى ، أكثر عناصر السكان من الناحية العددية، وأحطها قدراً من ناحية المنزلة الإجتماعية، وتتكون أساساً من العبيد Slaves ، وهم الطبقة القديمة التى تضافرت عوامل مختلفة فى أوربا القديمة والوسيطة وساعدت على ظهورها واتساعها، ثم طبقة الأقنان Serfs ،الذين قيل أن غالبيتهم يرجعون إلى أصل حر، ثم دفعت بهم ظروف خاصة ليفقدوا حريتهم ويصبحوا أقناناً، ويمثلون جانباً من طبقة الفلاحين العريضة[١٧٤] . ولقد دار الجدل حول القنية والأقنان والفروق البسيطة بينهم وبين العبيد وسادت آراء بأنهم جانب من السكان الأحرار الذين التمسوا الحماية من أسياد الاقطاع فى ظل

---

(171) Rowling : op. cit. pp. 23-4
(172) Cantor : Manorial Life in Med. world, p. 190
(173) Rowling : op. cit. p. 24
(١٧٤) كوبلاند وفينوجرادوف : الإقطاع ص ١١٤ – ١١٥

الأخطار التى هددت أوربا فى ذلك الوقت، واضطراب الأحوال وانعدام الأمن لاسيما فى القرن التاسع الميلادى، ففقدوا حريتهم ونزلوا إلى مرتبة العبيد، غير أن الفارق الواضح بينهم وبين العبيد أنهم كانوا مرتبطين بالأرض(١٧٥).

على أنه جرى اعتبار الرجل غير الحر عبداً أو قناً، ولم تكن ثمة فروق بين وضع الفلاح الانجليزى والقن الفرنسى، إلا فى ظل الملكية القوية فى انجلترا، مثلاً التى تولت حماية حقوق الفلاح الانجليزى(١٧٦). وهكذا تفاوت المزارعون أنفسهم ما بين عبيد وأحرار على الرغم من أن الغالبية العظمى منهم فيما بين القرنين التاسع والعاشر، شغلوا حالة متوسطة بين هؤلاء وهؤلاء وجاءوا فيما بين الجانبين وعرفوا بالأقنان الذين ارتبطوا بالأرض(١٧٧). ولقد عدد المؤرخون مختلف الأسباب التى أدت بالرجال الأحرار إلى الرق والقنية منها : أن يكونوا قد طلبوا للخدمة فى الحرب فرفضوا فعوقبوا بإنزالهم إلى مرتبة القنية . أو ربما كانوا قد وهبوا أنفسهم للكنيسة، وربما اضطروا إلى بيع أنفسهم إلى أحد السادة عند الافتقار وربما سلموا أنفسهم لرجل أقوى يحميهم ضد طغيان طاغية قوى(١٧٨).

وكما شهد القرن التاسع وكذلك القرن العاشر نمو النظم الإقطاعية وتطورها واتساع قاعدة طبقة الفلاحين من العبيد والأقنان ، فإنه

---

(175) Stenton : English Society in the early Middle Ages , p. 142 (Mid 1955)

(176) Camb. Med. Hist. v. 7, pp. 719- 720

(١٧٧) هلستر : أوربا ص ١٤٧ ،
عاشور : أوربا ج٢ ص ٢٩٤

(١٧٨) كولتون : عالم العصور الوسطى ص ٨٠

شهدا أيضاً نمو نظام الضيعة **Manorial Regime** وتحديد شكلها وهو النظام المرتبط بالإقطاع من ناحية والظروف الزراعية وطبقة الفلاحين من ناحية أخرى، ليصبح هذا النظام أساس الحياة الإقتصادية فى أوربا فى العصور الوسطى فى ظل تدهور مكانة المدن وضعف التجارة(١٧٩) . ويقوم نظام الضيعة على مبدأ الإكتفاء الذاتى فى انتاج المواد الغذائية التى تفى بحاجة سكانها، وكذلك انتاج الصناعات الصغيرة اللازمة لأولئك السكان من المنسوجات والجلود والسروج والنعال وما يتصل بالأخشاب وصناعتها(١٨٠)، فضلاً عن أنها كانت وحدة اجتماعية ودينية متكاملة فلها حفلاتها الاجتماعية فى الزواج والأعياد والمناسبات المختلفة، ولها أيضاً كنيستها الصغيرة وقسيسها، ولهذا لم تكن بحاجة إلى تبادل تجارى حتى القرن الثانى عشر على الأقل أو قيام أسواق قروية كبرى للمنتجات القروية(١٨١) . وترتب على طريقة الاكتفاء الذاتى هذه أن نشأت عزلة عاش فيها الريف فى القرون الوسطى، فربما قضى الناس حياتهم داخل القرية دون أن يشاهدوا من الخلق إلا القليل فيما جاوز حدود قريتهم، ففيما عدا المارة والزائرين المؤقتين كان الناس يعيشون فى القرية من المهد إلى اللحد(١٨٢) .

على أنه يجب ملاحظة أن الضيعة لم تكن بالضرورة تعنى قرية بزمامها أى قرية يملك أرضها سيد إقطاعى واحد وتسودها النظم الإقطاعية المعروفة، ففى حالات مختلفة كانت قرية واحدة يملكها أكثر من سيد ، فكثيراً ما ضمت قرية واحدة إقطاعيتين أو أكثر(١٨٣)

---

(179) Thompson : op. cit. V. 2, p. 722
(180) Rowling : op. cit. pp. 20 - 23
(181) Camb. Med. Hist. V. 3, p. 473

(١٨٢) كولتون : نفسه ص ٩١
(١٨٣) كولتون : نفسه ص ٧٨ ، عاشور : المرجع السابق ج٢ ص ٢٨٥

يملك كل واحدة منهما سيد، وكل يعتبر وحدته ضيعة قائمة بذاتها، وعلى العكس كانت هناك ضيعة لسيد واحد تشمل عدة قرى، وإذا كان السيد الإقطاعى يملك ضيعة واحدة، فقد جرت العادة أن يقيم بها، وإذا كان له أكثر من ضيعة، فإنه يقيم فى إحداها، وينيب عنه وكلاء فى الضياع الأخرى، ويسمى مجموع الضياع التى يملكها السيد الإقطاعى " الدومين" [(١٨٤)] .

وعاش فلاحوا هذا المجتمع الزراعى عيشة تعيسة بحكم كونهم من العبيد والأقنان الذين لايملكون شيئاً أو يستطيعون التصرف فى شىء، لأن القن لم يكن له من ريع سوى ما يلتقطه من الأرض بكده وعرق جبينه[(١٨٥)]، فقد سكنوا أكواخاً حقيرة بنوها بأنفسهم من فروع الأشجار وجذوعها وأحياناً كان يتجمع فى هذه البيوت الخشبية عدد من أولئك المزارعين يعيشون معاً ويشتركون معاً فى خدمة السيد الإقطاعى[(١٨٦)] . وقد خلت هذه الأكواخ من كل مظهر من مظاهر الراحة أو النعمة أو المستوى الصحى المطلوب، أثاثها حقير وليس لها نوافذ وهى مكسوة بالطين والقش، مما عرض هذه الفئة للأمراض والأوبئة، ويشغل الرجال أنفسهم بالعمل من شروق الشمس حتى غروبها[(١٨٧)] ، بينما تقوم النساء بصنع الطعام وغزل الصوف وصناعة ما يحتاجون إليه ولايستطيع القن أن يدعى لنفسه أية ملكية شخصية – كما أسلفنا – لأن كل ما لديه يعد خاصاً للسيد الإقطاعى ، بينما قنع القن

---

(184) Strayer, Munro : The Middle Ages 395-1500 , p. 110 (N.Y. 1942)

(١٨٥) كولتون : المرجع السابق ص ٧٨

(186) Rowling : op. cit. p. 23

(187) Thompson : op. cit. , V. 2, p. 723

بالحد الأدنى فى كل شىء، ولم يكن باستطاعته الشكوى[١٨٨] . لكن السيد الإقطاعى لايستطيع فى نفس الوقت أن يتصرف فى القن بالبيع أو الضرب الجسمانى دون ذنب أو محاكمة، ولعل وراء القول بأن القن لم يكن عبداً بما تعنيه الكلمة من معنى دقيق فيه جانب من الحقيقة، لأنه كان بين الحر والعبد، وكانت الأرض توزع بين الفلاحين بشروط وقيود خاصة[١٨٩] .

وكانت الضيعة تمثل وحدة خاصة يمثل أهلها هيئة متكاملة متعاونة تشمل بجانب الأراضى المقسمة بين فلاحيها على مراعى لرعى الماشية وأراضى كلأ وأراضى بور وغابة تمدها بالأخشاب اللازمة[١٩٠]. وتختلف هذه المراعى والغابة عن الأراضى الزراعية بأنها لم تكن مقسمة إلى حصص لأنها فى الحقيقة كانت ملكاً للسيد جرت العادة على اعتبارها حقاً مشاعاً للجميع طبقاً لشروط خاصة استحدثت لتنظيم الإستهلاك والإنتفاع[١٩١] ، أما الأراضى الزراعية فى الضيعة فتنقسم إلى ثلاثة أقسام يختص السيد الإقطاعى بملكية قسم منها فى شكل مزرعة خاصة به مساحتها الثلث ويقسم الثلثين بين الفلاحين، وكان يخص الفلاح قطعة أرض منتجة أو قطعة بور قاحلة، بقدر ما يسمح لرجل وأسرته أن يحرثوا الأرض، على وجه ملائم مع الإستعانة بثورين وكان ذلك يختلف باختلاف طبيعة الأرض نفسها فى انجلترا بالذات[١٩٢] ، واتبع الفلاحون نظام الدورة الزراعية الثلاثية فى

---

(188) Rowling : op. cit. pp. 21-7

(١٨٩) كوبلاند وفينوجرادوف : الإقطاع ص ٣٦ – ٣٧ ،

Stephenson : Med. Feudafism, pp. 255 - 6

(١٩٠) كولتون : المرجع السابق ص ٨٧

(191) Camb. Med. Hist. v. 3, p. 474

(١٩٢) كولتون : المرجع السابق ص ٧٤

الأراضى الخصبة والدورة الثنائية فى الأراضى الأقل خصوبة ونظراً لقلة إمكانات الفلاح فى أدوات الزراعة والماشية، فقد تعاون فلاحو الضيعة كلهم فى مواسم الحرث والحصاد، واشترك النساء والأطفال فى عمليات الحصاد التى كان لابد أن تتم بسرعة لتخزين الحبوب خوف الضياع[١٩٣] .

ولقد تباينت الإلتزانات والواجبات المفروضة على الفلاحين تجاه السيد الإقطاعى من مكان إلى مكان، ولكن يمكن حصرها فى ثلاثة أقسام : الأول الخدمات وتتمثل فى تسخير الأقنان فى فلاحة الأرض فى خدمة أسبوعية مفروضة، يقوم فيها الفلاحون بالخدمة أياماً معينة فى كل أسبوع[١٩٤] ، كل بحسب حصته فى الأرض التى تحت يده وعادة كانت ثلاثة أيام فى الأسبوع لحساب سيده وثلاثة أخر لنفسه، أما يوم الأحد فكان العمل فيه محرماً[١٩٥] . وأحياناً كان وكيل السيد الإقطاعى يستدعى المزارعين للقيام بأعمال إضافية مثل إسقاط الأشجار ونشر جذوعها وشقها أو إصلاح الحظائر أو الأسوار[١٩٦] . وكذلك سخرة فصلية خاصة فى مواسم جمع المحصول والحصاد برغم حاجتهم لكل جهد للعمل فى حصاد وجمع محاصيلهم . هذا فضلاً عن السخرة التى يفرضها السيد الإقطاعى على الأقنان لانشاء الطرق أو حفر الخنادق حول القلعة أو إصلاح الجسور أو غير ذلك من الأعمال المرهقة[١٩٧] .

---

(193) Thompson : op. cit. v. I, p. 727

(١٩٤) هلستر : أوربا ص ١٤٧

(١٩٥) كولتون : نفس المرجع ص ٨١

(196) Rowling ; op. cit. p. 23

(197) Camb. Med. Hist. v. 2, p. 722

أما ثانى هـذه الإلتزامـات والواجبـات المفروضـة علـى الفلاحـين فهـى المقررات، أو الضرائب مثل ضريبة الرأس Chefage ،Census ، التـى يدفعها كل قن نقداً أو عيناً وإن كان أغلبها عيناً لانقـداً(١٩٨)، وكذلـك ضريبة أخرى تسمى Champart مقدرها عشر الإنتـاج كلـه ومجموعـة أخرى من الضرائب مثل ضريبة الولاية وضريبـة الجـبن، وتدفـع هـذه الضريبة مقابل استغلال مراعـى الضيعـة، وهكـذا كـانت هـذه الطبقـة العاملة الكادحة كانت تسام الإضطهاد والقسوة عن طريق نظام ضريبـى تلقى بمقتضاه أثقل الأعباء(١٩٩)، فعلـى الفـلاح بجـانب ذلـك أن يقـدم أكواماً من جذوع الأشجار وأخشابها مقابل جمعه الأخشاب والأحطاب التى يوقد بها النار من الغابات القريبة، وعليه كذلك أن يقـدم برميـلاً كبـيراً مملـوءاً بـالخمر مقـابل حقـه فـى رعـــى خنــازيره فــى نفــس الغابات(٢٠٠) . ويلزم الفلاح أيضـاً بـأداء ضريبـة الأسمـاك التـى تدفـع مقابل السماح له بالصيد فى البركة أو النهر(٢٠١) ، فضلاً عن الكميـات الإضافية التى كان عليه تقديمها من القمح والزيت والدجاج أو البيض، حتى تعجب بعض المؤرخين من أن ذلك كله ربما لايترك فرصـة لهـذا المزارع الكادح أن يجد من الوقت والجهد ما يخصصه لزراعة أرضـه أو أن يرعى أو يخدم كرومه ومزروعاته(٢٠٢) .

أما ثالث هـذه الإلتزامـات فهـى الاحتكـارات ، فسـيد الضيعـه هو المالك الوحيد للطاحونة والفرن والمعصرة التى يتحتـم علـى الجميع

---

(١٩٨) هلستر : نفس المرجع ص ١٤٧

(١٩٩) كولتون : المرجع السابق ص ٤٧ ،

Heer : op. cit. pp. 38 - 9

(200) Rowling : op. cit. pp. 23-4

(201) Cantor : op. cit. pp. 186 - 190

(202) Rowling : op. cit. p. 24

التعامل معها نظير دفع الأجر المعين، ويعتبر من قبيل الإثم والجرم الذى يتعرض القن بسببه للعقاب والمحاكمة امتلاك طاحونة يدوية أو جهاز آخر يكون من حق السيد الإقطاعى وحده احتكاره[٢٠٣]. أى أن الأقنان كان عليهم التعامل مع هذه الأجهزة ودفع الأجر المفروض سواء رضوا أو رفضوا، حتى لتضاف هذه الإلتزامات إلى بقية الضرائب التى كان على الأقنان الرضوخ لها واعتبرت هذه ضرائب غير مباشرة .

وفضلاً عن ذلك التزم الأقنان بدفع أعباء أخرى فى حالة زواج القن من امرأة من " دومين " آخر، وفى حالة الوفاة والوراثة وانتقال حق التمتع بالأرض من فرد إلى فرد أو فلاح إلى آخر . وبلاضافة إلى هذه الحقوق الاقتصادية والمالية التى تمتع بها السيد الإقطاعى من أقنانه تضاف أيضاً الحقوق القضائية[٢٠٤]، فكان النبيل الإقطاعى يباشر جميع القضاء ويفرض العقوبات المالية على الأقنان حتى عقوبة الإعدام، وتؤل إليه أموال الغرامات والمصادرات وأملاك المحكوم عليهم بالإعدام .

هذا وإلى جانب الأقنان والعبيد فى القرية أو الضيعة، وجد أحياناً بعض الملاك الأحرار الذين يمتلكون بعض المساحات من الأراضى، فالاقطاع لم يشمل كل الإراضى الزراعية على الإطلاق، لأنه حتى فى أوج الإقطاع لم يكن كثير من الملاك مدينين بالالتزامات الإقطاعية لغيرهم ، ولم تكن تربطهم أى روابط إقطاعية[٢٠٥] ، وهؤلاء

---

(203) Strayer , Munro : op. cit. pp. 111- 120

(٢٠٤) ديفز : المرجع السابق ص ٩١

(٢٠٥) هلستر : أوربا ص ١٤٤ ،

عاشور : المرجع السابق ج٢ ص ٢٨٨

السكان الأحرار لم يلتزموا سوى بدفع بعض الرسوم الخاصة وكان لهم في نفس الوقت حرية بيع أراضيهم أو التصرف فيها . ومن أهم مميزاتهم تمتعهم بحقوق لم يتمتع بها غيرهم[٢٠٦] . فكان لهؤلاء الأمراء حقهم فى حمل السلاح وتزويج بناتهم دون الحصول على موافقة السيد الإقطاعى، وحرية وبيع وشراء المواشى حسب مصالحهم الخاصة، هذا بخلاف الأقنان الذين لم يكن من حقهم بيع الأراضى أو التصرف فيها أو أى شىء آخر[٢٠٧] .

وعند وفاة القن ورغبة أبنائه أو ورثته فى احتلال مكانه، فإن السيد الإقطاعى يقوم بفرض ضريبة عليهم نظير الإنتفاع بأرض المتوفى، فضلاً عن حقوق السيد فى إرث جانب من تلك الأراضى أو إرثها كلها إن رغب . وهكذا نخلص بأن حياة الأقنان فى أوربا فى العصور الوسطى كانت حياة شاقة تعسه خلت من كثير من الرحمة أو الشفقة فى ظل النظم الإقطاعية العاتية[٢٠٨] .

ثالثاً : مرحلة انهيار النظام الإقطاعى :

ونظراً للظروف التى أخذت تمر بها أوربا منذ أواخر القرن الحادى عشر، وبروز الحروب الصليبية وانضمام آلاف الأقنان إليها، فضلاً عن تطور المدن ونهضتها وقيام التجارة وازدهارها، بدأ نظام العبيد والأقنان يتداعى، إذ هجر كثير من الأقنان الأرض إلى المدن وإلى النشاط الصليبى فى حين أدرك نبلاء الإقطاع أن استخدام العمال المأجورين أكثر فائدة بالنسبة للإنتاج الزراعى نظراً لتحمس هؤلاء

---

(206) Ganshof: op. cit. pp. 171-2

(٢٠٧) كوبلاند وفينوجرادوف : الإقطاع ص ١٢٢

(208) Cantor: op. cit. pp. 186 - 7

العمال وقيـامهم بعملهـم بعزيمـة أقـوى، فعمـد كبـار النبـلاء إلى عتـق أقنانهم بالجملة وفق شروط خاصة[٢٠٩] .

هذا وقد ظهرت في القرن الثاني عشر حركـة تهـدف لاسـتصلاح الأراضي البور وتطهيرها، فنتج عن ذلك اتجاه كثير من الفلاحين إليها بإغراء الملاك فتحسنت أحوال المزارعين، وبدأت النظم القديمة تتداعى شيئاً فشيئاً . فضلاً عن نشاط التجار في القرن الثاني عشر – كما سيلي – واستخدام النقود على نطاق واسع كل ذلـك أغـرى المزارعـين بدفـع التزاماتهم نقداً لا عيناً ، وليس في صورة من الصور القديمة، مما أضاف إلى الظروف التقليدية تآكلاً وتغيراً، فانهارت مقومات النظم الإقطاعيـة السالفة[٢١٠] . حقيقة ظـل نظـام الأقنـان في بعـض الجهـات في القـرن الثالث عشر، إلا أن ذلك كان بصورة مصغـرة، بـدت آخـذة في الـزوال شيئاً فشيئاً[٢١١] .

وثمة تغيرات جرت داخل المجتمع الإقطاعى نفسه أدت بمـرور الوقت إلى تغير ذلك المجتمع واستجابته لما كان يجرى علـى السـاحة الأوربيـة مـن أحـداث[٢١٢] ، فلـم تعـد الحاجـة ماسـة إلى وجـود الإقطاعيين، الذين انحدروا من مراكز الحماة فى وقت ما، ثم أصبحـوا بعدئذ من أوبئة المجتمع ، وغدت مشكلة العصر السياسية هى كيف

(209) Deitz : A Political and Social Hist. of England p. 126 (N.Y. 1937)

(210) Pirenne : Med. Cities , p. 126. trans. Halsey (Prin. 1939)

(211) Langmead : English Constitutional Hist. p. 242 (London 1911)

(212) Williamson : op. cit. p. 36

يمكن الحد من أذاهم[٢١٣] . ثم جرى ثمة تغير مطرد فى حيـاة النبلاء وتنظيمهم علـى المستوى الأفقى والمستوى الرأسى على حد السواء وجرى استقطاب متزايد بين النبلاء من كبار الأرستقراطيين من جهة وأولئك الذين يقلون عنهم ثراء من جهة أخرى، وغدا السيد الإقطـاعى فى القرن الثالث عشر لاسيما فى انجلترا وفرنسا محدداً بنظم حكومية وقانونية وضريبية قوية، وأصبح شخصاً يختلف تماماً عن أولئك الذين عاشوا فـى القرن العاشر بـل وعن كثير ممن اشتركوا فى الحملة الصليبيـة الأولى[٢١٤] . وشهد القرن الثالث عشر أيضاً تطبيق طرق جديدة كان لها أثر عظيم فيما أصاب أوربا من تطور . ففى المدن الحرة فـى فرنسا وإيطاليا والأراضى المنخفضة وألمانيا نظمـت الطبقـات التجارية أنواعاً من الاتحادات التى نجحت فـى استبعاد الإقطـاعيين من المراكز الرئيسية للصناعة فـى المدن، فـأمكن فـى النهايـة اخضـاع الإقطاع للقانون[٢١٥] .

وإذا كانت الحرب هى السبب الجوهرى لوجـود النبـلاء أصلاً، ففى خلال فترة السلم الطويلة فى القرن الثـالث عشـر، لم تعـد هنـاك فرص كثيرة لاظهار المهارة العسكرية، إذ كان القرن الثـالث عشـر هـو عصر السلام الطويل المدى وهو أمر لم يتحقق علـى مـدى عـدة قـرون، فمنذ أوائل ذلك القرن حتى بداية الصراع المرير بين انجلترا وفرنسا فى تسعينات القرن الثـالث عشـر لم تنشب أيـة حـروب كـبرى فـى أوربا، فكـان لحالـة السلام هـذه نتائجهـا الهامة والمختلفة على طبقات المجتمع[٢١٦] . ثم بدأت ثورة بطيئة تأخذ مجراها فى الحياة العسكريـة

(٢١٣) ديفز : المرجع السابق ص ١٠٢

(٢١٤) كانتور : التاريخ الوسيط ق٢ ص ٧٢٤ – ٧٢٥

(٢١٥) ديفز : نفس المرجع ص ١٠٤ – ١٠٥

(٢١٦) كانتور : المرجع السابق ق٢ ص ٧٢٤

ذاتها، إذ صار الفارس المحارب المسلح الذى يمتطى صهوة جواده، أكثر كلفة بسبب تسليحه المعدنى الثقيل وتجهيزاته المتزايدة في ذلك العصر، وشكل ذلك عبئاً على الملوك الذين أرادوا أحياناً تجهيز جيوش كاملة، فاستنزفت مواردهم وجهدوا فى ذلك كثيراً، ونتيجة لذلك اضمحل تقليد جهع الأفصال الاقطاعيين، على حين تزايد الإعتماد على المرتزقة المأجورين، الذين اعتبروا في كثير من الأحيان أكثر إخلاصاً وأكثر طاعة من الجند الإقطاعيين(٢١٧) .

وعند غروب شمس القرن الثالث عشر قلت قيمة الفارس الإستراتيجية بسبب الإعتماد المتزايد على المشاة، وكان لظهور أسلحة جديدة أثره فى تضاؤل قيمة الفارس تدريجياً على مدى القرنين التاليين . وبنهاية القرن الثالث عشر كان الفارس يرقد بلا حراك إذا سقط من فوق حصانه بسبب الثقل الكبير للباسه المدرع(٢١٨) .

وبسبب عدم استطاعة الكثير من كبار النبلاء فى القرن الثالث عشر إظهار تقدمهم فى الحرب وخبرتهم العسكرية على غيرهم من فئات المجتمع، فقد أخذوا يبحثون عن وسائل اجتماعية يعبرون بها عن مكانتهم . ومع نهاية القرن الثالث عشر كانت الطبقة الأرستقراطية قد تحولت إلى فئة منغلقة على نفسها(٢١٩) . ويشير كثير من المؤرخين إلى أن طقوس الفروسية التى هي إرسال الصبى كريم المحتد فى سن السابعة أو الثامنة ليكون وصيفاً فى بيت أحد كبار

---

(217) Coulborn : op. cit. pp. 292 - 3
Ganshof : op. cit. p. 88

(٢١٨) كانتور : المرجع السابق ق٢ ص ٧٢٦ – ٧٢٧

(٢١٩) كانتور : نفسه ق٢ ص ٧٢٨

النبلاء حيث يتلقى تعليمه وتدريبه الأول ليصبح بعد ذلك فارساً ويرتدى شعار الفروسية، بعد أن يتعلم استعمال الأسلحة وأدوات الحرب كالدروع والتروس وركوب الخيل(٢٢٠) ، ويحيى حياة خشنة تعده مستقبلاً لحياة الفروسية بعد أن يتمرس على أنواع القتال ويتعلم فنون الحرب(٢٢١) ثم يجرى تدشينه فارساً فى احتفال مهيب، هذه الطقوس ومثيلاتها غدت فى مرحلة انهيار النظام الإقطاعى الوسيلة التى حاولت الطبقة الحاكمة من خلالها أن تحافظ على مكانتها السابقة، وأن تستعيض بها فى تأكيد الإمتياز الطبقى بالنسبة لغيرها من الفئات، بعد أن فقدت الفرص لإظهار مكانتها عن طريق الحرب والقتال(٢٢٢) .

نضيف إلى ذلك تغير الظروف الإقتصادية ذاتها لطبقة ملاك الأراضى، فقد وقعوا فى براثن الديون الشخصية فى الجزء الأخير من القرن الثالث عشر، وما تلاه لاسيما كبار النبلاء منهم ، لأن الإنفاق على البيت الأرستقراطى ومواصلة الحياة بإسلوب الإسراف الذى اعتاده كبار الإقطاعيين كان أمراً غير مناسب بعد أن تغيرت الظروف فى أوربا واستعر الغلاء وبدأت فترة الإزدهار فى أوربا تخبوا منذ أواخر القرن الثالث عشر، خاصة وأن حياة أولئك النبلاء أصلاً لم تصل إلى حد الترف بل كان فيها كثير من القصور(٢٢٣) ، فإذا كان كبار النبلاء قد حاولوا تقليد الملك فى إسرافه ومظاهر الفخامة التى حرصت

---

(٢٢٠) هلستر : أوربا ص ١٤٢

(221) Stephenson : op. cit. p. 45

(٢٢٢) كانتور : نفسه ق٢ ص ٧٢٨

(223) Cantor : Manorial Life in Med. world. p. 265

كوبلاند وفينوجرادوف : الإقطاع ص ٣٢ – ٣٣

عليها الملكية بسبب تعدد مصادر دخله واستغلاله للضرائب الباهظة التي كان ينفق منها ليعيش حياة الفخامة والأبهة ، فإن صغار النبلاء كانوا بدورهم يقلدون كبار الأرستقراطيين ، فدمر هؤلاء أنفسهم وهم يحاولون الحفاظ على اسلوب حياة يخرج عن نطاق إمكاناتهم[٢٢٤] .

وثمة سبب آخر لمتاعب النبلاء الإقتصادية ، تمثل في سوء استغلالهم لمواردهم، إذ لم يظهروا إلا اهتماماً قليلاً بالطريقة التي كان وكلاؤهم ونظار ضياعهم يديرون بها أملاكهم الشاسعة . فكثيراً ما قسى أولئك الوكلاء على الزارعيين وطبقة الفلاحين وحملوهم فوق طاقتهم، الأمر الذى عرض الضياع أحياناً للمحن، ولم يكن هؤلاء الوكلاء يحفلون كثيراً بما يحيق بسادتهم من خراب[٢٢٥] . وبنهاية القرن الثالث عشر كانت الأراضي التي اشتهرت بالخصوبة في ألمانيا وإنجلترا وفرنسا قد انهكت بحيث لم تعد تصلح للزراعة ، بسبب سوء استغلال النبلاء لها لحل مشاكلهم المالية[٢٢٦] .

ويمكن أن نجد أسباباً كثيرة لتآكل طبقة النبلاء والإقطاعيين منذ القرن الثالث عشر، فلم تكن الأرستقراطية في فرنسا مثلاً مجموعة متقاربة سياسياً، لأن النبلاء ظلوا لايفكرون إلا فى أنفسهم وعرقيتهم، باعتبارهم نورمان أو بريتون أو برجنديين أو غير ذلك ، إذ مال النبلاء إلى التفكير فى مشاكلهم الخاصة دون الاهتمام بالمشاكل العامة . وهذا يعكس ما كان جارياً في إنجلترا مثلاً، وفي نفس الوقت اضطرمت مشاعر المرارة في صدور البورجوازيين في إنجلترا وفي شمال فرنسا من

---

(٢٢٤) كانتور : المرجع السابق ق٢ ص ٧٢٨ – ٧٢٩
(225) Rowling : op. cit. pp. 23- 4
(٢٢٦) كانتور : نفسه ق٢ ص ٧٢٩

جراء استمرار سيطرة النبلاء على المجتمع واستئثار كبار الأرستقراطيين بالامتيازات السياسية والقانونية[٢٢٧] .

وليس من شك فى أن هذه العوامل كلها كان لها ضلع فـى هـدم النظم الإقطاعية العتيقة، بالاضافة إلى عوامـل أخـرى متعـددة، تتصـل بالظروف الأوربية نفسها والانفتاح على مجالات أخرى أدت إلى تطلـع الطبقـة المغبونـة إلى تحسـن أحوالهـا والتخلـص مـن ربقـة العبوديـة، وتحطيم القيود السالفة والعيش إلى ظروف أفضل[٢٢٨]. وجاء انهيار هذه النظم إيذاناً بإشراف العصور الوسطى على نهايتها، فقد كـانت النظم الإقطاعية من أبرز سمات تلك العصور .

وهكذا غدت جميع الطوائف والطبقات فى شتى أنحـاء أوربـا فى القرن الثالث عشر نجد أن حياتها محكومة بعدة عوامل، كان العـامل الأول منها هو الزيادة الكبيرة فـى السـيطرة الإجتماعيـة، بسـبب نمـو الحكومة والمؤسسات القانونية . وثانيها أن المجتمع فى سبيله للتحول من مجتمع يقوم على اساس المكانة الاجتماعية إلى مجتمـع يقـوم علـى اساس المال، ومن ناحية اخرى لم تعد المكانة الاجتماعية كافية لضمان حياة آمنة، أن القدرة المالية صبحت هـى المعـول عليهـا فـى الأزمـات والأوقات الصعبة[٢٢٩] . بعد أن اسـتخدمت النقـود علـى نطـاق واسـع ونمـت المصـارف واجتـاحت أوربـا حركـة نشـاط ماليـة جديـدة[٢٣٠] . وكانـت السنوات السبعون أو الثمانون الأولى من القرن الثالث عشر هى

(٢٢٧) كانتور : نفسه ق٢ ص ٧٣٠ – ٧٣٣

(٢٢٨) ديفز : أوربا ص ١٠٤

(٢٢٩) كانتور : المرجع السابق ق٢ ص ٧٢٣ – ٧٢٤

(230) Pirenne : op. cit. p. 126

المرحلة النهائية لفترة الازدهار والنمو السكاني والغلاء الذي ميز الاقتصاد الأوربي منذ منتصف القرن العاشر، هذا الوضع الاقتصادي العام كان له تأثير عميق على كافة الطوائف في المجتمع[٢٣١] .

ولم يكن انهيار النظم الإقطاعية قاصراً على أوربا وعلى البقاع التي نشأ بها الإقطاع وإنما انهارت هذه النظم أيضاً في الجهات التي انتقلت إليها، إذ كانت بعض ملامح هذه النظم قد انتقلت مع الأمراء الصليبيين إلى الشرق ، فظهرت في بلاد الشام وفلسطين منذ أواخر القرن الحادي عشر، على أثر غزو الصليبيين لهذه الجهات واستيلائهم على الأراضي المقدسة المسيحية وربطها بالغرب الأوربي، غير أن هذه النظم ما لبثت انهارت بانهيار الإمارات اللاتينية التي أقامها الصليبيون في الشرق وطرد بقايا الصليبيين من بلاد الشام في أواخر القرن الثالث عشر أيضاً .

وهكذا بدراسة النظام الإقطاعي في أوربا في العصور الوسطى، نكون قد وقفنا على أوضاع طبقتين من طبقات المجتمع الأوربي في ذلك الوقت، هما طبقة النبلاء والفرسان وكذلك طبقة الفلاحين والمزارعين وهى الطبقة العريضة في المجتمع الأوربي حينئذ ،وبقيت طبقة رجال الدين سوف نتناولها بالدراسة فيما بعد لتكتمل صورة المجمع الأوربي بطبقاته الثلاث في تاريخ أوربا في العصور الوسطى .

---

(٢٣١) كانتور : نفسه ق٢ ص ٧٢٤



الفصل الثاني

المدن والتجارة في أوربا في العصور الوسطى :

شهد العصر الروماني وجود مدن قديمة، بلغت درجة عالية من الازدهار والتقدم، لاسيما في القرنين الأول والثاني الميلاديين، لما كانت تمثله الإمبراطورية الرومانية من وزن، ولميراثها التراث الهلنستى القديم ومعظم سمات المجتمع اليوناني القديم بمدنه الشهيرة، التي لعبت أدواراً بارزة في أحداث العالم القديم، خاصة تلك المدن التي كان لها الطابع العسكري في عهد الإمبراطورية الرومانية[١] . وعلى الرغم من ذلك فإن مكانة تلك المدن الرومانية كانت قد أخذت في التدهور، بسبب تعرض البلاد للأخطار الخارجية وتغلغل الشعوب الجرمانية في جوف الإمبراطورية ابتداءً من القرن الثالث الميلادي، فأخذت مساحتها في التناقص، ولم تعد منذ القرن الخامس تمثل مراكز حيوية في المجتمع الأوربي، ولم يحفظ على تلك المدن الرومانية القديمة بعض مكانتها سوى تحولها إلى مراكز أسقفية وقيامها بدور بارز في التنظيمات الكنسية[٢] . ومن العوامل التي ساعدت على اضمحلال أهمية تلك المدن القديمة بالإضافة إلى ما سبق ذكره، تحول جانب كبير من سكانها إلى أقنان واقتصار جانب آخر منهم على ممارسة الحرف الصغيرة والعمل كصناع وعمال خاصة في الأديرة، فلم تعد تلك المدن القديمة أكثر من مراكز دينية لا يميزها نشاط تجاري أو صناعي كبير[٣] .

---

(١) هلستر : أوربا ص ١٦٢

(2) Camb. Med. Hist. V. 6, p. 507

(٣) ديفز : أوربا في العصور الوسطى ص ٢٠٩

وإذ تحول الاقتصاد الأوربي منذ نهاية القرن الثامن الميلادي إلى اقتصاد زراعي مرتبط بنمو النظم الإقطاعية، كما مر بنا، وغدت الأرض المصدر الأساسي للثروة وظهرت القرى والضياع آخذة بسياسة الاكتفاء الذاتي[٤]، معتمدة كلية على ما تغله الأرض حتى يمكننا أن نطلق بحق على النظام الذي كان سائداً بأوربا الغربية حينئذ اسم نظام الاقتصاد المغلق أو نظام الاكتفاء الذاتي، وهو نظام يكتفى فيه بحاجات الحياة " وليس لتبادل السلع فيه إلا مركز ثانوي في الإنتاج"[٥]، وظل الاقتصاد الأوربي اقتصاداً زراعياً بشكل أساسي[٦]، فتدهورت التجارة، وكادت تنعدم كلياً، واقتصرت في أوربا في الفترة بين القرن الثامن والعاشر على التجارة المحلية الضيقة، وكذلك على قيام نوع من النشاط التجاري بين بعض المدن الإيطالية من ناحية والإمبراطورية البيزنطية من ناحية أخرى، فضلاً عن النشاط التجاري الذي قام به الفيكنج في بحر الشمال والبحر البلطي وسهول روسيا[٧] ، وإن لم تتوقف التجارة كلية، لأن شطراً من البنيان الإقتصادي الذي كان موجوداً في العهود الإمبراطورية، ظل قائماً بمناطق معينة من فرنسا وإيطاليا، وحتى المدن نفسها – كما تدل على ذلك بعض القرائن – ظلت محتفظة بأهميتها القديمة كمراكز محلية للتجارة[٨] . أما التجارة بمعناها الشامل والدقيق، فهي التي تنقل إلى مسافات بعيدة، وهي عادة مقصورة على سلع الترف اللازمة للبلاط والكنيسة في أغلب الأحيان كالتوابل والجواهر والعاج والبخور والمصنوعات الفنية[٩].

---

(4) Strayer and Munro : op. cit. p. 195

(٥) موس : ميلاد العصور الوسطى ص ٣٧٧

(٦) هلستر : نفس المرجع ص ١٦٢

(7) Camb. Med. Hist. V. 3, p. 327

(٨) موس : المرجع السابق ص ٣٧٦

(٩) موس : نفسه ص ٣٧٧

وجاء موقف الكنيسة من مسألة الكسب التجاري والقروض ذات الفوائد والنظر إلى هذه القروض على أنها غير حلال، وأن الكسب من ورائها غير مشروع، عاملاً هاماً في ازدياد تدهور التجارة وانحطاطها، وبقيت الأرض وما تغله والإنتاج الزراعي هو طابع الحياة الاقتصادية والاجتماعية في أوربا في تلك الفترة(١٠) . وهكذا تعرضت التجارة في الغرب في فترة الانتقال من العصور المتأخرة للإمبراطورية الرومانية إلى أوائل العصور الوسطى لظروف محبطة، إذ هدد قراصنة الوندال طرق الملاحة في البحر المتوسط، ولم يكن إحياء النشاط التجاري زمن الكارولنجيين ممكناً بعد ظهور البحرية الإسلامية، ثم إحتلال الآفار لأرض المجر، فضلاً عن هجرة الصقالية(١١) .

وتجدر الإشارة إلى أن الزراعة التي قام عليها الاقتصاد الأوربي منذ القرن الثامن كان لها صفة تجارية أيضاً، وربما كان لذلك دخل في التطور الذي أصاب الفكرة في القرون التالية، فقد أدى ازدياد الإنتاج وزيادة عدد السكان في كثير من بقاع أوربا إلى نهضة تجارية كبرى وتجديد النشاط العام في حياة المدن(١٢) . فالسيد الإقطاعي صاحب الضياع المتعددة كان يستقبل في ضيعته الرئيسية فائض الإنتاج الزراعي من الضياع الأخرى ليتصرف فيه، والكنائس التي اكتظت أحياناً بالهبات والمنح بما يزيد عن حاجتها رأت في كثير من الأحيان الاستغناء عن الفائض منه، وما حدث من قيام بعض، الأسواق الريفية الصغيرة في الحصون أو المدن الصغيرة أسهم في قيام العمليات التجارية

---

(١٠) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ج٢ ص ٣٠١ ،
Strayer and Munro : op. cit. p. 195

(١١) موس : نفسه ص ٣٧٩

(١٢) هلستر : أوربا ص ١٦١

المنتظمة[١٣]، هذا فضلاً عما أحدثه الأقنان الذين عاشوا بجوار الحصون والأديرة والقصور، وتمتعوا بحمايتها من نشاط صناعي وتجاري إذ عملوا صيفاً في فلاحة الأرض وشغلوا وقتهم في الشتاء بالحرف الصناعية المختلفة في دباغة الجلود وصناعة الأواني الفخارية والحدادة والنجارة، وأخذوا في تصريف صناعاتهم في القرى المجاورة، وفي الأسواق المحلية، واعتمدوا في كسب أقواتهم على المناطق الريفية القريبة[١٤].

وهكذا من الحقائق الثابتة أن الفترة المبكرة من العصور الوسطى لم تشهد من النشاط التجاري المنتظم في الغرب ما يمكن أن يوصف بأنه نشاط مؤثر في حياة المجتمع أو لابد من وجوده للابقاء على ذلك المجتمع[١٥] ،وليس قبل القرن التاسع الميلادي يمكننا أن نطلق اسم تجار بمعناه الدقيق على أحد ممن مارسوا التجارة من أولئك البائعين والمشترين الطارئين، أو أولئك الذين يتولون تصريف الفائض عن حاجة الأديرة أو الخدم الذين يتولون بيع الفائض من محاصيل السيد، أو من أولئك المغامرين الذين يقتفون أثر الجيوش للاتجار في مخلفات الحروب والأسلحة أو المتاجرة في الرقيق أو غير ذلك[١٦].

وربما لا يصح أن يتخذ صفة التجار سوى الإيطاليون واليهود، الذين مارسوا التجارة الحقيقية في سلع هامة بين الشرق والغرب خاصة توابل الشرق ومنسوجاته برغم ما كان يصادفهم من متاعب، وما كانوا يتعرضون له من مخاطر في نقل هذه المتاجر إلى ما وراء جبال

---

(13) pirenne : Economic and Social Hist. pp. 42 - 44

(14) Camb. Med. Hist. V. 6. p. 477, p. 514

(١٥) موس : المرجع السابق ص ٣٨٠

(16) Cantor : Med. cities in med. world. p. 255

الألب[١٧] . وقد بلغ من شدة ولع التجـار الجـائلين مـن اليهـود بهـذه التجارة وسيطرتهم على التجارة الأوربية أن لفظ يهـودي Judeaus ، أصبح مرادفاً للفظ تاجر Mercator [١٨] . وكان اليهود تجـاراً بـالمعنى الدقيق وعلى نطاق واسع ، ثم كانوا بعـد ذلـك صيارفـة ورجـال بنـوك وقناصل ومستشارين ماليين للأساقفة ومقدمي الأديـرة ومـلاك الأراضـي الأرسقراطيين[١٩] .

أخذت تجارة أولئك التجار الجائلين تتسع شيئاً فشيئاً ، فهجروا التنقل والترحال ومـالوا إلى الإسـتقرار في منطقـة يجعلوهـا مركـزاً لهـم يمارسون فيها تجـارتهم ، فـاتخذوا في أول الأمـر منـازلهم مسـتودعات تجارية ، ثم أخـذ النبـلاء الإقطـاعيون في السـماح لهـم بالإقامـة قـرب حصونهم وشمولهم بالحماية نظير الضرائب الـتي فرضوهـا عليهـم مـن ناحية ولتشجيع الحركة التجارية في منـاطقهم مـن ناحيـة أخـرى[٢٠] . فأقام أولئك التجار المخازن المسورة القريبة من حصون النبلاء في القـرن الحادي عشر ، تمتعوا فيها بقدر كافي من الحرية الشـخصية ، وأخـذت هذه النقط التجارية في التطور والإتساع والإزدهار حتى نشأت منها مدن تجارية حقيقية بالقرب من حصون الأمراء والأديرة والمدن الأسقفية[٢١] .

فكأن هذه المدن بدأت كضواحي للمدن الأسقفية أو للقرى المقامـة خارج أسوار بعض القلاع العديدة التي أقيمت في أوربـا خـلال القرنيـن

---

(17) Pirenne : Economic and Social Hist. pp. 143 - 5
(18) Pirenne & Cohen & Focillon : La civilisation Occidentale au Moyen Ages, p. 15
(19) Heer : op. cit. p. 78
(20) Ibid. p. 78
(21) Camb. Med. Hist. V. 6, p. 477

التاسع والعاشر الميلاديين، ثم صارت هذه المدن مراكز تجارية يسكنها طبقة جديدة عرفت بعد ذلك باسم الطبقة البرجوازية Bourgeoisie[٢٢] وهكذا نبتت مدن القرن العاشر اصلاً من خلال التجارة وفي ظل النشاط التجاري، فلقد تجمع التجار والمشتغلون بالتجارة طلباً للحماية قرب قلعة ما Burg يملكها أمير علماني أو أمير كنسي، ثم قام أوئك البرجوازيون بتحويل مدنهم إلى مراكز للتجارة[٢٣] .

وعلى هذا يعتبر القسم الأول من العصور الوسطى والممتد من سقوط الإمبراطورية الرومانية سنة ٤٧٦م حتى نهاية القرن العاشر تقريباً، عهد ظلام بالنسبة لتاريخ المدن الأوربية، وما ترتب على ذلك من تدهور في النشاط التجاري والصناعي إلى حد كبير[٢٤] ،بعكس القسم الثاني من العصور الوسطى بعد القرن العاشر الذي شهد نشأة ونمو كثير من تلك المدن وما استتبع ذلك من نشاط تجاري وصناعي كبير، فكلما زاد عدد التجار في مركز من تلك المراكز الناشئة بنى البرجوازيون سوراً جديداً حولهم ليضم السكان الجدد، ومع نمو هذه الضواحي بات من الضروري بناء أسوار جديدة بين الحين والحين[٢٥]. ولم ينته القرن الحادي عشر حتى كانت تلك المدن تتطور بسرعة كبيرة في كل أنحاء أوربا وزادت كثافة في إقليم الفلاندرز وشمال إيطاليا حيث كانت الفرص الهائلة للتجارة الدولية[٢٦] . واستطاع بعض المؤرخين أن يؤكدوا أن نمو المدن في أوربا في ذلك الوقت ،قد تم على شكل دوائر متحدة المراكز ظلت تقوم بدورها كمؤشرات دالة على النمو المستمر

---

(٢٢) هلستر : المرجع السابق ص ١٦٢

(٢٣) كانتور : التاريخ الوسيط ق١ ص ٣٨٢

(24) Camb. Med. Hist. V. 5, pp. 209 - 210

(٢٥) كانتور : المرجع السابق ق١ ص ٣٨٢

(٢٦) هلستر : أوربا ص ١٦٢ – ١٦٣

للمدن التجارية وذلك قياساً على الأسوار التي مازالت بقاياها ظاهرة في كثير من المدن خاصة في إقليم الفلاندرز وأراضي الراين[٢٧] .

ويبدوا أن هجمات المتبربرين وخاصة الفيكنج كان لهـا دور هـام فيما ساد القسم الأول من العصور الوسطى من اضمحلال في نشاط المـدن وازدهارها، كما كان عاملاً ضاغطاً بالنسبة لنمو المدن والتجارة الأوربيـة في تلك المرحلة، حتـى بلـغ الإنحطـاط في غـرب أوربـا ذروتـه في تلـك الفترة وتجاوزها إلى فـترة لا يسـتهان بهـا. مـن القـرن الحـادي عشـر الميلادي، بل إلى قبيل قيام الحركة الصليبية، وقيام الغزو الصليبي من الغرب الأوربي[٢٨] ،وكان لظهور الإسلام والتوسـع الإسـلامي في القـرن السابع دور أيضاً في إضعاف النشاط التجاري الأوربي لما أدى إليـه مـن تحطيم وحدة حوض البحر المتوسط بالنسبة للغرب، على الرغم من أنه لم يقض على النشاط الجـاري تمامـاً، إذ ظلـت حركـة التجـارة دائبـة خاصة بين المدن الإيطالية وأراضي الدولة البيزنطية في الشـرق وبعـض بلدان البحر المتوسط[٢٩] .

وهكذا كانت نشأة كثير من المدن الأوربية في تلـك الفـترة، علـى الرغم من أنه كانت هناك مدن في مناطق أخـرى مـن أوربـا، اختلفـت بدايتها وطبيعتها عن ذلك إلى حد ما إذ كـانت معظـم المـدن الإيطاليـة موجودة منذ العصور الرومانية ، لكنها تعرضت للإهمال ونقص السكان

---

(٢٧) كانتور : نفس المرجع ق١ ص ٣٨٢

(28) Atiya : Crusade , Commerce and culture , p. 162

وانظر أيضاً : كولتون : عالم العصور الوسطى ص ٢٠٢

(٢٩) نور الدين حاطوم : تاريخ العصر الوسيط في أوربا ج١ ص ٨٨٠

على مدى قرون عديدة[٣٠] ،كما كانت هناك مدن أخرى ظهرت في بداية الأمر من نمو القلاع، ثم آل أمرها إلى أن صارت مراكز للتجارة المحلية، وبحلول منتصف القرن الحادي عشر حولها السكان إلى أسواق لخدمة جيرانهم[٣١] .

نشأة المدن في القرن الحادي عشر الميلادي :

تبدلت الظروف إذن في كثير من أنحاء أوربا منذ القرن الحادي عشر واستتب السلام نوعاً ما بعد فتور هجمات المتبربرين، وتوقف النشاط الإسلامي تقريباً، فبزغت مرحلة استقرار مكنت التجار من ممارسة تجارتهم، وساعدت على نمو وازدهار المدن الأوربية[٣٢] . هذا فضلاً عما قام في أوربا من حركات الإصلاح الكنسي، لا سيما الحركة الكلونية أو ما عرف باسم دير كلوني Cluny وهى التي بدأت في القرن العاشر كحركة إصلاح جديدة في الديرية التي كانت قد اضمحلت وبعدت عن الأسس الحقيقية للنظام الديري[٣٣] ، على إثر منح الهبات والثروات للأديرة، وحبس الأوقاف الواسعة عليها، وترتب على تلك الحركات استتباب الأمور واستقرار الأحوال في أوربا، وبعث روح العمل في الأوساط الديرية وإزالة الغابات وتجفيف المستنقعات وتأمين الطرق[٣٤] . ثم كانت الحروب الصليبية عاملاً هاماً في تشجيع التجارة إذ كان من نتائج الحملات الصليبية أن دفعت التجارة دفعة كبرى إلى الأمام[٣٥] ، واستفادت كل من البندقية وجنوا وبيزا كثيراً من الحروب

---

(٣٠) كانتور : المرجع السابق ق١ ص ٣٨٢

(٣١) كانتور : نفسه ق١ ص ٣٨٢

(32) Painter : Med. Society , p. 64 , p. 69

(٣٣) جوزيف نسيم يوسف : حاشية (١) في ترجمته لكتاب كولتون "عالم العصور الوسطى " ص ١٧٢

(34) Fliche : L'Europe Occidentale , pp. 124 - 7

(٣٥) كولتون : عالم العصور الوسطى ص ٢٠٢ ، Atiya : op. cit. p. 162

الصليبية في القرن الثاني عشر وأوائل القرن الثالث عشر من احتكارهم نقل وإمداد الجيوش الغربية[٣٦] ،فكان ذلك دفعاً للتجارة والصناعة ودعماً للمدن الناشئة والقديمة معاً، وأدى انتعاش التجارة والصناعة إلى تحرير الرقيق وهدم معظم سمات النظم الإقطاعية القديمة وتحطيم الضياع، وتحرير الاقتصاد من الاعتماد على الموارد الزراعية وما تغله الأرض فحسب، وتشجيع النشاط التجاري خاصة النشاط البحري[٣٧] ، ولهذا بدأ الناس يتحركون من المناطق الريفية إلى داخل المدن لكي يعملوا في التجارة والصناعة، فتحولت كثير من المدن إلى مراكز للحياة الحضرية، بعد أن ظلت فترة طويلة مراكز للإدارة الكنسية والسياسية فقط[٣٨] ،وتجمعت طبقة التجار هذه في المدن من صغار النبلاء الراغبين في الثراء والأقنان الهاربين من الضياع، وكل من قصد المدن بهدف العمل في النشاط التجاري والصناعي[٣٩] ،حيث ظهرت المدن البحرية التجارية، مثل جنوا وبيزا وأمالفي ومرسيليا وناربون وبرشلونه لتنافس البندقية في نشاطها[٤٠] .

ومن الطبيعي أن تستحوذ هذه المدن التجارية البحرية في جنوب أوربا على الجانب الأكبر من الحركة التجارية، بما يستتبعه ذلك من بعث للحياة التجارية في معظم أنحاء الجنوب الأوربي، فمنذ منتصف القرن الحادي عشر سيطرت الأساطيل البحرية التجارية للمدن الإيطالية على التجارة القادمة من الإمبراطورية البيزنطية ، بعد أن

---

(36) Heer : op. cit. p. 74 , Keen : op. cit. p. 71
(37) Pirenne, Cohen, Focillon : op. cit. p. 31

(٣٨) كانتور : المرجع السابق ق١ ص ٣٨٢
(٣٩) هلستر : المرجع السابق ص ١٦٣
(٤٠) ديفز : المرجع السابق ص ٢٣٥

اضمحل الأسطول التجاري لهذه الإمبراطورية وبالتالي سيطرت أساطيل هذه المدن على معظم تجارة البحر المتوسط في الشرق الأدنى والشرق الأقصى[٤١] . لكن الأمر لم يتوقف عند هذا الحد، إذ أن تكدس البضائع المستوردة من الشرق في تلك المواني، خاصة من الأخشاب والحديد والمنسوجات والتوابل وغيرها من حاصلات الشرق، قد أوجد لها أسواقاً في وسط أوربا وغربها، فشقت طريقها في غير صعوبة كبيرة إلى وسط وغرب أوربا، ثم إلى شمالها عبر السهل اللمباردي وممرات جبال الألب وطرق نهر الراين[٤٢] ،فأصبحت الطرق التجارية المؤدية إلى الشمال عبر ممرات السافوى هى الطرق الرئيسة المفضله لدى تجار لمبارديا وتجار المدن الإيطالية الداخلية[٤٣] ،فغدا إقليم فلاندرز مركزاً تجارياً هاماً في القرن الثاني عشر بفضل موانيه الهامة وانهاره التي جعلته على اتصال بتلك الجهات، وكما انتعش إقليم فلاندرز بسبب موقعه بين الشمال والجنوب، انتعشت أيضاً مدن لمارديا بسبب موقعها بين الشرق والغرب[٤٤] .

ويمثل القرن الثاني عشر الميلادي (السادس الهجري) مرحلة هامة في تاريخ نشأة المدن في أوربا في العصور الوسطى، لأنه على الرغم من ازدياد أهمية المدن ونشاط تجارها، إلا أن الملوك والدوقات والأساقفة والسادة الإقطاعيون، لم يروا في أكثر التجار والبورجوازيين ثراء نداً لهم، بل أنهم رفضوا منح شعوب المدن الناشئة حريتهم، بل تعرض تجار القرنين العاشر والحادي عشر للضغوط والإبتزاز والضرائب الباهظة، كما كانوا يلقون الكثير من صنوف الإمتهان والإحتقار، فأدى

---

(41) Heer : op. cit. p. 73

(٤٢) حاطوم : المرجع السابق ج١ ص ٨٨٢

(43) Heer : op cit. p. 73

(٤٤) حاطوم : نفسه ج١ ص ٨٨٢

ذلك إلى اعتماد التجار والصناع على مواردهم الخاصة وهو الأمر الذي أدى إلى تضامن هؤلاء وإلى ظهور النظام الذي ساد تلك المدن والذي كان من أبرز سماتها في العصور الوسطى[٤٥] .

فما لبثت مدينة كولونيا أن نجحت في ثورتها ضد أسقفها سنة ١٠٧٥م ،كما حصلت مدن الحلف اللمباردي على حقوقها في الحكم الذاتي من الإمبراطور فردريك بربروسا سنة ١١٨٣م[٤٦] ،وغدت المدن الإيطالية مثلاً احتذته بقية المدن الأوربية[٤٧] ،في بروفانس وحوض نهر الراين وفلاندرز للحصول على سيادتها، وأخذت الكثير منها تنسلخ عن سادتها الإقطاعيين وتنتزع اعترافات بحقوقها، وعادة ما كان يتم شراء هذه الحقوق بأثمان باهظة، يمنح الملك أو السيد الإقطاعي أو الأسقف مقابلها وثيقة للمدينة تتضمن كافة حقوقها وحرياتها[٤٨] ، ولقد حولت تلك البراءات أو المواثيق جماعات التجار إلى كيانات تتمتع بالحكم الذاتي من الناحية السياسية والقانونية، ودفع التجار مبالغ طائلة بغية الحصول على هذه البراءات أو المواثيق[٤٩] .فازداد تدريجياً عدد البراءات والعهود الإعفائية التي حصلت عليها المدن[٥٠]، والتي تنص فيما تنص على حرية الأرض المقام عليها المدينة وحرية البقعة التي أنشئت عليها، وأن كل من يعيش في تلك المدن سنة ويوماً واحداً يعتبر حراً إلى غير ذلك من النصوص التي أعطت للمدن الأوربية طابعها الخاص ، وأرخيت شيئاً فشيئاً قبضة الأمراء عن المدن في كثير

(٤٥) كانتور : التاريخ الوسيط ق١ ص ٣٨٣

(46) Heer : op. cit. p. 75 , Keen : op. cit. p. 72

(47) Pirenne : A Hist. of Europe.. , p. 220

(٤٨) كانتور : المرجع السابق ق١ ص ٣٨٣

(٤٩) هلستر : أوربا ص ١٦٤

(٥٠) ديفز : المرجع السابق ص ٢١٣

من النواحي كالشئون الإدارية والمالية والقضائية، فلاشك أن كبار اللوردات كانوا سريعي الإحساس بأهمية المزايا الإقتصادية والمالية التي يمكن أن تحققها لهم المدن ولمتلكاتهم، ولهذا عمدوا إلى تشجيعها وارخاء يدهم عنها[٥١] . وكلما تنازل نبيل من النبلاء عن بعض حقوقه سارعت المدينة باعتبار ذلك إعفاء لها يضم إلى الإعفاءات الأخرى التي تشكل براءة المدينة، والتي تعبر عن سلطتها ودستورها[٥٢] .

وهكذا لم تستطع المدن أن تحصل على حق إدارة شؤنها الداخلية قبل مضى فترة طويلة، وعندما صار الرجل البورجوازي، يتمتع بنفس مكانة الرجل الحر، خاصة في دوائر المحاكم الملكية والدوقيات[٥٣] . وبحلول القرن الثاني عشر بدأ السادة الإقطاعيون يصدرون مواثيق المدن أو براءاتها التي تتضمن الكثير من حقوقها، بل إن بعض السادة الإقطاعيين بعيدي النظر قاموا بتشييد المدن وإصدار مواثيقها بمبادرات شخصية منهم[٥٤] . وفي إنجلترا حصلت كل المدن تقريباً على قدر كبير من الحكم الذاتي قبل أن تنتهي العصور الوسطى، وكانت المدن الأوفر عدداً والأقوى سلطاناً بصفة عامة هى المدن الداخلة ضمن الأراضى الملكية[٥٥] .

هذا ويكثر الحديث عن شكل المدينة في العصور الوسطى في أوربا من الناحية السياسية ما إذا كانت قد غدت بفضل البراءات

(51) Heer : op. cit. p. 78

(52) Pirenne : Economic and Social Hist. pp. 71 - 74
Camb. Med. Hist. V. 4 , p. 281 , v. b, p. 59

(٥٣) كانتور : المرجع السابق ق١ ص ٣٨٣

(٥٤) هلستر : أوربا ص ١٦٤

(٥٥) كولتون : عالم العصور الوسطى ص ١٢٩

والاعفاءات والامتيازات مدنية ديمقراطية أم أن تلك البراءات والاعفاءات قصد بها فئة بعينها من السكان لتصبح المدينة مدينة أرستقراطية[٥٦] ،والواقع أن تلك الإمتيازات قصد بها فعلاً مجموعة معينة من السكان اختلفت باختلاف الظروف فربما كانت مجموعة التجار أو الصناع أو غيرهم من الطبقات، فاعتبرت تلك الفئة الصفوة المختارة من بين السكان، ولهذا فقد ظلت المدن أرستقراطية في جوهرها وحكومتها، فصارت المدن مسارح للمشاعر الطبقية المريرة التي تفجرت من حين إلى حين في شكل صراعات عنيفة علنية[٥٧] ، وشهدت المدن أيضاً بداية الإنقسام بين المنتجين الكبار، وبين العمال الذين يعملون لقاء أجر على نمط ما يحدث في ظل الرأسمالية الحديثة[٥٨] ،فمهدت هذه الحالة لقيام الصراع بين البورجوازية والطبقات الدنيا[٥٩] .

وهكذا لا يصح أن يستنتج المرء أن مدن العصور الوسطى كانت مدناً ديمقراطية أو على قدر ضئيل منها، فالذين استفادوا من براءات المدن ومواثيقها هم التجار الأثرياء والصناع المهرة المؤهلين لتدريب المهنيين، ولذلك كانوا هم الذين بدأوا في السيطرة على حكومات المدن كأقلية مهمتها الاستغلال وتحقيق المنافع الذاتية على حساب السكان الأقل قوة وثروة[٦٠] .

وعلى الرغم من ذلك فقد كانت نشأة المدن في أوربا ظاهرة عامة

---

(56) Heer: op. cit. p. 76

(٥٧) هلستر : أوربا ص ١٦٦

(٥٨) هلستر : نفسه ص ١٦٥

(٥٩) ديفز : المرجع السابق ص ٢٣٤ . Cantor: cit. p. 252

(٦٠) هلستر : نفسه ص ١٦٤

لم تقتصر على جهة معينة، فقد انتشرت من لمبارديا وفلاندرز إلى بقية أنحاء الغرب على أثر انتعاش التجارة والصناعة[٦١] . وتشابهت المدن جميعاً تقريباً في العوامل والظروف التي صاحبت قيامها ونشأتها، ولكنها تباينت في بعض الظروف السياسية والأوضاع الإقتصادية والجغرافية المحلية[٦٢] ،بل إن براءاتها ومواثيقها اختلفت أحياناً بعضها عن البعض الآخر إلى حد كبير، بيد أنه بمرور الوقت أصبح من المعتاد تشابهها مع بعضها البعض في أمور كثيرة، بعد أن شاعت النماذج المشهورة لهذه البراءات أو المواثيق[٦٣] . فبدأت بعض المدن الناشئة تستعير دستور مدينة أخرى تكبرها عمراً وتأخذ عنها نظمها وتقاليدها، مما أدى في النهاية إلى أن تتخذ المدن شكل مجموعات أو عائلات تضم كل منها عدداً من المدن المتشابهة في نظمها[٦٤] .

ويمثل القرن الثالث عشر الميلادي تحولاً بارزاً في التاريخ الإقتصادي والتجاري بصفة خاصة، بسبب تغير طرق التجارة الدولية ونشأة طرق أخرى على أثر الظروف العسكرية والسياسية التي مرت بها أوربا حينئذ، فقد أدى استيلاء الصليبيين على القسطنطينية سنة ١٢٠٤م في الحملة الصليبية المعروفة بالرابعة إلى تعطيل طريق القسطنطينية التجاري[٦٥] ،كما ساعدت الحروب ضد الهرطقة في جنوب فرنسا الملوك الفرنسيين على الحصول على منافذ تجارية جديدة على البحر المتوسط[٦٦] ، ونهض الفرسان التبوتون بتجارة

(61) Keen : op. cit. pp. 71 - 2
(62) Camb. Med. Hist. v. 5, p. 208
(٦٣) هلستر : نفسه ص ١٦٤
(64) Thompson : The Middle Ages , v. 2, p. 739
(65) Rowling : op. cit. p. 70
(66) Ibid. pp. 158 - 9

بروسيا في شمال أوربا ، ووسعوا نطاقها إلى الشرق[٦٧] ،ثم أدى الهجوم المغولي على مدينة كييف سنة ١٢٤٠م إلى قطع الطريق التجاري بين البحرين البلطي والأسود ، وكان لاستيلائهم على العراق وإسقاط بغداد سنة ١٢٥٨م عاملاً هاماً في تحول التجارة بين الشرق والغرب إلى طريق البحر الأحمر ، وموانى مصر المملوكية من جهة وإلى طريق طرابيزون من جهة أخرى[٦٨] .

أما شكل المدينة في العصور الوسطى في أوربا من الناحية العمرانية ، فقد جرت العادة أن تحيط كل مدينة جديدة نفسها بسور حصين لحمايتها ، وتحفر خندقاً عميقاً حوله ، ويقام أمام بوابتها الرئيسية جسر متحرك يرفع إلى أعلى ويبسط عند الحاجة[٦٩] ، ولم تكن شوارع المدينة عريضة بل كانت ضيقة مظلمة تكثر بها القاذورات ، وسكن الناس المنازل الصغيرة المعتمة القائمة على جانبى الشوارع القذرة المليئة بالنتوءات[٧٠] وكانت المدن نفسها صغيرة وموحلة وتنتشر بها الأمراض وغالباً ما فرقتها الصراعات الداخلية[٧١] ،ويعتمد السكان على الآبار في المدينة والتي كانت عرضة للتلوث ، فتكثر الأمراض والأوبئة وينتشر اللصوص وقطاع الطرق في الليل منتهزين فرصة الظلام الدامس الذى يخيم على المدينة ، فيحجم السكان عن الخروج ليلاً ، ولم تكن المشكلة فيمن هم داخل المدينة من هذه الفئات ، بل أيضاً أحاط بالمدن على حد قول بعض المؤرخين عالم معاد لا يحفل كثيراً بسكان هذه المدن[٧٢] وانما يتحين الفرص للوثوب عليها .

---

(٦٧) هلستر : المرجع السابق ص ١٦٣
(68) Thompson : op. cit. v. 2, p. 737
(69) Cantor : op. cit. p. 258
(٧٠) كانتور : التاريخ الوسيط ق١ ص ٣٨٣ (ترجمة دز قاسم عبده قاسم)
(٧١) هلستر : أوربا ص ١٦٢
(٧٢) كانتور : المرجع السابق ق١ ص ٣٨٣

وكـانت مبـاني المدينـة في أول أمرهـا ذات طـابق واحـد أو طابقين[٧٣]، ولكن نظراً لشدة الإقبـال علـى السـكن بـالمدن، فقـد زادت طوابقها وتحمـس الملاك لذلـك للحصـول علـى إيجـارات مرتفعـة مـن السكان ، فلجأت بعض حكومات المدن إلى تحديد عدد الطوابق حتـى لا يعلوا منزل عن كتدرائيـة المدينـة، وكـان للمدينـة سـوقها الكبـير في ميدانها الرئيسي يشرف على كنيستها ومبناها الحكومي[٧٤]، ويعد أهم المعالم لمدينة تجارية نابضة بالحياة . ولم تكن المدن بهذا الشكل سوى قرى نامية، إذ يذكر بعض المؤرخـين أن مدينـة هيدلـبرج Heidelberg مثلاً، كانت تتألف مـن شـارعين كبـيرين يسـيران بـين منحـدر التـل والنهر، وهما الشارع الرئيسي وشارع بليك، وكان لايزال يوجد في وسط الشارع الأخير – حتى نهاية القرن التاسع عشر وبعد ذلـك التـاريخ – مزرعة ملحق بها بيت فسيح مع كافة مشـتملات المزرعـة مـن مواشـي وخيل وثيران وكومة من السماد وسط الفنـاء[٧٥] . ممـا يؤكـد أن بعـض المدن لم تستطع التخلص من بداياتها الريفية كقرى ناميـة كمـا أشـار إلى ذلك بعض المؤرخين .

وعلى الرغم من صغر مسـاحة مـدن أوربـا في العصـور الوسـطى، وقلة عدد سكانها نسبياً كما كان الحال في بـالرمو وفلورنسـا والبندقيـة وميـلان وباريـس[٧٦] ، إلا أن ذلـك لـم يقلـل مـن الأهميـة السياسيـة

---

(73) Cantor : op. cit. p. 258

(٧٤) سعيد عاشور : أوربا ج٢ ص ٣٠٩

(٧٥) كولتون : عالم العصور الوسطى ص ١٢٥

(٧٦) لم يزد عدد سكان بالرمو في القرن الثاني عشر عن نصف مليون ومائـة ألـف في فلورنسا في القرن الثالث عشر ومائة الف في البندقية وميلان وباريس . أنظر :
Cantor : op. cit. pp. 257 - 9

والإقتصادية لتلك المدن، ولم يحل بينها وبين احتلال مكانة بارزة بين القوى المختلفة، فمنذ القرن الثاني عشر تكاثرت المدن الصغيرة الداخلية في فرنسا مثلاً، كما وجدت مدن أكبر قليلاً هنا وهناك، مما يصل سكانها إلى ما بين خمسة وستة آلاف ساكن أو ربما عشرة آلاف على أحسن الفروض، ولكن باريس تميزت عن هذه المدن بكبرها الحقيقي وكثرة سكانها[٧٧] .وعلى الرغم من كل ذلك فقد احتفظ بعض هذه المدن بأساطيل بحرية لمنع القرصنة في البحار، ونما بعضها الآخر ليصبح قوة كبيرة في أوربا[٧٨] .

فمدينة كالبندقية مثلاً أضحت في أواخر العصور الوسطى قوة سياسية وعسكرية واقتصادية هائلة، بل ربما أعظم قوة بحرية في أوربا واتخذت لها مستعمرات تجارية ومراكز وأحياء في جهات مختلفة في حوض البحر الأدرياتي وبلاد الشرق الأدنى[٧٩] ،بل إنها استطاعت أن تحارب بمفردها الإمبراطورية العثمانية في النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي، ودافعت عن مصالحها ضد إمبراطورية الغرب وأسبانيا وفرنسا، هذا فضلاً عن دور هذه المدن في قلب النظم الإقتصادية السائدة في أنحاء أوربا الغربية والتسبب في تداعي نظام الضياع والقرى والعمل على هدم نظرية الاكتفاء الذاتي في ذلك المجتمع الإقطاعي[٨٠] .

---

(77) Heer ; op. cit. p. 78
(78) Pirenne : Economic and Social Hist. p. 18
(79) Heer : op. cit. p. 74 , Keen : op. cit. p. 71
(80) Camb. Med. Hist. V. 4, pp. 218 - 19

وبمرور الوقت ظهر نوع من التخصص التجاري في مدن العصور الوسطى ساعدت على بروزه عوامل مختلفة أغلبها يرجع للظروف الجغرافية ، خاصة الموقع الجغرافي فمدن الشمال في العصبة الهانزية تخصصت في تجارة المناطق الشمالية لاسيما الفراء والجلود والقمح والشمع الواردة من روسيا ، والحديد والنحاس والأخشاب والأسماك واللحوم وكلها من واردات اسكنديناوة[٨١] . أما المدن الإيطالية فاختصت بالتجارة الواردة معظمها من الشرق مثل التوابل والعاج والحرير والبخور والعطور والزجاج والمنسوجات وكونت مدن شمال إيطاليا بالذات ثرواتها أساساً من دورها في الوساطة بين التجارة البيزنطية والتجارة الإسلامية فحصل البنادقة في القرن العاشر على امتيازات تجارية في القسطنطينية مكنتهم من أن يصيروا وسطاء تجاريين بين أوربا وبيزنطة[٨٢] ،أى أن تجارها استطاعوا تحقيق أرباح طائلة نتيجة للتجارة مع القسطنطينية والشرق[٨٣] ،وأقام البنادقة علاقات مع كافة المراكز التجارية الإسلامية في البحر المتوسط، وفي العقود الأخيرة من القرن العاشر بدأت كل من جنوة وبيزا تبحث لنفسها عن نصيب من ثروة العالم الإسلامي عن طريق التجارة بصفة خاصة ، بل كان هؤلاء أول من استخدم ممرات جبال الألب كطريق للتجارة مع شمال أوربا[٨٤] ؛أى أن جنوة وبيزا وأمالفي نجحت هى الأخرى في إيجاد أسواق مربحة في شرق البحر المتوسط، وفتحت الطريق للمدن الداخلية في إيطاليا مثل ميلان وفلورنسا للحصول على فرص جديدة وبعث حياة جديدة نشطة لهذه المدن خلال العصور الوسطى حتى سيطر الإيطاليون على تجارة البحر

(٨١) ديفز : المرجع السابق ص ٢٤٧ - ٢٤٨

(٨٢) كانتور : التاريخ الوسيط ق١ ص ٣٨٥

(٨٣) هلستر : أوربا ص ١٦٣

(٨٤) كانتور : المرجع السابق ق١ ص ٣٨٥

المتوسط تقريباً[٨٥] . أما مدن فلاندرز فكانت تتاجر في حاصلات الجهتين تجارة المناطق الشمالية والتجارة الواردة من الشرق أيضاً، وذلك نظراً لموقعها بين الشمال والجنوب، فضلاً عن الإتجار في الصوف وغزله وصناعته[٨٦] ، إذ صارت مدن الفلاندرز مراكز لإنتاج صناعات الأقمشة الصوفية، وغدت أراضي الفلاندرز أعظم مركز للصناعات في أوربا، إذ كانت صناعة النسيج أعظم المشروعات الصناعية[٨٧] .

وهكذا كان تجار الشمال يرحبون بتبادل بضائع الشرق مقابل البضائع الشمالية ويلتقون بالتجار الإيطاليين في مقاطعة شامباني التي كان حاكمها يقيم معرضاً سنوياً على أرضها إبان القرن الثاني عشر[٨٨] ، وازدادت مدن فلاندرز ثراء من تجارة الشمال ومن التجارة مع أقاليم شمال فرنسا والجزر البريطانية وأراضي الراين وشواطئ البحر البلطي[٨٩] .

النقود والعملة في مدن أوربا في العصور الوسطى :

ترتب على نمو اقتصاد المدن وازدهار التجارة والصناعة، التوسع في نظام الأجر النقدي . بدلاً من نظام الخدمة الإقطاعية، فأخذ التقدم في استعمال النقود يسير سيراً حثيثاً في غرب أوربا، فقد سُكت في البندقية في سنة ١١٩٢م عملات فضية تصل قيمة كل منها إلى نحو اثنى عشر بنس، وفي سنة ١٢٥٢م سَكّت فلورنسا فلورين ذهبي تصل قيمته إلى نحو جنيه (إنجليزي) ، ثم عادت البندقية فسكّت عملات

(٨٥) هلستر : المرجع السابق ص ١٦٣
(86) Pirenne , Cohen , Focillon : op. cit. pp. 126 - 7
(٨٧) هلستر : نفسه ص ١٦٣
(٨٨) كانتور : نفسه ق١ ص ٣٨٤ – ٣٨٥
(٨٩) هلستر : نفسه ص ١٦٣

ذهبية قرب أواخر القرن الثالث عشر، فضلاً عما كان معروفاً من عملات فرنسية في ذلك الوقت[٩٠] ،فأخذ تداول النقود يزداد شيئاً فشيئاً .حقيقة إن التوسع في استعمال العملة والنقود سار ببطء بحيث لم يكن في غرب أوربا حتى منتصف القرن الثالث عشر سوى القليل من النقود الفضية، إلا أن الفضل يرجع في الحقيقة لمدن العصور الوسطى في ابتداع كثير من العملات الأوربية الحديثة مثل الجنيه والشلن والبنس . أما النقود الورقية فيرجع استخدامها في مدن العصور الوسطى إلى القرن الثالث عشر[٩١] ربما إلى أواخره أو إلى النصف الثاني من ذلك القرن، بل أن بعض المؤرخين يشير إلى أن ذلك لم يحدث إلا بعد ذلك بنحو قرن من الزمان أو يزيد، فيقولون أنه بالرغم من أن ماركوبولو **Marco Polo** قد وصف أوراق البنكنوت الصينية المطبوعة قبل سنة ١٣٠٠م ،إلا أن الناس في أوربا لم يبدأوا في تقليدها إلا بعد ذلك التاريخ بنحو مائة وعشرين عاماً على الأقل عندما طبعوا عليها صوراً مصغرة للقديسين[٩٢] .

معنى ذلك أن الفضل يعود لمدن أوربا في العصور الوسطى لأنها كانت حريصة على ابتكار نظام نقد جديد، واستخدام أنواع جديدة من العملات الأوربية التي لم تكن معروفة من قبل، خاصة وقد حدثت فجوة كبيرة في هذه الناحية منذ عصر شارلمان ؛لأن هذا العاهل الفرنجي الكبير حرص على تنظيم النقود وتداول العملة في دولة الفرنجة ثم في الإمبراطورية التي أقامها في جزء كبير من الغرب

(90) Heer : op. cit. p. 73

(91) Grass : The Legacy of the Middle Ages , p. 441

(٩٢) كولتون : عالم العصور الوسطى ص ١٩٩ – ٢٠٠

الأوربي[٩٣] . ففي بداية عهده كان هناك أكثر مـن سـتين داراً لضـرب النقود، إلا أن هذا العدد انخفض كثيراً بأمر شـارلمان وأصبحـت الـدور المرخص لها بسك العملة محـدودة، حرصـاً مـن شـارلمان علـى تنظيـم وإقرار تداول النقد واستخدام العملة والتزاماً بمبـادىء الكنيسـة وتنفيـذاً لتعاليمها[٩٤] .

كمـا أصـدر شـارلمان قـراراً بـأن رفـض التعـامل بالعملـة الملكيـة الرسمية يعد جريمة كبرى يتعرض بسببها الرافـض للعقـاب، لأنـه في الحقيقة كفل للناس التعامل بالنقود مستوفاة للشروط الرسميـة، وألغـى في إيطاليا نقود اللمبارديين ابتداء من سنة ٧٨١م[٩٥] .

حدثت فجوة إذن في نظم النقد والعملة بين عصـر الكـارولنجيين والعصر الذي نشأت فيه مدن أوربا الجديدة، ابتداءً من القرن الحـادي عشر وما تلاه، ولهذا كانت المدن سبّاقة إلى ملىء هذه الفجـوة بـابتداع كثـير مـن العمـلات والنقـود الفضيـة والذهبيـة قبـل اسـتخدام العملـة الورقية، خاصة وقد انتعشت التجـارة وغـدت الحاجـة ماسـة لتـداول النقد وإستخدام العملات المختلفة، إكمالاً لمـا كـان النبـلاء الإقطـاعيون يتمتعون به من حق سك العملات الخاصة بهـم[٩٦] ،وتسـهيلاً لتبـادل التجارة وتسويقها ونقلها من مكان إلى مكان ودفـع أجـور عمـال النقـل وعمـال الموانـي، ودفـع المكـوس المقـررة في المنـافذ التجاريـة وانعاشـاً للصناعة الناشئة وجذباً لعمال الصناعة وتسهيـلاً على أعضاء النقابـات

---

(93) Rowling : op. cit. p. 12
(94) Davis : Charlemagne , p. 158
(٩٥) سعيد عاشور : النهضات الأوربية ص ٨٦
(96) Heer : op. cit. p. 79

والاتحادات لإكمال مهامهم في رعاية التجار والصناع ودفع ما عليها من إلتزامات لهم ورعايتهم اجتماعياً وفي المناسبات المختلفة وفي حالة العجز عن العمل[٩٧] . ولهذا بدأت النقود تتوالى وسك العملات يجري في سرعة قبل أن يعرف الغرب الأوربي العملات الورقية عن الشرق منذ القرن الثالث عشر أو بعد ذلك[٩٨] .

حقوق المواطنة في مدن أوربا في العصور الوسطى :

سبق أن أشرنا إلى أن نمو المدن وانتعاش التجارة منذ القرن الحادي عشر الميلادي قد بدأ يسهم في تفكك النظم الإقطاعية وهدم مقوماتها، ويغري الأقنان بالنزوح إلى ذلك المجتمع الجديد والتخلص من ربقة العبودية، بل إن الأقنان لم ينزحوا وحدهم إلى المدن أو يهاجروا إليها وحدهم، لأن هذه جذبت أيضاً رجالاً من كل الأنواع من الريف والقرى المجاورة وكذلك بعض النبلاء الذين رأوا أن الرخاء التجاري في المدن أصبح محققاً والحياة الإقتصادية المتنامية في المدن تتقدم تقدماً محسوساً، لهذا تركوا منازلهم الريفية وجاءوا ليعيشوا خلف أسوار المدن[٩٩] .

وليس من شك في أن حكومات المدن قد شجعت فعلاً، على نزوح الأقنان إليها ونزولهم بها، للإسهام في توفير الأيدي العاملة من جهة وبعثاً للنشاط الصناعي والتجاري والعمراني من جهة أخرى[١٠٠]. ولكن على الرغم من ترحيب حكومات المدن بهم ، بل ودفع أسوار

---

(97) Lavisse : Hist. de France , T. II , Livre I, p. 336

(98) Grass ; op. cit. p. 441

(99) Keen : op. cit. p. 71

(100) Fisher : A Hist. of Europe from the Earliest times to 1713 , p. 253 (London 1957)

المدن لتشمل من كان يقيم منهم خارجها، على الرغم من كل ذلك، إلا أن الحكومات المدنية لم تتساهل في منح حقوق المواطنة لغير أهلها إلا بشروط قاسية تحد كثيراً من منح الغرباء والنزلاء الجدد بما تمتع به سكانها ومواطنوها[١٠١] ،خاصة وقد قصد السكن بالمدن عدد كبير من الرجال ممن يلتمسون العمل من الباعة والكتبة ورجال الدين والقصابين والخبازين والذين بدونهم لا يمكن أن تسير الحياة داخل المدن، وكذلك الصنّاع الصغار، لأن الصناعة المحلية عادة تزدهر وقت انتعاش التجارة، كما حدث في فلورنسا وميلان مثلاً[١٠٢] . ولهذا تشددت حكومات المدن في منح حقوق المواطنة واشترطت شروطاً قاسية لمنح المواطنة لأولئك الغرباء والنزلاء الجدد[١٠٣] .

ومن تلك الشروط أن يقيم الشخص المطالب بحق المواطنة في المدينة مائة يوم ويوم، وأن يدفع مبلغاً كبيراً من المال أو يشتري عقاراً بها، ضماناً لحسن نواياه، وكان عليه أن يقسم على احترام دستور المدينة ونظمها وقوانينها، ويقدم ما يثبت حسن استعداده للدفاع عن المدينة إذا احتاج الأمر، ويزكيه في ذلك بعض المسؤلين في المدينة، ويضمنون عدم خرقه لقوانينها[١٠٤] ،وأهليته للحصول على المواطنة فيها، فإذا فعل ذلك كله أصبح من حقه التمتع بالحماية الكاملة له ولتجارته، وأحقيته في راعي المدينة وصيد الأسماك فيها، وشراء لوازمه من سوقها بالسعر المحدد لغيره من المواطنين، وإعفائه من الخدمات الشخصية، وحماية تجارته من المنافسة الأجنبية وأحقيته في المحاكمة أمام هيئة من المواطنين من زملائه[١٠٥] .

---

(101) Pirenne : Med. Cities , p. 193
(102) Keen : op. cit. p. 71
Rowling : op. cit. pp. 147 - 8
(103) Pirenne : op. cit. p. 193 ; عاشور : أوربا ج٢ ص ٣٠٩
(104) Heer : op. cit. pp. 71 - 4, عاشور : نفسه ج٢ ص ٣٠٩
(١٠٥) كانتور : التاريخ الوسيط ق١ ص ٣٨٣

وهكذا لم تكن المواطنة في مدن أوربا في العصور الوسطى مسألة سهلة. وإنما دون الحصول عليها عقبات والتزامات ويبدو أن حكومات المدن أدركت في زحمة حماسها لضم سكان جدد وتوفير الأيدي العاملة الجديدة، أنه يمكن إساءة استغلال هذه الحماسة، ليندس بين النازحين بعض اللصوص وقطاع الطرق والخارجين على القانون. والراغبين في تعكير صفو الأمن، والهادفين إلى استثمار الفرصة للفوز بحياة رغدة دون جهد أو تحمل أعباء[١٠٦] . لهذا كانت تلك الشروط التي عدها المؤرخون متشددة أمام هذه الفئات. ووصفوها بأنها شروطا قاسية للتأكد من صدق رغبة النازحين إليها في العيش في سلام وكمواطنين يقدرون المسؤلية ويشاركون في بناء المدينة وفي الدفاع عنها وفي إنعاش الحياة الإقتصادية فيها. وليس للتسكع والعيش عالة على حساب الكادحين من سكانها الأصليين[١٠٧] .

المدن ذات السلطات السياسية المستقلة أو القومونات :

أما عن القومونات أو الكوميونات - كما سماها الأوربيون - فيشير المؤرخون إلى ان بعض المدن لم تكتف بما حصلت عليه من امتيازات وحريات وبراءات أو مواثيق بل استطاعت بفضل تضافر وتعاون مختلف العناصر فيها الحصول على سلطة سياسية واسعة غير تقليدية، وهي ما عرفت بالقومونات و المدن ذات السلطات السياسية المستقلة[١٠٨] وكانت مدن إيطاليا خاصة في لمبارديا وتسكانيا سباقة إلى الحصول على سلطات سياسية غير عادية انتزعتها بحد السيف

---

(106) Heer op. cit. pp. 69 - 71
(107) Pirenne : op. cit. p. 193
(108) Camb. Med. Hist. V 5, pp. 220 - 3

وخاضت في سبيلها حروباً كثيرة بعد صراع مرير وتحالف مختلف السكان لتحقيق ما كانت تهدف إليه[١٠٩]، أي أن القومونات هذه مثلت الرابطة بين أناس تجمعوا سوياً لغرض ما ثم صار ذلك هو الأساس القانوني الذي تحولت بمقتضاه المدن الإيطالية إلى مدن تتمتع بالإستقلال الذاتي، وذلك في النصف الأول من القرن الحادي عشر الميلادي[١١٠].

والمعروف أن الإمبراطورية الرومانية المقدسة اعتمدت على رجال الدين من الأساقفة في توطيد نفوذها في إيطاليا، غير أن سكان إيطاليا أحسو بمرور الوقت بوطأة هذه الوصاية. وبثقل حكم الأساقفة[١١١]، ولهذا فقد اتفق الصناع والتجار وبعض النبلاء في بعض المدن الإيطالية على تأليف اتحاد أو تحالف يهدف إلى تحطيم نفوذ الأسقف في المدينة للحصول على القوة والنفوذ السياسي[١١٢]. ونظراً لأن ذلك التحالف اتخذ طريق التمرد المسلح والكفاح المسلح، فقد اضطر الأساقفة في بعض المدن إلى التسليم بمطالب السكان ومنحهم نفوذاً سياسياً واسعاً، فظهرت بذلك مدن أو قومونات[١١٣]، لها قوة سياسية عظمى في جهات مختلفة من إيطاليا، وحاولت الإمبراطورية إخضاع هذه القومونات بالقوة إلا أن هذه القومونات استماتت في الدفاع عن مكاسبها، وامتد الصراع طويلاً بين الجانبين إلا أن ضعف الإمبراطورية

---

(109) Keen ; op. cit. p. 72

(١١٠) كانتور : المرجع السابق ق١ ص ٣٨٤

(111) Rowling : op. cit. p. 72

(112) Keen : op. cit. p. 72

(١١٣) ديفز : أوربا ص ٢١٦ – ٢١٨ . انظر أيضاً
Pirenne : A Hist. of Europe from the Invations to the VI century . p. 220 (N.Y 1955)

في النهاية أدى إلى خروج هذه القومونات ظافرة في نهاية الأمر بعد صراع شمل معظم القرن الثاني عشر والثالث عشر(١١٤) .وعلى هذا يمكن القول أن المدن قد حصلت على سلطة سياسية واسعة دعمتها باستقلال حقيقي وباشرت اختيار حكامها وموظفيها دون تدخل من سلطات أعلى أو وصاية من قبل الحاكم أو سيد خارجي . وهذا الصراع الذي خاضته المدن الإيطالية بصفة خاصة في سبيل القوة والاستقلال أغرى هذه المدن أحياناً بالدخول في صراعات مع بعضها البعض(١١٥) ،ولكنها في حقيقة الأمر نجحت من خلال ذلك إلى تأكيد ذاتيتها واستقلالها السياسي، واقتصرت التزاماتها السياسية نحو الدولة على دفع مبلغ معين من المال سنوياً أو أداء قسط معين من الخدمة الحربية. ولم يمض وقت طويل حتى بدأ صراع طبقي يشب في هذه المدن . ففي مدينة ميلانو مثلاً التي كانت مركزاً كنسياً قديماً شب صراع مرير بين الأسقف والبورجوازيين، وكذلك بين الأغنياء والفقراء وكشف هذا الصراع الطبقي عن سمة عامة في حياة سكان المدن في العصور الوسطى(١١٦) .

ولم يكن ظهور القومونات قاصراً على إيطاليا في لمبارديا وتسكانيا، ولكنها بدأت تنتشر منذ أواخر القرن الحادي عشر إلى أنحاء مختلفة من أوربا إلى فرنسا وإقليم فلاندرز، ثم إلى ألمانيا وإنجلترا(١١٧) ،حيث تكتلت جموع التجار والصناع والنبلاء ضد الأساقفة وانتزعوا منهم السلطة والنفوذ ، وقد بلغت حركة امتداد

---

(114) Strayer and Munro : op. cit. pp. 198 - 99

(115) Heer : op. cit. p. 75

(١١٦) كانتور : المرجع السابق ق١ ص ٣٨٤

(117) Keen : op. cit. pp. 72 - 3

القومونات في أوربا أوج اتساعها خلال القرون الثلاثة :الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر[١١٨]، غير أن التقدم الذي أحرزته تلك القومونات في الشئون السياسية والإقتصادية وازدياد قوتها قد أغرى كثيراً منها بمحاولة فرض نفوذها في الجهات المجاورة، وعلى أمراء النواحي القريبة، ومحاولة إخضاع المدن الصغرى، واستتبع ذلك دخول القومونات في صراع مع بعضها البعض[١١٩] – كما سبق أن أشرنا – بسبب التنافس السياسي والإقتصادي، وتدرج الأمر في بعض القومونات إلى قيام أسرات حاكمة قوية، استبدت بالحكم فيها وقوضت المعالم الأساسية لنظم المدينة التقليدية[١٢٠] .

ظهور الإتحادات أو النقابات :

ترجع النواة الأولى لظهور الإتحادات أو النقابات إلى زمن ترحال التجار وسفرهم في شكل جماعات منظمة، أطلقت عليها أسماء مختلفة أهمها اسم **Hanses** ،غير أن هذه التنظيمات لم تحل بعودة التجار إلى الوطن، إذ أن حاجة التجار إلى الإقامة وبناء المستودعات ومباشرة التجارة قرب الحصون والأديرة والضياع أوجبت بقاء هذه الإتحادات لرعاية مصالح الجماعة، إذ تشكلت نقابات التجار في كثير من المدن وتألفت تلك النقابات من الرجال الأحرار، وغدت هذه النقابات تمثل القوة الأساسية للرجال الأحرار[١٢١] ،فضلاً عن تضامن أفراد هذه الإتحادات لسد ما تتطلبه المحلات والمنازل والسلع، ثم كانت الحاجة الماسة لتفويض جماعة منهم لمفاوضة السادة الإقطاعيين للحصول على

---

(١١٨) ديفز : المرجع السابق ص ٢١٩ – ٢٢١

(119) Heer : op. cit. p. 75

(١٢٠) ديفز : نفسه ص ٢٤٥ – ٢٤٦

(١٢١) كولتون : عالم العصور الوسطى ص ١٩٥

البراءات التي تضمن للمدن حريتها . وهكذا وجدت في أخريات القرن العاشر نقابات للتجار والحرفيين في إيطاليا وفي حوض الراين وهي النقابات التي نظمت التجارة والصناعة على أسس واعية ، وكانت نقابات التجارة تجمعات تضامنية تضم المشتغلين بالتجارة العالمية . أما النقابات الحرفية فكان يسيطر عليها معلمو الحرف الذين كانوا يضعون أسس تحديد مستوى المنتجات الصناعية ويحددون الأسعار ويتحكمون تماماً في الصناع والصبيان والعاملين[١٢٢] .

فكأن هؤلاء التجار أنضووا تحت راية النقابات لكي يحموا أنفسهم من الضرائب التي كانت تصل أحياناً حد المصادرة وكذلك من عمليات الابتزاز التي مارسها بعض ملاك الأراضي من الأرستقراطيين ، لأن المدن في معظم الأحوال كانت تقع داخل أراضي سيد إقطاعي – كما سبق أن أشرنا – فوجد التجار أنه بالعمل الجماعي قد يستطيعون الحصول على الإمتيازات الضرورية للعمل التجاري[١٢٣]. وتشير الدلائل إلى أن النقابات بلغت درجة من التنظيم والنمو منذ القرن الحادي عشر فقد ارتبط تجار المدن بعضهم ببعض في تلك النقابات حماية لأنفسهم ومصالحهم من جهة الأمراء ورعاية مصالحهم في الأسواق البعيدة من جهة أخرى. فقد عملت النقابات على رعاية مصالح هذه الفئة من جهة الأمراء حتى لا يوضعوا في حالة مشابهة لحالة الأقنان ويضمنوا حرية التنقل والإعفاء من رسوم عبور الجسور الجائرة أو عبور الحدود الإقطاعية ، وأن يصبح لهم الحق في امتلاك العقارات في المدن والمثول أمام محاكم المدن وحق إتمام العقود التجارية وحرية البيع والشراء[١٢٤] .

---

(١٢٢) كانتور : التاريخ الوسيط ق١ ص ٣٨٣ – ٣٨٤

(١٢٣) هلستر : أوربا ص ١٦٣ – ١٦٤

(١٢٤) هلستر : نفسه ص ١٦٤

ثم أخذت النقابات تنظم ممارسة التجارة داخل المدن ذاتها، وصار أعضاء النقابة مسئولين عن سد الحاجات الماسة بالمدينة، بل إنهم ألزموا كل فرد لا ينتسب إلى النقابة بدفع رسم معين مقابل ممارسة نشاطه، وحرصت النقابة أيضاً على حماية مستوى الإنتاج والبضائع والإلتزام بمبادىء الكنيسة والبعد عن الغش[١٢٥] ،والتمسك بالأمانة، إذ اتجهت المدن إلىَ أن تصبح مراكز للصناعات وللتجارة أيضاً فدائماً ما يتبع التصنيع خطوات التجارة[١٢٦] ،ولما أخذت الأموز تتغير وتتعقد ظهرت نقابات أصحاب الحرف التي مهدت لفصل التجارة عن الصناعة وأخذ نمو هذه النقابات يزداد وقوتها تشتد إلى أن أجيز لأعضائها الإشتراك في إدارة المدن، ومع تقدم الحياة في المدن نمت وتطورت نقابات الحرف[١٢٧] ،حتى ليذهب البعض إلى أن نقابات إقليم الفلاندرز تعتبر أول من ابتكر نظام الحكومة المستقلة بالمدينة، وذلك بعد أن ازدهرت تجارة المدن هناك في القرن الحادي عشر، على إثر انتعاش الصناعة لاسيما صناعة الأقمشة الصوفية، وكان سكان مدن الفلاندرز قد استخدموا الأراضي غير الصالحة للزراعة كمراعي للماشية، وحصلوا على قدر من الصوف يكفي لهذه الصناعة[١٢٨]. وكثيراً ما سعت هذه النقابات في سبيل الخير ومساعدة المدينة في شراء ما يلزمها من شحنات الغلال مثلاً أو الفحم جملة وتوزيعها على الأهالي بأسعار معقولة على غرار نظام التموين زمن الحرب[١٢٩] .

---

(١٢٥) كولتون : عالم العصور الوسطى ص ١٩٦ – ١٩٧

(١٢٦) هلستر : نفسه ص ١٧٥ ،

Keen : op. cit. pp. 70 - 71

(١٢٧) كولتون : المرجع السابق ص ١٩٥

(١٢٨) كانتور : المرجع السابق ق١ ص ٣٨٤

(١٢٩) كولتون : المرجع السابق ص ١٩٦

وقامت نقابات الصناعة، على غرار نقابات التجارة أي منذ أوائل القرن الحادي عشر، حيث انتظم الصناع المهرة في نقابات حرفية[١٣٠]، وقامت هذه النقابات لرعاية مصالح فئة الصناع، وعدم السماح لأحد بممارسة الصناعة لغير أعضائها، وتحريم استيراد البضائع من جهات أخرى تنافس الإنتاج المحلي واحتكار سوق المدينة لأعضائها وعدم قيام منافسة بينهم، ووضعت النقابات الحرفية شروطاً أساسية كاملة وقواعد صارمة خاصة بالأسعار والأجور ومستويات الجودة أيضاً[١٣١]. وقامت نقابات أصحاب الحرف هذه على أسس خاصة في اختيار أعضائها وتنظيمها، وتدرج فئاتها من الصبيان والعمال والأسطوات[١٣٢]، وحددت نظم انتقال كل إلى المرتبة الأخرى، طبقاً لإجراءات خاصة. وسرعان ما تفرعت هذه النقابات وتكاثرت ومالت أكثر إلى التخصص، فظهرت نقابات للأطباء والصيارفة والنساجين والقصابين وصانعي الأحذية، والحدادين والنجارين والخبازين والزياتين وأصحاب الفنادق، وصحب ذلك التخصص زيادة في الحرص على إتقان الصنعة ورفع مستوى العمل والإنتاج[١٣٣]، وتحديد متوسط الأسعار بما يكفل حقوق كل من البائع والمشتري، وتحديد المقاييس والمكاييل والموازيين المستعملة، وكذلك الحرص على حقوق أعضائها، إذ حرمت على الأسطوات طرد العمال دون مبرر، كما ألزمت هؤلاء بالعمل مدداً معينة متفق عليها[١٣٤].

---

(١٣٠) هلستر : أوربا ص ١٦٥

(١٣١) هلستر : نفسه ص ١٦٥

(١٣٢) سعيد عاشور : أوربا ج٢ ص ٣١٥

(١٣٣) كولتون : نفسه ص ١٩٧

(134) Painter : Med. Society , pp. 81 - 2

تعدت أهمية النقابات رعاية المصالح الإقتصادية إلى النواحي الاجتماعية، يتمثل ذلك في حرص على التضامن في المناسبات الاجتماعية في الحفلات والأعياد إلى غير ذلك وتقديم العون لمن يصاب من أعضائها بالعجز أو مرض أو كارثة(١٣٥) ،ورعاية أولاد المتوفى من أعضائها وأسرته، وكان أعضاء هذه النقابات يجتمعون أحياناً لتوزيع الكسب ولمساعدة مرضاهم وفقرائهم، ومهد ذلك لنشأة الجمعيات الخيرية الوسيطة(١٣٦) ،وإذا أضفنا لذلك النفوذ السياسي والقضائي الذي تمتعت به النقابات، والذي سبقت الإشارة إليه، أدركنا مدى أهمية تلك النقابات في مجتمع أوربا في العصور الوسطى، أما الضعف الذي أصاب هذا النظام فراجع دون شك إلى عدم قدرته على التكيف وفقاً للتقدم الصناعي، فلم يكن بوسع أى عضو من أعضاء النقابة أن يستخدم طريقة جديدة أو آلة جديدة في الصناعة، إلا إذا أقرتها النقابة وأدخلتها في لائحتها، وكذلك قتلت روح الإبتكار والتجديد واضطر الكثيرون إلى العمل خارج دائرة اختصاص هذه النقابات، فبدأ النظام في التداعي(١٣٧) .

طرق النقل والمواصلات :

كانت الإمبراطورية الرومانية قد نجحت في إقامة شبكات من الطرق المرصوفة بالأحجار تربط أقاليمها وأهم مراكزها، واهتمت بتسهيل المواصلات ونقل التجارة إلا أن هذه الطرق ، تعرضت للإهمال بسبب ضعف السلطة وتكاثر المحن وهجمات البرابرة ، فلم تعد في

---

(135) Lavisse : op. cit. T. II , Livre I, p. 336

عاشور : نفسه ج٢ ص ٣١٧   Painter : op. cit. p. 83 ,

(١٣٦) كولتون : المرجع السابق ص ١٩٥

(١٣٧) عاشور : أوربا ج٢ ص ٣١٧

أواخر القرن الثامن الميلادي ومطلع القرن التاسع تزخر بالموظفين ولا بما كان للتجار من نشاط تجاري بعيد المدى، ولا تغص بالفنادق ودور البريد التي كانت مشيدة بالأحجار، وهي التي قال عنها سائح صيني مر في القرن الأول إنها كانت من المعالم المميزة لحضارة الإمبراطورية الرومانية[١٣٨] ، فضلاً عما أصاب الجسور المقامة على الأنهار من الإهمال لقدم العهد وضعف الإمكانات واضمحلال أحوال الإمبراطورية[١٣٩] .

ولهذا فقد كانت الطرق في أوربا في العصور الوسطى طرقاً بدائية تطمرها الأتربة فتتحول إلى أوحال عند هطول الأمطار، فضلاً عن عدم تمهدها وندرة الجسور التي تصل بين شواطىء الأنهار وتسهيل سبل التجارة والأسفار. ونظراً لذلك فقد كانت الدواب من الخيل والبغال هى وسائل النقل الشائعة في ذلك الوقت لدى كبار التجار، بينما لجأ صغار التجار إلى حمل سلعهم على ظهورهم والتنقل بها من مكان إلى مكان[١٤٠] .

وكانت إيطاليا أولى البلاد التي اهتمت برصف الطرق في مدنها، ومنها انتقل هذا التقليد إلى كثير من المدن في أوربا، فضلاً عن الإهتمام بتحسين الطرق بين المدن الرئيسية والمراكز العمرانية، ولهذا ظهر استخدام العربات أول ما ظهر في إيطاليا ومنها شاع إلى أنحاء أخرى في أوربا، فظهر في فرنسا وفي ألمانيا[١٤١] .

---

(١٣٨) موس : ميلاد العصور الوسطى ص ٣٧٥ – ٣٧٦ وانظر أيضاً :
Herth : China of the Roman Orient, p. 38

(١٣٩) موس : المرجع السابق ص ٣٧٩

(140) Pirenne : Economic and Social Hist. p. 88

(141) Painter : op. cit. p. 80

واهتمت الكنيسة كثيراً بموضوع رعاية الطرق والإهتمام بها، فأعلنت أن ذلك من أعمال البر والتقوى التي يثاب فاعلها حسن الثواب والغفران، فنشأت منظمات دينية كان الغرض منها المشاركة في إقامة الجسور وصيانتها ورعاية الطرق. ويبدو أن إهتمام الكنيسة بذلك نابع من رغبتها في الحد من السلب والنهب والجرائم والقرصنة رغبة في عدم تعريض أرواح المسافرين والتجار للأخطار(١٤٢) ،واهتمت الحكومات الأوربية أيضاً بإنشاء الطرق وحمايتها من عبث المجرمين والجنود المأجورين، واهتم التجار أنفسهم بتأمين متاجرهم وبضائعهم فاستأجروا أحياناً بعض الحراس المسلحين لحراسة التجارة عند نقلها من مكان إلى مكان، فضلاً عما درج عليه التجار من التجمع على شكل قوافل لصد أي عدوان يقع عليهم، بالإضافة إلى ما ظهر من أحلاف تضم بعض المدن ذات المصالح المشتركة لحماية تجارتها ورعاية مصالحها، كما فعلت العصبة الهانزية في شمال أوربا(١٤٣) .

وهكذا ببلوغ القرن الحادي عشر تقريباً قامت أولى طرق التجارة الداخلية، التي امتدت من إقليم فلاندرز مروراً بوسط أوربا حتى شمال إيطاليا، وكان التجار المرتادون لهذه الطرق يرحبون بتبادل بضائع الشرق الفاخرة مقابل السلع الشمالية وكان مكان اللقاء بين التجار الشماليون وتجار إيطاليا هي بلاد شامباني(١٤٤) .وفي القرنين الثاني عشر والثالث عشر، انتقل التجار بشكل مستمر عبر طرق وأنهار أوربا، إذ عبر الإيطاليون جبال الألب جالبين التوابل وسلع الرفاهية الواردة من الشرق الأوسط والبلاد الشرقية إلى الطبقة الأرستقراطية في فرنسا

---

(142) Ibid. p. 70

(١٤٣) ديفز : أوربا ص ٢٤٧

(١٤٤) كانتور : المرجع السابق ق١ ص ٣٨٤ – ٣٨٥

وألمانيا وحمل التجار الفرنسيون والألمان والفلمنكيون البضائع في أنحاء القارة الأوربية(١٤٥) .

أما بالنسبة للنقل البحري، فقد احتل أهمية أكبر من النقل البري، بعد أن شاع استخدام البوصلة التي أخذتها أوربا عن العرب، وإن كان استخدامها حتى منتصف القرن الثاني عشر كان يسير ببطء شديد(١٤٦) ،وأصبح بوسع السفن أن تخترق البحار آمنة من الضياع وفقدان الطريق، هذا فضلاً عن تقدم المعلومات البحرية خاصة اتجاه الريح وتحديد الأماكن الجغرافية إلى غير ذلك من تسهيلات السفر البحري، مع تقدم في فن صناعة السفن ذاتها وتطورها، وعلى الرغم من أن سفن العصور الوسطى ظلت تسير بالشراع والمجداف الأمر الذي تطلب تسخير العبيد لعملية التجديف وربطهم أحياناً بالسلاسل لضمان أدائهم لعملهم، على الرغم من ذلك، إلا أننا نسمع أن سفن البندقية الكبيرة كانت تحمل على عهد الحروب الصليبية نحو ألف راكب، مما يدل على تقدم كبير في عملية النقل البحري في أوربا(١٤٧) .

وقد أدى تقدم التجارة البحرية ونشاط المدن التجارية في أعالي البحار إلى ظهور القراصنة الذين دأبوا على مهاجمة السفن والقيام بعمليات السلب والنهب، مما عجل بتجميع السفن البحرية في شكل أساطيل بحرية لصد ما يقع عليها من عدوان، فضلاً عن مصاحبة سفن مسلحة لحمايتها، وعندما زاد النشاط التجاري كثيراً في أواخر العصور الوسطى ، وقويت المدن البحرية التجارية ، بذلت هذه المدن جهوداً

---

(١٤٥) هلستر : أوربا ص ١٦٦

(١٤٦) كولتون : المرجع السابق ص ٢٠٣

(147) Pirenne , Cohen , Focillon : op. cit. p. 82

متواصلة لتطهير البحار من القراصنة وخاصة في البحار التي اعتبرتها مناطق نفوذ لها[١٤٨] ، كما فعلت مدينة البندقية مثلاً بتطهيرها البحر الأدرياتي، الذي كانت تعتبره منطقة نفوذ لها وكما فعلت العصبة الهانزية من تطهير بحر الشمال والبحر البلطي، وربما كان لانعدام المكوس والضرائب الباهظة على السفن السائرة في البحار أثر في تقدم النقل البحري وجعله وسيلة من أهم وسائل النقل في أوربا في العصور الوسطى[١٤٩] .

أما النقل النهري، فقد نشط في الأماكن التي ساءت فيها أحوال الطرق وصادفت النقل البري فيها صعوبات كثيرة، فقد صارت السفن مصعدة في نهر بو ونهر الراين، كما أن المعديات والكباري التي وجدت منذ قرون بروما وإيطاليا وغالة ظلت تدفع الجزية للحكومات المحلية[١٥٠] ،فظهرت المواني النهرية ونقابات عمال النقل المائي في كثير من بقاع فرنسا وألمانيا وإيطاليا، خاصة في المدن الواقعة على أنهارها العظمى غير أن تجميد المياه في الشتاء فضلاً عن أخطار الفيضانات في الربيع، وقلة عمق مجاري الأنهار، فضلاً عن فرض المكوس والضرائب مثل المكوس البرية كان بمثابة عقبات أمام تقدم ونمو هذا النوع من النقل[١٥١] ، وفضلاً عن ذلك كانت بعض الطرق المائية بالغة الطول ، كالطريق المائي الذي يربط بين البحر البلطي

---

(148) Pirenne : Economic and Social Hist. p. 91
وعاشور : أوربا ج٢ ص ٣٢١

(١٤٩) ديغز : المرجع السابق ص ٢٤٧ – ٢٤٨، Pirenne : op. cit. p. 91

(١٥٠) موس : ميلاد العصور تاوسطى ص ٣٧٦

(١٥١) سعيد عاشور : المرجع السابق ج٢ ص ٣٢٠

والبحر الأسود، وعلى الرغم من ذلك هناك ما يدل على تزايد النشاط التجاري في ذلك الطريق إبان القرن الثامن وما تلاه[١٥٢].

على أن أوربا لم تعرف فرض الرسوم الجمركية عند منافذ الحدود السياسية إلا في القرن الخامس عشر الميلادي لحماية الإنتاج المحلي، وكذلك فرض الرسوم الجمركية على البضائع المستوردة من الخارج، برغم أن المكوس الداخلية كانت أمراً شائعاً في معظم أنحائها في ذلك الوقت مما عوق التجارة وقلل كثيراً من فرص انطلاقها[١٥٣].

الأسواق والمصارف :

لم تعرف أوربا في القرنين التاسع والعاشر باستثناء الأسواق ذات الشهرة الدينية مثل سوق سانت دينيس **St. Denys** قرب باريس وسوق تروي **Troys** سوى الأسواق المحلية الأسبوعية التي جرت المعاملات التجارية فيها على نطاق ضيق لخدمة المجتمعات المحدودة، وسد حاجات المجتمعات الصغيرة[١٥٤]، لكن بتقدم النشاط التجاري في أوربا منذ القرن الحادي عشر، أضحت الحاجة ماسة لقيام أسواق أو معارض كبيرة **Fairs** في جنوب أوربا وغربها لممارسة العمليات التجارية الواسعة، وإتمام الصفقات التجارية الكبيرة، واجتذاب أعداد كبيرة من الناس، فكانت المعارض الفرنسية في القرن الثاني عشر في سانت دينس المشار إليها من قبل وفي بوكير **Beaucaire** على نهر الرون، وفي شالون على نهر الساءون ، وفوق ذلك جميعاً معارض مدن شامبني

(١٥٢) موس : المرجع السابق ص ٣٧٩
(153) Pirenne : op. cit. pp. 90 - 2
(154) Cantor : Med. cities in Med. world. p. 262

الأربعة[١٥٥] ،التي جذبت شهرتها ورخاؤها سيلاً من الزوار الألمان المهاجرين إلى فرنسا الذين قدموا كتجار وحرفيين وطلاب علم وجنود والذين أملوا في إنشاء جاليات ومستعمرات في باريس وأورليان ومونبلييه وأفنيون[١٥٦] ،وظلت الأسواق المحلية **Local Markets** معنية بسد حاجات الناس البسيطة في المناطق التي أقيمت بها والمناطق المجاورة لها[١٥٧] .

ومن أمثلة الأسواق الكبيرة التي عرفتها أوربا في العصور الوسطى أو المعارض الكبيرة، أسواق شامبني في إقليم شامبني (شامباني) صاحب الموقع الجغرافي الفريد وملتقى تجار الجنوب بتجار الشمال، إذ يشير المؤرخون إلى أنه واتت التجار فرصة الوصول بتجارتهم إلى الأسواق أو معارض شامبني مثلما واتتهم الفرصة للوصول أيضاً إلى أسواق ومعارض الأقاليم المتمدينة في شمال فرنسا والفلاندرز وشمال ووسط ألمانيا وهى أكثر مراكز التجارة والصناعة أهمية في تلك الجهات[١٥٨] .

وكانت أسواق شامبني وأمثالها في أوربا تسير وفق نظم دقيقة، وفي مدة معينة وتقام أسواق الأقاليم كلها متتابعة زمنياً بحيث تستغرق العام كله دون تعارض أو تضارب[١٥٩] .فأمدت هذه السلسلة من الأسواق المقامة على امتداد طرق التجارة البرية التجار الذين قدموا من مناطق أخرى بفرص ممتازة لبيع بضائعهم[١٦٠] ، وكانت هذه الأسواق

---

(155) Heer : op. cit. p. 79
(156) Ibid. p. 79

(١٥٧) موس : ميلاد العصور الوسطى ص ٣٧٩

(158) Heer : op. cit. p. 73
(159) Ibid. p. 79

(١٦٠) هلستر :المرجع السابق ص ١٦٦

تفتح من الصباح حتى المساء ساعات محدودة كل يوم لا يجوز التعامل إلا خلالها، وجرت العادة على تخصيص كل عشرة أيـام للمتـاجرة في بضائع معينة، ففي العشرة أيام الأولى لا يسمح إلا ببيع الأصواف، وفي العشرة التاليـة يسمح ببيـع الجلـود والفراء وفي العشـرة التاليـة يبـاع مختلف السلع التي تكال وتوزن، ويـترك خمسـة أيـام أخـرى للتجـار لجرد بضائعهم واتمام حساباتهم ودفع ما عليهم مـن رسـوم[١٦١] ،فقـد كان الكونتات معنيين بتوفير الأمن والسـلامة للتجـار في هـذه الأسـواق وعـبر أراضيهـم، وفي كـل معـارض المـدن الأربعـة الكبـيرة في إقليـم شامبني[١٦٢] .

وحيـث أن هــذه الأســواق كــانت تقــام في دائـرة اختصــاص الكونتات، فقد كان موظفو الكونت الذي يتبعـه السـوق يشـرفون علـى سيرها، ويتحتم على التجار دفع الرسوم لهم نظير حماية الأمير للسوق وضمان استتباب السلام، وعدم تعكير الصفو في السوق، فضلاً عن قيـام المشرفين والملاحظين بحفظ النظام في الأسواق والفصل في المنازعات التي تنشب بين التجار[١٦٣] ، وقليل من هذه المعارض أو الأسواق هو الـذي أعطى لأوربا مكانتها في هذه الناحيـة ومـن هـذه سـوق برجـز **Bruges** وسوق جينفيف في القرن الثالث عشر وسوق فرانكفورت في القرن الرابع عشر وكلها سارت على غـرار أسـواق شـامبني[١٦٤] ،وفي أواخـر القـرن الثالث عشر (١٢٨٤م) حين حاز فيليب الرابع شامبني تسبب انتزاعه هـذا الإقليـم في اضمحـلال معـارض شامبـني وبـدأت البندقيـة وجنـوا

---

(١٦١) ديفز : أوربا في العصور الوسطى ص ٢١٤

(162) Heer : op. cit. p. 79

(١٦٣) ديفز : المرجع السابق ص ٢١٤

(164) Heer : op. cit. p. 79

الإيطاليتان في سلوك الطريق البحري إلى الفلاندرز للوصول إلى مراكز صناعة النسيج وهناك قابلوا تجار ألمانيا وتجار الشمال وانجلترا وترتب على ذلك أن احتلت برجز Bruges مكانة شامبني ومعارض شامبني الشهيرة(١٦٥) .

ونظراً لأن نبلاء الإقطاع في أوربا تمتعوا بحق سك العملة الخاصة بهم فقد كان من الطبيعي أن تتنوع العملات المتداولة في الأسواق في الوقت الذي كان بعض التجار يشترطون نوع العملة التي يتعاملون بها، والتي تصلح للتداول في بلادهم(١٦٦) ،ومن ثم أصبحت الحاجة ماسة إلى موظفين مختصين لتبديل العملة في الأسواق، وهم من جرت تسميتهم بالصيارفة، النواة الأولى للنظام المصرفي، فصراف ذلك العصر كان يحتفظ بنقوده في صندوق متين، مما جعل كثيراً من الأشخاص يلجأون أليه لإيداع أموالهم عنده لتكون في مأمن، ولم تلبث أن استخدمت في إيطاليا الحوالات والكمبيالات المالية، لتجنب نقل النقود والمعادن النفيسة من مكان إلى مكان، ثم ظهر بعد ذلك نظام الدفع أو الشيكات بارسال ورقة للصراف بدفع المبلغ المحدد فيها لحاملها(١٦٧) ،فكلما زاد نظام التجارة كلما زادت الديون والأعمال المصرفية تبعاً لذلك، وبحلول القرن الثالث عشر عملت أسر كثيرة بالأعمال المصرفية وجمعت ثروات ضخمة(١٦٨) .

غير أن مهمة الصراف لم تقتصر بعدئذ على مجرد حفظ الأموال

---

(165) Ibid. pp. 79 - 80

(166) Ibid. p. 73

(167) Thompson: Economic and Social Hist. of Europe, p. 449

(١٦٨) هلستر : المرجع السابق ص ١٦٦

وتبديلها، إذ أن بعض الصيارفة لجأوا إلى استغلال ما لديهم من أموال بإقراضها بفائدة وتلك وظيفة أخرى من وظائف البنوك، وكانت الكنيسة قد حرمت مبدأ القرض بالربا مما سمح للتجار اليهود بالانفراد بهذا الأمر في العصور الوسطى وممارسة الإقراض بالربا الفاحش[١٦٩]، إذ كان اليهود منذ البداية تجاراً على نطاق واسع، ثم صاروا بعد ذلك صيارفة ورجال بنوك وقناصل وكذلك مستشارين ماليين[١٧٠]، غير أن ازدياد النشاط التجاري في أوربا في ذلك الوقت وكثرة الأرباح أغرت الكثيرين بالتهرب من تعاليم الكنيسة وممارسة الاقراض بفوائد معقولة والتحايل على ذلك بشتى الطرق[١٧١]. فبدأ الكثيرون يحلون تدريجياً محل اليهود في الإشتغال بأعمال الصيرفة، لاسيما في إيطاليا، وخاصة بعد أن بدأت في أوربا حركة اضطهاد اليهود في فرنسا وانجلترا وأسبانيا، أدت إلى طرد كثير منهم من هذه البلاد، وبعد أن أسهمت الحروب الصليبية في تهيأة الشعوب الأوربية لتقبل مبدأ الحد من نشاط اليهود في أوربا[١٧٢].

وعلى هذا فقد بدأت بعض البنوك الأوربية في الظهور، فظهر بنك القديس جورج في جنوا، وبنوك فلورنسا التي حظيت بتفضيل البابوية للتعامل معها في القرن الثالث عشر، والتي امتدت فروعها من

---

(١٦٩) عاشور : أوربا ج٢ ص ٣٢٦ ،

Keen : op. cit. pp. 206 - 7

(170) Heer : op. cit. p. 78

(171) Camb. Med. Hist. V. 6, p. 491

(172) Pirenne ; op. cit. p. 134 , Rowling : op. cit. p. 60

انجلترا وفلاندرز حتى أطراف البحر المتوسط شرقاً(١٧٣) .

وهكذا يبدو أمراً متناقضاً من الناحية الظاهرية، أن الفترة التي نظر إليها على أنها تمثل عصر الإيمان شهدت ازدياد التجارة على أوسع نطاق، وشهدت جمع الأموال ومع ذلك فإن الأموال بنت الكتدرائية القوطية، ودعمت الحملات الصليبية، وهى التي مولت المنشآت الدينية التي أقامها القديس لويس، وفجرت الحيوية في الثقافة الدينية الرفيعة المستوى، إنه المال الذي جعل الإيمان محاطاً بالحماسة والغيرة بلا ريب، وبمرور الوقت قدر للإيمان المسيحي أن يكون ضحية لروح الحرص الشديد على المال الذي تفجر في المدن(١٧٤) .

(173) Thompson : op. cit. p. 449

(١٧٤) هلستر : المرجع السابق ص ١٦٦

الفصل الثالث
التعليم والجامعات في أوربا في العصور الوسطى

التعليم في أوربا في العصور الوسطى :

كانت الفترة التي تلت غزوات البرابرة وسقوط الإمبراطورية في الغرب من أشد فترات التاريخ الأوربي الوسيط ظلاماً، فيما يتعلق بالناحية الثقافية والتعليمية، ومن ثم تحتم على الكنيسة القيام بدورها لتقليل الفجوة الهائلة بين العصور القديمة والعصور الوسطى في هذا المجال، وإعداد أجيال من رجال الدين والمهتمين بدراسة اللاهوت، وسير القديسين والكتاب المقدس[١] . وساعد على اتساع سلطة الكنيسة وانفرادها بالإشراف على التعليم وبرامجه ما حدث من انهيار السلطة العلمانية، وقيام الممالك الجرمانية في غرب أوربا من ناحية، وما ظهر من نفور الجرمان من التعليم من ناحية أخرى[٢] ،حتى يؤثر أن ثيودريك -ملك القوط الشرقيين - الذي عرف بثيودريك العظيم، على الرغم من تشجيعه العلماء والأدباء والشعراء وتقريبه إياهم وإحاطة نفسه بالمستشارين والمبرزين في مختلف العلوم، على الرغم من كل ذلك، غلبت عليه نزعته الجرمانية، وأثر عنه أنه نهى عن تعليم أولاد القوط أو إرسالهم إلى المدارس، لأن الأطفال الذين يعتادون - على حد قوله - الخوف من عصا المعلم لن يصبحوا في المستقبل فرساناً شجعاناً، ولن تكون لديهم الجرأة في مستقبل حياتهم للقيام بالحرب والقتال[٣] ،ولهذا تحتم على الكنيسة أن تهيمن على التعليم .

---

(1) Cantor : The Beginning of the Universities in Med. word . p. 222

(2) Seidlmayer : op. cit. pp. 2 - 3

(3) Thompson : The Middle Ages v. 2, p. 743

فلم يكد ينتهي القرن السابع إلا كان التعليم في غـرب أوربـا قـد أصبح تعليماً دينيـاً بحتـاً، يخضـع خضوعـاً تامـاً لسـيطرة الكنيسـة، ويجري في مدارس ديرية ومدارس أسـقفية أو كاتدرائيـة، وظـل كذلـك حتى القرن الثاني عشر[٤] ،على الرغم من أن بعض الباحثين يؤكد أن الإشـراف علـى التعليـم، اشـتركت فيـه عـدة هيئـات، ولم تنفـرد بـه الكنيسة وحدها فإلى جانب إشراف الكنيسة كان هناك إشـراف ملكـي أحياناً[٥] وإشراف من المـدن وإشـراف حـر أيضـاً[٦] ،ولكننـا نجـد أن الكنيسة كان لهـا النصيـب الأكـبر في الإشـراف علـى التعليـم في تلـك الحقبة، إذ أشرفت على مدارس الأديرة، وكذلك مدارس الكاتدرائيـات أو الأسقفيات وقام رجـال الديـن بـالتدريس في غالبيـة أنـواع المـدارس الأخرى، التي قـامت في العصـور الوسـطى، لأن العصـر الـذي أعقـب غزوات البرابرة، وسقوط الإمبراطورية في الغرب، كان أحلك العصور في تاريخ أوربا الثقافي، لولا الدور الذي لعبتـه الكنيسـة للاحتفـاظ بشـعاع خافت ظل مضيئاً في سماء غرب أوربـا المظلمـة، حتـى القـرن السـابع الميلادي[٧]. وكان يتحتـم علـى الكنيسـة القيـام بهـذا الـدور وإخضـاع التعليم خضوعاً تاماً لسيطرتها، نظراً لتدهور السلطة العلمانية واضطرار الدولـة إلى التنـازل عـن إختصاصاتها فيمـا يتعلـق بالشئـون التعـليمية

---

(4) Crump and Jacob : The Legacy of the middle Ages , p.255 (Oxford 1926)

وانظر أيضاً موس :ميلاد العصور الوسطى ص٣٩٠

(5) West : Alcuin , p. 55 (N. Y. 1916)

Laistner : Thought and Letters in western Europe ,A.D. 500 to 900 , p. 159 (N. Y. 1930)

Davis : Charlemagne , p. 169 (N. Y.1899)

(٦) وهيب سمعان : الثقافة والتربية في العصور الوسطى ص ١٤٥

(٧) عاشور : المرجع السابق ج٢ ص ٣٣٠

للكنيسة فامتلكت الكنيسة حق الرقابة المطلقة على التعليم ولعدة قرون تالية[٨] وفي نفس الوقت، ازدادت قوة البرابرة في المجتمع الغربي، واتسع نفوذ الكنيسة تدريجياً[٩] .

المدارس الديرية :

وكانت المدارس التي اشتملت عليها الأديرة، عاملاً هاماً في انطلاق الحركة العلمية الدينية، خاصة بعد أن اختفت غالبية المدارس التي أنشئت في عصر الإمبراطورية الرومانية[١٠] .وقدر لأديرة أيرلندا بالذات أن ترعى بعض الدراسات الإنسانية والثقافة بل وتشع منها إلى بقية أنحاء إنجلترا ثم إلى قلب القارة الأوربية بجهود رجال الأديرة الأيرلنديين إلى غالة وألمانيا ولمبارديا وكثير من أنحاء القارة الأوربية[١١]. ولقد أطرى بدي **Bede** الرهبان الأيرلنديين ورعايتهم للطلاب، حتى حازت المدارس الديرية الأيرلندية على إعجاب الناس في كل مكان فدرس ألكوين **Alciun** في إحداها وأنشأ الرهبان الأيرلنديون كثيراً من المدارس في معظم أنحاء العالم اللاتيني حينئذ وشجعوا الدراسة فيها خاصة وأنهم كانوا لايزالون يعرفون اللغة اليونانية[١٢]، وبرعوا فيها وكان لهم في أوائل القرن السابع أفضل مراكز التعليم في أوربا الغربية[١٣] .

---

(8) Stallaert , Hegen : De L' Instruction Publique au Moyen Age , p. 32 ,

سمعان : المرجع السابق ص ١٥١

(٩) عاشور : نفس المرجع السابق ج٢ ص ٣٣٠

(١٠) وهيب سمعان : المرجع السابق ص ١٤٦

(11) Thompson : op. cit. v. 2, p. 747

(12) Sandys : A Hist. of classical Scholarship , pp. 491-5 (Camb. 1921, 3 Ed.)

(١٣) كانتور : التاريخ الوسيط ق١ ص ٢٨٢

وهكذا أسهمت مدارس الأديرة في تقدم الحركة العلمية، لأن الرهبان اهتموا في كل دير بجانب واجباتهم الدينية بتعليم الصغار من أبناء القرى المجاورة، وخدمة البيئة ثقافياً، وأدى انتشار تلك المدارس الديرية في أنحاء كثيرة من غرب أوربا إلى جعلها مراكز للاشعاع العلمي في الفترة بين سنتى ٨٠٠ – ١١٠٠م، وعرفت هذه الفترة بالعصر البندكتي[١٤] ،لأن رهبان القديس بندكت، أظهروا حماسة بالغة في القيام بواجبهم في التعليم العام، واشتغلوا في أديرتهم بتعليم الصغار، وضمنوا كل دير مكتبة امتلات بالكتب والمخطوطات النادرة، وأعدوا في كل دير مكاناً خاصاً بالكتابة تفرغ فيه بعض الرهبان لنسخ المخطوطات والكتب الهامة[١٥]، وجمعها وحفظها في غرف خاصة. حقيقة أن الغرف الخاصة بالمكتبات بمعناها الدقيق ربما ترجع لفترة لاحقة، ولكن يمكن القول أن اهتمام الأديرة بجمع هذه الكتب في مكان خاص ليرجع إليها الرهبان ربما جرى في ذلك الوقت[١٦]، بل إن ألكوين نفسه يشير في القرن الثامن إلى وجود عدد من الكتاب والمؤلفين في مكتبة دير يورك[١٧] .

ولقد جرت عادة هذه المدارس على أن تقبل أنواعاً من الطلاب بعضهم أعدوا أنفسهم ليكونوا رهباناً داخل الدير ولهذا سموا بالداخليين أو **Interni** ،وكذلك العمل كرجال دين خارج الدير ولهذا سموا بالخارجيين أو **Externi** ،والبعض الآخر كانوا لايرغبون الإشتغال

---

(١٤) عاشور : المرجع السابق ج٢ ص ٣٣٧ ،سمعان : نفسه ص ١٥٠ ،
Monroe:A Text-Book in the Hist.of Education, pp. 260-1

(15) Camb. Med. Hist. v. 5, p. 772

(16) Monroe : A Text-Book in the Hist. of Education, p. 265 (London 1933)

(17) Good :A Hist. of Western Education , p. 69 (N.Y. 1949)

بالدين إطلاقاً[١٨] .وهكذا لم تكن المدارس الديرية في هذه الفترة قاصرة على تعليم الديريين، بل إنها استقبلت طلاباً للعلم من غير الديريين لأول مرة في تاريخها[١٩] ،ومنذ بداية القرن التاسع غدا لكل دير مدرستان منفصلتان، إحداهما للديريين المتفرغين للعبادة، والأخرى للطلاب الخارجيين. وبذلك أسهمت المدارس الديرية في نشر الحركة التعليمية العامة إلى حد ما، على الرغم من أن نظمها ومواد دراستها ظلت دينية في أسلوبها وأهدافها إلى حد كبير[٢٠] ،فضلاً عن أن النظام فيها كان صارماً، فلا يحصل الطلاب الداخليون على فرص للعب إلا قليلاً، كما كان الهدوء يسود الأديرة حتى في فترات الراحة بين الدروس واستخدام العصا والصوم الإجباري والحبس كلها كانت من وسائل العقاب المألوفة[٢١] ،كما أن تعليم العلمانيين لم يكن له نظام ثابت مما ترتب عليه بقاء أغلب من التحق به جهالاً لا يعرفون القراءة والكتابة، لأن التعليم في تلك المدارس كان يجري بقسوة وحزم شديدين للمحافظة على النظام واحترام القائمين على التعليم، على الرغم من ضعف هؤلاء وانخفاض مستواهم العلمي، كما أن الدروس كانت تلقى شفهياً بسبب ندرة الكتب وارتفاع أسعارها وغلو أثمان الورق[٢٢] .

وهكذا كانت مدارس الأديرة قبل القرن الثامن الميلادي مدارس بدائية، كما كان التعليم فيها بسيطاً خاصاً لأولئك الذين لا يرغبون في الإستمرار في الرهبنة ولم يشذ عن هذه القاعدة إلا أيرلندا، إلى أن اهتم شارلمان وألكوين منذ اواخر القرن الثامن بالحركة التعليمية فارتفع

(١٨) وهيب سمعان : المرجع السابق ص ١٤٧

(١٩) سعيد عاشور : أوربا ج٢ ص ٣٣٧ - ٣٣٨

(20) Camb. Med. Hist. v. 5, p. 772

(٢١) وهيب سمعان : نفس المرجع ص ١٤٧

(22) Coulton : Life in the Middle Ages, v. 2, p. 113

مستوى مدارس الأديرة وازداد عددها، وتعدت أغراضها مجرد الإعـداد للحياة الديرية فقط[٢٣] .

المدارس الأسقفية أو الكاتدرائية :

على الرغم من أن هذه المدارس لم تختلف كثيراً عن المدارس الديرية في طابعها الديني وأهدافها الكنسية، إلا أنها أسهمت مع الأديرة في نشر الحركة العلمية بأوربا في تلك الفترة، خاصة بعد أن أخذ اهتمام المدارس الديريـة بـالعلوم المدنية يقل تدريجياً، وراحت الثقافة الفكرية تتحول من الأديرة إلى الكاتدرائيات[٢٤] ،فعلى الرغم من أن المدارس الأسقفية أو الكتدرائية سارت جنباً إلى جنب لفترة مع المدارس الديرية، إلا أنه قدر للمدارس الأسقفية أن تحل تدريجياً محل مدارس الأديرة، وكانت الكاتدرائيات، وهى كنائس كبيرة يقيم بها الأساقفة تحتل أهمية خاصة لأن كل واحدة منها تتوسط منطقة يطلق عليها اسم أبرشية Diocese ، فألحقت بكل كتدرائية مدرسة أو معهداً كان الأسقف يتولى رئاسته في أول الأمر[٢٥] ،بل يؤكد بعض المؤرخين أن الكتدرائيات اعتباراً من القرن الحادي عشر وما تلاه كانت ترعى عدداً من المدارس بعضها كان يقدم تعليماً على مستوى رفيع وفي جوانب متعددة من العلم[٢٦] . وفي البداية كان الأسقف يتولى رئاسة المدرسة أو المعهد المشار إليه أو يشرف على التعليم في الأسقفية إذا تعددت مدارسها أو معاهدها، لكن تعدد مهام الأسقف وتنوعها وكثرتها جعلته يعهد بذلك لأستاذ متخصص Magester Scholarium

(٢٣) وهيب سمعان : المرجع السابق ص ١٥٠

(٢٤) وهيب سمعان : نفسه ص ١٥٣ – ١٥٤

(٢٥) سعيد عاشور : أوربا ج٢ ص ٣٤٠

(26) Leach : Schools of Med. England , pp. 156 - 78 (N.Y.1915) , وانظر سمعان : نفسه ص ١٥٥

للاشراف على التلاميذ[٢٧] ،أى أنه عهد إلى مشرف خاص بالإشراف على التعليم أو مدارس الكتدرائية وإدارته وأُطلق على هذا المشرف في أوربا اسم Scholasticus وفي إنجلترا اطلق عليه اسم Chancellor[٢٨] .

ترتب على ذلك ميزة هامة، اختصت بها المدارس الأسقفية أو الكتدرائية عن المدارس الديرية، إذ أن الرقابة في المدارس الأسقفية قلت عنها في المدارس الديرية، التي ظلت صارمة في نظمها، قاسية في رقابتها على الطلاب، ولهذا فقد أتيح للمدارس الأسقفية نوعاً من الحرية في مقرراتها الدراسية، جعلها تتفوق على المدارس الديرية التي أصابها الجمود بسبب صرامة نظامها[٢٩]، بل إن المدارس الأسقفية أو الكتدرائية وسعت دائرة اهتمامها، ولم تقصره على الشئون الدينية، فاهتمت بالنواحي الخلقية ورعت العلوم والفنون واهتمت بالفقراء والمرضى وعنيت بالمكتبات فأضحت مراكز للفكر من ناحية والفنون الحرة من ناحية أخرى[٣٠]، وقدر للمدارس الأسقفية البقاء والاستمرار بل والازدهار في أوائل القرن الثاني عشر في الوقت الذي أخذ فيه نجم المدارس الديرية في الأفول البطيء[٣١] .

ففي الوقت الذي لم يبق من مدارس الأديرة سوى قلة محدودة ذات شهرة إذا بالمدارس الأسقفية تتزعم النشاط الفكري في كثير من أنحاء غرب أوربا في بداية القرن الثاني عشر، لا سيما في فرنسا التي غدت مدارسها مثل ريمس وشارتر وليون مراكز للعلوم الكلاسيكية

---

(27) Camb. Med. Hist. V. 6, pp. 559 - 60

(٢٨) سمعان : نفسه ص ١٥٥

(29) Thompson : op. cit. v. 2, p. 758

(٣٠) وهيب سمعان : المرجع السابق ص ١٥٥

(31) Thompson : op. cit. v. 2, p. 749

وظهرت في شارتر بالذات نهضة كلاسيكية حقيقية لاهتمام هذه المدرسة بأعمال القدماء وإبراز نشاطهم بصورة واضحة[٣٢]، وأصبح لمدارس فرنسا شهرة ذائعة، بفضل من أنجبتهم من مبرزي الفكر والمعرفة في العلوم والآداب[٣٣] .

أما بالنسبة لمناهج الدراسة في تلك المدارس الأسقفية. فقد اهتم بعضها بالعناية الخاصة بدراسة النحو ودراسة نماذج من الشعر والنثر والمنطق أى دراسة المجموعة الثلاثية التي هي النحو والبيان والمنطق وبعضها اهتم كثيراً بدراسة المجموعة الرباعية التي هي : الحساب والهندسة والفلك والموسيقى. كما حظيت العلوم بقسط وافر من العناية، وفي مقدمتها علوم اللاهوت والفلسفة والقانون[٣٤] ،بل جرت العادة لأن يكون لكل رئيس أساقفة كرسيان أحدهما للفلسفة والآخر للقانون الكنسي[٣٥] .

وكانت الكاتدرائية تنفق من أموالها على الطلاب الذين كانوا يؤهلون ليصبحوا رجال دين، أما الطلاب الآخرين فكانوا يؤدون أجوراً قليلة ماعدا الفقراء منهم الذين كانوا يعفون من ذلك، بل إن الكنيسة كانت تخصص رواتب كافية للمعلمين، الذين تولوا تعليم من يعدون لمهنة الكهانة وفقراء التلاميذ بالمجان[٣٦] .

---

(32) Poole : Illustrations from the Hist. of Med. Thought, pp. 114-19 (N.Y. 1920)

(33) Heer : op. cit. p. 97, p. 107 , p. 113

(34) Thompson : op. cit. V. 2, p. 742

(35) Walsh : The Thirteenth the Greatest of centurics, p. 28

(36) Thorndike : A Journal of Med. Studies , p. 401 (Oct. 1940)
وانظر : سمعان : نفسه ص ١٥٦

القديس برنارد وبطرس أبيلارد :

أنجبت الحركة العلمية في القرن الثاني عشر شخصيتين هامتين مثل كل منهما جانباً مما ساد غرب أوربا من مظاهر علمية وفلسفية وفكرية وهى شخصية القديس برنارد **Bernard** وبطرس أبيلارد **Abelard** .أما الأول فقد كرس حياته للدفاع عن الأفكار الكاثوليكية التقليدية(٣٧)، غير أن الثاني دعا إلى تحرير الفكر وإطلاقه من قيود الكنيسة القديمة . وكان المجتمع الأوربي قد شهد دعوات تحث على استخدام العقل وإعماله في مسائل العقيدة والإيمان وإخضاع المسائل الدينية للمنطق والفكر ومجريات الأمور(٣٨).

وكانت الرهبانية والديرية قد أصابها الإنحلال والضعف، وفقدت كثيراً من الأسس التي بنيت عليها، مما أوجب قيام حركات إصلاح فيها بغية إعادتها إلى سالف عهدها وقوتها(٣٩)، ومن الجماعات الديرية التي نشأت في أوربا لتحقيق هذا الهدف جماعة السسترشيان **Cistercian** التي كان لها دور هام في إصلاح النظام الديري(٤٠)، وتقويم أحوال الرهبان، فقد التحق القديس برنارد بهذا النظام سنة ١١١٥م ،ثم أسس الدير الشهير في كليرفو، وهو أحد الأديرة الباكرة التابعة للدير الرئيسي في سيتو، ولهذا أطلق أحياناً على هذه الجماعة إسم البرنارديين نسبة إلى هذا القديس الذي كان أكبر عقلية دينية في القرن الثاني عشر الميلادي(٤١) .

---

(37) Huizinga : The Waning of the Middle Ages , p. 251

(٣٨) نور الدين حاطوم : تاريخ العصر الوسيط في أوربا ج١ ص ٩٠٥

(39) Rowling : op. cit. p. 155

(40) Camb. Med. Hist. V. 5 , pp. 673 - 4

Painter : A Hist. of the Middle Ages , p. 145

(٤١) كانتور : التاريخ الوسيط ق٢ ص ٦٠٨

وفي هذا الجو عاش القديس برنارد حياة دينية سليمة، فبدأ متصوفاً وراهباً في تلك الجماعة، وكان برنارد ابناً لأحد نبلاء برجنديا ودخل في نظام السسترشيان وهو في الحادية والعشرين من عمره، ولم يمض عليه سوى ثلاث سنوات بعد ذلك حتى أصبح رئيساً لدير كليرفو، ومن هذا الموقع أصبح لبرنارد نفوذ على البابوات والملوك والأساقفة والنبلاء وجمهور العامة[٤٢]، ثم تدرج في السلك الديني حتى تبوأ مكانة عالية أهلته للقيام بدوره في خدمة الدين والدفاع عن الكنيسة[٤٣]، فقد أضحى هذا القديس (ت ١١٥٣م) أعظم شخصية في أوربا وأفصح المتحدثين باسم النظام الجديد، كما غدا صديقاً للبابا[٤٤].

وحينما تطورت مسألة التقليد العلماني واستفحل النزاع بين الإمبراطورية والبابوية حول هذه المسألة في أدوارها الأخيرة، واعتنق البابا أنوسنت الثاني ١١٣٠ - ١١٤٣م نظرية التفوق البابوى وسيادة البابوية على كل مظاهر السلطة الدنيوية، بما في ذلك الإمبراطورية، قام القديس برنارد بمعاضدة هذا البابا وتأييده ضد كل منافسيه وقضى على الإنقسام الكنسي، لأنه كان يتمتع بنفوذ كبير في الغرب في ذلك الوقت[٤٥]. وكان للقديس برنارد أيضاً دور بارز في تنصيب البابا أيوجين الثالث ١١٤٥ - ١١٥٣م الذي كان من تلاميذه، وذلك بفضل نفوذه الواسع وتمتعه بالاحترام والتقدير في أنحاء أوربا، كما كان لهذا الرجل فضل أيضاً في الدعوة للحروب الصليبية[٤٦]، التي غدت تشغل حيزاً كبيراً من فكر الناس بغرب أوربا في ذلك الوقت، فساعد

---

(42) Eeer : op. cit. pp. 102 - 3

(43) Leff : Med. Thought , St. Augustin to Ockham, p. 134

(٤٤) سعيد عاشور : المرجع السابق ج٢ ص ٢٤٦

(45) Heer : op. cit. p. 102

(٤٦) ديفز : أوربا في العصور الوسطى ص ١٤١

في الدعوة للحملة الصليبية الثانية بالذات، بعد سقوط مدينة الرها في أيدي المسلمين، فقد ألهبت نيران هذا الحدث بلاغة القديس برنارد على حد قول المؤرخين[٤٧] ،فراح يدعو للحملة الصليبية ويحمس الناس للاشتراك فيها، وشارك أيضاً في إعداد الفرسان الاشداء لهذا الغرض، إذ ينسب إليه تأسيس أهم جماعة من الرهبان الصليبيين المقاتلين وهم جماعة الفرسان الداوية، التي كان لها شهرة ذائعة خلال ذلك العصر[٤٨] .

ولم يكن القديس برنارد مجرد مصلح ديني بالنسبة للمسيحيين، بل إنه كان لاهوتياً كبيراً، ومن أعظم علماء الفقه الديني في عصره[٤٩] ، كما كان متفوقاً في الكتابة والبلاغة، وله رسائل تميزت ببلاغتها وإتقان إسلوبها، لأنه وجه عنايته للدرس والتأليف والتحصيل واتجه بفلسفته وتفكيره للدفاع عن المسيحية وتعاليم الكنيسة والتصدي للهرقطة والخروج على التعاليم المسيحية[٥٠] .وبسبب دفاعه عن الكنيسة ومهاجمة الخارجين عليها ومن تتصف آراؤهم بالهرقطة، فقد اصطدم القديس برنارد بالشخصية الثانية ممن أنجبتهم هذه الحركة العلمية وهو بطرس أبيلارد الذي دعا – كما سبق أن أشرنا – إلى تحرير الفكر من قيود الكنيسة، فاستعر الصراع بين الرجلين وبلغ مداه

---

(٤٧) فشر : تاريخ أوربا في العصور الوسطى ق١ ص ١٨٥ ،
Keen : op. cit. p. 77

(٤٨) ديفز : المرجع السابق ص ١٠٧

(49) Huizinga : op. cit. pp. 184 - 5 , p. 251

(50) LaMonte : The world of the Middle Ages , pp. 404 - 6 , 564 - 5
Painter : op. cit. p. 143, 147, 210, 212
Heer : op. cit. pp. 79 - 87

في مجمع سينز سنة ١١٤١م[٥١] ، ولمع خلال ذلك بطرس أبيلارد حتى قال بعض المؤخين أنـه لمدة قرنين من الزمان - وهما الثاني عشر والثالث عشر - لم تنبت أرض أوربا نماذج للفكر الأوربي مثل الأرض الفرنسية التي أنبتت أبيلارد[٥٢] ،فقد دعا هذا المفكر إلى حرية الفكر ومناهضة الكنيسة وهيمنتها على التعليم والحركة التعليمية في أوربا[٥٣] ،وهو أيضاً صاحب فلسفة الشك والتشكيك في كل شيء حتى في طبيعة المسيح وقد عاش في باريس مدينة الفكر والعلم وكان استاذاً بجامعتها ويعتبر بحق زعيم نهضة تحرير الفكر في القرن الثاني عشر[٥٤] .

تتلمذ بطرس أبيلارد على يد القديس أنسلم الذي كان من أعظم مفكري القرن الحادي عشر الميلادي[٥٥] ،والذي قام مذهبه على أساس الجمع بين العقل والإيمان والتصدي للهرقطة والخارجين على الكنيسة ، وشرح عقائد المسيحية على أسس سليمة وتلقينها للناس، ومن ثم عد أنسلم من أكبر علماء اللاهوت في عصره[٥٦] .وقد تلقى بطرس أبيلارد علومه على يد هذا العالم وغيره من مشاهير المنطق في مدرسة باريس وحذق كثيراً مسائل المناظرة والجدل والتفوق على مناظريه ومجادليه حيثما حل باعتباره أستاذاً للفلسفة ، وباعتباره مدرسة خرجت أجيالاً من التلاميذ أعطوا لفرنسا شهرة عظيمة في الحياة العلمية والعقلية[٥٧]، وساعد على ذلك ما امتلأت به باريس من

---

(51) Keen : op. cit. p. 77

(٥٢) فشر : المرجع السابق ق٢ ص ٣١٥

(53) Leff: op. cit. p. 114

(٥٤) جوزيف نسيم يوسف : حاشية (١) ص ٢٢٠ من ترجمته لكتاب كولتون : عالم العصور الوسطى

(55) Seidlmayer : Currents of Med. Thought , p. 71

(٥٦) نور الدين حاطوم : المرجع السابق ج١ ص ٥٠٩

(57) Rowling : op. cit. p. 176

فورة فكرية جامحة ، بسبب الحركـة الجدليـة الحرة المستعره حينئذ ولهذا فقد أثار بطرس أبيلارد (١٠٧٩ – ١١٣٢م) نارها وهو الأسـتاذ البريتوني العظيم الذي مكـن لبـاريس أن تصبح مركـزاً للتفكـير الحـر والبحث العلمي المتقدم[٥٨] .

ولهذا فقد اهتم أبيلارد بانشاء مدرسة في أحد أحيـاء بـاريس مـا لبثت أن غدت محط أنظار الطلاب والدارسين حتى اكتظت بهم، عنى فيها بتلقـين تلاميـذه فلسـفته الشـهيرة في الشـك حيـث اعتـبر الشـك الأساس الذي يقوم عليـه اليقـين[٥٩]، وأنـه لا معنـى ليقـين لا يسـبقه شك، فقد دعا إلى استخدام العقل وإعماله في كل الأمور وكل مـا يفكـر فيه الإنسان قائلاً، إن الإنسان يجب ألا يؤمن بشـيء قبـل فهمـه[٦٠]، ونادى بتطبيق هذا المبدأ على الدين نفسه، ومن أهم آرائه أنـه لاداعـي للوساطة بين الخالق والمخلوق، وأن شعور الفرد بالندم على إثم اقترفـه كفيل بأن يقربه إلى الله[٦١] .

غير أن ظروفاً خاصة الزمت بطرس أبيلارد أن يعكف في دير من الأديرة حيث ظل يتـابع مناقشـاته ومجادلاتـه العلميـة الـتي أفزعـت رجال الديـن[٦٢]، لاسـيما وأنـه دعـا إلى التقليـل مـن سـلطة الكنيسـة ورجال الدين ، فاضطهدته الكنيسة[٦٣] ، وعقد مجمع سواسون الديني

---

(٥٨) فشر : المرجع السابق ق١ ص ٢١٣

(59) Leff: op. cit. p. 114

(60) " Nothing is to believed unless it is understood "

(٦١) انظر جوزيف نسيم : حاشية (١) مـن ص ٢٢٠ مـن ترجمتـه لكتـاب كولتـون المشار إليه آنفاً

(٦٢) ديفز : المرجع الساق ص ١٤٥ – ١٤٦

(63) Keen : op. cit. p. 77

من أجله سنة ١١٢٢م ،حيث حكم عليه بالهرقطة، ففر أبيلارد إلى إحدى جهات مقاطعة شامبني، حيث أسس له خلوة فيها، ما لبث التلاميذ أن هرعوا إليه هناك من كافة أنحاء أوربا للاستماع إليه بعد أن ذاعت شهرته في كل الأرجاء[٦٤] ، فاستعاد أبيلارد سطوته من جديد حتى اضطرت السلطات الدينية إلى العفو عنه، فعاد إلى باريس مرة أخرى أقوى مما كان، وما لبث أن التقى بالقديس برنارد المتحفظ الداعي إلى التقليدية في الشئون الدينية، ولهذا جرى الجدل عنيفاً بين الرجلين، حتى اعتبر النقاش والجدال بينهما ملحمة فريدة أمام المؤرخين والكتاب، وكل من اهتم بهذه القضية، قضية الدفاع عن العقيدة أمام حرية الفكر المستمدة من الفلسفة والمؤيدة بالمنطق والجدل[٦٥] ،على اثر جهر أبيلارد بدعوته في الشك في التعاليم المسيحية، لأن الشك في رأيه هو السبيل القويم لفهم المسيحية الحقيقية[٦٦] .

وما لبث أن استهوى أبيلارد قلوب الناس بقوة بيانه وبراعة منطقه مما ضايق رجال الدين وأفزع البابا أنوسنت الثاني الذي سارع بالحكم عليه بالهرقطة من جديد، ففر أبيلارد هذه المرة إلى دير كلوني وآثر الخلود إلى الوحدة والتعبد بقية حياته[٦٧] ،عاكفاً على الدراسة والتحصيل والتأليف إلى أن وافته منيته سنة ١١٤٢م بعد أن دفعت فلسفته بعجلة التقدم إلى الأمام ،وحررت الفكر الإنساني من

---

(64) Ibid. p. 77

(65) Ibid. p. 77

(66) Leff: op. cit. pp. 107 - 114

(٦٧) أبراهيم أحمد العدوي : المجتمع الأوربي في العصور الوسطى ص ١٦٢

القيـود البالية ، ومهدت لظهور عصر النهضة فيما بعد[٦٨] .

وهكذا تغلبت العقيدة الدينية على نظرة الشـك الـتي دعـا إليهـا أبيلارد ، ولكن هذه الحركة الفكرية والجدل الفكري ترك الباب مفتوحاً لحركة أعمق[٦٩] وأقوى وأظهر أن المدارس الديريـة والمـدارس الأسـقفية عاجزة عن استيعاب النشـاط العلمـي والحركـة الفكريـة ، وأن النهضـة التي ظهرت خلال القرن الثـاني عشـر أكـبر مـن أن تسـتند إلى نطـاق المدارس المحدودة ، وأنها غدت بحاجة إلى تعليم أعلـى يطلـق عقالهـا ويقوي من انطلاقها ، ولهذا نشأت الجامعات الأوربية الوسيطة لتكـون أبرز عمل قدمته العصور الوسطى للعصور الحديثة في أوربا[٧٠] .

نشأة الجامعات الأوربية وتطورها :

كان لفظ جامعة Universitas يعني في أصله أية طائفة من الناس تربطهم رابطة واحدة ويعملون كوحدة واحدة ، سواء كانت هذه الرابطـة في الناحية الدينية أو الصناعية أو الإدارية أو في حرفة من الحرف[٧١] ، وكـانت تعـني مجـرد اتحـاد أو تنظيـم ، وأطلقـت في القـرن الثـاني عشرعلى روابط و هيئات من أنواع مختلفة . فالمعروف أن غرب أوربـا

---

(٦٨) يوسف كرم : الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط ص ٩٢ – ٩٤
عبد الرحمن بدوي : فلسفة العصور الوسطى ص ٧٩ – ٨٤ ،
Heer : Med. world. p. 79
Ker : The Dark Ages , p. 210
جوزيف نسيم يوسف : ص ٢٢١ من ترجمته لكتاب كولتون
(69) Seidlmayer : op. cit. p. 71 n.
(٧٠) سعيد عاشور : أوربا ج٢ ص ٣٤٢
(71) Munro , Sontag : The Middle Ages 395 - 1500 , p. 368 (N. Y. 1940)

انتظمته نقابات أو اتحادات ترجع إلى القرن الحادي عشر والثاني عشر لتنظيم شئون الناس في نواحي مختلفة، لأنها كانت هيئات تقوم للمحافظة على المصالح العامة لأعضائها، وضمت هذه النقابات بدورها نقابات للعلم والتعليم أطلق على كل منها الإسم اللاتيني جامعة أو رابطة Universitas [٧٢] . وكان الغرض من قيام نقابة العلم والمعلمين رعاية مصالح أعضائها تجاه السلطات العلمية والدينية من ناحية وتجاه المستشار التعليمي من ناحية أخرى[٧٣] .

وكانت بعض المدارس الأسقفية أو الكتدرائية، قد أصابت شهرة كبيرة ونمت مثيلاتها في أماكن مختلفة، وبدأت تأخذ بزمام النشاط الفكري في غرب أوربا، وساعدها على ذلك ما توفر لها من أساتذة ممتازين لهم شهرة واسعة بفضل نشاطهم العلمي وآرائهم السديدة[٧٤]، وجذبت هذه المدارس أيضاً الطلاب من جهات مختلفة من العالم المسيحي، وكانت أكثرها شهرة في أوائل القرن الثاني عشر مدارس شارتر وباريس وبولونا وسالرنو[٧٥] ،وتطورت هذه المدارس حتى نشأت فيها الجامعات في باريس وبولونا وسالرنو ومونبلييه واكسفورد[٧٦]، وقصدها الطلاب من كل البقاع، وعمرت قاعاتها بالمناقشات العلمية ذات المستوى الرفيع وضاقت تلك المدارس بطلابها واكتظت بالكفايات فيها من الأساتذة ، ولم تعد مجرد مدارس صغيرة ، وإنما غدت معاهد

---

(72) Renard : Guilds of the Middle Ages , p. 24 (London 1918)

(٧٣) وهيب سمعان : المرجع السابق ص ١٧٧

(٧٤) سعيد عاشور : المرجع السابق ج٢ ص ٣٤١

(75) Butts, freeman : A cultural Hist. of Education, pp. (N. Y. 1947)

(76) Rowling : op. cit. p. 177

علمية عالية(٧٧) ، لأنها عملت كمراكز للدراسات العامة العليا فترة طويلة قبل أن تتحول إلى جامعات ناشئة(٧٨) .

أصبح الأمر ممهداً لظهور الجامعات في أوربا ، فظهرت أولى الجامعات الأوربية في القرن الثاني عشر في بولونا بإيطاليا وفي باريس بفرنسا ، وما لبث أن تفرعت عن الجامعة الأولى معظم جامعات جنوب أوربا وحوض البحر المتوسط في حين تفرعت عن الثانية جامعات شمال أوربا وغربها ، التي ظهرت في أواخر العصور الوسطى(٧٩) ، أى أن الجامعات - كما يقول مؤرخ محدث - نتاج من منتجات العصور الوسطى ، فنظم الدراسة والإمتحانات والدرجات العلمية ، لم تظهر إلا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، وقد ورثت أوربا هذه الجوانب عن جامعة باريس وبولونا ، ولم ترثها عن مراكز العلم في أثينا أو الإسكندرية(٨٠) ،فلقد كانت الجامعات ترجمة للازدهار الفكري في العصور الوسطى ، كما كانت أيضاً ثمرة من ثمرات نمو المدن وازدياد الثروة وظهور الحكومات القوية ورعاية الحكام للعلم والعلماء(٨١) .

وكان للطلبة في بولونا قصب السبق في تنظيم أنفسهم في هيئة رابطة قوية أو نقابة تتولى النظر في مصالحهم وحل مشاكلهم(٨٢) ، وحمايتهم من أى جور أو تعسف من قبل السلطات الرسمية أو

(77) Rashdall : The Universities of Europe in the Middle Ages, V. I, p. 30

(78) Ibid. p. 152

(79) Rowling : op. cit. p. 177

(80) Haskins : The Rise of Universities , pp. 3 -4 (N. Y. 1923)

(٨١) وهيب سمعان : المرجع السابق ص ١٧٥

(82) Munro , Sontag : op. cit. p. 369

الأهالي، وترعى في نفس الوقت مصالحهم لدى الأساتذة أيضاً وتحميهم من سكان المدينة[٨٣]، لأن أغلب الطلبة كانوا أغراباً اجتذبتهم شهرة الأساتذة وجاءوا إلى مدن ليس لهم فيها حقوق أو ما يضمن لهم فيها الحماية والأمن وساعدهم على ذلك أنهم كانوا من كبار السن بين السابعة عشر والأربعين من عمرهم بوسعهم أن ينظموا أنفسهم ويتولوا رعاية شئونهم . وكانت نقابة الطلاب في بولونا تضم طلاباً من روما ومن لمبارديا وتوسكانيا والأقاليم الواقعة خلف جبال الألب[٨٤] . وقد عرفت نقابة الطلبة هذه في بولونا باسم **Universitas Scolarium**، ولم يكن للأساتذة في نقابة بولونا أو جامعاتها نصيب في إدارتها أو اشتراك في شئونها، إذ ظلوا مجرد مستخدمين تدفع لهم النقابة أجورهم بحسب دروس كل منهم وعدد طلبته[٨٥]، ثم صارت لنقابة الطلاب بعد ذلك سلطة عظيمة على هيئة التدريس، وأصبح في مقدور النقابة أن تحول بين أى أستاذ وبين الإستمرار في التدريس في بولونا، لمن لا يرضيهم من الأساتذة[٨٦]، اذ كان المدرس الذي لا يجتذب الطلبة أو يمثل أهمية ما، يفقد طلابه، وإذا كان هناك أستاذ ناجح، فإن نجاحه يكون نتيجة للإنطباع الذي يتركه في نفوس سامعيه بما له من مزايا عقلية وغيرها، وعادة كان الأستاذ الممتاز علماً يجتذب الطلاب من شتى بقاع القارة الأوربية إلى قاعة محاضراته المزدحمة[٨٧]، وضمت جامعة بولونا في القرن الثالث عشر طلاباً وطالبات، ووجد بها بعد ذلك أستاذات يقمن بالتدريس[٨٨].

(83) Rowling : op. cit. p. 178

(٨٤) سمعان : نفس المرجع ص ١٧٧

(٨٥) سعيد عاشور : أوربا ج٢ ص ٣٤٣

(٨٦) وهيب سمعان : المرجع السابق ص ١٨١

(٨٧) كانتور : التاريخ الوسيط ق٢ ص ٥٤٥

(88) Walsh : The Thirteenth the greatest of Centures , p. 33

وإذا كانت نقابة الأساتذة قد قامت فيما بعد في هذه الجامعة لترعى مصالح الأساتذة، فإن ذلك لم يحل دون سيطرة نقابة الطلاب وسيادتها ودفاعها عن حقوق الطلاب[٨٩] ،بل أرغم الأساتذة على أن يقسموا على طاعة مديري الجامعات أى رؤساء نقابات الطلاب، وأن يحصل الأستاذ على إذن من رؤساء الطلاب عند تغيبه عن العمل أو عند حصوله على أجازة حتى ولو لم تزد هذه عن يوم واحد[٩٠] ،بل نظر الطلاب إلى الأستاذ على أنه ليس موظفاً عند الجامعة، بل كان محاضراً حراً يؤجره الطلبة لكى يعلمهم باتفاق يحدد فيه راتبه وفق عقد معهم[٩١] .

لكن الأمر اختلف في جامعة باريس التي أسس فيها الأساتذة نقابة خاصة بهم للدفاع عن مصالحهم وحقوقهم قبل الطلبة من جهة والسلطات الحاكمة من جهة أخرى، وسميت تلك النقابة باسم Universitas Magistrarum ،وساعد على قيام هذه النقابة صغر سن الطلاب بجامعة باريس مما جعل الأساتذة يمسكون بزمام السلطة التعليمية في هذه الجامعة[٩٢] ،وهناك ما يدل على أن أساتذة هذه الجامعة قد نظموا أنفسهم في صورة نقابة طائفية للمعلمين لعدة كليات في مستهل الثلث الأخير من القرن الثاني عشر الميلادي[٩٣] . وسيطرت جماعات المعلمين على جامعة باريس ومع ذلك ازدهرت هذه الجامعة في القرن الثالث عشر ازدهاراً كبيراً[٩٤] .

---

(89) Camb. Med. Hist. V. 6, pp. 581 - 2

(90) Rashdall ; op. cit. pp. 149 - 67

(٩١) وهيب سمعان : المرجع السابق ص ١٨٢

(92) Strayer and Munro : op cit. p. 261

(93) Durant, will : The story of Civilzation - The Age of Faith, p. 920 (N. Y. 1950)

(٩٤) هلستر : أوربا ص ٢٥٢

وكان لإكتساب هيئات الطلبة في تلك الجامعات والأساتذة لشخصية معنوية مميزة أثر هام في بلورة التعليم الجامعي ورفع قواعده، وإكسابه الصفات المميزة والتقاليد الخاصة عن غيره من مراحل التعليم، لأن تلك الشخصية المعنوية أعطت لأصحابها الحرية في التدريس والتحصيل، ومنحتهم مكانة مرموقة وكلمة محترمة في الأوساط الأخرى[٩٥] ،ولهذا خطا التعليم الجامعي خطوة أخرى في سلم تطوره وتدرجه، وأصبح في أوائل القرن الثالث عشر تعليماً مرموقاً، وظهرت جامعات لها صفة التخصص مثل جامعة باريس التي اشتهرت بدراسة اللاهوت، وجامعة بولونا التي أصابت شهرة واسعة في دراسة القانون وجامعة سالرنو التي ذاعت شهرتها في دراسة الطب، وحظيت تلك الجامعات بمكانة سامية بين مختلف الأوساط العلمية في أوربا[٩٦].

وهكذا نشأت جامعة باريس في فرنسا ونبتت في مدارس كاتدرائياتها التي نمت وازدهرت حتى أضحت جامعة عظيمة في باريس وازداد عدد طلاب هذه الجامعة زيادة كبيرة للشهرة التي حازتها الجامعة ونظم أساتذة هذه الجامعة أنفسهم في نقابة طائفية – كما سبق أن أشرنا – منذ أواخر القرن الثاني عشر[٩٧]، وتزايد نفوذ جامعة باريس كثيراً حتى ظلت لمدة ثلاثة قرون تجتذب إليها أكبر عدد من الطلاب وأعظم الأساتذة الذين أشرفوا على تخريج أجيال من كبار رجال الفكر في غرب أوربا مثل أبيلارد وحنا سالسبوري وتوما الإكويني وروجر بيكون ودنزسكوتس فيما بين أوائل القرن الثاني عشر ونهاية القرن الرابع عشر، وغدت في القرن الخامس عشر حصناً منيعاً للدين[٩٨].

---

(95) Lunt : Hist. of England , p. 158
(96) Rashdall : op. cit. V. I, p. 7
(97) Durant : op. cit. p. 920
(98) Ibid. pp. 921 - 3

أما جامعة بولونا الإيطالية فقد نبتت أيضاً في مدرستها منذ عنيت هذه المدرسة بالدراسات العامة حتى غدت مدرسة الحقوق في بولونا بإجماع الآراء خير مدارس أوربا على الإطلاق، وهرع عدد كبير من الطلاب الألمان إلى بولونا، وأقبل الرجال على بولونا من جميع أنحاء أوربا ليتلقوا فيها علم القانون[٩٩] ،وطغت الروح العلمانية على جامعة بولونا بعكس ما جرى في غيرها من جامعات، فلم يكن في بولونا كلية دينية على الإطلاق قبل سنة ١٣٦٤م، بل حل القانون الكنسي فيها محل علم اللاهوت[١٠٠].

أما جامعة سالرنو فقد حازت شهرة كبيرة في دراسة الطب، وكانت قد أصبحت مركزاً من مراكز دراسة الطب منذ القرن التاسع الميلادي، وكانت سالرنو قد خضعت لليونان لفترة طويلة، ولهذا ظلت اللغة اليونانية معروفة فيها، ومكنها ذلك من الإستفادة من المخطوطات اليونانية التي ظلت محفوظة خاصة في مكتبات الأديرة البندكتية[١٠١]، ولهذا فقد تطورت مدرسة الطب فيها منذ أواخر القرن الحادي عشر وأوائل القرن الثاني عشر، إلى جامعة لتدريب الأطباء وتخريج الجراحين المتخصصين، وقام بالتدريس فيها قنسطنطين الإفريقي، الذي كان قد ولد أصلاً في قرطاجة في القرن الحادي عشر، والذي كان يعرف العربية وحمل معه إليها كتب العرب في الطب ومعرفتهم الطبية، وقضى قنسطنطين الإفريقي وقتاً في ترجمة كتب الطب من العربية إلى اللاتينية[١٠٢]، وكانت هذه الجامعات الثلاث من أشهر جامعات أوربا في ذلك الوقت وتفرعت عنها معظم جامعات الغرب الأوربي في العصور الوسطى .

---

(٩٩) وهيب سمعان : المرجع السابق ص ١٨٠ – ١٨١

(١٠٠) سمعان : نفسه ص ١٨٣

(101) Rowling : op. cit. 219

(102) Ibid. pp. 219 - 220

وحيث أن الكنيسة كانت تهيمن على حركة التعليم في أوربا في العصور الوسطى بحكم نبات هذه الحركة في المدارس الأسقفية والمدارس الديرية، وحيث أن المدارس الأسقفية بوجه خاص، كانت الأصل الذي نبتت فيه الحركة التعليمية الجديدة، فقد رنت الكنيسة إلى استمرار أداء دورها في الهيمنة على تلك الحركة الجديدة وإخضاعها لسيطرتها[١٠٣] ،أو على الأقل الإشراف عليها من منطلق أن واجب الكنيسة تعليم الناس ومراقبة ما يدرس لهم[١٠٤]، غير أن بروز الصفات المميزة والمستقلة للجامعات، ونشأة التفكير الحر والتعبير المستقل، جعل الكنيسة توجس خيفة من فقدها السيطرة على هذه المؤسسات الجديدة، ولهذا فقد رأت الكنيسة أن مجرد تنظيم هذه الحركة وتوجيهها بما يكفل عدم تعريض مصالحها وقوانينها للخطر خير من محاولة كبتها أو قمعها، ولهذا فقد غمست الكنيسة إصبعها في بعض نظم الجامعة ومناهجها[١٠٥] .

ففي جامعة بولونا تمسكت الكنيسة بضرورة موافقة الأسقف على المتقدمين للدراسات العليا في القانون، وفي جامعة باريس كان تدخلها أكثر عمقاً في نظام الهيئة الجامعية فقد ظهر التوحيد بين وظيفتي رئيس الجامعة ورئيس أساقفة المدينة[١٠٦] ،وتعدت سلطات أمين الكتدرائية في باريس حد الموافقة على اختيار المرشحين لوظائف التدريس، بل جرى وضع شروط لابد من الالتزام بها، فلا أحد يحاضر في الفنون في باريس قبل أن يصل إلى سن الحادية والعشرين ، ويكون قد تعلم وسمع المحاضرات على الأقل لمدة ست سنوات قبل أن

(١٠٣) سعيد عاشور : أوربا ج٢ ص ٣٤٤

(١٠٤) وهيب سمعان : المرجع السابق ص ١٧٩

(105) Pirenne , Cohen , Focillon : op. cit. p. 557

(١٠٦) عاشور : المرجع السابق ج٢ ص ٣٤٥

يحاضر، وكانت الشروط في تدريس اللاهوت أقسى فلا يقل سن المحاضر فيها عن خمسة وثلاثين عاماً، ويكون قد درس على الأقل لمدة ثماني سنوات(١٠٧).

وتدخلت الكنيسة أيضاً في جامعة أخرى هي جامعة تولوز حين رأت أن هذه الجامعة لا تقيم وزناً كبيراً للعقيدة أو الشئون الدينية والروحية، فاضطر البابا جريجوري التاسع إلى التدخل وأرغم الكونت ريموند Raymond سنة ١٢٢٩م على أن يتعهد بأداء مرتبات أربعة عشر أستاذاً في علوم الدين المسيحي والقانون الكنسي بصفة خاصة يرسلون من باريس الى جامعة تولوز لمقاومة ما تفشى في هذه الجامعة من استهانة بالدين وظهور مبادىء الالحاد فيها بين الطلاب، خاصة وقد كانت باريس حصناً منيعاً للدين القويم(١٠٨)، وعلى الرغم من كل ذلك، وباستثناء جامعة باريس، فقد تمتعت مختلف الجامعات في اوربا بقدر كبير من الحرية الأكاديمية جعلها تصبح من مراكز الدراسات التخصصية(١٠٩).

وما لبثت الجامعات أن اكتسبت اعترافات رسمية بها من قبل السلطات سواء كانت سلطات دينية او دنيوية، وأصبح لها تشريعاتها الخاصة ونظمها ومناهجها فاهتمت بضبط سلوك طلابها، واقامة العدالة بينهم وتحديد علاقاتهم بالاساتذة وحصل خريجوها على امتيازات عديدة، بعد أن أكسبهم الاعتراف الرسمي وضعاً جديداً وكفل لهم الالتحاق بشتى مرافق الدولة، التي تتناسب مع خبراتهم وتصلح لهم(١١٠). ونالت بعض جامعات أوربا مكانة ممتازة في المجتمع ، فقد

---

(107) Rowling : op. cit. pp. 177 - 8
(108) Durant : op. cit. pp. 921 - 3
(109) Rashdall : op. cit. V. I, p. 2 84
(110) Lunt : Hist. of England, p. 158

أصدر الامبراطور فردريك بربروسا فى عـام ١١٥٨م مرسـوماً أعلـن فيـه حمايته الخاصة للعلم والعلماء في كل أنحاء امبراطوريته ويعطـي حريـة خاصة لطلاب الجامعات وامتيازات قضائية خاصة لهم(١١١).

ومنح كل من الملك فيليـب أوغسـطس والبابـا أنوسـنت الثـالث حوالي سنة ١٢٠٠م جامعـة بـاريس مراسـم خاصـة كفلـت لخريجيهـا وأساتذتها حقوقاً هامة وعديدة(١١٢). وأصدر الملك حنا في انجلترا سـنة ١٢١٤م مرسوماً اعترف فيه بجامعة أكسفورد **Oxford** ومنحها استقلالاً ذاتيـاً، فقـد تأسسـت هـذه الجامعـة علـى أيـدي الطـلاب والأسـاتذة الإنجليز الذين تركـوا جامعـة بـاريس بـأمر الملـك هـنري الثـاني(١١٣)، عندما ساءت العلاقات بين انجلترا وفرنسا،وصـار مـن المتعـذر عليهـم مواصلة دراساتهم في باريس،فعادوا الى انجلترا واتخـذوا مـن أكسـفورد مقـراً لهـم ولجـامعتهم، وتكـاثر عـدد الطـلاب في أكسـفورد وزاد عـدد الأساتذة فيهـا حتـى بلغـوا في سـنة ١٢٠٩م نحـو ثلاثـة آلاف طـالب وأستاذ على الرغم من أن أحد المؤرخين يتساءل متى عدت هذه جامعة وكيف أصبحت على هذا النحو(١١٤)؟.

أما جامعة كمـبردج الشـهيرة،فقـد تأسسـت علـى أيـدي بعـض الطلاب وبعض الأساتذة الذين هاجروا اليها سـنة ١٢٠٩م مـن جامعـة أكسفورد(١١٥)، أما سبب هجرة الطلاب الى كمبردج ، فقد قيل أن أحد

---

(111) Norton : Reading in the Hist. of Education, Med. Universities , pp. 82 - 7
(112) Leff : op. cit. p. 176
(113) Heer : op. cit. p. 248
(114) Rashdall : op. cit. V. 3, p. 29 n.
(115) Stenton : English Society in the early Middle Ages (1066 - 1307), pp. 258 - 60

الطلاب في ذلك العام (١٢٠٩م) قتل امرأة في أكسفورد فهاجم أهل البلدة مساكن الطلاب وقتلوا اثنين أو ثلاثة منهم،فأضربت نقابة الأساتذة عن العمل احتجاجاً على ذلك، وغادر أكسفورد عدد كبير من الطلاب وكثير من الأساتذة وقصدوا كمبردج، فأقاموا بها قاعات للدروس وكليات ثم بدأ عدد الطلاب يزيد بها خاصة برجوع الطلاب من باريس[١١٦] .

وفي سنة ١٢١٠م أصدر البابا أنوسنت الثالث مرسوماً اعترف فيه بنقابة المعلمين في باريس، واعتمد قوانينها المدونة، ثم أصدر مرسوماآخر خول فيه للنقابة أن تختار مندوباً عنها في المملكة البابوية ليمثلها[١١٧] . وفي سنة ١٢٣١م أعطى البابا جريجوري التاسع امتيازات خاصة لأعضاء جامعة باريس كفلت لهم كفالة حقوقهم ومنحتهم فرص الحصول على تعويضات عن الخسائر التي قد يتعرضون لها[١١٨] . وبعد ذلك بدأ أصحاب السلطة في اوربا من رجال الدنيا والدين يتسابقون في تأسيس الجامعات والاعتراف بما نشأ منها في بلادهم، فوضع الامبراطور فردريك الثاني في سنة ١٢٢٤م أساس جامعة نابلي[١١٩] ، وأمر بأن تنظم أمور جامعة سالرنو لتستكمل شخصيتها وهيأتها،وكانت في أصلها مدرسة للطب نال أساتذتها شهرة ذائعة بفضل استفادتهم من المؤلفات العربية التي انتقلت اليهم في ميدان الطب والعلوم[١٢٠] كما سبق أن أشرنا ، وهكذا يقال أن نحو

---

(116) Heer : op. cit. p. 248

(117) Durant : op. cit. pp. 920 - 1

(١١٨) وهيب سمعان : المرجع السابق ص ١٧٩

(١١٩) سعيد عاشور : أوربا ج٢ ص ٣٥١

(120) Haskins : The Rise of Universities , pp. 9 - 10

ثمانين جامعة قد نشأت قبل عام ١٥٠٠م، وأن كل بلد من بلاد غرب أوربا غدت له جامعته او جامعاته، وكثير من هذه الجامعات لا يزال مزدهراً الى وقتنا الحاضر(١٢١) .

مواد الدراسة ومناهجها :

على هذه الصورة نشأت الجامعات وتطورت، وكان القرن الثالث عشر نقطة تحول في تاريخ هذه الجامعات الناشئة من حيث تأسيسها وازدياد أهميتها وتطورها وازدهارها، فقد انتشرت تلك الجامعات في سائر الأرجاء من أسبانيا غرباً الى بوهيميا شرقاً ومن انجلترا شمالاً الى إيطاليا جنوباً(١٢٢) .

أما فيما يختص بمواد الدراسة ومناهجها، فلم تكن هناك جامعة في تلك الأدوار الأولى تحوي كل أقسام التخصص المعروفة من القانون والطب واللاهوت والفنون المختلفة، فقد حازت بعض الجامعات شهرة في فروع معينة من الدراسة بحسب ما توفر لها من الأساتذة المتخصصين(١٢٣) ، فاشتهرت جامعة باريس بدراسة الفلسفة واللاهوت والفكر الحر، وتخصصت جامعة مونبلييه في فرنسا وجامعة سالرنو في إيطاليا بدراسة الطب واشتهرت جامعة بولونا بدراسة القانون الروماني، إذ أدى الطلب المتزايد على المعلومات القانونية والتجارية على أن تحصل جامعات إيطاليا على قصب السبق في مجال اختيار دراسة القانون، بل إن بعض المدرسين كانوا يحاضرون في القانون على مسؤليتهم الخاصة في بولونا بالذات(١٢٤) .

---

(١٢١) سمعان : نفس المرجع السابق ص ١٧٥

(122) Durant : op. cit. pp. 916 - 19

(123) Rashdall : op. cit. V. I, PP. 17 -18

(124) Ibid. p. 113

ولم يمنع ذلك بعض الجامعات من وجود أقسام أخرى لدراسة المواد العلمية المختلفة، فضمت أقساماً للفنون الحرة واللاهوت والقانون الكنسي والروماني والطب[١٢٥] ،ففي بولونا، وعلى الرغم من شهرتها في دراسة القانون، فقد ضمت قسماً لدراسة الفنون الحرة، وآخر لدراسة الطب، ودل على ذلك ما كان يتسلمه خريجو هذه الجامعة من درجات علمية من وكيل الأسقف في هذه التخصصات[١٢٦] .

وما لبثت جامعات العصور الوسطى، أن انتظمت أقسامها الكبيرة، وهى التي عرفت باسم الكليات، فتكونت كل جامعة من أربع كليات هي : الآداب واللاهوت والقانون والطب، وانقسمت الدراسة في كلية الآداب إلى مجموعتين : الأولى هى المجموعة الثلاثية واحتوت على قواعد اللغة اللاتينية والمنطق والبلاغة والثانية هى المجموعة الرباعية واختصت بالموسيقى والحساب والهندسة والفلك[١٢٧] ،أى أن دراسة الآداب اهتمت بتقديم برنامج أساسي لتعليم " الفنون العقلية السبعة " التقليدية وهى : قواعد اللغة اللاتينية (النحو والصرف) والمنطق والبلاغة، وكذلك الموسيقى وعلم الحساب وعلم الهندسة وعلم الفلك، فضلاً عن أن الجامعة اهتمت بتعليم الفروع الأعلى وهى الدراسات اللاهوتية والقانون والطب[١٢٨] .

واستهدفت هذه الدراسة إعداد الطالب لدراسة العلوم اللاهوتية المتعلقة بشئون الكنيسة والمتصلة بأمور الدين . فدراسة اللغة تهيء

---

(125) Ibid. p. 18

(126) Walsh : op. cit. p. 33

(١٢٧) سعيد عاشور : المرجع السابق ج٢ ص ٣٤٦

(١٢٨) هلستر : أوربا ص ٢٥١

الطالب لقراءة الكتاب المقدس وحياة القديسين، أما المنطق والبلاغة فتمكنه من إجادة الوعظ والإرشاد واستهدفت دراسة الموسيقى إجادة الأناشيد والتراتيل الدينية، في الوقت الذي استهدفت دراسة الحساب والهندسة والفلك تحديد تواريخ الأعياد الدينية، كما حظيت بعض العلوم الأخرى باهتمام كبير في بعض الجامعات، فازدادت العناية بالعلوم الطبيعية، ولا سيما علم الحيوان، واهتمت جامعة باريس بصفة خاصة بدراسة اللاهوت(١٢٩).

مباني الجامعات والإشراف على الطلاب :

ولم يكن للجامعات في كثير من الأحيان مبان مستقلة، فكانت المحاضرات تلقي أحياناً في غرف ملحقة بالكاتدرائية، أو في أروقة الكتدرائيات في القرن الثاني عشر، مثل أروقة نوتردام وسان جنفيف وسان فيكتور وغيرها من الأبنية الدينية، وفي القرن الثالث عشر، كان بعض الأساتذة يستأجرون حجرات خاصة بطلابهم(١٣٠)، أي أن الجامعة لم يكن لها مبان خاصة ولم تكن حرما جامعياً، بل كانت أحياناً قاعة كبرى تحقق مزايا مشتركة للمدرسين وأحياناً للدارسين بل عدت أحياناً أخرى مؤسسة يمكن أن تنتقل من مكان إلى الآخر، لأن فصولها الدراسية كانت تنعقد في حجرات مستأجرة(١٣١).

فقد افتقرت الجامعات للأبنية والمعدات، ولم يكن ذلك يمثل عقبة لتلك الجامعات الناشئة بل كان ذلك من الحسنات، إذ جعلها تتمتع بالاستقلال دون أن تضطر للارتباط بمدينة أو هيئة أو تنظيم

---

(129) Rashdall : op. cit. V. I, P. 17

(١٣٠) وهيب سمعان : المرجع السابق ص ١٧٦

(١٣١) هلستر : أوربا ص ٢٥١ – ٢٥٢

فمكنها الاستقلال من الاحتفاظ بحريتها وسط كثير من محاولات الاحتواء، لأنها بنيت – على حد قول أحد الكتاب – "من الرجال" حتى يمكنها أن تتقهقر أمام أعدائها إذا لزم الأمر واضطرت إلى ذلك في أوقات الاضطهاد، ومع ذلك كانت تؤدي عملها بإمكاناتها المحدودة[١٣٢] .

وهكذا كان الأساتذة يلقون المحاضرات أحياناً في غرف ملحقة بالكاتدرائية، يلقونها باللغة اللاتينية وسط الطلاب الجالسين القرفصاء على الأرض، وأحياناً على وسائد محشوة بالقش، وكانت المحاضرة الواحدة تستغرق ساعتين أو ثلاث ساعات دون انقطاع، واعتمد الطلاب في كثير من الأحيان على قوة ذاكرتهم في حفظ الدروس، وأحياناً كانت تملى عليهم النصوص نظراً لإرتفاع أثمان الكتب التي كانت مخطوطة ونادرة[١٣٣] .

وقد مثلت مشكلة الإشراف على الطلاب ورعايتهم خارج الجامعة عقبة كبيرة أمام جامعات العصور الوسطى، نظراً لاجتماع الطلاب من كل حدب وصوب وانضوائهم في مدن كبيرة دون رقابة أو إشراف، فتفشى بين جماعات كثيرة منهم الإنحراف والتأم بعضهم إلى جماعات السوء والمنحرفين[١٣٤]، ولم تحل هذا المشكلة إلا قرب منتصف القرن الثالث عشر حينما ظهرت المجمعات أو ما عرف بالكليات المنزلية ، التي كانت في أول الأمر بمثابة منازل تأوي

---

(١٣٢) سمعان : نفسه ص ١٧٦

(133) Stenton : English Society in the Early Middle Ages , p. 260

(134) Lunt ; op. cit. pp. 160 - 1

الطلاب، وبخاصة الفقراء وتساعدهم على حياة أفضل تحت إشراف معين. وانتشرت هذه المؤسسات في أوربا عندما أخذ بعض الخيرين والمصلحين يتبرعون لتأسيسها مساعدة للطلاب الفقراء[١٣٥] ، على حين أنشأ بعض المحسنين مضايف أو مساكن أخرى للطلاب، وأوقفت عليها الأوقاف، وخصصت بأموال سنوية، ساعدت الطلاب على تخفيض نفقات عيشتهم، وقرب منتصف القرن الثالث عشر وهب روبرت دي سربون Ropert de Sorbon ،وهو أحد قساوسة القديس لويس St. Louis ،وهب "بيت السربون" المال اللازم لإيواء بعض الطلاب، وأضيفت إلى ذلك هبات أخرى من معظم الخيرين وبنيت في هذا البيت جامعة السربون[١٣٦] .ثم تأسست في باريس مجمعة باريس سنة ١٢٥٨م وفي إنجلترا أنشئت مؤسسة مرتون في أكسفورد ومؤسسة باليول في شمال إنجلترا ولم يحل القرن الخامس عشر إلا وكان في باريس مثلاً أكثر من خمسمائة مؤسسة اجتماعية من هذا النوع[١٣٧].

ونظراً لأنه لم تكن للطلاب سن محددة في جامعات العصور الوسطى، فقد التحق الطلاب بهذه الجامعات في أى سن مما شكل مشكلة أخرى في الإشراف على هؤلاء الطلاب ورعايتهم، إذ قد يكون الطالب قساً أو راهباً أو حتى رئيس دير أو تاجراً وقد يكون متزوجاً أو يكون أعزباً أو حتى غلاماً[١٣٨] ،فلم يكن يطلب منه سوى أن يكون عارفاً باللغة اللاتينية، وأن يكون قادراً على أداء أجر زهيد لكل أستاذ يدرس عليه، فإذا كان الطالب فقيراً، فإنه قد يستعين على ذلك

---

(١٣٥) سعيد عاشور : المرجع السابق ج٢ ص ٣٤٩

(١٣٦) وهيب سمعان نفس المرجع السابق ص ١٨٦ – ١٨٧

(137) Lunt : op. cit. p. 161

(138) Durant : op. cit. pp. 928 - 9

بمعونة تسديها إليه قريته أو كنيسته او يسديها إليه أصدقاؤه أو أسقفه[١٣٩] ،وكان الطالب الذاهب إلى جامعة أو العائد منها ينتقل عادة بالمجان ويجد الطعام والمأوى في الأديرة في طريقه. وكان الطالب الحديث عهد بالجامعة تستقبله جماعة الطلبة من إقليمه أو أمته التي ينتسب إليها وقد ترشده إلى مسكن يعيش فيه ربما مع أسرة فقيرة وذلك إذا لم يحظ بالسكن في المؤسسات المشار إليها وربما يترك في حجرة في " بيت الطلاب " لتقل بذلك نفقاته[١٤٠] .

لم تكن جامعات العصور الوسطى تلزم الطلاب بزى معين أو تفرض عليه ارتداء ملابس جامعية خاصة، بل طلبت من كل طالب شد ثوبه الخارجي بالأزرار وألا يمشي حافي القدمين وكان الأساتذة يتميزون بلبس ما يعرف بالقبة Cappa وهى " حرملة " حمراء أو أرجوانية ذات حاشية، وكانوا في بعض الأحيان يغطون رؤسهم بقلنسوة مربعة في أعلاها خصلة tuft[١٤١] . ومن يخرج على قوانين الجامعة يعاقب بالغرامات، وكانت الجامعات تفرض على الطلاب أن يقسموا يميناً مغلظة بإطاعة جميع اللوائح ويميناً آخر يتعهد فيه الطالب بألا ينتقم من المتحنين الذين يرسبونه في الامتحانات[١٤٢].

نظم الامتحانات والدرجات العلمية :

وجرت نظم الامتحانات على أساس المناقشة العلمية في رسالة يتقدم بها الطالب مكتوبة باللغة اللاتينية . ومنحت الجامعات

---

(139) Walsh : op. cit. p. 65

(١٤٠) سمعان : نفسه ص ١٩٢ - ١٩٣

(١٤١) سمعان : المرجع السابق ص ١٩٣

(142) Durant : op. cit. pp. 926 - 30

ثلاث درجات علمية : الأولى منها هى درجة البكالريوس ويطلب من المرشح لها أن يدرس كتابين في النحو وخمسة كتب في المنطق، فإذا نجح فيها، منحته الجامعة درجة Bachelor of Arts[١٤٣] . أما الثانية فهى درجة الليسانس ويتحتم على طالبها أن يدرس نحو سنتين في القراءة والاطلاع وشرح النصوص ، ويؤدي امتحاناً أمام لجنة خاصة تجيز له حملها إذا وفق في الامتحان، وتجيز له ممارسة مهنة التدريس[١٤٤] ،أى أنها رخصة أو تصريح خاص لحاملها بالتدريس، وكانت هذه الرخصة التي تعطى للطالب تعني ضمان كل من الأساتذة والموظف الكنسي وإقرار منهما بكفاية حاملها للقيام بالتدريس وكانت موافقة الموظف الكنسي على منحها تعني استعداد حاملها لأداء مهمته[١٤٥] . أما الثالثة فهى درجة الدكتوراه أو الاستاذية، ويتحتم على طالبها قضاء نحو خمس أو ست سنوات في دراسة الآداب أو القانون أو اللاهوت ، وهذه الشهادة تسمح لحاملها أن يصبح أستاذاً باحدى الجامعات ، وعلى طالبها أن يجتاز امتحانين أحدهما خاص والآخر عبارة عن مناقشة علنية[١٤٦] .

أما الامتحان الخاص فهو اختبار منفرد يتحتم على الدارس إجابة الأسئلة التي توجه إليه، وأما المناقشة العلنية فتلزمه بالدفاع عن آرائه في موضوع أو موضوعين ويتلقى بعض الاعتراضات ويقوم بتفنيدها والرد عليها ، وتختتم المناقشة بتلخيص ما توصل إليه من نتائج[١٤٧] .

---

(143) Rashdall : op. cit. V. 2 , p. 456

(144) Strayer and Munro : op. cit. p. 263

(١٤٥) سمعان : المرجع السابق ص ١٧٩

(146) Dietz : A Political and Social Hist. of England, p. 112 (N. Y. 1937)

(147) Rashdall : op. cit. V. I, pp. 466 - 70

وكانت الجامعة ترعى النواحي الخلقية وتؤكـد علـى سـوية الطـلاب، فإذا ارتكب طالب جريمة خلقية أو نحو ذلك خـلال سـنوات الدراسـة التي يقضيها في الجامعة فقـد تحـول هـذه بينـه وبـين الحصـول علـى الدرجـة الـتي يريدهـا، لأن الدرجـة العلميـة كـانت شـهادة بـالرقى الأخلاقي والاستعداد العقلي في وقت واحـد[١٤٨]. فـإذا اجتـاز الطـالب الامتحان العلني الأخير أو المناقشة، أصبح أسـتاذاً Master ،وحصـل تلقائياً على إجازة مصدق عليها من السلطة الدينية ليقوم بـالتدريس في أى مكان شاء[١٤٩] .

وجرت العادة عند منح هذه الدرجات العلميـة أن يقيـم الخريـج وليمة يدعو إليها زملاء الدراسة من الخريجـين، ويحصـل فيهـا علـى اعتراف منهم بأنه صار عضـواً وزميـلاً لهـم، بعـد أن يمنحـه الأسـتاذ درجته العلمية، كما يدعو إلى تلك الوليمة أساتذة الجامعة أو بعضهم، ويقدم لهـم الهدايـا ، وإذا كان قـد أزمـع العمـل بالتدريـس ففي هـذه المناسبة يعلن انضمامه إلى نقابـة الأسـاتذة بعـد حصولـه علـى الدرجـة العلمية[١٥٠] .

أما مراسم منح الأستاذية فكانت تجري في حفل أكثر جلالاً، إذ يقسم الطالب بعد حصوله على درجة الدكتوراه قسماً خاصاً أمام أعضاء الجامعة، وكان يطلب منه أن يلقي محاضرة أو يعقد نقاشاً في موضـوع تخصصه ، ويعد هذا بداية عملـه كأستاذ[١٥١] ، ثـم يجلـس في مقاعـد

---

(١٤٨) سمعان : المرجع السابق ص ١٩١

(149) Durant : op. cit. pp. 929 - 9

(150) Ibid. p. 929

(١٥١) سمعان : نفسه ص ١٩٢ ، Durant : op. cit. p. 929

الأساتذة ويمسك بكتاب متعلق بنوع تخصصه في يده ويلبس في إصبعه خاتماً دلالة تزوجه العلم ويلبس فوق رأسه قلنسوة خاصة دليلاً على تحرره من التلمذه، ولعل هذه العادة الأخيرة ترجع إلى أصول رومانية حينما كان الشخص المحرر من العبودية يضع على رأسه قلنسوة تميزاً له عن العبيد ودليلاً على تحرره[١٥٢] .

وعلى الرغم من انتشار الجامعات وتعددها في أوربا في العصور الوسطى منذ القرن الثاني عشر وتعدد الطلاب الذين التحقوا بها وكثرة الأساتذة فيها، إلا أن هؤلاء حرصوا على الاحتفاظ باستقلالهم، وعدم السماح للسلطات الرسمية الحاكمة بالتدخل في شئونهم العلمية[١٥٣]، وعلى الرغم أيضاً من أن وكيل الأسقف وهو الذي كان يشرف على جامعة باريس كان له الحق في حرمان أى شخص من خريجي تلك الجامعة من مباشرة مهنة التدريس[١٥٤] ،إلا أنه مع ذلك لم يستطع أن يفرض سلطانه على أساتذة الجامعة، كما لم يستطع أن يتدخل أو يغير في طريقة منحهم الدرجات العلمية أو ضم أى شخص إلى هيئتهم على غير إرادتهم[١٥٥] .

هذا وكان باستطاعة أى طالب من أى مكان في أوربا أن يلتحق بالجامعة التي يرغب فيها وفي التخصص الذي يميل إليه دون أن يجد عائقاً أو مانعاً من ذلك، وبمرور الوقت انقسم الطلاب في الجامعات بحسب الجهات أو الأقاليم التي جاءوا منها . فضمت جامعة باريس

---

(152) Camb. Med. Hist. V. 6 , p. 564
(153) Rashdall : op. cit. V. I, p. 284
(154) Rowling : op. cit. p. 177 - 8
(155) Rashdall : op. cit. V. I, p. 284

مثلاً عدة أمم رئيسية من الطلاب من فرنسا وبرجنديا ونورمانديا وانجلترا[١٥٦]، وضمت نقابة الطلاب في بولونا طلاباً من روما ولومبارديا وتوسكانيا والأقاليم الواقعة خلف جبال الألب[١٥٧] . وازدادت حرية الطلاب في ظل الروح الجامعية المتزايدة منذ أن أشرفت نقابات الطلاب في بعض الجامعات على شئون الجامعة ودفعت رواتب الأساتذة وراقبت سلوكهم، ووضعت لهم نظاماً خاصاً بهم، وأسهمت في إكساب الجامعة والحياة الجامعية أعظم سماتها في ظل حرية خاصة وإشراف دقيق[١٥٨] .

ولم تلبث الجامعات أن انتشرت في أوربا مستمدة نظمها من جامعتى باريس في الغرب وبولونا في الجنوب، فظهرت جامعة أكسفورد في انجلترا واتخذت صفتها الرسمية سنة ١٢٠٠م وتأسست جامعة كمبردج سنة ١٢٠٩م[١٥٩] ، كما سبق أن أشرنا وشهدت أوربا في القرنين الثالث عشر والرابع عشر مولد كثير من الجامعات الجديدة. فوضع فردريك الثاني أساس جامعة نابلي سنة ١٢٢٤م ،وأسس البابا جامعة في تولوز بعد ذلك بست سنوات[١٦٠] ،وتحولت مدرسة سالرنو ذات الشهرة الكبيرة في الطب إلى جامعة، وقبل ذلك بعامين (١٢٢٢م) سعى عدد كبير من الطلاب والأساتذة الذين غادروا بولونا إلى بادوا Padua ،فأضافوا إلى كلية الحقوق في المدينة كليات أخرى للطب والآداب ، وأسهمت البندقية فيما كانت تؤديه المدينة من مرتبات

(156) Strayer and Munro : op. cit. p. 261

(١٥٧) سمعان : نفس المرجع ص ١٧٧

(158) Rashdall : op. cit. V. I , pp. 149 - 67 , pp. 196 - 7

(159) Stenton : op. cit. pp. 258 - 60

(١٦٠) سعيد عاشور : نفسه ج٢ ص ٣٥١

للأساتذة، وبعثت ببعض طلابها، فأصبحت بادوا في القرن الرابع عشر من أنشط الجامعات ومراكز الفكر الأوربي(١٦١).

ثم ما لبثت أن أنشأت بلدية سينا Siena جامعتها سنة ١٢٤٦م ولحقتها جامعة بياكنزا بعد ذلك بعامين ثم أنشئت جامعة روما في أوائل القرن الرابع عشر سنة ١٣٠٢م وزادت الجامعات كثيراً في إيطاليا(١٦٢) . وفي أسبانيا ظهرت جامعة شلمنقة Salamanca سنة ١٢٣٠م وقبلها بأعوام نشأت جامعة بالنسيا سنة ١٢٠٨م أنشأتها قشتالة، وأنشأت قطالونيا جامعة لريدا Lerida سنة ١٣٠٠م، ونالت جامعة شلمنقة بالذات رعاية الحكام ورجال الدين فخصها القديس فرناندو وألفونسو الحكيم بأموال كثيرة في القرن الثالث عشر، فحازت هذه الجامعة شهرة لا تقل عن شهرة جامعتي بولونا وباريس، وأنشأ ألفونسو الحكيم المشار إليه آنفاً جامعة إشبيلية Seville سنة ١٢٥٤م(١٦٣)، وفي شمال الألب نشأت جامعة براغ في بوهيميا، التي أسسها شارل الرابع سنة ١٣٤٧م كأول جامعة ظهرت شمالي الألب وظهرت جامعة هيدلبرج سنة ١٣٨٥م كأول جامعة ألمانية، وكثرت الجامعات في أنحاء مختلفة من أوربا، حتى ليشبه بعض الكتاب انتشار الجامعات في العصور الوسطى بتكون خلايا النحل الجديدة، فيكفي أن يهاجر بعض الأساتذة والطلبة من جامعة قديمة إلى مكان جديد ليرسوا أساس جامعة أخرى(١٦٤) .

---

(١٦١) سمعان : نفسه ص ١٨٣

(162) Durant : op. cit. pp. 916 - 19
(163) Durant : op. cit. p. 919
(164) Camb. Med. Hist. V. 5 , p. 593

وزادت أهمية الجامعات في المجتمع الأوربي حتى ذكر أحد كتاب العصور الوسطى أن القوى التي هيمنت على أقدار المجتمع المسيحي هناك ومنحته الحياة والقوة كانت : الكنيسة والإمبراطورية والجامعة[١٦٥]، ولم يكن في ذلك ثمة مبالغة، إذ أن الجامعات كانت تمثل محاولة لتحقيق حياة مثالية أفضل، أو على الأقل جانب أو عدة جوانب من تلك الحياة المثالية في المجتمع الأوربي .

---

(165) Rashdall : op. cit. V. I, p. 2, عاشور : نفسه ج٢ ص ٣٥٢



الفصل الرابع
الدين والنظم الدينية في أوربا في العصور الوسطى

المسيحية والمجتمع الأوربى:

انتشرت الديانة المسيحية منذ البداية في أرجاء الإمبراطورية الرومانية ،منذ أن نظّم القديس بولس المجتمعات المسيحية وأرسى تعاليمها، وحدد معالمها[1]، كما نجح أيضاً في أن يستخلص من تعاليم المسيح أسس الدعوة المسيحية، وأن يضع دعائم اللاهوت المسيحى وأسس الكنيسة العالمية[2] . ولم يلبث أن نادى المسيحيون بهدم وثنية المجتمع الرومانى، ونبذ تقاليده البالية وتعاليمه الفاسدة ، وتفجير ثورة اجتماعية ترفع شعارات من شأنها أن تهدم الأسس التى قام عليها المجتمع الرومانى[3] .

فأنكروا عبادة الإمبراطور، ورفضوا تقديم القرابين له، وأعلنوا استهدافهم طريق الحق والعدل ومطالبتهم بالمساواة وتحسين أحوال العبيد، وحسن معاملة الطبقات الكادحة، ورفع الغبن والسخرة عنهم، كما طالبوا بنبذ المبارزات الرياضية الوحشية والمهرجانات الفاسدة التي زخرت بها حياة المجتمع الرومانى[4].

---

(1) Chadwick :The early Church , pp. 16 - 18
Glover :The conflict of Religions in the early Roman Empire . p.155
Rostovtzeff : A Hist. of the Ancient World, V.2, p.345
Katz : The Decline of Rome , p. 64

(2) Camb. Med. Hist. V.I , pp. 90 - 95

(3) Hardy: Studies in Roman Hist. V.I , p. 34

(4) Nock : Why Christianity triumphed in the Roman world. in Cantor:Med. World , p. 2

وما لبثت المسيحية أن بلغت شأواً بعيداً على عهد الإمبراطورين دقلديانوس وقنسطنطين، ومن ثم غدت مقوماً من مقومات المجتمع الأوربى .

وكان الاضطهاد الذى تعرض له أتباع المسيحية في أول الأمر قد أدى إلى الدعوة إلى هذه الديانة الجديدة بطريقة سرية في مختلف أنحاء البلاد، الأمر الذى زاد من مخاوف السلطات الرسمية، وجعلها توقن بخطورة هذه الدعوة وتمعن فى مطاردة أتباعها باعتبارهم من المارقين عن سلطتها والخارجين على أنظمتها وتقاليدها، أكثر من كونهم أتباع ديانة مستحدثة وعقيدة جديدة[٥]. ولهذا فقد عاش المسيحيون فى جماعات مقفلة لكل منها رئيسها، اختلف لقبه بحسب كبر أو صغر جماعته. فاتخذت الجماعة الصغيرة لها راعياً Paster، واتخذت الجماعات الأكبر لكل منها أسقفاً Episcopus، ومارس هؤلاء الرؤساء الإشراف على شئون جماعتهم، وغدوا يمثلون سلطاناً أكبر من سلطان الأباطرة، إذ لم يعد لأحد سطوة عليهم سوى الكتاب المقدس والتزامهم بطاعة الله[٦] .

ولقد استبد الغضب بالإمبراطور دقلديانوس لما رآه من إقبال بعض الطبقات على الدخول فى المسيحية بما يعنيه ذلك من تقويض دعائم المجتمع الرومانى، والإنصراف عن عبادة الامبراطور والانتقاص من هيبته[٧] ،كما أن انتشار هذا الدين الجديد بين أوساط الجند سيقضى حتماً على ولاء الجيش للامبراطور وخلق مشاكل لاحصر

---

(5) Cary : A Hsit. of Rome down to the Reign of Constantine , p. 531

(6) Eyre : European Civilization , pp. 201-2

(٧) جيبون :إضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها ج١ ص ٤٤٦(ترجمة أبو دره)

لها[٨]. ولهذا غالى دقلديانوس فى التنكيل باتباع هذا الدين، فأمر بحرمانهم من إقامة شعائرهم وهدم كنائسهم، وحرق كتبهم المقدسة وطرد الموظفين منهم، ونفى الكثيرين منهم إلى جهات نائية وحرمانهم من حقوق المواطنة، ومنعهم من تولى الوظائف الإدارية[٩]، ثم لجأ دقلديانوس بعد ذلك إلى العقوبات البدنية، فأمر بفقأ أعينهم وصلم آذانهم وجدع أنوفهم وتهشيم أسنانهم وقطع أطرافهم، وأنزل بهم هذا الامبراطور مختلف ألوان العذاب[١٠] . وأخيراً حين لم تُجد هذه العقوبات لجأ دقلديانوس إلى إقامة المذابح البشرية لهم، فأحرق الكثيرين منهم، وأطلق على آخرين الأسود الجائعة، وقتل أعداداً هائلة منهم، وجرى إعدام كثير من المسيحيين والتنكيل بهم[١١] ، الأمر الذى أدى إلى تخلى كثير منهم عن عقيدته وجعل السنوات الأخيرة من حكم دقلديانوس فترة محنة حقيقية للمسيحية وأشياعها[١٢]، مما دفع المسيحيين إلى تسمية هذه المرحلة باسم " عصر الشهداء"، واتخذ مسيحيو مصر بداية عهد هذا الامبراطور (٢٨٤م) بداية للتقويم القبطى فى مصر .

على أن الاضطهاد الذى تعرض له المسيحيون حينئذ، مالبث أن أتى بنتائج عكسية[١٣] ، فقد جذبت بطولتهم وشجاعتهم وصبرهم على الأذى إعجاب طوائف الناس، فاقبلوا على الدخول فى الدين الجديد، والإيمان بتعاليمه ، وسرعان ما غدا المسيحيون من أعظم

(8) Lot : The end of the Ancient World , p. 24
Burckhard : The Age of Constantine the great , pp. 65-6

(٩) جيبون : المرجع السابق ج١ ص ٤٦٦-٤٧٠

(10) Rice : Byzantines , p. 10

(11) Chadwick : op. cit. p. 121

(12) Ostrogorsky : Hist. of the Byzantine State, pp. 42-4

(١٣) سعيد عاشور : أوربا ج١ ص ٥٢ (ط٤)

الطبقات فى المجتمع الأوربى[١٤] ، الأمر الذى أجبر الامبراطور قنسطنطين على الاعتراف بالمسيحية فى مرسوم ميلان الشهير سنة ٣١٣م، الذى عرف بمرسوم التسامح الدينى، وهو الذى أباح للمسيحيين حرية العبادة وسمح لهم بإقامة شعائرهم الدينية وممارسة عبادتهم، وكفل لهم هذا المرسوم التمتع بكافة الحقوق التى يتمتع بها غيرهم من أتباع الديانات والشرائع الأخرى[١٥] .

وبمقتضى هذا المرسوم لم يعد أتباع المسيحية موضع اضطهاد السلطات الرسمية وأذاها، بل أصبح الدين الجديد أحد الأديان المعترف بها فى الدولة يقف أتباعه على قدم المساواة مع أتباع الديانات الأخرى فى الدولة مثل الوثنية واليهودية[١٦]. ومن ثم بدأ نجم المسيحية فى الصعود وأتباعها فى الازدياد حتى صارت من أهم العناصر المهيمنة على أقدار المجتمع الأوربى فى العصور الوسطى، وتغلغلت بين طبقاته، من الطبقة الدنيا إلى الطبقات الراقية فى المجتمع[١٧] .

وكان للمبادىء التى أتت بها المسيحية أثر فى هدم معالم المجتمع القديم وتقويض بنيانه، وهدم الدعائم التى قام عليها ذلك المجتمع[١٨]، وتشييد مجتمع جديد يستلهم مقوماته مما اتت به

---

(14) Camb. Med. Hist. V. I, p. 95
Katz : op. cit. p. 65
Thompson : The Middle Ages , V. I , p. 32
(15) Chadwick : op. cit. p. 122
(16) Ibid. p. 122
(17) Camb. Med. Hist. V. I , p. 96
(18) Hardy : op. cit. V. I , p. 34

الديانة الجديدة من قيم ومثل . فبدأ الناس يرون فى مُثلها وقيمها كثيراً من مظاهر السمو المادى والروحى، ويلمسون فى تعاليمها كثيراًمن آيات التفوق الفردى والجماعى ويكشفون مدى التباين بين المجتمع الذى استهدفته هذه الديانة، وبين المجتمع القديم الذى عاشوا فى ظله، والذى طفح بكثير من الرذائل والمباذل(١٩) . ولهذا بدأت أركان المجتمع القديم تنهار شيئاً فشيئاً، وبدأت عبادة الامبراطور تتلاشى رويداً رويداً لتحل محلها عبادة الله، وليجد الناس في المسيحية خير هاد ومرشد وفى رجال الدين سلطاناً من نوع جديد(٢٠) .

الكنيسة الغربية :

مثلت تحديد العلاقة بين المسيح الإبن والإله الأب مشكلة كبيرة قسمت أتباع المسيحية إلى فريقين، وأثارت البغضاء بينهم لمدة طويلة؛ إذ تناولت ألوهية المسيح وعرضت لأساس العقيدة المسيحية، لتفجر صراعاً رهيباً بين أتباع المسيحية(٢١) . فقد احتدم الخلاف بين كاهنين من رجال كنيسة الإسكندرية حول تحديد هذه العلاقة. فذهب أحدهما وهو أريوس Arius – وكان كاهناً مثقفاً – إلى أن منطق الأمور يحتم وجود الأب قبل الإبن وما دام المسيح هو ابن الله، فلابد وأن يكون أقل منه شأناً وأدنى منزلة وبذا فإن المسيح الأبن أقل فى المستوى والقدرة من الإله الأب، ولا يمكن أن يتساوى الاثنان فى المكانة والمنزلة والقدرة، بحكم أن المسيح الإبن مخلوق للاله الأب، فهو إذن دونه مكانة وقدرة ، فالأب أكبر وسابق والأبن أصغر ولاحق ، وإذا كان الخلود هو صفة الله الذى لا أول له ولا آخر، فإن المسيح

---

(19) Katz : op. cit. p. 94

(٢٠) كرمب وجاكوب : تراث العصور الوسطى ج١ ص ٥٠ , ص ٥٧

(21) Chadwick : op. cit. p. 125

ليس خالداً لأن له بداية ، ولهذا فليس المسيح إلهاً[٢٢] . أى أن أريوس أنكر ألوهية المسيح وجعله بشراً. فى حين ذهب الثانى وهو أثناسيوس إلى أن الاله الإبن وإن كان مختلفاً عن الاله الأب ، إلا أنهما متساويان فى المستوى والقدرة بحكم أنهما يستمدان صفتيهما من الصفه الأزلية ، أى أن الابن مساو تماماً للاله الأب بحكم أنهما من عنصر واحد وصفتيهما واحده ، وأن فكرة الثالوث المقدس : الأب والأبن والروح القدس تدعوا إلى اعتبار المسيح إلهاً لايقل شيئاً عن الإله الأب. وهكذا غدا أتباع أريوس من الموحدين بينما صار أنصار أثناسيوس من الثالوثيين[٢٣] .

وعلى هذا فقد رأى الأريوسيون أن الإيمان بالإله الأب ينبغى أن يكون إيماناً بالله الواحد ، وأن المسيح الإبن ليس إلهاً . بينما نظر الآخرون إلى ذلك بأنه تخريب للعقيدة القائله بالمساواة والمشاركة فى الألوهية بين الأب والإبن والروح القدس[٢٤] .

على أن ملاءمة المذهب الأريوسى لمنطق المثقفين والمفكرين ، بسبب إقامته العقيدة المسيحية على أسس من المنطق والعقل قد حدد إنتشار هذا المذهب فى الشطر الشرقى من الامبراطورية مهاد الحضارة اليونانية ومجال الفكر والثقافة ، وموطن الفلاسفة والمفكرين[٢٥] . فى حين كان المذهب الإثناسيوسى يستقيم وتفكير السذج والبسطاء ويلائم المندفعين فى عواطفهم الدينية والمتحمسين لها ، فضلاً عن عامة

---

(22) Ostrogorsky : op. cit. p. 44

(٢٣) سعيد عا شور : أوروبا ج١ ص ٤٣ (الطبعة السادسة ١٩٧٥)

(٢٤) هلستر : أوروبا فى العصور الوسطى ص ٤٣ (ترجمة محمد فتحى الشا عر)

(25) Stephenson : Medieval History , p. 83

الناس، ولهذا فقد ساد هذا المذهب فى غـرب أوربـا، حيـث انتشـرت الحضارة اللاتينية التى تختلف فى ذلك الوقت عن قرينتهـا اليونانيـة فى الشرق، وحيث انحط المستوى الثقافى والفكرى، عما عرفه الشـرق أى الشطر الآخر من الامبراطورية[٢٦] .

غير أن احتدام الجدل بين أتباع المذهبين، قـد دفـع الامـبراطور قنسطنطين إلى الدعوة إلى عقـد مجمـع دينـى فـى مدينـة نيقيـة بآسـيا الصغرى سنة ٣٢٥م لوضع حد لهذا الخلاف[٢٧] ، فحضر هذا المجمع المسكونى الأول فى تاريخ الكنيسة المسيحية نحـو ثلاثمائـة مـن رجـال الدين فى الشرق والغرب، وأسفر هذا المجمع عن إدانة أريـوس ونفيـه إلى إيلليريا، وإعدام كتاباتـه وتحريـم تداولهـا واضطهـاد أتباعـه، فـى حين أقر المجمع مساواة الأقانيم الثلاثة للثالوث الأقدس، وأن المسـيح عيسى " من نفس جوهر الأب" [٢٨] ،كما أقر المجمع صلاحية مذهـب أثناسـيوس واعتبـاره الـرأى العـالمى أو الكـاثوليكي **Catholicus** ، إذ اعتبر هذا المجمع المسكونى: المسـيح إلهـاً مسـاوياً لـلأب فـى المنزلـة والمكانة، وما عدا ذلك غير مقبول، فالمسيح" إله من إله ونـور مـن نـور وإله حق من حق ومولود غير مخلوق "[٢٩] .

وهكذا انفردت الكنيسـة فى غـرب أوربـا بمكانـة بارزة نتيجـة

---

(26) Camb. Med. Hist. V. 2 , p. 330 , V. 3 , pp. 432-5

(27) Burckard : op. cit. p. 309
Ostrogorsky : op. cit. p. 44
Hussey : op. cit. p. 12

(٢٨) هلستر :أوروبا ص ٤٣

(29) Camb. Med. Hist. V. I , pp. 122-25

لانتصار الكاثولكية من ناحية ،ولانتقال الأباطرة إلى القسطنطينية من ناحية أخرى[٣٠] . وما لبث أن أخذ سلطان رجال الدين فى أوربا يعلو شيئاً فشيئاً دون معارضة تذكر من السلطات الحاكمة ، فى الوقت الذى خضع فيه رجال الدين فى الشرق لسلطة الأباطرة فى القسطنطينية ، ولم ينجحوا فى الانفراد بتدبير الأمور ، أو الوصول إلى نفس المكانة التى أحتلها الآخرون فى الغرب[٣١] .

ثم أخذت الكنيسة منذ القرن الرابع الميلادى تتدخل فى شئون السلطة العلمانية وازداد تدخلها بضعف سلطة الإمبراطور وتهالكها وتوغل الجرمان فى جوفها ، مما أدى إلى انهيار الحكومة الإمبراطورية ذاتها[٣٢] ، حتى انتهى الأمر بحلول الكنيسة محل الإمبراطورية عندما أفل نجم الأخيرة فى الغرب الأوربى[٣٣] . وساعد الكنيسة على ذلك ما حدث من انتهاجها نهج النظم الإمبراطورية ، بل اتبعت الكنيسة ما سبقتها إليه الإمبراطورية ، بل جعلت التنظيم الإمبراطورى نموذجاً لتنظيمها ، فأصبحت على حد قول أحد المؤرخين " هى الإمبراطورية الرومانية فى قالب كنسى "[٣٤] ، حتى غدا الأساقفة يضطلعون بعبء النظم الإدارية فى أقاليم الإمبراطورية ، لأن معظم النظام الإدارى لايقل عن النظام اللاهوتى فى الكنيسة[٣٥] ، ولم يلبث رجال الدين

---

(٣٠) فشر : تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ق١ ص ١٠٦ (ترجمة زيادة والعرينى)
(٣١) فشر : نفسه ق١ ص ١٠٦

(32) Hoyck : "Rise of the Germanic races and the Comming of the Barbarians". B. H. V. V11 , PP. 3423-5

(33) Chapman : Studies in the Early papacy , p. 97

(٣٤) فشر : المرجع السابق ق١ ص ١٠٤
(٣٥) هلستر : أوروبا ص ٣١ (مترجم)

أن بلغوا مكانة ملحوظة فى حياة المجتمع ، فتولوا القضاء وراقبوا الشئون العامة والسلوك الفردى وأسهموا فى تكييف العرف [٣٦] .

وما لبثت الكنيسة المسيحية أن حصلت من الحكومة الإمبراطورية على بعض الإمتيازات الخاصة والإعفاءات ، فغدا لها الحق فى الحصول على الهبات ، وكذلك الاعفاءات من الضرائب ، وحق قيام الأساقفة بالفصل فى المنازعات بين المسيحيين ، وترتب على ذلك ازدياد نفوذ الأساقفة فى أقاليمهم بحكم مكانتهم الدينية من ناحية ، وبحكم ما حصلوا عليه من ثروات بطريق الهبات والصدقات إلى غير ذلك[٣٧] . وهكذا أخذت ثروة الكنيسة تزداد ونفوذها يتسع حتى امتلكت الضياع الواسعة ، وصار لها نفوذ دينى ودنيوى كبير ، وتشبه الأساقفة بالأمراء واتخذوا الأتباع والموظفين والخدم والحشم[٣٨] .

وشهد القرن الرابع أيضاً إلى جانب التنظيم الكهنوتى وازدياد نفوذ الكنيسة السياسى ، تطور اللاهوت المسيحى وتقدمه ، بعد أن انتشرت الديانه بين أوساط المجتمع الأوربى واعتنقها كثير من المثقفين والمفكرين الذين مرنوا على أساليب الجدل والمنطق والفلسفة ، وألفوا التفكير الكلاسيكى ، وغدا لزاماً إقناع هؤلاء المثقفين والرد على استفساراتهم عن كثير من قضايا العقيدة الجديدة ، وتولى هذه المهمة مجموعة من كبار مفكرى المسيحيةالذين أطلق عليهم لقب آباء الكنيسة الذين آمنوا بضرورة إقناع الناس بالمودة والموعظة الحسنة

---

(٣٦) كرمب وجاكوب : تراث العصور الوسطى ج١ ص ٤٦ (ترجمة بدران و زيادة)

(37) Camb. Med. Hist. V. I , p. 561

(38) Thompson : The middle Ages , V. I , p. 49

دون اللجوء إلى العنف أو القوة[٣٩] ، بل إن هؤلاء الكتاب الذين كان أبرزهم كلمنت السكندرى وأوريجن فى القرن الثالث وجيروم وآمبروز وأغسطين فى القرنين الرابع والخامس الميلاديين، هم المفتاح إلى فهم فكر العصور الوسطى الباكرة، فقد ترك لنا آباء الكنيسة اللاتين الأربعة الكبار أغسطين وجيروم وآمبروز وكذلك البابا جريجورى العظيم قدراً ضخماً من المؤلفات التى ناقشت معظم المسائل المتعلقة بكنيسة العصور الوسطى[٤٠] ،وأسهم معهم كلمنت السكندرى وأوريجن فى إقناع المثقفين والرد على أسئلتهم وتقديم العقيدة المسيحية فى قالب يتقبله أولئك المثقفون، واستخدموا الفلسفة الكلاسيكية فى تبرير آرائهم وتأييدها، فأسهم كبار مفكرى المسيحية فى القرنين الرابع والخامس الميلاديين فى التأثير الفكرى وجعل اللاهوت ممكناً، وجعل التفسير المجازى للكتاب المقدس ضرورة[٤١] .

فآمبروز Ambrose وجيروم Jerome وأغسطين Augustine ، هؤلاء الرجال يمكن اعتبارهم " علماء لاهوت الكنيسة اللاتينية " لأن كتاباتهم المتعددة التى بلغت حد الوفرة سيطرت على الفكر فى العصور الوسطى، فكل من الثلاثة درس الفكر الثقافى للتراث اليونانى – الرومانى دراسة مستقلة، وكل منهم كرّس عمله وحياته لخدمة المسيحية[٤٢] .

ظهور البابوية وازدياد قوتها فى العصور الوسطى:

فى الوقت الذى خضع فيه رجال الدين فى الشرق لسلطة

---

(39) Heer : The Medieval World . p. 142

(٤٠) كانتور : التاريخ الوسيط ق١ ص ١٣١

(٤١) كانتور : نفس المرجع ق١ ص ١٣٣

(٤٢) هلستر : أوروبا فى العصور الوسطى ص ٤٥-٤٦

الأبـاطرة وأسـلموا لهـم قيـادهم، واحتفـظ فيـه الأبـاطرة بحـق الدعـوة للمجامع الدينية لبحث شئون المسيحية حسب مـا اسـتنه قنسـطنطين من سابقة الدعوة إلى تلك المجامع(٤٣) ، نرى الأمر اختلـف عـن ذلـك كثيراً فى الغرب الأوربى، فقـد أدى تقسـيم الإمبراطوريـة الرومانيـة ، وضعف أباطرتها فى الغرب وقصور همتهـم عـن فـرض سـلطتهم علـى رجال الديـن وعلـى رجـال الدولـة فـى نفس الوقـت إلى بـروز أهميـة الكنيسة الغربية وانفرادها بالأمر لعدم وجود قوة حاكمة تقلل من شأنها أو تحد من سلطتها(٤٤) . ولهذا استطاع رجال الكنيسة فى روما الرقـى بكنيستهم والوصول بها إلى مكان الصدارة فى العالم الغربي. ومـا لبـث أن حصل أسـقف رومـا علـى لقـب **Pope** (بابـا) تشـريفاً لـه وتكريمـاً لمكانتة عن بقية رجال الأسـقفيات الكبـار فـى العـالم المسيحى . فقـد استطاعت كنيسة روما أن تقدم من النصوص والأسانيد ما يكفى لإقنـاع الناس بزعامتها للعـالم المسيحى فـى ذلـك العهـد حـين كـان النـاس يؤمنون ويسلمون بكل ما هو تقليدى، وبكل ما من شأنه التدليـل علـى المجد الرومانى القديم(٤٥) .

فلم تكن ثمة مدينة أخرى فى الغرب الأوربى تضـاهى رومـا فـى منزلتها الدينية والسياسية(٤٦) ،بالنسبة للمسيحيين قاطبـة، وإذا كـان لقرطاجة بعض هذه المنزلة، إلا أنها لم ترق أبداً إلى رتبة روما ولم يسم أسقفها إلى مصاف أسقف روما الذى اعتبر نفسه خليفة القديس بطرس الذى منحـه المسيـح مفاتيـح ملكـوت السماوات والـذى اسـس الكنيسة

---

(43) Bury : Hist. of the Later Roman Empire , V. I, p. 63

(44) Deanesly : A Hist. of Early Med. Europe, p. 165
Lot : The end of the Ancient Word, p. 53

(٤٥) فشر : تاريخ أوربا ق١ ص ١٠٤-١٠٥ (مترجم)

(46) Camb. Med. Hist. V. I, pp. 169-73

المسيحية نفسها فى روما[٤٧]. " ففى روما ينهض بولس من مرقده، وفيها يبعث بطرس فتأمل وتعجب .. فما أوهن ما ترى روما حينذاك، حين يقوم كل من بولس وبطرس من قبره ويذهب كل منهما للوقوف بين يدى المسيح" [٤٨] . هذا فى الوقت الذى افتقرت فيه القسطنطينية نفسها، والتي نازعت روما سيادتها الدينية، إلى سند كهذا باعتبارها مدينة منشأة فى القرن الرابع الميلادى، ولم ينتقل إليها تراث المسيحية الأول على يد أحد من تلامذة المسيح مثل بطرس[٤٩] .

وهكذا علا نجم أسقف روما وتمتع بمكانة لا يدانيه فيها أحد من أساقفة الغرب واستمد هذه المكانة من أهمية روما، ومن ثم راح أساقفة هذه المدن يستثمرون هذه الأهمية والمكانة فى الحصول على الزعامة على أسقفات الغرب وتحقيق السمو على تلك الأسقفيات بما فيها قرطاجة[٥٠] .

ولم يتمكن أساقفة روما من تحقيق سيادتهم بسهولة أو بغير معارضة من بقية الأساقفة، إلا أن اعتبار أساقفة روما خلفاء للقديس بطرس هو الذى جعلهم يشعرون بأنهم أحق الناس بزعامة العالم المسيحى والتمتع بميراث زعيم الحواريين ومقدم الرسل[٥١] ، هذا فضلاً عن قيام بعض الرجال الأقوياء فى هذا المنصب فى روما قد منحها فرصة مواتية لتدعيم سلطانها وتأكيد نفوذها، فقد لعب بعضهم

---

(47) Chapman : Studies in the early Papacy , p. 97

(٤٨) فشر : المرجع السابق ق١ ص ١٠٦

(49) Deanesly : op. cit. p. 169

(50) Thompson : op. cit. V. 1 , pp. 51-2

(٥١) سعيد عاشور : أوربا ج١ ص٥٣

دوراً بارزاً فى توجيه سياسة روما الدينية ومنهم: البابا داماسوس الأول Damasus I (٣٦٦-٣٨٤ م) [٥٢]، وخليفته البابا سيركيوس Siricius (٣٨٤-٣٩٩م)، والبابا ليو الأول أو العظيم (٤٤٠-٤٦١م)، الذى تم فى عهده الاعتراف بسيطرة البابوية على كافة الكنائس المحلية فى الغرب وهو الذى وحّد أيضاً بين عقيدة القديس آمبروز فى الوظيفة الإلهية للامبراطورية الرومانية، وبين الاعتقاد التقليدى بأولوية الكرسى الرسولى البابوى[٥٣]. ثم جاء سقوط الإمبراطورية الرومانية فى الغرب على أيدى الجرمان سنة ٤٧٦م، عاملاً هاماً بالنسبة لتدعيم سلطة البابا وانفراده بالنفوذ الدينى والسياسى فى الغرب[٥٤]، ثم كان اعتلاء البابا جريجورى الأول أو العظيم (٥٩٠ -٦٠٤ م) فصل الختام بالنسبة لمكانة البابا وسلطته البابوية فى الغرب الأوربى، بعد أن دانت له الكنيسة الغربية بوصفه خليفة القديس بطرس، ورأس السلطة الدينية فى أوربا والعالم المسيحى كله[٥٥].

وجدير بالذكر أن أباطرة القسطنطينية ظلوا على مكابرتهم فى مساندة مبدأ المساواة التامة بين الكرسى الدينى فى روما ونظيره فى الشرق البيزنطى مع استمرارهم فى دعوة المجامع الدينية وتمسكهم بهذا الحق الذى هو من صميم السلطة الدينية .واتضحت هذه السياسة خلال مجمع خلقدونيا قرب منتصف القرن الخامس الميلادى (٤٥١م)،

---

(52) Camb. Med. Hist. V. I, pp. 171-73

(٥٣) كرستوفر دوسن : تكوين أوربا ص ٥٤ (ترجمة عاشور وزيادة)

(٥٤) هلستر : أوربا ص٥٣

(55) Sullivan : Heirs of the Roman Empire, pp. 48-9
Baldwin : The Med. Church ,p. 27
Lamonte : The World of the Middle Ages , p. 31, 72-79

إلا أن ممثلى البابا ليو الأول عارضوا هذا الأمر تماماً وتمسكوا بزعامة روما، وسمو كرسيها الدينى فى العالم المسيحى كله[٥٦]، ولم تمضى إلا سنوات قليلة حتى أصدر الإمبراطور الغربى فلنشيان الثالث مرسوماً بخضوع جميع أساقفة الغرب للبابا فى روما[٥٧].

غدا البابا إذن رأس الجهاز السياسى والدينى معاً بحكم خلافته للقديس بطرس واعتبر المعاصرون سلطة فوق سلطة الملوك وسيادته فوق سيادة الأمراء، فكما كان القديس بطرس رئيساً لرسل المسيح، فقد حاول الباباوات أن يبرهنوا أن البابا ملك الكنيسة الرسولية، وأنه كما أن الخلاص الأبدى أهم بكثير من الجسد، لذلك فإن السلطة الكهنوتية أعظم بكثير من السلطة العلمانية للسادة الاقطاعيين وللملوك والأباطرة وأن المجتمع المسيحى الحق هو الذى تسيطر علية الكنيسة[٥٨].

ولهذا انهمكت البابوية فى تنظيم سيادتها على أسس إقطاعية فعالة، وجاء البابا جريجورى العظيم (٥٩٠-٦٠٤م) ليعمل على تقوية نفوذ البابوية السياسى ويؤكد زعامتها الدينية[٥٩]، وأصبحت سلطة الكنيسة فى ازدياد مطرد، فتزايد ما كان يمارسه أسقفتها من سلطات دينية، وتوافرت الأموال والثروات الضياع المحبوسة عليها وأصبح للكنيسة نظام دائم ... وتهيأت لبسط النفوذ البابوى فى أوربا الغربية كلها وهو العمل الذى تم على يد البابا جيرجورى[٦٠]. وتابع البابوات

(56) Camb. Med. Hist. V. I, p. 503

(٥٧) سعيد عاشور :أوربا ج١ ص ٥٤

(٥٨) هلستر : أوربا ص ١٧٩

(٥٩) موس : ميلاد العصور الوسطى ص ١٨٧ (ترجمة جاويد ومراجعة العرينى)

(٦٠) موس : المرجع نفسه ص ١٨٧

بعده جهودهم لجعل هذا النفـوذ حقيقـة ملموسـة فـى مختلـف أنحـاء الغرب المسيحى، وساعد البابوية علـى ذلـك مـا حـدث مـن انصـراف الإمبراطورية البيزنطيـة عـن إيطاليـا، إلى محاولـة حـل مشـاكلها فـى الشرق مما ألقى عبء حمايـة إيطاليـا وحمايـة حضارتهـا علـى كـاهل البابوية وحدهـا(٦١) . ومـا حـدث أيضـاً مـن خـلاف مذهبـى وانقسـام سياسى بين الشرق والغرب على أثر تفجر مشكلة اللاأيقونيـة والتفـاف الشـعوب الغربيـة حـول البابويــة فــى صراعهــا ضـد الإمبراطوريــة الشرقية(٦٢) .

وبـدا للمعـاصرين فـى المرحلـة الحالكـة الظـلام عقـب تقسـيم إمبراطورية شارلمان وضعف السلطات الحاكمة فـى الغـرب أن الحفـاظ على الـتراث الغربـى والحضـارة الغربيـة مرهـون بقيـام سـلطة كنسـية مركزية، يصبح بوسعها الصمـود فـى وجـه السـلطة العلمانيـة وانـتزاع اعترافها بسمو الكنيسة وسيادتها(٦٣) . ومـا لبثـت الكنيسـة أن بلغـت على عهد البابا ذائع الصيت جريجورى السـابع مرحلـة حاسمـة فـى تاريخها وفى تأكيد سموها على الإمبراطورية . فقـد نـاضل هـذا البابـا لمنع التقليد العلمـانى وحرمـان السـلطة الزمنيـة مـن اختيـار الأسـاقفة وتقليدهم(٦٤) . فالملك ليس نائبـاً عـن الله فـى الأرض... وأنـه مجـرد شـخصية علمانيـة مكلفـة بحفـظ النظـام فـى المجتمـع المسـيحى(٦٥) . وغدت المرحلـة من بداية النصف الثانى للقرن الحادى عشـر مرحلـة

---

(61) Vasiliev : The Byzantine Empire ,p. 259

(62) Chadwick : op. cit. p. 283

(٦٣) سعيد عاشور : أوربا ج٢ ص ٢١٧ (ط ١٩٧٦)

(64) Painter : A Hist. of the Middle Ages , p. 161

(٦٥) هلستر : أوربا ص ١٨٤

هامة فى تاريخ الكنيسة الغربية، حتى ليعد جريجورى السابع أعظم بابوات العصور الوسطى (١٠٧٣-١٠٨٥م) قاطبة بسبب موقفه العنيد من الإمبراطورية ومحاولته انتزاع اعترافها بسمو مركز البابوية، واعتبارها مصدر جميع السلطات الدينية والزمنية[٦٦] .

واذا كانت هذه السياسة قد أدت إلى تفجر الصراع بين البابوية والإمبراطورية وامتداده أكثر من قرن ونصف من الزمان واستخدام البابوية لأسلحتها الروحية فى عنف ممثل فى توقيع عقوبة الحرمان الشخصى أو الحرمان الجماعى، فإن هذه الحركة جاءت مصحوبة بحركة أخرى داخلية ترمى إلى تدعيم سلطة البابوية وتقوية نفوذها داخل الكنيسة[٦٧] . ويتفق المؤرخون على أن النزاع الذى فجره البابا جريجورى السابع مع الإمبراطورية، والذى امتد فترة طويلة أدى إلى تحقيق مكاسب هامة للبابوية، أبرزها الهيمنة على الكنيسة الغربية، أى السيطرة المركزية داخل الكنيسة ذاتها فضلاً عن تحقيق زعامة البابوية وسموها على كل ما عداها بما فى ذلك السلطة الإمبراطورية. فقد أسفر هذا الإصلاح على تأكيد مكانة البابوية داخل الجهاز الكنسى من ناحية، والحد من سلطان الإمبراطور والأمراء الاقطاعيين وتدخلهم فى شئون الكنيسة وغمس إصبعهم فى سياستها من ناحية أخرى[٦٨] . ولم يمض وقت طويل حتى تم للبابوية إخضاع كافة رؤساء الأساقفة فى الأقاليم لسلطة البابوية المطلقة بصورة تثير الدهشة[٦٩] .

---

(66) Camb. Med. Hist. V. 6, pp. 650-51

(٦٧) عاشور : أوربا ج٢ ص ٢١٧-٢١٨

(68) Camb. Med. Hist. V. 6 , pp. 553-4

(69) Ibid. p. 557

ولم يكد ينتهى القرن الثانى عشر، حتى كانت سيادة البابوية قد تحققت على الكنيسة الغربية بأسرها، وبلغت مكانتها، لاسيما على عهد البابا إنوسنت الثالث (١١٩٨-١٢١٨م) ، شأواً بعيداً كحصيلة لتجارب وصراع طويل فى سبيل تأكيد نفوذها السياسى جنباً إلى جنب مع النفوذ الدينى، بل استطاع هذا البابا أن يلعب دوره بمهارة فى السياسة العالمية لغرب أوربا، وأن يفرض كلمته على أعظم حكام الغرب[٧٠]. ولقد شرح البابا أنوسنت الثالث نفسه نظرية السلطان البابوى الشامل **Plenitudo pites tatis** وأعاد تقرير العقيدة الدينية، ونظم طقوس الكنيسة، ووضع أسساً سياسية للمستقبل[٧١]. وهكذا غدا البابا يعامل ملوك أوربا وأمراءها على أساس أنهم أبناء الكنيسة وأنه هو أبوها، بما يعنيه ذلك من إدخال غرب أوربا كله فى نطاق الكنيسة واعتبار نفسه ليس زعيماً لهيئة مستقلة من رجال الدين والكهنوت فحسب، بل أيضاً رأس العالم المسيحى بأسره[٧٢]. بل يؤكد المؤرخون أن الحاكم الفعلى للعالم المسيحى عند مستهل القرن الثالث عشر لم يكن إلا البابا إنوسنت الثالث[٧٣]، ولم ير أحد من معاصرى إنوسنت فى هذه الآراء شيئا استبدادياً أو مخالفاً للمألوف ... لأن البابا فى المسيحية هو الملاذ الأعظم والموئل النهائى فى كل الأمور المتعلقة بالعقيدة والنظام[٧٤] .

نظم البابوية :

وتبعاً لهذه المنزلة السامية التى احتلتها البابوية، فقد عاش البابا فى بلاط أشبه ببلاط الملوك والأباطره ، أى أنه غدا زعيماً دينياً

---

(70) Eyre : European Civilization, V. 3, p. 202

(٧١) كرمب وجاكوب : تراث العصور الوسطى ج١ ص ٧٦

(72) Camb. Med. Hist. V. 6, pp. 4-5, p. 34

(73) Painter : A Hist. of the Middl Ages , p. 295

(٧٤) فشر : تاريخ أوربا ق١ ص ٢٣٣

ملكياً، فمنح نفسه الألقاب واتخذ الموظفين والأمناء وأحاط نفسه بمظاهر الأبهة والعظمة[٧٥]، والغريب أن البابا إنوسنت الثالث نفسه أخذ يجرى وراء مشاريع دنيوية ضخمة ... لما أصبحت فيه الكنيسة من غنى ودعة وعافية وطموح[٧٦]، وأصبح البلاط البابوى بمرور الوقت مركزاً لجهاز ضخم يهدف لتنفيذ رغبات البابوية وأطماعها السياسية والدينية، وأكثر البابا من إرسال مندوبيه وممثليه إلى مختلف أنحاء الغرب الأوربى، أى توسع البابا فى استخدام المبعوثين البابويين الذين نشروا السلطان البابوى على نحو ما قام به المبعوثون الملكيون على عهد شارل العظيم[٧٧] . فعقد هؤلاء المجامع الكنسية الإقليمية، وفصلوا فى القضايا وتمتعوا بنفوذ كبير فى الجهات التى قصدوها[٧٨] ، وأضاف ذلك إلى نفوذ البابوية وقوى من سلطانها فى مختلف أنحاء أوربا، منذ أن أضحى من المعروف أن البابوية هى الملجأ لكل ذى مظلمة أو شكاية مهما كان مصدرها[٧٩] .

وغدت المحكمة البابوية على عهد البابا إنوسنت الثالث هيئة قضائية عليا تنظر فى جميع القضايا المعروضة عليها من مختلف الأنحاء[٨٠] ، يدل على ذلك الكثرة الهائلة فى عدد الدعاوى التى

---

(75) Matthew Paris : Chronica , ed.Luard 1874 559 - 64
Southern : Western Society and the Church in the middle Ages , p. 21

(٧٦) فشر : المرجع السابق ق١ ص ٢٣٥ – ٢٣٦

(٧٧) كرمب وجاكوب : تراث العصور الوسطى ص ٧٥–٧٦

(78) Camb. Med. Hist. V. 6 , p. 40

(٧٩) فشر : نفس المرجع ق١ ص ٢٣٧

(80) Southern : op. cit. pp. 116 - 117 , عاشور : أوربا ج٢ ص ٢٢٠

رفعت إلى المقام البابوى(٨١) . وكان البابا غالباً ينظر بنفسه فى القضايا يساعده مجموعة من الكرادلة، وأحياناً أخرى كان يحول القضايا إلى كبار رجال الدين فى البلد الذى أتت منه القضية(٨٢) ،وما لبث أن اتسع أفق القانون الكنسى الذى أشرنا إليه فيما سبق، وظهرت فئة من القانونيين فى البلاط البابوى كان البابا يستشيرهم ويأخذ بآرائهم فى بناء أحكامه القضائية فى كثير من الأحيان(٨٣) . وكان هذا يعنى أن العاملين فى الجهاز الادارى البابوى فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر، كانوا مدربين بشكل جيد وعلى قدر كبير من المهارة(٨٤) .

وتطلب تنفيذ سياسة البابوية، وجود جهاز إدارى مركزى دقيق بعد أن غمست الكنيسة إصبعها فى الشئون الدنيوية، وبدا البابا كحاكم أو إمبراطور معنى بالشئون الدنيوية إلى جانب الشئون الدينية. ولهذا فقد حوى الديوان البابوى أعظم جهاز إدارى عرفته العصور الوسطى(٨٥)، لتنفيذ مشيئة البابا وتحقيق رغباته وأطماع البابوية السياسية والدينية، وتطور هذا الجهاز حتى غدا بمثابة أداة حكومية. وأدى تطور الحكومة البابوية إلى ظهور نوع من التخصص فى البلاط البابوى قوامه هيئات ومجموعات من الموظفين المتخصصين يقوم كل منهم بعمل إدارى معين(٨٦) ، وتطور ذلك إلى قيام مؤسسة إدارية

---

(٨١) فشر : نفسه ق١ ص ٢٣٣

(82) Southern : op. cit. p. 118, عاشور : نفسه ج٢ ص ٢٢٠

(83) Delise :" Memoire sur les actes d'Innocent III, B. ecole des Chartes , 1858 , 4 ser, V. 4 p. 73

(٨٤) كانتور : المرجع السابق ق٢ ص ٥٦١

(85) Soutern : op. cit. pp. 117-121

(٨٦) عاشور : أوربا ج٢ ص ٢٢٠ ، Camb. Med. Hist. V. 6, p. 3

معدة وضخمة[٨٧] .وكانت القرارات والأوامر البابوية تصدر عادة في صور مراسيم مكتوبة باللاتينية وهي اللغة المستخدمة في الموضوعات ذات الطابع الفنى والفكرى مثل الفلسفة واللاهوت والقانون ووثائق الكنيسة والدولة، وظلت كذلك حتى نهاية القرن الثانى عشر[٨٨] .

وانقسمت هذه المراسيم البابوية **Papal bulls** ، في عهد البابا إنوسنت الثالث إلى نوعين: المراسيم الكبرى **Great Bulls** والمراسيم الصغرى **Litte Bulls** وكانت الأولى وثائق رسمية ذات طابع خاص ثابت ومميزات لا تتغير وتتضمن توقيع البابا ورمزه أو شعاره، فضلاً عن توقيعات عدد معين من الكرادلة[٨٩] ، ووكل بإعداد هذه المراسيم إلى موظفين مختصين فى الديوان البابوى تميزوا بالدقة والمهارة . فقد كان العاملون بالجهاز البابوى خاصة فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر كما سبق وأن ذكرنا – على قدر كبير من المهارة والتدريب[٩٠] ، وكان من السهل على هؤلاء كشف أية وثيقة مزورة، لأن صياغة المرسوم البابوى وكتابته، كانت تتم وفق قواعد دقيقة فى أسلوبه وألفاظه وخطه وطريقة ختمه[٩١] ، هذا فضلاً عن أن الرسائل الصادرة كانت تنسخ من صورتين لتحفظ إحداهما في أرشيف الكنيسة الرومانية. وهكذا تمسك البلاط البابوى بقواعد الدبلوماسية والمظاهر

---

(٨٧) هلستر : أوربا ص ١٩١

(٨٨) كانتور : المرجع السابق ق٢ ص ٥٦١

(89) Registres d' Innocent 1V, ed. Berger 1884, no 74, Southern: op. cit. p. 205

(٩٠) كانتور : نفسه ق٢ ص ٥١٦ .

(91) Camb. Med. Hist. V. 6, pp. 327-28,
عاشور : المرجع السابق ج٢ ص ٢٢١

القانونية التى لم يكن لها مثيل فى أى مكان فى أنحاء أوربا حينئذ(٩٢) .

كما تطلب تنظيم الشئون المالية والإيرادات والمصروفات وجود إدارة مالية قائمة بذاتها فى البلاط البابوى، وكل النظر لها فى الشئون المالية وحصر الإيرادات المختلفة وبيان أوجه صرفها، خاصة وقد تعاظمت مدخولات البابوية، وكثرت أموالها، بعد أن أصبحت البابوية قوة سياسية كبرى ومؤسسة ضخمة، ووجدت نفسها فى حاجة متزايدة لمصادر الدخل(٩٣)، وتحتاج إلى قدر هائل من المال لكى يواصل الجهاز الادارى عمله، إذ كان الكرادلة عادة ينحدرون من عائلات مرموقة من الطبقة الأرستقراطية ومعتادين على حياة الرفاهية، فضلاً عن أنه كان على البابا أن يجد المال اللازم لتمويل المغامرات السياسية والعسكرية للتصدى للسلطات العلمانية فى أوربا(٩٤) .

وكانت إيرادات البابوية تأتى من عدة أوجه من بينها ممتلكاتها الواسعة فى إيطاليا التى كانت تدر عليها دخلاً ثابتاً جعل البابوية فى غنى عن أى حاكم علمانى(٩٥). وكان البابا مثله مثل أى ملك فى ممتلكاته التى هى الدولة البابوية، وكان عليه أن يفرض أشكالاً جديدة من الضرائب التى أظهرت مدى ضخامة الثروة التى يمكن أن تحصل عليها البابوية، بفرض ضريبة عامة مثلاً على رجال الكنيسة، فرضها البابا إنوسنت الثالث سنة ١١٩٩م، صارت الأولى بين العديد من

---

(٩٢) سعيد عاشور : أوربا ج٢ ص ٢٢١

(٩٣) هلستر : أوربا ص ١٩٦

(٩٤) كانتور : التاريخ الوسيط ق٢ ص ٦٦٨-٦٦٩

(95) Vasiliev : op. cit. p. 259

الضرائب المتنوعة[٩٦]، فضلاً عما حصلت عليه من حقوق إقطاعية واسعة كانت تدر عليها عند نهاية القرن الثانى عشر دخلاً كبيراً منتظماً، بعد أن أتاحت التبعية الإقطاعية للبابوية فرصة هائلة لحصولها على تلك الحقوق[٩٧]، فلم يكتف الأساقفة ومقدمى الأديرة بحيازة الاقطاع وبذل التبعية الإقطاعية، بل شاركوا بقية الأتباع فى الوفاء بالالتزامات الاقطاعية، وتدرج الأمر حتى بذلت البابوية جهوداً لتخليص الكنيسة من هذه القيود[٩٨] ، ونظراً لدخول بعض المؤسسات الكنسية والديرية فى كنفها وكذلك دخول بعض الأمراء والملوك الذين أحسوا بضعفهم ورغبتهم فى الحماية فى ظلها[٩٩] ، وبذل أراضيهم وممتلكاتهم لها ، ثم استردادها على هيئة إقطاع ، كما كان يحدث تماماً بالنسبة للتبعية الاقطاعية للأسياد الإقطاعيين الذين سبقت الأشارة إليهم ،فقد ترتب على دخول هذه الهيئات والأمراء والملوك فى التبعية البابوية والوفاء لها بما يقرره العرف الاقطاعى من ضرائب ومكوس وغيرها[١٠٠]، وأصبحوا أنصاراً للبابوية يتمتعون بحمايتها نظير بعض الإلتزامات الاقطاعية[١٠١]. والغريب أن النتاج المالى والسياسى للبابوية حينئذ ظهر كنتيجة لحلمها القديم ورغبتها فى أن تكون

---

(٩٦) كانتور : نفسه ق٢ ص ٦٦٩

(97) Fulbert of Charters on the Duties of Lord and Vassal in Med. World, by Cantor , pp. 176-7

(98) Ibid. p. 177

(99) Painter : op. cit. p. 268

(100) Strayer, Munro : The Med. Ages , p. 118
Bloch : Feudal Societ , p. 203 (Trans. Manyon)

(101) Camb. Med. Hist. v. 6, p. 554

المحرك الروحى لعالم مسيحى جرى إصلاح أحواله[١٠٢] .

وثمة وجه آخر لإيرادات البابوية كان يأتى من الضرائب التى كانت تجمعها من بعض الأديرة مقابل تحريرها من ولاية الأسقف الذى يقع الدير فى دائرته أو تجمعها من الأسقفيات نظير تحررها من ولاية رئيس الأساقفة الأسقفية الواقعة فى نطاق عمله[١٠٣] ، وبحلول القرن الثالث عشر اكتسبت البابوية سمعة بغيضة بسبب جشعها الذى لا حد له[١٠٤]. وهكذا تضخمت إيرادات البابوية الأمر الذى تطلب تعيين مسجل خاص للخزانة البابوية سنة ١١٩٢م، لحصر مختلف الهيئات التى تداينها البابوية بضرائب منتظمة فى مختلف بلدان أوربا[١٠٥]. هذا بالاضافة إلى موارد البابوية العامة على عهد البابا إنوسنت الثالث التى اشترك فى دفعها العالم المسيحى على شكل ضرائب كانت فى أصلها مرتبطة بالحروب الصليبية[١٠٦]، وكشفت هذه الضريبة الخاصة لتمويل الحملة الصليبية الثالثة عن مدى ضخامة ثروة البابوية[١٠٧]. وقد فرض هذه الضرائب بعض ملوك الغرب مثل الملك لويس السابع ملك فرنسا وريتشارد الأول ملك انجلترا على رعاياهم الكنسيين والعلمانيين لهذا الغرض[١٠٨]. وما لبث البابا إنوسنت الثالث أن أصدر أمراً سنة ١١٩٩م يحتم على جميع الأساقفة أن يرسلوا إلى البابوية نسبة معينة من دخل الأسقفية السنوى توازى

---

(١٠٢) هلستر : أوربا ص ١٩٦

(١٠٣) سعيد عاشور : أوربا ج٢ ص ٢٢٢

(١٠٤) هلستر : نفسه ص ١٩٦

(١٠٥) عاشور : نفسه ج٢ ص ٢٢٢

(106) Camb. Med. Hist. v. 6 , pp. 554-5

(١٠٧) كانتور : التاريخ الوسيط ق٢ ص ٦٦٩

(108) Painter : op. cit. p. 298

جزءاً من أربعين ١/٤٠ من متحصلاتها بالاضافة إلى بعض الضرائب التى كانت تجمعها البابوية بطريق مباشر عند تعيين الأساقفة وغيرهم من كبار رجال الدين فى مناصبهم لمواجهة احتياجات البابوية ومطالبها(١٠٩)، أو عن طريق غير مباشر مثل بيع صكوك الغفران ، وهكذا تكاثرت إيرادات البابوية فى القرن الثالث عشر وزادت زيادة رهيبة حتى فاقت دخول كافة الملوك الأوربيين مجتمعة معاً(١١٠).

المجامع الدينية :

بعد أن انتشرت المسيحية واتسع نفوذ الكنيسة منذ القرن الرابع ، غدت الحاجة ماسة لعقد بعض المجامع الدينية لمعالجة المشكلات الدينية التى كانت تشغل بال العالم المسيحى من جهة ولتأكيد سلطة الكنيسة وتدعيمها من جهة أخرى(١١١)، ولقد عرفت أوربا العصور الوسطى كثيراً من هذه المجامع التى أثرت فى التاريخ الأوربى بوجه عام والتاريخ الكنسى بوجه خاص(١١٢)، واتخذ بعضها الطابع العالمى حيث حضره الأساقفة من كل الأنحاء ليبحثوا المسائل المعقدة أو يعالجوا الخلافات التى كانت تنشب بين بعضهم من آن لآن، أو ليزيلوا سوء الفهم بين بعضهم والبعض الآخر بين الحين والحين عن طريق النقاش وإعمال الفكر وبالحجة والبرهان(١١٣) .

وقد حظيت أربعة مجامع دينية عقدت فى بدايات العصور الوسطى فى القرنين الرابع والخامس الميلاديين ، وخامس عقد فى

---

(١٠٩) كانتور : نفسه ق٢ ص ٦٦٩

(١١٠) عاشور : أوربا ج٢ ص ٢٢٣

(111) painter : op. cit. pp. 16-17

(112) Eyre : op. cit. p. 208, عاشور : أوربا ج٢ ص ٢٢٤

(113) Camb. Med. Hist. V. I, P. 165

أواخر العصور الوسطى فى القرن الخامس عشر الميلادى باهتمام كثير من المؤرخين والكنسيين لأهميتها بالنسبة للعقيدة المسيحية وسلطة البابوية[١١٤]، فنالت هذه المجامع اهتماماً كبيراً وهى مجمع نيقية المسكونى سنة ٣٢٥م، الذى ناقش القضية التى أثارها أريوس وأثناسيوس لحسم الخلاف الذى نشب بينهما[١١٥]، وكذلك مجمع القسطنطينية سنة ٣٨١م الذى أقر العقيدة المسيحية ديناً رسمياً للإمبراطورية[١١٦]، وكذلك مجمع إفسوس سنة ٤٣١م[١١٧] ومجمع خلقدونيا سنة ٤٥١م اللذين نوقشت فيهما قضية طبيعة المسيح، هل هى الطبيعة البشرية أم الطبيعة الإلهيه أم هما معاً[١١٨]، وكذلك مجمع كونستانس (١٤١٤-١٤١٨م) ومجمع بازل المتمم له فى أواخر العصور الوسطى سنة ١٤٣١م[١١٩]. وإن أحصت الكتب عدد المجامع المسكونية فى تاريخ المسيحية بعشرين مجمعاً.

وتركز الاهتمام على تلك المجامع المسكونية الأربعة الأولى ومجمعاً خامساً قى أواخر العصور الوسطى، فضلاً عن أن المجامع التى عقدت فى الفترة بين سنتى ٦٨٠م و ١٣١٢م كان لها أهمية

---

(114) Eyre : op. cit. p. 208
(115) Burchardt : op. cit. p. 309
Ostrogorsky : op. cit. p. 44
Hussey : op. cit. p. 12
(116) Vasiliev : op. cit. p. 80
Ostrogorsky : op. cit. p. 49
(117) Vasiliev : op. cit. p. 98
(118) Ostrogorsky : op. cit. p. 56
(119) Eyre : op. cit. p. 208

خاصة بالنسبة للكنيسة الغربية[١٢٠] . فقد تميزت بعض المجامع بالطابع العالمى أو المسكونى حين يحضرها رجال الدين من كافة أنحاء العالم المسيحى للمشاركة فى القضايا المعروضة على هذه المجامع ، والوصول إلى حلول لها، ومن هذه مجمع القسطنطينية الثانى سنة ٥٥٣م، ومجمع القسطنطينية الثالث سنة ٦٨٠م، ومجمع نيقية الثانى سنة ٧٨٧م، ثم مجمع القسطنطينية الرابع سنة ٨٦٩م، وكل من هذه اختص بمناقشة قضية بعينها[١٢١] .

وظلت المجامع الدينية تجمع بين أعضاء الكنيسة فى الشرق والغرب لمعالجة المشاكل التى تعن لرجال الدين المسيحى فى مختلف الأنحاء، وللتوفيق بينهم عن طريق الإقناع والحجج حتى حدث الانشقاق بين الكنيستين الشرقية والغربية[١٢٢] ؛ وهو الانشقاق الذى بدأت إرهاصاته فى القرن التاسع الميلادى منذ عهد البطريرق فوتيوس والذى انتهى بالقطيعة الدينية والانفصال بين الكنيستين فى القرن الحادى عشر سنة ١٠٥٤م [١٢٣] . ومن ثم اقتصرت المجامع التى عقدت فى الغرب إلى النظر فى شئون الكنيسة الغربية، على الرغم من أن لقب مسكونى أو عالمى أطلق على بعض المجامع التى

---

(120) Southern : op. cit. pp. 106-9
(121) Chadwick : op. cit. pp. 209-10
Rice : op. cit. p. 81
Hussey : op. cit. p. 30
(122) Ostrogorsky : op. cit. p. 297
Camb. Med. Hist. V. 4 , pp. 269-73
Vasiliev : op. cit. pp. 338-9
(123) Camb. Med. Hist. V. 4, pp. 257-4
Vasiliev : op. cit. p. 334

عقدت فى روما فى الغرب تحت إسم مجامع اللاتيران البابوية Lateran Councils[١٢٤] .

وعلى هذا فالمجامع المسكونية أو العالمية قد أحصيت بعشرين مجمعاً على الرغم من أن الكنيسة الشرقية لم تعترف سوى بالسبعة الأولى منها، باعتبارها مجامع عالمية مسكونية، وهذه المجامع العشرين فى تاريخ المسيحية[١٢٥] هى:
مجمع نيقية الأول سنة ٣٢٥م، ومجمع القسطنطينية الأول سنة ٣٨١م، ومجمع إفسوس سنة ٤٣١م، ومجمع خلقدونيا سنة ٤٥١م، ومجمع القسطنطينية الثانى سنة ٥٥٣م، ومجمع القسطنطينية الثالث سنة ٦٨٠م، ومجمع نيقية الثانى سنة ٧٨٧م، ومجمع القسطنطينية الرابع سنة ٨٦٩م، ومجامع اللاتيران الأربعة فى سنوات ١١٢٣م،١١٣٩م ،١١٧٩م،١٢١٥م، ثم مجمع ليون الأول سنة ١٢٤٥م والثانى سنة ١٢٧٤م، ومجمع فينا ١٣١١م، ومجمع كونستانس سنة ١٤١٤م – ١٤١٨م ، ومجمع بازل المتمم له سنة ١٤٣١م، ثم مجمع فرارا – فلورنس سنة ١٤٣٨م – ١٤٤٢م، ثم مجمع اللاتيران الخامس ١٥١٢ – ١٥١٧م، ثم مجمع ترنت ١٥٤٥–١٥٦٣م، وأخيراً مجمع الفاتيكان سنة ١٨٧٠م[١٢٦] .

---

(١٢٤) وقد عقدت فى روما فى سنوات: ١١٢٣، ١١٣٩ , ١١٧٩ , ١٢١٥،١٢١٥م
وانظر : Southern : op. cit. p. 107
(125) Camb. Med. Hist. V. I , pp. 164-5
وعاشور : أوربا ج٢ ص ٢٢٥
(126) Southern : op. cit. p. 55 , p. 95 , p. 343 , p 155,236,329
Chadwick: op. cit. pp. 133-4 , p. 200 , p. 244
Vasiliev : op. cit. V. 2, p. 543 , p. 672
ونظر أيضاً : كانتور : المرجع السابق ق٢ ص ٦٦٧

على أن الامر لم يقتصر على المجامع المسكونية أو العالمية في تاريخ الكنيسة، بل وجد إلى جانبها مجامع أخرى محلية الطابع وذات أثر محدود منها ما ضم بعض رؤساء الأساقفة لمعالجة ما يعن لهم من أمور دينية[١٢٧]، ثم تطور الأمر إلى عقد نوع من المجامع الإقليمية المنتظمة التى يدعوا إليها رئيس الأساقفة فى الإقليم، حيث يجتمع لديه الأساقفة التابعين له وكبار رجال الدين في ذلك المجمع الإقليمى الخاص لمعالجة مشاكلهم الخاصة[١٢٨].

ويأتى فى النهاية نوع أصغر من المجامع الدينية، وهى المجامع الأسقفية التى يدعو لها الأسقف ليجتمع لديه قساوسة الكنائس التابعة له في أسقفيته حيث تجرى معالجة مختلف الشئون الدينية المحلية[١٢٩]. وعلى هذا فقد تنوعت المجامع الدينية فضمت مجامع مسكونية وأخرى إقليمية وثالثة أسقفية، الأمر الذى جعل لها أثراً واضحاً فى الحياة الدينية والكنسية فى أوربا[١٣٠].

وليس من الحقيقة في شيء القول بأن هذه المجامع كانت تهدف أول ما تهدف إلى تقييد سلطة البابا والحد من سلطان كبار رجال الدين، لأن البابوية كانت قد غدت منذ نهاية القرن الثانى أشبه بالملكية المطلقة التى لا تنازعها سلطة ولو كانت معبرة عن قرارات مجمع كبير، فقد أصبح للكنيسة نظام دائم وهيأت لها الظروف بسط نفوذها في أوربا الغربية كلها[١٣١]، بل إن أهداف هذه المجامع

---

(127) Camb. Med. Hist. V. I, p. 164
(128) Thompson : op. cit. V. 2, 655
(129) Chadwick : op. cit. p. 244
(130) Southern : op. cit. p. 194 , pp. 94-106, p. 330
Camb. Med. Hist. V. 6 , p. 545

(١٣١) موس : المرجع السابق ص ١٨٧

كثيراً ما طمحت إلى تقوية سلطة البابوية وتدعيم نفوذها، وساعدت على اتساع سلطان الكنيسة وقانونها قرارات المجامع المختلفة[١٣٢]، من خلال مقاومة الهرقطة التى هددت الكنيسة من آن لآن[١٣٣]، وجمع شمل المسيحيين وتوجيه حماستهم لنصرة المسيحية، مثلما حدث في الدعوة للحروب الصليبية، وكيف جرى مناقشة هذه الأمور في مجامع لعبت البابوية ورجال الدين دوراً خطيراً لتوجيه حماسة المسيحيين لحرب المسلمين فى الشرق وفي الأندلس أيضاً[١٣٤]، وتوجيه القوى الجديدة في قنوات يمكن أن تفيد النفوذ الكنسى فى أوربا من ناحية أخرى[١٣٥]. فضلاً عما كان ينبغى القيام به أحياناً من حركة إصلاح شاملة في جوف الكنيسة وتدعيم نظمها وسلطتها، فقد فرضت الظروف أحياناً حركات إصلاح قوية على امتداد طول وعرض العالم المسيحى[١٣٦]، و إن كانت بعض المجامع قد حاولت أن تعلو بصوتها فوق صوت البابا، إلا أن ذلك لم يحدث إلا في القرن الخامس عشر أى حين كانت العصور الوسطى آخذة في الزوال[١٣٧].

وإذا كانت بعض الظروف الخاصة قد أحاطت بعقد المجامع الكنسية الأولى وطريقة رئاستها، وانفراد الإمبراطور بالدعوة لها [١٣٨]،

---

(١٣٢) جاكوب وكرمب : تراث العصور الوسطى ص ٧٥

(١٣٣) كانتور: التاريخ الوسيط ق٢ص٦١٨، ص٦٣٠، ص٦٦٧، فشر: أوربا ق١ ص٢٣٢

(134) Orton :A Hist. of Europr , p. 152

فشر : تاريخ أوربا ق١ ص ٢٣١

(١٣٥) كانتور : التاريخ الوسيط ق٢ ص ٦٦٦

(١٣٦) هلستر : أوربا ص ١٨١

(١٣٧) عاشور :أوربا ج٢ ص ٢٢٧ ، Eyre : op. cit. p. 210

(138) Ostrogorcky : op. cit. p. 44
Hussey : op. cit. p. 12
Burchardt : op. cit. p. 309

إلا أن تطور القانون الكنسى وتمام نضجه منذ أواخر القرن الثانى عشر، قد أدى إلى النص على أحقية انفراد الرئيس الدينى الأعلى للمنطقة بالدعوة للمجمع الدينى الذى يمثل هذه المنطقة، فإذا كان هذا المجمع عاماً فالبابا هو وحده الذى يحق له دعوته ورئاسته إما بشخصه أو بمن يمثله، أما إذا كان المجمع إقليمياً فالأسقف هو الذى يدعو إليه ويقوم برئاسته(١٣٩) . وأكدت هذه الإجراءات أحقية رجال الدين فى الدعوة إلى المجامع الدينية المسكونية والمحلية، فدعم ذلك سلطة البابوية وقوى نفوذها، ولم يعد للإمبراطور الحق فى الدعوة للمجامع بعد المجمع الدينى الثامن وحتى ذلك المجمع كان الإمبراطور هو الذى يدعو للمجامع الدينية وينازع فى رئاستها، وانتقل هذا الحق بعد ذلك لرجال الدين والكنيسة فى أوربا(١٤٠) .

التنظيم الكنسى :

انقسم رجال الكنيسة إلى قسمين رئيسيين : ١_ رجال الكنيسة من القساوسة والأساقفة الذين عاشوا حياة أقرب إلى حياة العلمانيين، وتزوجوا وأقاموا الأسرات والروابط العائلية والعلاقات الأسرية، وأطلق عليهم " رجال الكهنوت العلمانيين Secular Clergy " ٢_ رجال الهيئات والمنظمات الديرية المختلفة، وهم الذين اختاروا حياة العزوبة وعاشوا حياة دينية منتظمة، وأطلق عليهم " رجال الكهنوت النظاميون Regular Clergy "(١٤١) . وقد أخذ التقارب بين الفريقين يزداد منذ القرن الثالث عشر، فاشترط القساوسة والأساقفة أن يحيوا حياة العزوبة مثل بقية الرهبان(١٤٢) .

---

(١٣٩) عاشور : نفسه ج٢ ص ٢٢٧-٢٢٨،

Camb. : Med. Hist. v. I, p. 164

(140) Thompson : op. cit. v. 2, p. 645

(141) Ibid. p. 649

(142) Eyre : op. cit. p. 217

وجدير بالذكر أن المسيحية لم تحرم مبدأ الزواج على رجال الدين، ولكنها فضلت لهم حياة العزوبة، الأمر الذى أتاح لكثير من رجال الكنيسة الزواج وتكوين العائلات مثل غيرهم من العلمانيين[١٤٣]، في حين أخذ بعضهم بعادة أتخاذ " أخت زوجة "، ربما مستنداً إلى بعض النصوص فى تعاليم القديس بولس، وهى عادة شاعت بعدئذ كثيراً بين رجال الدين، وتقضى بأن يعيش الفرد عزباً فى صحبة عذراء يعاشرها كأخت وتصاحبه كأخ لتعنى بشئونه، وترفع عنه متاعب الوحدة على الرغم من صعوبة الالتزام بروح ونص هذه الصحبة حتى اضطر المجتمعون فى مجمع إلفيرا **Elvira** الذى عقد بأسبانيا إلى محاولة القضاء على هذه العادة بعد أن اعتاد كثير من رجال الدين الإنجاب من الأخوات الزوجات، وغدا من الصعوبة بمكان حفظ القساوسة من التردى فى هذه الهاوية[١٤٤] .

على أن الكنيسة قد تنبهت منذ البداية إلى خطورة زواج رجال الدين لما يؤدى إليه ذلك من إيثارهم العافية والميل إلى متع الدنيا والانشغال بالأسرة والانغماس فى العلاقات الاجتماعية والانصراف عن حياة الزهد والتقشف، فحاولت النص على مبدأ عزوبة رجال الدين فى تشريعاتها وقوانينها الكنسية، كما طلبت من جميع القساوسة أن يلتزموا بالعزوبة وعدم معاشرة النساء . وسمحت فقط لمن تزوج منهم قبل ترسيمه قساً بالاحتفاظ بزوجته بشرط أن يعاملها فى هذه الحالة كأخت ولايعاشرها كزوجة، لأنه من الضرورى للمرء أن يحرم نفسه من المباهج الدنيوية، حتى يحوز الحال المثلى[١٤٥] .

---

(١٤٣) عاشور : أوربا ج٢ ص ٢٣٠

(144) Chadeick : op. cit. p. 65

(١٤٥) كانتور : المرجع السابق ق٢ ص ٤٣٣

وعلى الرغم من تشدد الكنيسة فـى هـذه السياسـة وإقرارهـا فـى بعض المجامع الدينية ومن بينهـا مجمـع نيقيـة سنة ٣٢٥م، إلا أنـه كان من الصعب بل ربمـا مـن المستحيل تنفيـذ هـذه الرغبـات تنفيـذاً عملياً، وسارت الأمور على ذلك حتى عصر البابـا جريجـورى السـابع (هلدبراند) ١٠٧٣-١٠٨٥م[١٤٦]، حين اشتدت الرغبة فى إصلاح شئون الكنيسة والأخذ بمبدأ عزوبة رجال الدين[١٤٧]، لأنه بينما كـان التديـن ينمو باطراد فى شتى أنحاء الغرب الأوربـى، ظلـت الصفـات الخاصـة برجال الكنيسة أقل من المطلوب[١٤٨]. وحاولت البابويـة حينئـذ برغـم كل ما قابلته مـن معارضـة مـن قبـل رجـال الديـن الذيـن ألفـوا حيـاة الزوجية وتكوين العائلات، وأيضاً من قبل بعيدى النظر الذيـن خشـوا انتشار الزنا والزواج العرفى بين رجال الديـن، حـاولت البابويـة بكـل طاقاتها المضى فى تنفيذ سياستها فعقـدت المجـامع الدينيـة المتتابعـة أسفرت آخرها سنة ١٠٧٤م - بعد اعتلاء هلديراند كرسى البابوية بعام واحد - عن إصدار مرسوم يحرم زواج رجـال الديـن تحريمـاً تامـاً[١٤٩] ليحيا كل منهم حياة دينية سامية[١٥٠] ،وعندئذ عزم البابا على تنفيـذ هذا القرار بكل ما أوتى من قوة ،حتى أنه أمـر المتزوجين مـن رجـال الدين بطرد زوجاتهم فوراً[١٥١] .

ولم تجد المعارضة التي تفجرت في أنحاء مختلفة مـن أوربـا عـن ثنى البابوية عن عزمها ، فأكدت سياستها تلك بمجمع آخر في رومـا

---

(146) Keen : op. cit. pp. 59-62

(١٤٧) عاشور : أوربا ج٢ ص ٢٣٠

(١٤٨) كانتور : التاريخ الوسيط ق٢ ص ٤١٤

(١٤٩) عاشور : نفسه ج٢ ص ٢٣١

(١٥٠) كانتور : نفسه ق١ ص ٤١٤

(١٥١) عاشور : نفسه ج٢ ص ٢٣١

سنة ١١٣٩م، قرر من جديد مبدأ عزوبة رجال الكنيسة، وأن زواج أى فرد منهم يعتبر غير شرعى، وتصبح ذريته بعد ذلك أبناء سفاح[١٥٢]، واستطاعت البابوية فى النهاية بعد تحقيق سيادتها وسموها أن تنفذ مبدأ عزوبة رجال الدين تنفيذاً دقيقاً شاملاً، بعد أن قام عدد من البابوات بحملة قوية ضد السيمونية وزواج رجال الدين، وسافروا إلى كل مكان فى أوربا وعقدوا المجالس المحلية Synods وعزلوا رجال الكنيسة الذين ارتكبوا الآثام[١٥٣]. حتى أصبحت أى مخالفة لهذا المبدأ منذ منتصف القرن الثانى عشر خرقاً لمبدأ هام من مبادىء القانون الكنسى[١٥٤].

وقد أسفر هذا المبدأ عن نتائج بالغة الأهمية في الحياة الدينية والاجتماعية في أوربا في العصور الوسطى، إذ زاد من قوة الروابط بين رجال الدين، بعد أن كانت العلاقات الأسرية قد أوشكت على القضاء عليها، فضلاً عن أنه رفع رجال الدين فى أعين الناس، وألبسهم منزلة سامية فى نفوس الأهالى، كما أسفر ذلك عن تحسن ملحوظ فى المستوى الأخلاقى والفكرى لرجال الدين[١٥٥].

أما بالنسبة لبناء الكنيسة فتأتى البابوية على رأس الكنيسة الغربية دون منازع، وتتمتع بالمكانة الأولى فيها، والسيطرة التامة على جميع رجالها، فقد اتفق الناس على أنه لابد من سلطة مركزية في الدين بحيث تكون تلك السلطة هى الفيصل الروحى الأعلى في

---

(152) Eyre : op. cit. p. 216, عاشور : نفسه ج٢ ص ٢٣١

(١٥٣) هلستر : أوربا ص ١٨٢

(154) Eyre : op. cit. p. 217 عاشور : نفسه ج٢ ص ٢٣١

(١٥٥) كانتور : نفسه ق٢ ص ٤١٢

الشئون الدينية ، والمصدر الذى تنبع منـه القدسـية والعـدل[١٥٦]. ويلـى البابا فى الدرجة مجموعـة الكرادلـة Cardinales ،الذيـن يبـدو أنهـم كانوا نخبة من كبار الأساقفة بدأوا كمستشـارين للبابـا، ثـم مـا لبثـت مهامهم أن كثرت وتعددت وزاد نفوذهم تبعاً لذلك، لأنه جـرى إنشـاء لجنة من الكرادلة فى روما لتكون هيئـة ناخبـة للكرسـى البـابوى مـن ناحية ولتكون هيئة استشارية للبابا مـن ناحيـة أخـرى[١٥٧]. وشـبههم البعض بكبار الأمراء الذين أحاطوا بزعيمهم البابا الذى غدا يمثل الملـك فى بلاطه بروما ومن حوله هؤلاء الأمراء والأعوان[١٥٨].

وما لبث أن ظهر على رأس الكنيسـة المسـيحية خمسـة كراسـى دينية يشغل كل منها بطريرق ،أربعة منها فى الشرق فى المدن الكـبرى فى الاسكندرية وبيت المقـدس وأنطاكيـة والقسـطنطينية ، والخـامس في روما في الغـرب ،واحتلـت هـذه الكراسـى الدينيـة مكانـة هامـة بمـرور الوقت[١٥٩] ، ويتبع كل واحد منهم مجموعة من رؤساء الأسـاقفة الذيـن شمل نفوذ كل منهم عدة أسقفيات في هذا السلم الكهنوتى، ومثل هؤلاء حلقة بين الكراسى الدينية السابقة والأساقفة، مترسمين في ذلـك سـلم الوظـائف الإداريـة في الامبراطوريـة الرومانيـة[١٦٠]، بـل إن ذهـاب الوظائف الامبراطورية ومغرياتها المختلفة جذب رجالاً من أرفع طبقات المجتمع وقتذاك إلى الخدمة في الكنيسة حتى صار أغلـب الأسـاقفة في القرن الخامس والسادس والسـابع الميلاديـة فـى غالـة مثـلاً مـن أبنـاء البيـوت العريقـة وأصحـاب الثـروة والنفـوذ، أى النبلاء الذيـن وجـدوا

---

(١٥٦) فشر : تاريخ أوربا ق١ ص ٢٣٣

(١٥٧) كرمب وجاكوب : تراث العصور الوسطى ص ٧٥

(158) Camb. Med. Hist. V. b, p. 4 , p. 43

(١٥٩) كانتور : التاريخ الوسيط ق١ ص ٦٨

(١٦٠) عاشور : أوربا ج١ ص ٤٩ (ط٦)

في القيام بالأعمال الكنسية فرصة لاستخدام مواهبهم في الادارة[١٦١].

ثم يأتى بعد ذلك مجموعة كبيرة من الأسقفيات التى يرأس كل واحد منها أسقف يشرف على شئون الكنيسة ورجال الدين في أسقفيته. أى أنه يضطلع بالاشراف على شئون الكنيسة في إقليم معين. ثم ضمت كل أسقفية مجموعة من الأبروشيات الصغيرة بكل منها كنيسة يشرف عليها قس[١٦٢]. وهكذا يأتى قس الأبرشية في القرية في نهاية هذا السلم الكهنوتى[١٦٣]. وقد أخذت الأبرشيات تظهر وتنتشر تدريجياً في غرب أوربا، فقد قام النظام الكنسى الأبرشى على إنقاد المدن الرومانية القديمة التى قضى عليها الجرمان فأقامت الكنيسة أبروشياتها على أنقاض تلك المدن المنهارة، ولذلك بقيت هذه الأبرشيات أكثر فقراً وأقل عمراناً من المدن القديمة[١٦٤]. وجاء انتشار هذه الأبرشيات تبعاً لانتشار المسيحية من ناحية ووفقاً لحاجة الأهالى من ناحية أخرى[١٦٥]، بعد أن انهار التعليم المدنى وانهارت الثقافة إلى درجة كبيرة، فقد صار الرجل من رجال الدين هو الوحيد الذى يعرف القراءة والكتابة والتكلم في اللاتينية، وهو الذى يفهم وحده حساب الشهور لتحديد عيد القيامة. وأبرزت جهالة المجتمع مقام القسيس في المجتمع فى عصر ندرت فيه الكتب، وارتهنت الأمور كلها بقول القسيس ومسلكه[١٦٦]. وهكذا قسمت البلاد إلى أبروشيات،

---

(١٦١) فشر : المرجع السابق ق١ ص ١٠٨

(162) Thompson : op. cit. V. 2, pp. 652-3

(163) Camb. Med. Hist. V. 6, pp. 4-5

(١٦٤) كولتون : عالم العصور الوسطى ص ١٠٣

(١٦٥) عاشور : المرجع السابق ج٢ ص ٢٣٢

(١٦٦) فشر : تاريخ أوربا ق١ ص ١٠٨-١٠٩

وأصبح القس المركز الفعّال لكل أبروشية[١٦٧] .

وكانت هذه الكنائس المحليـة تؤسـس إمـا بواسـطة الأسـاقفة أو بواسطة الحكام العلمانيين، الذين يهيبونها للكنيسة، وكان يشرف علـى هذه الأبروشيات فى بداية الأمر السادة اللوردات، ثـم تحـول الإشـراف بمرور الزمن إلى رجال الدين[١٦٨] ، وترتب على ذلـك أن مؤسسـي هـذه الكنائس سواء كانوا مـن رجـال الديـن أو مـن العلمـانيين أصـروا علـى الإشراف عليها والاستئثار بدخلها[١٦٩]، فلم يكن اللوردات في انجلـترا مثلاً يتصرفون دائماً بنزاهـه فيمـا يصـل إلى أيديهـم مـن الأمـوال التـى ابتزوا كثيراً منها[١٧٠]، الأمـر الـذى جعـل المركـز الاجتمـاعى لقسـيس الأبروشية قلقا، إذ لم تتغير حالة القـس فـى اغلـب الأحيـان، لأنـه لم يظفر بشيء يذكر، لأن دخـل الابروشـية كـان يسـتأثر بـه مالكهـا أى مؤسسها، واختلس السادة أغلب تلك العشور[١٧١]، كـل ذلـك قبـل أن يتدرج الأمر حد السماح للقسيس بالحصول على جزء من ذلك الدخل، وتوقفت فى نفس الوقت حالة القـس الاجتماعيـة علـى شـخصيته مـن ناحية وعلى نصيبه الثابت من غلة الحقول التـى تتبـع أبروشـيته مـن ناحية أخرى[١٧٢] .

وحين تقدمت النظم الإقطاعية، أصبح للكنيسة أملاكهـا الخاصـة بها في كل أبروشية آلت إليها بطريـق الهبـة من السيد الإقطاعى[١٧٣]،

---

(١٦٧) موس : ميلاد العصور الوسطى ص ٣٢٩

(168) Pirenne : op. cit. p. 42
Eyre : op. cit. p. 218

(١٦٩) عاشور : نفسه ج٢ ص ٢٣٣،

(١٧٠) كولتون :عالم العصور الوسطى ص ١٠٤

(١٧١) كولتون : نفسه ص ١١٥

(172) Camb. Med. Hist. v. b, p. 531

(١٧٣) سعيد عاشور :المرجع السابق ج٢ ص ٢٣٣

هذا فضلاً عن مورد آخر هام أخـذ القساوسه يتمتعـون بـه ابتـداء مـن القرن الثامن، وهو ضريبة العشور التى تلزم جميع الأراضى بدفع عشـر إنتاجهالحفظ الكنيسـة وصيانتهـا، وبلغـت هـذه العشـور في كثـير مـن الأبروشيات قدراً يفوق ما تحتاج إليه الكنيسـة[١٧٤]. وعلـى الرغـم مـن ذلك لم تكن الحالة الاقتصاديـة لقسـيس الأبروشـية ترتفـع عـن حالـة الفلاحين المحيطين به، على الرغم من أهميته للنظم الكنسـية ودوره في الربط بين الكنيسة من جه والفلاحين مـن جـه أخـرى، وعلـى الرغـم أيضـاً مـن إدراك التشـريعات الكنسـية لأهميـة هـذا العضـو، وتوصيـة المجامع المسكونية، بضرورة مراعلة الدقة في اختيار قسـيس الأبروشـية والتأكد من ثقافته وسلامة أخلاقه، وألايقل سنه عـن خمـس وعشـرين سنة[١٧٥]، إلا أن قساوسة الأبروشيات ظلوا في كثـير مـن أنحـاء أوربـا لايتميزون عن عامة الناس فى شـىء، فضـلاً عـن اشـتهار كثـير منهـم بسـوء السيرة ومعـاقرة الخمـر[١٧٦]، وبخاصـة فـى الأعيـاد المقدسـة، وشغلتهم المشاحنات المتعلقة بالعشور[١٧٧].

أما الأسقفيات فلكل منها أسقف وهـو الرئيـس المباشـر للقسـيس فى التنظيم الكنسى، يتخذ كتدرائية فى المركز الرئيسى لأسقفيته، يباشر منها إشرافه على أسقفيته ويجعلها قاعدة نفـوذه، بعـد أن صـار القسـم الادارى المعـروف باسـم Diocese هـو منطقـة النفـوذ الأسـقفى[١٧٨]، ويسـتطيع الأسـاقفة منهـا أن يدعـوا أنهـم يمثلـون الهيئـة الكنسية والشعب[١٧٩]، وتفاوتت مكانة الأساقفة، ومدى نفوذهـم تبعـاً

---

(١٧٤) كولتون :عالم العصور الوسطى ص ١٠٥

(175) Eyre : op. cit. p. 219

(176) Thompson : op. cit. V. 2 , p. 654

(١٧٧) كولتون : نفسه ص ٢٦ ،ص ١٢٢

(١٧٨) كانتور : التاريخ الوسيط ق١ ص ٦٧

(179) Southern : op. cit. p. 156

لاختلاف مراكز أسقفياتهم واختلاف مساحاتها وأهميتها(١٨٠) .

أما رؤساء الأساقفة فقد اتضحت بمرور الوقت ضرورة إيجاد حلقة فى التنظيم الكنسى بين البابوية من جهة وأساقفة البلد الواحد من جهة أخرى(١٨١)، فقد جعل التقسيم الامبراطورى من الولاية منطقة نفوذ لكبار الأساقفة، الذين طوروا سلطانهم عن طريق الحكم في كبريات المدن الامبراطورية(١٨٢)، فظهرت فى القرن السابع أسقفية كبرى في كل إقليم واسع يرأسها رئيس أساقفة Archbishop يتزعم أسقفيات منطقته، وفي انجلترا لم يكن أى رئيس أساقفة بوسعه أن يتقلد عمله دون أن يتلقى بذلك مرسوماً بابوياً(١٨٣). فإذا تعدد رؤساء الأساقفة في الدولة الواحدة، عقدت الزعامة لأقدمهم(١٨٤)، وبصفته نائباً للبابا تمتع الأسقف بحقوق قضائية وسلطات واسعة في دائرته، وفيما عدا التزامه بالتشريع الكنسى والأوامر البابوية، كانت سلطة الأسقف مطلقة داخل حدود أسقفيته(١٨٥)؛ إذ كان لايمكن عزله إلا بأمر من البابا وحده. ولم تتناقص سلطة الأساقفة إلا فى الجزء الأخير من العصور الوسطى، عقب حركة الإصلاح الكلونية، إذ كانت الثورة ضد كثير من الأمور التى كان دير كلونى والإدارة التابعة له يمثلونها

---

(180) Camb. Med. Hist. V. 1, p. 167

(181) Southern : op. cit. p. 97

(١٨٢) كانتور : نفسه ق١ ص٦٧

(183) Levison : England and the Continent in the eighth century , pp. 9-12 (1946)

(184) Thompson : op. cit. V. 2, p. 650

(١٨٥) عاشور : المرجع السابق ج٢ ص ٢٣٤،
Camb. Med. Hist. V. 6, p. 528

في القـرن الحـادى عشـر[١٨٦]، أى بعـد أن تحـررت الإدارة مـن سيطرتهم[١٨٧]، وكذلك بعد أن انصرف كثير منهم نحـو الشـئون الدنيوية، وانطلاقهم فى التيار الاقطاعى[١٨٨] .

على أن تعيين الأساقفة لم يخضع فـى أول الأمر لنظم ثابتة، فكان للقساوسة ورعاياهم فى عصر الغـزوات الجرمانية حـق انتخاب أسقفهم[١٨٩]، لكن ما لبث الأباطرة أن ادعوا أحقيتهم فى هـذا الأمـر، فصاروا يمارسونه، برغم كـل الاحتجاجـات والمعارضـات التـى قوبلـوا بها، وغالى شارل مارتل فى هذه السياسة فأخذ ينعم بهـذه الوظـائف على أتباعه المخلصين[١٩٠] ،الأمر الذى احتذاه بقية ملوك الجرمان فـى غرب أوربا، فيما بين القرنين السادس والعاشر الميلاديين[١٩١]. وحيـث أن القـانون الكنسـى كـان خلـوا مـن أى نـص علـى أحقيـة الملك فى تعيين الأساقفة ، فقد عارض المصلحون من رجال الدين هـذا التقليـد ، ووضعـه البابـا جريجـورى السـابع (هلدبرانـد) علـى رأس قائمة إصلاحاته، إذ كان عصر النزاع حول التقليد العلمانى بحق نقطة

---

(١٨٦) كانتور : المرجع السابق ق٢ ص ٤١٤

(١٨٧) هلستر : أوربا ص ١٨٢

(188) Stephenson: op. cit. pp. 237-8
Fulbert of Charteres on the Duties of Lord and Vassal in Med. world, by Cantor , pp. 176-7

(189) Southern : op. cit. p. 152

(190) Camb. Med. Hist. V. 1 , p. 152

(١٩١) كانتور : المرجع السابق ق٢ ص ٤٣٨

التحول في تاريخ حضارة العصور الوسطى[١٩٢] ، مما فجر صراعاً رهيباً بين البابوية والامبراطورية ، انتهى بإقرار حق البابوية كاملاً فى تقليد الأساقفة وحرمان الحكام العلمانيين من أى حق فى هذا التعيين[١٩٣] .

---

(١٩٢) كانتور : نفسه ق٢ ص ٤١٣

(193) Southern : op. cit. pp. 173-4

الفصل الخامس

الرهبانية والديرية في أوربا في العصور الوسطى

الرهبانية و الديرية :

تعنى الرهبانية أن يحيا الفرد حياة عزلة تامة بعيداً عن المدن والأماكن العامرة، للانقطاع للعبادة، أى أن الرهبنة تعنى حياة الزهد و التنسك مع إختيار التفرد طوعاً، أما الديرية فيقصد بها التقاء جماعات من الرهبان فى مكان ناء عن العمران ينقطعون فيه للعبادة وحياة الزهد والتقشف مع تحقيق مطالبهم الضرورية فى الحياة وممارسة ما انقطعوا من أجله من العبادات والطقوس الدينية، والدير هو المكان المخصص لسكنى الرهبان أو الراهبات وتعبدهم[1] .

والرهبنة بصورتها الأولى عمل من مبتكرات مصر المسيحية، ونظام مصرى أصيل، فى أغلب الظن، لم يتأثر كثيراً بالحركات النسكية السابقة[2] ، فنشأت الرهبنة فى مصر نشأة ذاتية على الأرجح، وأصبحت مصر الوسطى بصفة خاصة مهد الرهبنة المسيحية، حيث عاش الرهبان منفردين فى مغارات منقورة فى الجبل أو صوامع من القصب والجريد[3]، فى الوقت الذى لم يعرف فيه الغرب الأوربى هذا اللون من الحياة الدينية فى المسيحية قبل القرن الخامس الميلادى ولم يصبح شائعاً هناك قبل القرن السادس الميلادى [4] .

---

(١) المعجم الوجيز ص ٢٧٩. وانظر المقريزى : الخطط ج٢ ص٥٠٠ (ط بولاق)

(٢) مراد كامل : حضارة مصر فى العصر القبطى ص ٢٠٦

(٣) عمر طوسون : وادى النطرون و رهبانه ص ٢٦

(4) Eyre : European civilization , V. 3 , P. 227

وساعدت طبيعة مصر و جوها وكثرة الخرائب وبقايـــا الأطــلال الأثرية ،فضلاً عن إقتراب الأطــراف الصحراوية مـن واديها ،على نشأة هذا النوع من الحياة الدينية و تطورها ، وأسهم فى دفع الراغبــين فـى العزلة والانقطاع للعبادة لممارسة هـذه العزلــة والبعــد عـــن مبـاهج الحياة وصخبها و النأى عن شرور العالم وآثامة ، ولم يلبث أن غدا هـذا اللون مـــن الحياة الدينية جزءاً أساسياً من النظام الكنسى العــام[٥] .

وكان الإنسحاب مـن مراكـز العمـران إلى الصحـراء وسـيلة مـن وسائل الاحتجاج أو الهرب أو النأى بالنفس عن شرور العالم ومفاسدة، وحفاظاً على العقيدة من إحتمال الارتـداد أو الزيـغ ، فقـد هـرب عـدد كبير من إضطهادات الامبراطور الرومـانى دكيـوس[٦]، ودل ذلـك علـى شدة إيمانهم بالمسيحية وتعلقهـم بهـا وخوفهـم عليهـا ، فـآثروا النفـى والتشرد على إحتمال الارتداد عن الدين أو طرح الطاعة لله فـى الوقـت الذى أعوزهم فيه القوة لمواجهة التنكيل أو التعذيب أو القتـل ، وطبقـاً لهذا جرى اعتبارالناسك يلى الشهيد فى المكانة ويأتى بعده فى رتــب السمو والتفوق[٧] .

ويمكن تلمس بذور الرهبنــة وحيـاة الزهـد والتقشـف فـى أصـول المسيحية الأولى وتعاليم السيد المسيح الذى أثر عنه قولـه : " إذا أردت أن تكون كـاملاً فبـع مـا لديـك وأعـط ثمنـه للفقـراء واتبعنـى، فسـوف يـكون لك كنز فى السمـاء "[٨] ، فضـلاً عن أقـوال القديسين والمصلحين

(5) Camb. Med. Hist. V. 5, P. 658
(6) Lot : The end of the Ancient World. P. 10
العرينى : تاريخ اوربا فى العصور الوسطى ص ٢٩ (ط بيروت)
(٧) العرينى : مصر البيزنطية
(٨) الانجيل : متى ، ١٩-٢١

لاسيما أقوال القديس بولس وما تحض عليه من ممارسة حياة الزهد والعزوبة[٩] .غير أن ثمة عوامل مختلفة شجعت على المضى فى ممارسة هذه الحياة الدينية منها : الاضطهاد الوحشى الذى تعرض له المسيحيون خاصة فى عهد الامبراطور دقلديانوس[١٠] ، الأمر الذى دفع الكثير منهم إلى الفرار إلى الأماكن المنعزلة ، حرصاً على ثبات عقيدتهم وصوناً لإيمانهم ويقينهم. هذا بالإضافة إلى ما ساد المجتمع الرومانى من فساد وانحلال أدى إلى حدوث رد فعل أشبه بثورة نفسية ضد مفاسد هذا المجتمع تبلورت في رغبة في العزلة والتقشف وبُعد عن المجتمع وآثامه وشروره[١١] .

ويشير المؤرخون إلى أن تاريخ ظهور الرهبنة على ضفاف وادى النيل حدث منذ ظهور الديانة الجديدة بين المصريين، وانتشار المسيحية فى مصر وانتظام كنيستها على أسس ثابتة الدعائم. فقد خرج الرهبان الأوائل إلى الصحارى والقفار بدافع من الروحانية ورغبة فى إظهار الزهد،كما أوحت لهم بذلك العقيدة الجديدة ، فبدأت مظاهر التنسك تنتشر تدريجياً على ضفاف وادى النيل[١٢] ،وتتابعت تجارب الرهبان والنسّاك وخروجهم إلى الصحارى للعزلة والترهب ربما دون أن يعرف الناس أو تسجلها الكتب المعاصرة والمخطوطات، لحدوث ذلك في أغلب الظن في الخفاء وبغير إعلان أو إشهار،

---

(٩) العهد الجديد - الإصحاح السابع -١

(10) Chadwick : op. cit. p. 121
Ostrogorsky: op. cit. pp. 42-4

(١١) عاشور : أوربا ج٢ ص ١٥٨-١٥٩ ، مراد كامل :المرجع السابق ص ٢٠٥

(١٢) رءوف حبيب: تاريخ الرهبنة والديرية فى مصر وآثارهما الانسانية على العالم ص ٣٥
Meinardus : Monks and Monasteries of the Egyptian deserts, p. I

لما يمثله ذلك من إنكار للذات وعدم التباهى بهذه الاشكال من العبادة، لأن الديانة الجديدة كانت تحض الزهّاد والمنعزلين على الإحتفاظ بأعمالهم سراً مكنوناً لا يعلمة الى الله(١٣).

ويتفق معظم من كتبوا فى تاريخ الرهبنة على أن أصول النظام الرهبانى المسيحى ظهرت أول ما ظهرت فى مصر المسيحية خلال القرون الأولى للمسيحيه وانتشارها فى ذلك الوقت ،كما أنهم اتفقوا على أن مؤسس الرهبنة في مصر هو القديس أنطون(انطونيوس Antony) في القرن الثالث الميلادى في صعيد مصر الوسطى(١٤) ولكن هناك تحفظ على هذا الرأى، على الرغم من شيوعه بين عدد كبير من الكتّاب والمؤلفين في هذا الموضوع ، فما حفظ في الكتب القديمة عن الرهبان الأوائل في مصر المسيحية يدل دلالة قاطعة على أن بذور الرهبنة على ضفاف وادى النيل، إنما تسبق ذلك بكثير وتأتى قبل عهد القديس أنطون (أنطونيوس) بل وترجع إلى القرن الثانى الميلادى(١٥)، حين عاش الأنبا بولا حياة التنسك والزهد والعزلة والتقشف(١٦)، وترك أثراً هاماً في حياة الرهبان في الفترة التالية، وكان في نفس الوقت أصدق دليل على قدم الرهبنة في الصحراء الشرقية، فأصبح كلاً من بولا وأنطون (أنطونيوس) أقدم من عُرف من النسّاك المسيحيين في مصر بل وفي الدنيا بأسرها واجتذبت حياتهما الزاهدة أناساً عديدين سلكوا طريقهما(١٧)، ولكن القديس أنطون

---

(١٣) عزيز سوريال عطية و منير شكرى : المرجع السابق ص ٨٧

(14) Meinardus : op. cit. pp. 1-3

(١٥) مراد كامل : المرجع السابق ص ٢٠٦

(١٦) عزيز سوريال عطية ومنير شاكر :عبقرية الأنبا باخوم وأثرها على الرهبنة والحضارة الغربية

(١٧) كولتون : الديرية أسبابها ونتائجها ص ١٨٤ (ترجمة د. الشيال)
العرينى : مصر البيزنطية ص٣١ ، Meinardus : op. cit. p. 41

أُعتبر المؤسس الحقيقي للرهبنـة[١٨] .

ولد بولا[١٩] حوالى سـنة ١٥٠م ودرس أصول الديـن المسـيحي وتعلق به ثم قرر أن يهجر العالم بما فيه من شرور وآثام ، ويرحـل إلى الصحراء للعبادة ومباشرة حياة التقشف والرهبنة[٢٠] فقرر الهـرب مـن الوادى في الصعيد الأوسط ليتوغل فى الصحـراء الشرقية إلى أن ألقى عصاه فى أحد كهوف الجبال المطلـة على البحـر الأحمـر، وهـو فـى سـن مبكرة، ولبث فيها إلى أن بلغ من العمر عتياً، إذ يقال أنه مـات فى العام الثالث عشر بعد المائة من حياته، ولولا أن عثر عليه القديس أنطون مصادفة فى أعماق الصحراء لظل أمره مجهولاً[٢١] .

وقد أمدنا الرحالة بلاديوس **Palladius** بمعلومات طيبـة وهامـة عن الأنبا بولا وكهفه فى أواخر القرن الخامس[٢٢] ،وذكر أن بولا توفى فى أغلب الظـن فـى أواخـر عهـد الإمبراطـور دكـيوس أو فـى عهـد الإمبراطور فاليريان،أى أنه توفى فيما بين سنتي ٢٤٩ و٢٧٠م، ونظـراً لما يقال مـن أنـه عـاش ١١٣ سنـة علـى روايـة بـلاديوس فـلابـد وأن أنطون كان شاباً حين زار الأنبا بولا، لأنه من الثابـت أن

---

(18) Hodges : The early Church from lgnative to Augustine, p. 154 (N.Y. 1915)

(١٩) يرد أسمه ثابتاً فى النصوص القبطية Paule وفى العربية يرد بإسم Bülâ
أنظر : Meinardus :op. cit. p. 203

(٢٠) رءوف حبيب : المرجع السابق ص ٣٦

(٢١) عزيز سوريال عطية ومنير شكرى : المرجع السابق ص ٨٧

(٢٢) مراد كامل : حضارة مصر فى العصر القبطى ص ١٢٨،
Meinardus : op. cit. p. 33

أنطون ولـد حوالى منتصف القرن الثالث الميلادى[٢٣] . ولعـل تجربـة الأنبا بولا فى الرهبنة الإنعزالية تؤكد أن أصول الرهبنة فىمصر كانـت عميقة الجزور بعيدة الغور، كما كانت أقدم مـن تجربـة الأنبـا أنطـون (أنطونيوس)، وإن لم تحظ تجربة بولا بما حظيـت بـه تجربـة أنطـون من شهرة ومن ذيوع، وإن اجتذبـت حياتهمـا الزاهـدة أناسـاً عديديـن سلكوا طريقهما[٢٤] ، فكلاهما سطر فصلاً هاماً فى تاريخ الرهبـنة فـى مصر وفى كل أنحاء الدنيا فى العصور الوسـطى[٢٥] .

غـير أن القديـس أنطـون (أنطونيـوس) ٢٥٠-٣٥٥ م، كـان مـن أوائل الأمثلة لقيام حركة الرهبنة فى مصر، إذ يعتبر المؤسس الحقيقـى لهذا اللون من الحياة الدينية[٢٦] ، فقد نهج هذا الرجل نهج الإنعزالية الفرديـة علـى عهـد الإمـبراطور دقلديـانوس، حتـى غـدت حيـاة هـذا القديس أبلغ مثل لهذا النوع من الرهبنة الإنعزالية . وقـد كتـب عنهـا بالتفصيل القديس أثناسيوس الرسولى بطريرق الاسكندرية وأسقفها الذى زاره وعـرف الكثـير عنـه وكتـب كتابـه بعنـوان " حيـاة أنطونيـوس" استجابة لإلحاح أهل روما، فأشعـل هـذا الكتـاب روح الرهـبنـة والتنسك فى بلاد الغرب الأوربى[٢٧] .

انقطع أنطون للعبادة و التنسك، فقضى نحو خمسة عشر عـامـاً فى تنسكه قبل أن ييمم وجهه شطر سفوح الجبال الشرقيـة المجـاورة

---

(٢٣) عزيز سوريال ومنير شكرى : نفسه ص ٨٨

(٢٤) كولتون : الديرية ص ١٨٤

(٢٥) عزيز سوريال ومنير شكرى : المرجع السابق ص ٨٩ ،

Meinardus: op. cit. p. 203

(26) Meinardus: op. cit. pp. 1-3

(27) Ibid. p. I

لحافة الوادى[٢٨] .حيث عكف على الصلاة وانصرف إلى العزلة التامة، فلجأ أول الأمر إلى المقابر، ثم إلى حصن مهجور بالجبل فى الموضع المعروف باسم بوصير على الضفة الشرقية للنيل تجاه الفيوم، وجرى ذلك حوالى سنة ٢٨٥م[٢٩] ، ثم مارس القديس أنطون هذه العزلة الصارمه نحو عشرين سنة أخرى (٢٨٥-٣٠٥م)، قضاها فى جهاد النفس والنضال ضد الشيطان – على حد قول الكتاب والمؤرخين المسيحيين – وفى الانصراف للعبادة وأداء الصلاة، وكان يتردد عليه فى بعض الأحيان بعض الزوار يحملون إليه ذاده المتواضع[٣٠] . ولم يلبث أن اجتمع حول أنطونيوس عدد من أولئك الذين يرغبون فى ممارسة حياة الزهد و التنسك، وحين قبل أنطونيوس أن يكون معلمهم ومرشدهم برزت مواهبه وما امتاز به من الحكمة ورجاحة العقل[٣١] . وهكذا كانت الحياة المثلى في نظر هذا القديس هى الانفرادية والانعزال[٣٢]، ولما توفى القديس أنطون (أنطونيوس) سنة ٣٥٥م صارت حياته نموذجاً أمام كثير من الناس لمتابعة تلك الحياة الانعزالية القاسية[٣٣] ، فقد مثلت رهبنة كل من بولا وأنطون خطوة أولى في تاريخ الرهبنة المصرية. حقيقة اتجه رهبان آخرون إلى

---

(٢٨) رءوف حبيب: المرجع السابق ص ٣٨ ، عزيز سوريال ومنير شكرى :عبقرية الأنبا باخوم (٢٨٦-٣٤٦م) وآثرها على الرهبنة والحضارة الغربية ص ٩٠

(٢٩) العرينى : المرجع السابق ص ٢٨

(٣٠) مراد كامل : المرجع السابق ص ٢٠٧

(٣١) العرينى : بفس المرجع السابق ص ٢٩

(32) Painter: A Hist. of the Middle Ages, p. 17,

عاشور : أوربا ج٢ ، ص ١٥٩

(٣٣) مراد كامل : المرجع السابق ص ٢٠٧

جهات أخرى من أرض مصر[٣٤] ، ولكن ما يجمع هـذه النمـاذج كلهـا فى البداية هى حياة التوحـد والتفـرد التـى اختارهـا الرهبـان كنمـوذج لحياة ظاهرة يذل فيها الجسد وتسمو الـروح وإن اتصفت بالسـلبية إلى حد بعيد حتمتها الظروف السياسـية في البدايـة وكذلـك الاضطهـادات الدينية التى نزلت بمصر بعد ذلك[٣٥] وألجأت هؤلاء الرهبان إلى النأى بالنفس والبعد عن شرور العالم ومفاسده خوفاً على العقيدة وصونـاً لهـا من ناحية ، والانقطاع للعبادة والزهد فـى الدنيـا مـن ناحيـة أخـرى . فجـاءت هـذه التجـارب مرحلـة أولى فـى تـاريخ الرهبنـة فـــى مصـــر المسيحية[٣٦] .

لكن لم يكن منتظراً أن يظل نظام العزلة التامة هـذا جـامداً غـير قـابل للتطـور لأنـه إذا كـان قـد مارسـه عـدد مـن المنعزلـين الجبـابرة والمتوحدين الشجعان ، فإنه من غير المتوقع أن يتصـف كـل مـن أقبـل على هذه الحيـاة بالشـجاعة والقـوة التـى تمكنـه مـن مواصلـة العزلـة ومجابهة تلك الظروف القاسيه[٣٧] ،كما بدت الرهبنة الانعزالية للعقلاء من الناس نوعاً من التطرف المتعارض مع طبيعة الانسـان الاجتماعيـة ، لأن الانسان اجتماعى بطبعه يهوى إلى غـيره ويلتمـس الرفقـة ، ولهـذا بدأ نظام الرهبنة يتطور تطوراً بطيئاً ليحل محله بمرور الوقت نوع آخر من الرهبنة الاجتماعية ونوع من المشاركة أو الاشتراك في الرهبنة تتيح

(٣٤) العرينى : المرجع السابق ص ٣١-٣٤

(35) Chadwick : op. cit. p. 121

Lot : op. cit. p. 10

Ostrogorsky : op. cit. pp. 42-4

(٣٦) عزيز سوريال عطية ومنير شكرى: المرجع السابق ص ٨٩ ،

Meinardus : op. cit. p. 203

(٣٧) رءوف حبيب : المرجع السابق ص ٤٠

للرهبان مجابهة ماكانوا يتعرضون له من صعاب مادية وبيئية فى تلك الصحارى والقفار الموحشة(٣٨) .

ويشير المؤرخون إلى أن إرهاصات هذا التطور بدأت في الظهور شيئاً فشيئاً، حتى فى حياة الأنبا أنطون نفسه، وبدأت فعلاً الخطوة الثانية فى تطور الرهبنة المسيحية أو الخطوة المتوسطة بين النظم الأنطونية الأولى ونظم الديرية التى جاء بها باخوم أو باخميوس(٣٩) ، ولهذا راح الرهبان يجتمعون فى مناطق معينة حول شخصيات من المعلمين والآباء الروحيين ليتتلمذوا على أب لهم فى الروح ليسترشدوا بتعاليمه ويتشبهوا به وإن كان كل منهم لايزال يحافظ على توحده فى كهفه دون أن يعطله جاره أو يقطع عليه حبل تفكيره وتأمله(٤٠) ، ولهذا جرى تنظيم مستعمرات الرهبان فى مصر العليا خصص فيها لكل راهب خلية يتعبد فيها منفرداً، ولا يشترك رهبان المستعمرة إلا في أمور قليلة(٤١) .

وهكذا كانت الرهبنة الاجتماعية **Collective Eremiticism** الدور الثانى فى تطور الأنظمة الرهبانية فى المسيحية المصرية، أى المرحلة المتوسطة بين الرهبنة الانفرادية أو الانعزالية التى مارسها كل من بولا وأنطون وبين الديرية الباخومية؛ أى أنها كانت مرحلة متوسطة بين الرهبنة الأنطونية والرهبنة الديرية، فالرهبان يعيشون فى قلالى منفردة متباعدة ولكنهم يجتمعون مرة فى كل سبت ليشتركوا معاً في الصلاة(٤٢) . والمعروف أن هؤلاء الرهبان لم يميلوا إلى العمل

---

(٣٨) رءوف حبيب : نفسه ص ٤٠
(٣٩) عزيز سوريال ومنير شكرى : المرجع السابق ص ٩٣
(٤٠) رءوف حبيب : المرجع السابق ص ٤٠
(41) Painter : op. cit. p. 17 , عاشور : أوربا ج٢ ص ١٥٩
(٤٢) مراد كامل : المرجع السابق ص ٢٠٨

اليدوى وعزفوا أيضاً عن القراءة أو اقتناء الكتب، فلم يكن يشغل الناسك عمل يدوى أو قراءة، لأنه لاينبغى أن يشغله شىء عن التأمل والعبادة، فربما قضى الناسك فى مغارته أو كهفه سنوات دون الخروج منها معتمداً على أهل الخير والبر فى الحصول على حاجاته البسيطة من مأكل ومشرب، والغريب أن هؤلاء الزهاد كانوا يعيشون أعماراً طويلة، ربما تجاوز عمر الواحد منهم قرناً من الزمان[٤٣] .

غير أن الرهبنة الانعزالية أو الانفرادية في دورها الأول أو دورها الثانى، مالبثت أن بدت للعقلاء من الناس نوعاً من التطرف المتعارض مع طبيعة الإنسان الاجتماعية، التى لاتحققها تلك الخطوة الثانية من اجتماع عدد من الرهبان في قلالى أو مغارات أو قلايا متقاربة[٤٤] ، وكان لابد من ابتكار نظام آخر يتفق مع طبيعة البشر من ناحية ويحقق الانقطاع للعبادة والتنسك من ناحية أخرى ومن هنا نشأ النظام الديرى الذى يمثل الدور الثالث في حياة الرهبنة والخاتمة فى تطور حياة الرهبنة في مصر المسيحية[٤٥] .

ويعتبر الناسك المصرى القديم باخوم (باخوميوس) أول نموذج لهذا النظام الذى عرفته المسيحية . ويشير المؤرخون إلى أن هذا الفصل الجديد فى تطور الرهبانية جاء من أروع الفصول وأهمها فى تاريخ الرهبنة السابق واللاحق سواء فى مصر المسيحية أو في بلاد الشرق قاطبة أو في الغرب الأوربى في العصور الوسطى[٤٦] . وعلى الرغم من

---

(٤٣) عزيز سوريال عطية ومنير شكرى : المرجع السابق ص ١٠٠
(٤٤) رءوف حبيب : المرجع السابق ص ٤٠
مراد كامل : المرجع السابق ص ٢٠٨
(٤٥) كولتون : المرجع السابق ص ١٨٧
(46) Hodges : The early Church . p. 156 (New York 1915)
Benz : The eastern orthodox Church , p.89 (Chicago 1963)

أن باخوم ولد لأبوين وثنيين وظل هـو أيضـاً على الوثنيـة حتـى سـن العشرين حتى اعتنـق المسـيحية إلا أنـه أخلـص فـى عقيدتـة، وكـان صاحب فضل فى تطوير النظام الرهبانى القديم .

ولد باخوم سنة ٢٩٠م على الأرجح ببلدة بجنوب مصر بمحافظة قنـا الحاليـة(٤٧) ، فلمـا بلـغ العشـرين انخـرط فـى سـلك الجنديـة الرومانية(٤٨) ،وإن لم تطل خدمته الحربية كثيراً، إلا أنها تركـت أثـراً هاماً فى شخصيته وحياته معاً، فقد تعلم النظام والطاعة والعمل البدنى وألـف الحيـاة الاجتماعيـة، فمـا لبـث أن اعتنـق المسـيحية سـنة ٣١٤م(٤٩)، ثم مال بـاخوم ألى حيـاة التنسـك والرهبنـة وأُعجـب فعـلاً بحياة العزلة ولكن بطريقة تخـالف الانعزاليـة الانفراديـة لشـدة تعلقـه بالحياة الاجتماعية وحبه لغيره من الناس، ولهذا ابتكر نظامه الديـرى الذى يتوائم مع ميول الإنسان و اجتماعيته من ناحية وليخدم المجتمع من ناحية أخرى طبقاً لقاعدة راسخة وقانون واضح، فاتخذت الرهبنـة على يديه صفة الديرية أى الحياة الاجتماعية لأول مره فى مصـر وفـى العالم كله، وإن اتخذ الدير البـاخومى فـى البدايـة الاطـار الحربـى أو العسكرى(٥٠) ،فقد خدم باخوم فى الجيش الرومانى فترة ولذلك نقـــل إلى ديره كثيراً مما تأثر به من نظم العسكرية الرومانية.

أسس باخوم ديره سنة ٣١٥م بالقرب من دنـدرة بصعيـد مصـر، ضم عدداً من الرهبان يمارسون حياة الانقطاع للعبادة مـع التعـاون فـى تنظيم مطالب الحياة، فقد فرض على رهبانه الالتزام بالطاعـة والهـدوء

---

(٤٧) مراد كامل : المرجع السابق ص ٢١١

(48) Meinardus : op. cit. p. 157

(٤٩) رءوف حبيب : المرجع السابق ص١٦٢

(50) Meinardus : op. cit. p. 157 , عزيز سوريال عطية و منير شكرى : المرجع السابق ص ١٧

والنظام والعمل اليدوى مثل طهى الطعام وممارسة الصناعات المفيدة فضلاً عن ممارسة الطقوس الدينية والصلوات[٥١] . وعلى هذا نشأ أول دير باخومى ثم أُنشئت أديرة أُخرى باخومية فى جهات أُخرى حتى بلغت عند وفاة باخوم سنة ٣٤٦م نحو أحد عشر ديراً منها تسعة أديرة للرجال واثنان للنساء وكلها تمتد من إخميم شمالاً حتى إسنا جنوباً، وبعد وفاة باخوم قامت أديرة أُخرى فى جهات متعددة من مصر وخارج مصر[٥٢] ، ثم صارت قوانين باخوم ونظامه الديرى الأساس الذى ابتنى عليه اللاحقون أنظمتهم الديرية فى كل الانحاء سواء فى الشرق أو الغرب[٥٣] .

وما لبثت الرهبانية والديرية أن انتشرتا من مصر إلى سائر البلاد المجاورة، فانتقلت هذه الحركة إلى بلاد الشام والعراق وآسيا الصغرى وقبرص . ففى بلاد الشام اتخذ القديس سيمون الذى عرف بسيمون العمودى والمتوفى سنة ٤٥٩م حياة العزلة والتفرد واختار مكاناً غريباً رآه ملائماً لتفرده وتوحده،فأقام على رأس عامود من أعمدة المعابد القديمة فى بلاد الشام ليقيم فوقه نحو ثلاثين سنة زاهداً متقشفاً متعبداً معرضاً نفسه لأقسى أنواع التعذيب مكتفياً بإدلاء سلة يضع له فيها الخيرون فتات الخبز وبعض الملح أو نحو ذلك[٥٤]، معذباً نفسه مذلاً جسده متعبداً متقشفاً سنوات طويلة . وفى آسيا الصغرى أسس القديس باسيل (٣٢٩-٣٧٩م) مؤسسة ديرية بقيصرية الجديدة سنة ٣٦٠م[٥٥] ،

---

(٥١) رءوف حبيب : نفس المرجع ص ١٦٣ ، العرينى : المرجع السابق ص ٣٦

(٥٢) مراد كامل : المرجع السابق ص ٢١١-٢١٢ ، العرينى : نفسه ص ٣٥

(٥٣) عزيز سوريال عطية ومنير شكرى : المرجع السابق ص ١٠٦

Meinardus : op. cit. p. 180

Benz : op. cit. p. 89

(٥٤) عاشور : أوربا ج١ ص ٥٧ (ط ٤)

(55) Chadwick : op. cit. p. 178-9

وأقامت أخته ديراً للراهبات سنة ٣٥٨م، وإن مالا لإقامة الأديرة على مقربة من المدن بل داخل المدن ذاتها، وعدم تفضيل إقامتها فى الصحراولت أو فى أطرافها أو فى الأماكن النائية . ويشير بعض المؤرخين إلى أن القواعد التى وضعها باسيل هذا تفوقت فى اعتدالها ونظامها على غيرها، ولهذا ظل معمولاً بها فى جميع أديرة العالم الإغريقى والصقلبى[٥٦] .

وما لبثت الرهبانية والديرية الشرقية أن انتقلت إلى غرب أوربا، وانتشرت هناك بفضل جماعات الحجاج الذين وفدوا على هذة المؤسسات من روما وغالة وأسبانيا فنقلوا طرقها إلى الغرب الأوربى[٥٧] وفى نفس الوقت انتقل إلى الغرب نفر من رجال الدين الشرقيين وفى صحبتهم بعض الرهبان، فنقل هؤلاء النظام الديرى إلى الغرب: إلى إيطاليا وغالة وبريطانيا وأيرلنده وأسبانيا . وتشير الروايات إلى أن الكاهن السكندرى الشهير أثناسيوس زار روما سنة ٣٣٩م مصطحباً معه راهبين مصريين فنقلا النظام الديرى إلى روما[٥٨] ،ثم مالبث القديس مارتن (٣١٦-٣٩٧م) الذى انتخب أسقفاً لمدينة تور بغالة أن أسس ديراً هناك سنة ٣٧٢م صار مثالاً يحتذى ونموذجاً لذلك النظام فى الغرب الأوربى[٥٩] . وإذا لم يكن القديس مارتن التورىقد ترك أثراً كبيراً فى تنظيم الحياة الديرية فى الغرب، إلا أنه قضى معظم حياته فى محاربة الوثنية فى غالة الأمر الذى جعل الوثنيين لايجدون مفرامن الهرب إلى المناطق النائية، فأسهم بذلك فى إفسحال المجال أمام المسيحيين وإعطاء فرصة لظهور نظمهم الجديدة ومنها الحياة الديرية[٦٠] .

---

(٥٦) موس : ميلاد العصور الوسطى ص ٧٣
(٥٧) موس : نفس المرجع السابق ص ٧٣
(58) Eyre : op. cit. pp. 227-8
(59) Chadwick : op. cit. p. 182 , p. 215
(٦٠) عاشور : المرجع السابق ج١ ص ١٦٥

ومهما يكن من أمر فقد أسهم مارتن التورى فى بناء الحياة الديرية فى أوربا حتى وفاته سنة ٣٩٧م وجاء بعده رجال تابعوا إنعاش هذه الحياة فى الغرب الأوربى حتى ارتبطت الحياة الديرية بأسمائهم هناك فى تلك الفترة والفترة التالية . ومن هؤلاء القديس كاسيان[٦١] المتوفى سنة ٤٣٥م الذى يقول عنه أحد المؤرخين أنه قدّم للغرب فى هذا المجال أكثر مما قدم باسيل للشرق الاغريقى[٦٢] ، حتى عده البعض المؤسس الحقيقى للديرية فى الغرب وأضفوا على نظامه سمة الابتكار لأنه لم ير الأديرة الباخومية أو يسبق له معرفتها ، ولهذا يقولون أن نظامه جاء وليد خبرته الشخصية وتجاربه وحصاد ابتكاره[٦٣] . كما أن كتاب "المقارنات" الذى يحوى ما كتبه كاسيان عن محاورته مع آباء الصحراء المصريين جاء إسهاماً فى تطوير النظام الديرى الغربى[٦٤] .

وإلى جانب هؤلاء ارتبطت الديرية فى الغرب باسم القديس قيصر الآرلى المتوفى سنة ٥٤٢م الذى قدّم للحياة الديرية مثلما قدّم مارتن التورى وكاسيان من قبل، وكان من رجال العلم والسياسة ايضاً[٦٥] ، وذلك لأنه شهد الفترة التى غزا فيها الفرنجة غالة وورد اسمه أحياناً بين الأسماء التى لعبت أدواراً سياسية ودينية فى تلك الفترة، وأسست أخته وتدعى القديسة قيصرية ديراً للراهبات في مدينة آرل Arles بمعاونة أخيها قيصر الآرلى[٦٦]. وهؤلاء الثلاثة :

---

(٦١) كان أسقفاً لمارسيليا ويسمى حنا كاسيان وهو الذى جعل غالة متصلة اتصالاً مباشراً بالتقاليد الرهبانية فى الصحراء المصرية . أنظر : كرستوفر دوسن : تكوين أوربا ص ٢٣٩ (مترجم)

(62) Chadwick : op. cit. p. 182

(٦٣) عاشور : المرجع السابق ج١ ص ١٦٥

(٦٤) كانتور : التارخ الوسيط ق١ ص ٢٦٢-٢٦٣

(٦٥) موس : ميلاد العصور الوسطى ص ١٣٤

(66) Camb. Med. Hist. V. 2, p. 147

مارتن التورى وكاسيان وقيصر الآرلى وضعوا غالة على قمة البلدان الأوربية فى هذا المجال أى من حيث وجود الجماعات الديرية المنظمة، وعقدوا لها الزعامة فى الغرب الأوربى كله حتى بداية القرن السادس الميلادى .

غير أن القديس بندكت (٤٨٠-٥٤٣م) ما لبث أن نقل زمام هذه الحركة إلى إيطاليا لتصبح إيطاليا رائدة فى هذا المجال منذ أوائل القرن السادس الميلادى بفضل جهود بندكت هذا واثنين من كبار الديريين هما : كاسيدور وجريجورى[٦٧] ، لتخطو إيطاليا الخطوة الأولى فى حياة الديرية فى العصور الوسطى ؛ إذ حاز كاسيدور (كاسيدورس) مكانة هامة فى إيطاليا فى عهد ثيودريك ملك القوط الشرقيين وخلفائه ولعب دوراً هاماً فى إرساء دعائم الحياة العلمية والمؤسسات الثقافية ، وكانت له طموحاته فى تأسيس مؤسسة ثقافية فى روما تضاهى مدرسة الاسكندرية فى مصر، غير أن إطاحة جستنيان بالقوط من إيطاليا أصاب هذه الطموحات فى الصميم وخيب آمال كاسيدور فى تحويل هؤلاء القوط إلى الحضارة الرومانية ودفعهم إلى الانغماس فى الثقافة المسيحية والكلاسيكية[٦٨] ؛ ولهذا انسحب كاسيدور إلى كلابريا ليؤسس مؤسسة ديرية خطط لجعلها مركز الدراسات الدينية فى إيطاليا محاولاً أن يجعل لها طابعاً مختلفاً عن المؤسسات الأخرى ويضفى عليها سمة تعليمية[٦٩] ، لأنه آمن أن الأديرة هى أكثر الأماكن ملائمة للتعليم، كما اعتبر أنها المراكز الادبية فى المجتمع الجديد[٧٠]

---

(٦٧) دوسن : تكوين أوربا ص ٢٨٣ ،

Dudden : Gregory the great. I,p. 283

(68) Chadwick : op. cit. pp. 251-2

(69) Chadwick : op. cit. p. 252

(٧٠) كانتور : التاريخ الوسيط ق١ ص ٢٦٧

أما جريجوري فهو البابا جريجوري الأول أو العظيم، وكان راهباً شديد التحمس للديرية حتى أنه استغل ثروته الطائلة لتأسيس عدد كبير من الأديرة في إيطاليا منها ستة في صقلية وواحد في روما، وكان يميل إلى اختيار بعثاته التبشيرية من الرهبان البندكتيين ومنها بعثة القديس أوغسطين الصغير التي أوفدها إلى انجلترا في أواخر القرن السادس الميلادي[٧١] ، فضلاً عما أظهره هذا البابا من عطف وإنسانية، كان للديرية والرهبانية أثرهما في إظهارهما في شخصيته، فقد تحمل جميع مسئولياته عندما عم الخراب إيطاليا بسبب المجاعات وغزوات البرابرة[٧٢] ،بالاضافة إلى جهوده العلمية والتعليمية حتى قال عنه حنا الشماس " حدث في زمن البابا جريجوري أن شيدت الحكمة لنفسها معبداً في روما وصارت الفنون السبعة الحرة كأنها سبعة أعمدة من الحجر النفيس تحمل عرش الكرسي البابوي" [٧٣] .

غير أن أهم هؤلاء الثلاثة الذين أعطوا إيطاليا الصدارة في الحركة الديرية هو القديس بندكت الذى أسس نظاماً ديرياً له طابع خاص عرف بالنظام البندكتي، وتمتع بعطف وتأييد البابوية لأول مرة في إيطاليا ولهذا انتشر هذا النظام في مختلف أنحاء أوربا[٧٤]؛ وينتسب بندكت لأسرة إيطالية ثرية وولد سنة ٤٨٠م وتلقى تعليمه في أرقى مدارس روما، لكنه ما لبث أن ضاق ذرعاً بالمفاسد التي انتشرت في المجتمع الايطالي فصمم على أن يصير ناسكاً[٧٥] ، فهجر حياة

(71) Woodward : Hist. of England. p. 13

(٧٢) دوسن : تكوين أوربا ص ٤٣

(٧٣) دوسن : نفسه ص ٢٨٣

(74) Camb. Med. Hist. V. 5, p. 658

(٧٥) كانتور : المرجع السابق ق١ ص٢٦٤

الترف والتنعم ولجأ إلى كهف منعزل وعاش عيشة التنسك والزهد[٧٦] ، ثم فكر فى سنة ٥٢٠هـ فى بناء دير له فوقع اختياره على بقعة تقع فى منتصف المسافة بين روما و نابولى عند مونت كاسينو حيث وجدت أطلال معبد عتيق للإله أبولو فأسس ديره الشهير فى تلك البقعة ، وما لبث رهبان دير بندكت أن طهروا المنطقة المجاورة من الغابات وردموا المستنقعات واستصلحوا ما حولها من أراضى حتى غدا دير مونت كاسينو مركزاً هاماً لمد الجهات القريبة بما تحتاج إليه ، كما غدا مركزاً من مراكز العمران بالنسبة لما حوله من مناطق مجاورة[٧٧] .

على أن أهمية بندكت لا تكمن فى مجرد تأسيس دير جديد أو نفخ روح جديدة فى الديرية الإيطالية بعد طول ركود ، بقدر ما تكمن فى إعطاء إيطاليا والحركة الديرية مركز الصدارة فى أوربا قاطبة ، فقد اقتبس بندكت من النظم القائمة ما هو صالح فعلاً وما يلائم ظروف البيئة الغربية ووضع نظامه الجديد ليؤثر تأثيراً بعيداً فى المجتمع الأوربى[٧٨] . فقد جعل دير بندكت مركزاً لشبكة واسعة من الأديرة فى الغرب الأوربى ، وأصبح دير مونت كاسينو المركز الرئيسى لكل الأديرة التى أسست فى الغرب اللأوربى وفق النظام الذى وضعه القديس بندكت وسارت على أساس نظمه وتقاليده[٧٩] . فقد استمد بندكت من النظم والقواعد ما كفل لهذا النظام الزعامة والتفوق فى كل أنحاء أوربا الغربية لأنه تلافى عيوب الأديرة الباخومية والباسيلية وجعل الحياة داخل الدير تتسم بروح إجتماعية قوامها مشاركة

---

(76) Camb. Med. Hist. V. I p. 536
(77) Thompson : op. cit. V. I. p. 226
(78) Eyre : op. cit. p. 229
(79) Camb. Med. Hist. V. I, p. 551

الديريين فى حياة منظمة يسودها التعاون فى العبادة والعمل وخدمة البيئة المجاورة وتسودها الألفة والنظام (٨٠) .

وتميز نظام بندكت الديرى بطابع الاستقرار لأن رهبان هذا الدير ارتبطوا به ارتباطاً وثيقاً فكان عليهم أن يقضوا حياتهم داخلة ماداموا قد اختاروا ذلك طواعية وعليهم الاستمرار به حتى النهاية ومدى الحياة، خاصة وأن الدير البندكتى أصبح بمثابة مؤسسة ترعى نزلاءها حتى مماتهم، إذ تسد حاجياتهم وترعى شئونهم (٨١)، دون أن تعتمد على هيئات أو مؤسسات أخرى دينية أو علمانية، وربما لهذا السبب تحتم على رهبان الدير البندكتى أن يختاروا رئيساً أو مقدماً للدير ليظل مدى الحياة ويمتع بسلطة مطلقة فى تنظيم الحياة اليومية بالدير وتوزيع الاعباء المختلفة على الرهبان ويأمر بمعاقبتهم عند الضرورة(٨٢)، وليمارس الاشراف على الدير كله، وعلى أعضاء الدير الطاعة التامة له والامتثال لأوامره وإن نصت قوانين بندكت على أن يستشير مقدم الدير أعضاء الدير فى مختلف القضايا التى تهم الجميع وإن تمتع مقدم الدير وحده بالرأى النهائى والقرار الأخير فى كل الأمور (٨٣) .

كما تميز الدير البندكتى بأنه ظل دائماً أقرب إلى الحياة الاجتماعية المعتدلة، وتجنب رهبان بندكت ما عرفته الأديرة فى الشرق من التطرف والمغالاة وحياة الصرامة والخشونة، كما لم يحاول

---

(80) Southern : op. cit. pp. 28 - 9, pp. 217-41
(81) Chadwick : op. cit. p. 183
Camb. Med. Hist. v. I, pp. 551-2
(٨٢) كانتور : التاريخ الوسيط ق١ ص ٢٦٥
(83) Eyre : op. cit. p. 229

النظام البندكتى أن يجعل من نفسة منظمة عسكرية، بل إن رهبان هذاالدير كانوا يحيون حياة لاتختلف كثيراً عن الحياة العادية، إذ عاشوا سوياً كأسرة واحدة ودانوا بالطاعة التامة لرئس الدير[٨٤]، واشتركوا معاً فى العمل الزراعى أو الصناعى أو غير ذلك حتى زادت أحياناً الساعات المخصصة للعمل على تلك التى خصصت للعبادة[٨٥]، فأصبحت الجماعة البندكية تتمتع بالاكتفاء الذاتى تماماً اقتصادياً وسياسياً وروحانياً ولم يكن لها أن تعتمد على العالم الخارجى فى شيء[٨٦]. فقد قام النظام البندكتى على أسس ثلاثة هى إنكار الذات والطاعة والعمل، واقترن العمل بالعبادة فى الدير لأن العمل فى حد ذاته عبادة على قول بندكت نفسه **Laborare est orare** [٨٧].

ولهذا ساد الأديرة البندكتية جو من التعبد والهدوء والنظام والعمل اليدوى، ومارس الرهبان أعمالاً تتفق وقدراتهم، فاشتغل الأصحاء منهم سبع ساعات يومياً فى فلاحة الأرض، فى حين عمل كبار السن فى طهى الطعام أو نسخ الكتب الدينية أو تعليم الرهبان الجدد أو أطفال النواحى المجاورة بجانب ممارسة الطقوس الدينية والاشتراك فى التعبد والتراتيل ثمان مرات فى اليوم [٨٨]. ويشير أحد المؤرخين إلى أن ساعات اليوم كانت موزعة بحيث كرسّت أربع ساعات للقداس **Opus Dei** بينما خصصت أربع أخرى للصلاة الإنفرادية والتأمل والقراءة وخاصة فى الأدب الدينى، كما كرسّت ست ساعات للأعمال اليومية، أما الساعات العشر الباقية فقد تركت

---

(٨٤) عاشور: أوربا ج٢ ص ٢٤٠-٢٤١، Eyre. op. cit. p. 229

(85) Chadwick: op. cit. p. 252

(٨٦) كانتور: المرجع السابق ق١ ص ٢٦٤

(87) Stephenson: op. cit. pp. 91-2

(88) Camb. Med. Hist. V. I, p. 538

للأكل والنوم[٨٩]. ولهذا كان الدير البندكتى يكفى نفسه بنفسه لأنـه لم يجعل الرهبان يعمدون إلى التأمل والعبادة ويهملون العمل والإنتاج، بل إنه أدرك الحاجات الأساسية للجسـم، فلـم يكـن دستوره ينكـر حـق البدن مع رعاية المريض والعجوز رعاية خاصة[٩٠] فنص على أن يتناول الرهبان مقادير كافية من الطعام مع قدر محدود من النبيذ، فضـلاً عـن ضـرورة أخـذ قسـط كـاف مـن النـوم، فينـام الراهـب ثمـان سـاعات يومياً[٩١]، فى الوقت الذى يتولى فيه مقدم الدير الاشـراف علـى سـائر الرهبان ومراعاة تنفيذهم للتعاليم واختيار الرهبان الجدد الذيـن يتحتـم عليهم قضاء فترة تحت الاختبار حتـى تثبـت صلاحيتهـم وإخلاصهـم وحماستهم للإنضمام للحياة الجديدة، فإذا أثبتوا كل ذلـك فعليهـم أن يقسموا يمين الولاء لنظام الدير وأن يظلوا عزاباً فقراء مطيعين[٩٢].

وهكذا بدا الدير البندكتى مجتمعـاً مسـتقلاً نبـذ أعضـاؤه الملكيـة الفردية نبذاً تاماً ودانوا بالطاعة التامة لمقدمهم الذى أصبح المسؤل الأول والأخير عن صالح الدير ومن بداخلـه في شـؤن الديـن والدنيـا [٩٣]، في حين تميزت الحياة داخل الدير بالمساواة التامة بين أعضائه لافرق بين من كان عبداً أو كان حراً أو كان شريفاً أو وضيعاً قبل انخراطه في تلك الحياة والجميع سواء، الغنى والفقير والمسـن والشـاب والمتعلـم والامـي والقساوسـة والعلمـانيين[٩٤]، ولا تمـايز لأحـد إلا بـالعمل الطيـب فقـد عاشوا سوياً كأسرة واحـدة ولهـذا أصبـح الديـر البنـدكتى أعظـم نظـام

---

(٨٩) كانتور : نفسه ق١ ص ٢٦٥-٢٦٦

(٩٠) كانتور : نفسه ق١ ص ٢٦٥

(91) Camb. Med. Hist. V. I, p. 538

(92) Painter : op. cit. p. 74 , Chadwick : op. cit. p. 252

(93) Eyre : op. cit. p. 229

(٩٤) كانتور : المرجع السابق ص ٢٦٦

ديرى يلائم العقلية الأوربية فى ذلك الوقت. وأجدر نظام بالسيادة فى غرب أوربا كلها[٩٥] . ومن ثم انتشر فى معظم أنحاء أوربا فى القرن السادس الميلادى وحتى القرن العاشر، بل يذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن هذه الفترة امتدت من سنة ٥٥٠م أى من منتصف القرن السادس الميلادى إلى قرب منتصف القرن الثانى عشر وسموها " القرون البندكتية "[٩٦]. وساعد على سيادة النظام البندكتى ما حدث من جمود الديرية فى الشرق وعدم تطورها، ثم كان دخول مصر مهد هذه الحركة وباعثتها ضمن أملاك الدولة العربية الاسلامية منذ القرن السابع أثره فى ترك المجال واسعاً أمام الأديرة البندكتية فى الغرب لتكون صاحبة اليد العليا دون منازع[٩٧] .

وعلى الرغم من كل ماانطوى عليه النظام البندكتى من مميزات، فإنه لم يكن بمنجى من العيوب، ذلك أن عزلة هذا الدير حدت كثيراً من نفوذ القائمين عليه وجعلت أثر الحياة الديرية ضعيفاً فى المجتمع الإنسانى، فضلاً عن أن عزلة هذا الدير عرضته فى كثير من الأحيان للتدهور والإنحلال[٩٨] ،حتى ليقال أن اثنين من رهبان أحد الأديرة البندكتية عاشا عيشة أقرب إلى عيشة الأمراء، فاتخذا الزوجات وأنجبا الأطفال وقربا اللأتباع ونعما بخيرات الدير وضياعه، فإذا أضفنا إلى ذلك أن تلك العزلة لم تمكن الدير من حماية نفسه واستقلاله ضد السلطة العلمانية، خاصة فى العهد المظلم الذى أعقب سقوط إمبراطورية شارلمان أدركنا أن ديرية بندكت غدت فى غرب أوربا بحاجة ماسة عند نهاية القرن التاسع لإصلاح شامل يتلافى تلك

(95) Camb. Med. Hist. v. 5, p. 658

(٩٦) كانتور : المرجع السابق ق١ ص ٢٦٣

(97) Heer : op. cit. pp. 57-8

(98) Eyre : op. cit. p. 231

العيوب والزلات [٩٩].

ويشير المؤرخون أيضاً إلى أن علامات الإنهاك بدت على الحركة البندكتية فى تلك الفترة فقد توقف احتكار البندكتيين للعملية التعليمية على أيدى مدارس الكاتدرائيات والجامعات حين نشأت هذة وأسهمت فى تخريج المتعلمين، وبدأت أعداد متزايدة من العلماء المدربين يسهمون فى حياة المجتمع الأوربى فاقوا الرهبان البندكتيين تدريجياً كنسّاخ للمخطوطات ومستشارين للملوك فتقلص الدور التقليدى للحركة البندكتية فى خدمة المجتمع [١٠٠] . فكأن التغيرات الهامة التى جرت على الحياة الديرية الغربية كانت نتيجة لتضاؤل قيمة الرهبان بالنسبة للمجتمع، كما فقد الرهبان سيطرتهم على التعليم العالى [١٠١] كما لم يعد الدير البندكتى القوة الدافقة لتنصر العالم، كما كان من قبل، كما فقدت الحركة البندكتية سيطرتها فى مجال التنافس على الشؤن الدنيوية، إذ تخلت الأديرة البندكتية عن سياسة الاكتفاء الذاتى ولم يعد الرهبان يقومون كما ينبغى بالأعمال البدنية [١٠٢].

على أنه يحسب للنظام البندكتى برغم كل ذلك بنجاحه فى اختيار ما كان يلائم العقلية الأوربية فى ذلك الوقت [١٠٣] من ناحية، فضلاً عن ارتباط ذلك النظام بثلاث حركات كان لها شأن كبير فى تاريخ العصور الوسطى من ناحية أخرى :أولاها :حركة نمو البابوية

---

(٩٩) عاشور : أوربا ج٢ ص ٢٤٢

(١٠٠) هلستر : أوربا ص٢٢٨-٢٢٩

(١٠١) كانتور : التاريخ الوسيط ق٢ ص ٦٠٦

(١٠٢) كانتور : نفسه ق١ ص٢٧١

(103) Eyre : op. cit. p. 229

وتطورها، وثانيها الحركة التبشيرية الواسعة التى قامت بهـا الكنيسة الغربية، وثالثتها حركـة الإحيـاء الحضـارى فـى أوربـا[(١٠٤)] بـل كـان لبندكت الفضل فـى جعـل الديريـة أداة روحيـة بحتـه، ثـم أصبحـت الأدرة البندكتية مراكز الحضارة والتعليم، حثـت علـى العمـل اليـدوى الذى كان يأنف منه العالم الرومانى ويحقر من شأنه، فغـدت الديريـة عاملاً إجابياً فى المجتمع ولم تعد ملاذاً للكسالى العـازفين عـن الحيـاة وتبعاتها وأعبائها أو مأوى للمتعطلين[(١٠٥)].

ما لبثت أن ظهرت حركـة إصـلاح عظيمـة فـى القـرن العاشـر، مثلت الدور الثـانى فـى تـاريخ الديريـة الغربيـة، وهـى الحركـة التـى عرفت باسم حركة الاصلاح الكلونية نسبة الى دير كلونى Cluny فـى برجنديا، أى أن هذه الحركة الجديـدة انبعثـت مـن غالـة، غـير أنـه أدخلت عليها تعديلات كثيرة فى إنجلترا بالذات فـى القـرن الحـادى عشر. ويقع دير كلونى الرئيسى بالقرب من الحدود الفرنسية الألمانيـة على بعد عدة أميال من مدينة ماسـون[(١٠٦)]، وكـانت بدايتـه فـى سـنة ٩١٠م حين تأسس هذا الدير فى برجنديا على يد دوق أكويتانيـا، ثـم غدامنذ مطلع القرن الحـادى عشـر أكـبر أديـرة أوربـا وأكثرهـا أوقافـاً وأعظمها مكانة وهيبة، فقـد حـاز إعجـاب رجـال الكنيسـة وإخـلاص العلمانيين[(١٠٧)]. وظهرت الحركة الكلونية كاحتجاج ضـد الانهمـاك فى الشؤن الدنيوية على حساب الشؤن الروحية، كما قدمت هذه الحركـة

---

(١٠٤) عاشور : أوربا ج٢ ص ٢٤١

(105) Thompson : op. cit. V. I, p. 237 ,

عاشور : نفسه ج١ ص ١٧٦-١٧٧

(١٠٦) جوزيف نسيم يوسف حاشية (١) فى ص ١٧٢ من ترجمته لكتاب كولتـون عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة .

(١٠٧) كانتور : التاريخ الوسيط ق١ ص ٣٦٨-٣٦٩

منهجاً يفسر الامور المتعلقة بالطقوس الدينية(١٠٨) .

وأهم أسس هذه الحركة الإصلاحية هى محاولة فرض رقابة أكثر على أهل الدير ووضع حد للتهاون الذى ساد الدير وحاد بهم عن الأسس القويمة للديرية الحقة، بإخضاع جميع الأديرة التابعة للمنظمة الجديدة للإشراف الموحد، فضلاً عن التخفيف عن الديريين وتحديد أعبائهم(١٠٩) . كما كان من أهداف زعماء دير كلونى تحرير الكنيسة من تسلط الحكام العلمانيين وخضوع رجال الدين لنفوذ رجال السياسة، وسرعان ما نجح زعماء دير كلونى فى جعل ديرهم على رأس سلسلة مترابطة من الأديرة وشبكة متماسكة ذات طابع خاص ويمثل الدير الأم لبقية الأديرة فى هذه الشبكة من الأديرة المتماثلة(١١٠). فقد كان النظام يقضى بأن يقوم مقدم دير كلونى بتعيين مقدمي الأديرة الأخرى ليصبح هؤلاء خاضعين له ومرتبطين به ارتباطاً مباشراً ويصبح دير كلونى بذلك الدير المشرف على كل أديرة هذا النظام والدير الرئيسى فى هذه السلسلة من الأديرة، يضاف إلى ذلك أن الأديرة الكلونية نجحت فى تحرير نفسها من سيطرة الأساقفة المحليين وربطت نفسها بالبابا مباشرة(١١١) ؛ أى أن أساس نظام كلونى نهض على الاستقلال التام عن السلطات الدينية والدنيوية والاتصال المباشر بالبابوية ، والقضاء على استقلال الأديرة بعضها عن بعض(١١٢) ووجدت الحركة الكلونية فى البابوية نصيراً ومعيناً أضاف إلى قوتها وأرهص بنجاحها فى تحقيق ما كانت تهدف إليه من إصلاح

---

(١٠٨) هلستر : أوربا ص ٢٢٨

(109) Eyre : op. cit. p. 282

(110) Camb. Med. Hist. v. 5 , pp. 662 - 4

(111) Ibid. p. 667

(١١٢) جوزيف نسيم يوسف : حاشية (١) فى ترجمته لكتاب كولتون " عالم العصور الوسطى" ص ١٧٢

فى جوف الديرية، حتى تطرق الأمر إلى محاولتها إصلاح الكنيسة والبابوية ذاتها من المفاسد والشرور التى تغلغلت فيهما[١١٣] .

ولقد نجحت الحركة الكلونية فى إصلاح أحوال الكنيسة وتطهيرها من المفاسد التى رانت عليها فترة طويلة من الزمن، وانتشالها من حالة الضعف والاضمحلال الذى سرى فى كيانها بسبب تدخل السلطة العلمانية فى شئونها، بالإضافة إلى أن أثرها فى الحياة الديرية كان بعيداً لأنها بعثت فيها الحياة من جديد ونفخت فيها روحاً جديدة[١١٤] . فقد اهتم رهبان كلونى بجانب الزراعة واستصلاح الأراضى ومد العمران، بالعلوم وبالاعمال الأدبية والناحية الفكرية والثقافية، فكان لهذه الحركة آثارها البالغة الأهمية، فأصبحت حركة عامة امتد حدود تأثيرها إلى خارج غالة حتى غدت حركة دولية امتد نشاطها إلى بقية أنحاء الغرب الأوربى[١١٥] .

ويعزى نجاح دير كلونى فى جانب منه – كما سبق أن أشرنا– ألى أن الدير كان بعيداً عن التدخل العلمانى والكنسى وربط نفسه مباشرة بالبابا، ونظراً لأن البابوية كانت حتى منتصف القرن الحادى عشر الميلادى تعانى من التدهور والضعف، فقد منح ذلك رهبان كلونى فرصة توجيه إصلاحهم فى حرية تامة[١١٦]، هذا فضلاً عن أنهم اختاروا لديرهم سلسلة من الرؤساء اتصفوا بالمهارة والقدرة الفائقة، كما أنهم كانوا من أصول أرستقراطية عادة فقادوا هذا الدير حتى وصلوا به

---

(١١٣) جوزيف نسيم يوسف : نفسه ص ١٧٢
(١١٤) عاشور : أوربا ج٢ ص ٢٤٣
(115) Coulton : Med. Village , p. 210
Baldwin : Med. Church. pp. 34-6 , p. 41
(١١٦) كانتور : المرجع السابق ق١ ص ٣٦٩

إلى مكانته البارزة فى أوربا، ومـن هـؤلاء القديـس أودو Odo (٩٢٦-٩٤٢م) والقديـس أوديلـو Odilo (٩٩٤-١٠٤٩م)[١١٧] وهيـو Hugh الكبير (ت ١١٠٩م)، حتى أصبح مقدم دير كلونى فى منتصـف القرن الحادى عشر الميلادى أكبر رجل دولة فى أوربا[١١٨] . كما يعزى أيضاً نجاح دير كلونى لحماسة الرهبـان الكلونيـين لإنجـاز مـا هدفـت إليـه الحركة من إصلاح فـى جـوف الديريـة. ولذلـك سـرعان مـا انتشـرت الأديرة الكلونية فى أنحاء الغرب الأوربى ليبلغ عددها نحو مائتى ديـر خضعت خضوعاً مباشراً لمقدم دير كلونى، وإن وجـدت بعـض الأديـرة فى أوربا خارج نطاق النظام الكلونى، ولم تدخـل ضمـن هـذه الحركـة على الرغم من أنها تأثرت تـأثراً عميقـاً بمبـادىء كلونـى وإصلاحـات الحركة الكلونية[١١٩]، وأبرز ما هدفت إليـه هـذه الحركـة الاصلاحيـة بالنسبة للحياة الديرية هو الاهتمام بـالتعبد والتـأمل ومضاعفـة العنايـة بهما مع تقليل ساعات العمل، فكأن الحركة الكلونية عادت لتزيد من جرعة الأعباء الدينية على حساب المسئوليات الدنيوية وزيادة الناحيـة الروحية على النواحى العملية، فكأنها نهضت كاحتجاج ضد الانهماك فى الشؤن الدنيوية على حساب الشؤن الروحية[١٢٠] .

غـير أن عوامـل الانحـلال والفسـاد مـالبث أن تطرقـت للحركـة الكلونية وأخذ الديريون يجنحون إلى حيـاة البطالـة والكسـل ويحيـون حياة الترف والتنعم ويسرفون فى تناول الفـاخر مـن الطعـام والشـراب ويلبسون الفاخر من اللباس، بـل أقـاموا الاحتفـالات فـى الديـر التـى شارك فيها الملوك والنبلاء من شتى أنحاء أوربا، فأغدق هؤلاء الأوقاف

---

(١١٧) جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص ١٧٢-١٧٣ (حاشية ١)
(١١٨) كانتور : نفسه ق١ ص ٣٦٨
(119) Eyre : op. cit. p. 233
(١٢٠) هلستر : أوربا ص ٢٢٨

الضخمة على الأديرة[١٢١] . وهى نفس الأسباب التى أدت إلى قيام هذه الحركة الاصلاحية ذاتها، حين أنحى رجال كلونى باللائمة على رهبان بندكت الذين جرفهم تيار الدنيوية والانغماس فى الكسل والرغبة فى متع الحياة[١٢٢]، هذا فضلاً عن أن المركزية المطلقة فى الأديرة الكلونية عرضت النظام كله للتداعى إذ ألقت الإشراف على جميع الأديرة على كاهل مقدم دير كلونى، فلما انتهت سلسة مقدمى دير كلونى العظام ورجاله المبرزين، وبدأت سلسلة أخرى من المقدمين الضعاف،انحل دير كلونى نفسه وتبعته بقية الأديرة[١٢٣]، ولهذا شهدت بدايات القرن الثانى عشر انحلال دير كلونى الأم وتبعته بقية الأديرة، فكأن المركزية المطلقة كانت أيضاً سبباً من أسباب فساد هذا النظام وفشله[١٢٤] .

ولعل فى ذلك يكمن بروز جماعات من الديريين الساخطين الذين بحثوا عن حياة أكثر بساطة ومعيشة أكثر زهداً مثل نظام الكامالدولى Camaldoli الذى اعترفت به البابوية سنة ١٠٧٢م[١٢٥]، وفيه مال رجال هذه المنظمة الديرية من جديد إلى حياة التأمل والتعبد وممارسة الحياة الديرية فى تنسك فى خلايا وقلايات منفصلة لا يجتمعون إلا فى أوقات الصلاة مما يشير إلى أن الجماعة الديرية حاولت العودة إلى ما ميز الحياة الديرية من بساطة وزهد والانهماك فى النواحى الروحية والدينية على حساب النواحى الدنيوية[١٢٦] . كما

(١٢١) كانتور : نفسه ق١ ص ٣٧٠-٣٧١
(122) Coulton : Med. Panorama. p. 263
(123) Camb. Med. Hist. v. 5 , p. 664
(124) Southern : op. cit. p. 310
(١٢٥) عاشور : أوربا ج٢ ص ٢٤٤
(126) Camb. Med. Hist. v. 5, p. 667

ظهر نظام ديرى آخر فى القرن الحادى عشر إتسم بهذا الطابع الإصلاحى وهو نظام الكارثوسيان Carthusian الذى سلك أصحابه طريق الانسحاب من المجتمع والمشاركة فى تنصير المجتمع، فالكارثوسيان نسبه إلى صحراء كارتريز وأسس هذه الجماعة ألمانى الأصل اسمه برونو St. Bruno سنة ١٠٨٤م[١٢٧] ظهر كنظام فى شرق فرنسا فى أواخر القرن الحادى عشر وانتشر فى أنحاء العالم المسيحى فى القرن الثانى عشر الميلادى[١٢٨]، إذ عاش هؤلاء الرهبان فى مجموعات صغيرة بمعزل عن العالم الخارجى متعبدين معاً فى صوامع معدة، حيث تمسك هؤلاء بالقيم الروحية فنالوا إعجاباً شديداً خاصة وقد تطرفوا فى الزهد وداوموا التعبد والتأمل الانفرادى[١٢٩] .

وواضح أن هذه المنظمات الديرية الجديدة جاءت رد فعل قوى رافض لما ران على الحركة الكلونية من تغير حاد بها عن الطريق القويم، ومهما كان فى مسلك هذه الجماعات الديريةالجديدة، فإن ما أرادت أن تعبر عنه هو العودة إلى بساطة الديرية وزهد الرهبان الأوائل ومضاعفة التأمل والتعبد والتقليل من المشاركة فى الأمور الدنيوية والعلمانية على حساب النواحى الروحية والدينية، ويكشف ظهور هذه المنظمات الديرية وغيرها من المنظمات الصغيرة، شيوع روح التدين فى جميع أنحاء أوربا فى القرن الثانى عشر[١٣٠] .

ولكن برغم كل ذلك فقد ظلت السيادة فى غرب أوربا للحركة الكلونية، حتى أوائل القرن الثانى عشر[١٣١] حين بدأ الدور الثالث فى

---

(127) Coulton : Med. Panorama , p. 266

(١٢٨) هلستر : أوربا ص ٢٢٩

(129) Thompson : op. cit. v. 2, p. 667

(١٣٠) كانتور : المرجع السابق ق٢ ص ٦١٠

(131) Eyer : op. cit. p. 233 , كانتور : المرجع السابق ق٢ ص ٦١٠

تاريخ تطور الحركة الديرية في غرب أوربا . وكما برزت الحركة الكلونية كحركة إصلاح في جوف الديرية نبعت حركة جديدة من أحد أديرة برجنديا هو دير سيتو Ceteaux كحركة إصلاح أيضاً عرفت باسم السسترشيان Cistercian [١٣٢]، وقد أسس هذه الجماعة راهب فرنسي يدعى روبرت حوالي سنة ١٠٩٨م، حين برز اسم دير سيتو في برجنديا واحتل مكانة هامة في الفترة التالية. وهدفت هذه الجماعة إلى العودة إلى تعاليم بندكت الأولى وصبغ الحياة الديرية الجديدة بنوع من التصوف وتجنب الملبس الفاخر والميل إلى البساطة في كل شيء، وعزف أفراد هذه المنظمة عن العالم ومالوا إلى الجهات المقفرة وعمدوا إلى رعي الأغنام ورعايتها وتعمير الصحاري[١٣٣]، وتقدم دير سيتو بسرعة بفضل رجاله الأوائل، حتى التحق بهذا النظام القديس برنارد العظيم سنة ١١١٥م مؤسس الدير الشهير في كليرفو وهو أحد الأديرة الباكرة التابعة للدير الرئيسي في سيتو، ولهذا يطلق أحياناً على هذه الجماعة اسم البرنارديين نسبة إلى القديس برنارد الذي كان أكبر عقلية دينية في القرن الثاني عشر[١٣٤] .

وفي خلال ثلاثة عقود من القرن الثاني عشر غدا السسترشيان نظاماً ديرياً رئيسياً في الغرب الأوربي، يلي النظام البندكتي من حيث الحجم بفضل مميزاته الواضحة من ناحية وجهود القديس برنارد من ناحية أخرى، فقد أضحى هذا القديس (١٠٩١-١١٥٣م) أعظم شخصية في أوربا، وأفصح المتحدثين باسم النظام الجديد، كما كان صديقاً شخصياً للبابا[١٣٥] ، وفي أواخر القرن الثالث عشر كان عدد

(132) Camb. Med. Hist. v. 5, p. 672

(133) Shorter Camb. Med. Hist. v. I, pp. 502-4

(١٣٤) كانتور : المرجع السابق ق٢ ص ٦٠٨

(١٣٥) عاشور : أوربا ج٢ ص ٢٤٦

الأديرة السسترشيانية فى أوربـا لا يقـل عـن سـبعمائة ديـر فقـد كـان الرهبان السسترشيان بمثابة الرواد فـى الحركـة التعميريـة[١٣٦] ،وكـان نشاطهم فى هذا المجال واضحاً فى شرق ألمانيا بصفـة خاصـة، ولهـذا سمح ملاك الأراضى فى كل مكان لهؤلاء الرهبـان باسـتيطان الأراضـى التى لم تـزرع مـن قبـل داخـل أملاكهـم، لكـى يمهـدوا هـذه المنـاطق ويعدوها للزراعة والاستقرار[١٣٧].

ولقد نجح نظام السسترشيان الديـرى فـى تلـك الفـترة، بسـبب اتخاذه طريقاً وسطاً بين الاستقلال المحلى الذى تمسكت بـه الأديـرة البندكتية، والمركزية المطلقة التى اتبعتها الأديرة الكلونيـة، فـإذا كـان مـن حـق مقـدم ديـر سـيتو وهـو الرئيـس الأعلـى للأديـرة الجديـدة السسترشيانية زيارة هذه الأديرة التى تفرعت عن ديـر سـيتو لمراقبتهـا والتفتيش عليها فقد كان لرؤساء هذه الأديرة حق زيارة الديـر الرئيسـى أو الدير الأم (دير سيتو) وتفقد أحوالـه [١٣٨] . هـذا مـن ناحيـة ومـن ناحية أخرى لم يكـن للأديـرة السسترشـيانية كلهـا أن ترتبـط بـالدير الرئيسى، وإنما كان كل دير منها يرتبط ارتباطـاً مباشـراً بـالدير الـذى تفرع عنـه فقـط دون غـيره مـن أديـرة المنظمـة[١٣٩]، وقضـت نظـم السسترشيان أن يعقد فى كل عام مجمع أو مؤتمـر أو اجتمـاع عمومـى فى مدينة سـيتو يحضره جميـع مقدمـى أديـرة هـذه المنظمـة لمناقشـة القضايا التى تهم النظام وإصدار التوصيات اللازمة، وكان لهذا المجمع أو المؤتمر سلطة فعالة فى كـل ما يتعلق بشئون هـذه الجماعـة الديريـة الجديدة[١٤٠] .

---

(136) Southern : op. cit. pp. 250-5

(١٣٧) كانتور : بنفسه ق٢ ص ٦٠٩

(138) Camb. Med. Hist. v. 5, pp. 673-4

(139) Ibid. p. 674

(١٤٠) عاشور : المرجع السابق ج٢ ص٢٤٦

ويمكن القول أن نجاح نظام السسترشيان يرجع فى جانب كبير منه إلى أن هذا النظام منح لكل دير سلطة محدودة اختلفت عما تمتع به مقدم الدير البندكتي من نفوذ مطلق كما اختلفت عما كان يبديه مقدم الدير الكلونى من تبعية كاملة لمقدم الدير الأم (دير كلونى) . فكما سبقت الاشارة اتخذ النظام الجديد طريقاً وسطاً بين الاستقلال المحلى والمركزية المطلقة فى النظامين السابقين البندكتى والكلونى[١٤١] . كما يعزى جانب آخر من نجاح هذا النظام إلى قيام الرهبان السسترشيان باستصلاح الأراضى البور وفلاحتها ، فضلاً عن تربية الخيول والمواشى ورعى الأغنام والعناية بها من أجل أصوافها فقدموا خدمة كبيرة للحياة الاقتصادية فى أوربا[١٤٢] .

وهكذا اهتم هذا النظام بإعادة الديريين للعمل وإلى حياة البساطة وحثهم على بذل الجهد والنشاط، وربما لهذا روعى إقامة الأديرة السسترشيانية فى أماكن نائية وقفرة وبعيدة عن العمران[١٤٣] ، وألزمت الأديرة ألا تمتلك حقولاً واسعه آهلة بالأقنان حتى ينصرف الرهبان للعمل فى فلاحة الأرض واستصلاح الأراضى البور وغيرها من الأعمال النافعة ، فأسهموا بذلك فى إنعاش الأحوال الاقتصادية فى كثير من جهات أوربا كما سبق أن أشرنا. كما أنهم أحرزوا من التقدم فى زراعة أراضيهم ما جعلهم من أبرز ملاك الأراضى[١٤٤] ، وغدا لدير سيتو نفسه مزارع واسعة للكروم واهتم رهبان يوركشَيَر في

---

(141) Painter : op. cit. p. 145

(١٤٢) هلستر : أوربا ص ٢٣١-٢٣٢

(١٤٣) هلستر : نفسه ص ٢٣٠

(١٤٤) كانتور : التاريخ الوسيط ق٢ ص٦١٢

إنجلترا بأصواف الأغنام، حتى أصبحت تجارة الأصواف عصب الحياة الإقتصادية فى ذلك الإقليم[١٤٥] .

كل ذلك قبل أن يتسرب الانحلال من جديد لهذة الحركة، ويغلب عليها الاتجاه الدنيوى، وينزلق أتباعها إلى الطريق الذى هوى فيه غيرهم من قبل، فلم يعان السسترشيان من التحجر بقدر ما عانوا من الفساد فقد كونت كثير من الأديرة السسترشيانية لنفسها رءوس أموال كبيرة واستخدمها رؤساء الأديرة فى إقراض أصحاب الأراضى ورجال الكنيسة الفقراء وتشابهوا مع المرابين اليهود[١٤٦]، وغدت الأغلبية من رهبانهم على استعداد لقبول الرفاهية على أنها نعمة من الله. كما لم يكن لديهم تراث أو تقاليد خاصة بالتعليم، بل كانوا معادون للفكر خاصة بعد أن توفى القديس برنارد سنة ١١٥٢م، فبدأ العصر الذهبى لهذه الجماعة يتوارى شيئاً فشيئاً ليؤكد فشل السسترشيان فى طرح شكل نظامى مرضى للتدين[١٤٧] .

وعلى الرغم من أن ظهور الحركات الإصلاحية التى هدفت إلى تقويم الديرية وإعادتها إلى جادة الصواب كانت تمثل فى الحقيقةعمليات بعث جديد لتلك الحياة ودفع لحياة جديدة فيها، إلا أن ذلك كله لم يجد فى النهاية حين تضافرت عوامل مختلفة لتؤدى إلى فساد تلك الحياة بأكملها وتتسبب فى فقدها لأبرز مقوماتها فى أواخر العصور الوسطى[١٤٨] . وذلك أن مقدمى الأديرة سرعان ما

---

(١٤٥) عاشور : نفسه ج٢ ص ٢٤٦
(١٤٦) كانتور: المرجع السابق ق٢ ص ٦١٢
(147) Camb. Med. Hist. V. 5, pp. 676-77
(148) Southern : op. cit. pp. 269-70

أصبحوا شخصيات هامة فى المجتمع الأوربى نتيجة لانغماسهم فى الحياة الإقطاعية من ناحية وبفضل الضياع الواسعة التى امتلكتها الأديرة من ناحية أخرى، وبمرور الوقت أصبحوا أعضاء بارزين فى الأرستقراطية الإقطاعية[١٤٩]، فاكتسبوا مكانة كبيرة فى المناطق التى قامت فيها أديرتهم، ومن ثم اهتم الملوك والأمراء بأمر تعيينهم، وغدت هذه المسألة مثار جدل وخلاف بين السلطتين الدينية والعلمانية فى الوقت الذى اقترب فيه مقدموا الأديرة كثيراً من الشئون السياسية والدنيوية وغدا بعضهم من مستشارى الملوك والأمراء[١٥٠]، وابتعدوا عن المثل والمبادىء الديرية، هذا فضلاً عما حدث منذ القرن الثانى عشر من تطور الوضع الاجتماعى للرهبان أنفسهم، فقد وصل الأمر حد تقسيم ممتلكات الدير بين مقدم الدير وبقية رهبانة مما أدى إلى تحول الديريين إلى سادة وملاك فى ظل اتساع أملاك الأديرة وكثرة ثروتها واستتبع ذلك حرص المسئولين فى كل دير على الحد من ضم عدد جديد من الرهبان خشية أن يتناقص نصيب كل فرد من الديريين القدامى[١٥١]. وهكذا فسدت الحياة الديرية وابتعدت عن أهم أسسها ومقوماتها .

أدى ذلك إلى ظهور منظمات الاخوان الرهبان **Frairs** أو الرهبان الفقراء حين برزت جماعة الإخوة الفرنسسكان والإخوة الدومينيكان فى القرن الثالث عشر وجاء ظهورهما علامة على أهم مرحلة من مراحل تطور النظم الديرية الكاثولكية[١٥٢]، واقترن ظهورهما بالرغبة فى العودة إلى تعاليم المسيحية الأولى وبساطتها وزهدها وكان الفضل فى

(149) Painter : A Hist. of Middle Ages , p. 149

(١٥٠) هلستر : أوربا ص ٢٣١

(151) Camb. Med. Hist. V. 6, p. 727

(١٥٢) كانتور : التاريخ الوسيط ق٢ ص٦١٢

تأسيس هاتين الجماعتين فى أوائـل القـرن الثـالث عشـر إلى كـل مـن القديس فرانسيس والقديس دومنيك. أمـا القديـس فرنسـيس الأسيسـى فقد ولد سنة ١١٨٢م وتوفى سنة١٢٢٦ م(١٥٣)، وكان فرنسـيس رجـلاً مفعماً بالمحبـة ومثيراً للإعجـاب ويعتـبر مـن أشـهر القديسـين فـى المسيحية ، وكان ابناً لتاجر أقمشـة ثـرى فـى مدينـة أسـيزى Assisi (١٥٤) فـى شمـال إيطاليـا وفـى سـن الصبـا تحـول إلى الإيمـان العميـق بالمسيحية وصمم على أن يهب حياته لخدمة الفقراء والمرضى(١٥٥)، ولما تزايد أعداد التابعين له أسس جماعة الفرنسسكان ونادى مـع جماعتـه بضرورة الاقتداء بالسيد المسيح فى بساطته وزهده وعزوفه عـن الدنيـا، كما لم يحبذ مع رجاله الإخلاد إلى السكينة فـى الأديـرة لأداء العبـادة والصـلاة والتـأمل فحسـب، بـل مـالوا إلى السـعى فـى الأرض للوعـظ والتبشير وتعليم الناس مع الاكتفاء بالكفاف وما يجود به الخيرون مـن فتات الخبز والاكتفاء بحياة الفقر(١٥٦) . ويشير المؤرخـون إلى أن دعـوة فرنسيس تميزت بوجود عنصر التفاؤل بعكس من سـبقوه، وأنـه نـادى بالتمتع بالحياة فى حد معقول وتمجيد الطبيعة، كما حاول إيجاد نوع من التوافق بين الله والطبيعة والإنسان، ونظر للبشر جميعاً على أنهـم متساوون فى كل شىء(١٥٧)، ولذلك بدأ فرنسيس والرهبان الفرنسسكان المخلصـون يتدفقـون علـى مـدن أوربـا ويقدمـون المواعـظ فـى الشـوارع المزدحمة ويقيمون المثال الحى على الورع المسيحى(١٥٨) .

---

(153) Heer : Med. World. pp. 79 - 89

(١٥٤) هلستر : أوربا ص ٢٣٧

(155) Southern : op. cit. p. 281

(156) Shorter Camb. Med. Hist. II, pp. 669-71

(١٥٧) جوزيف نسيم يوسف : حاشية (٢) ص ٦٤-٦٥ مـن ترجمتـه لكتـاب كولتون: عالم العصور الوسطى.

(١٥٨) هلستر : نفسه ص ٢٣٨

وما لبثت منظمة الإخوان الفرنسسكان أن أحرزت نجاحاً كبيراً فى أوربا فاعترف بها البابا أنوسنت الثالث ووافق على هذا النظام الديرى بعد أن أبدى بعض الشكوك لكن سرعان ما انتشر نظام الفرنسسكان الديرى بسرعة كبيرة في السنة التالية، الأمر الذى جعل من السهولة بمكان التصديق على لائحة هذه الجماعة سنة ١٢٢٣م[١٥٩].

أما الجماعة الأخرى من منظمات الإخوان الفقراء فقد أسسها القديس دومنيك والتى لعبت دوراً هاماً فى جنوب فرنسا وشمال أسبانيا في محاولة رد الهراطقة هناك إلى حظيرة الكنيسة الغربية[١٦٠] وذلك أيضاً بطريق الوعظ والتبشير وضرب المثل الحى فى التقوى والورع والزهد فى الدنيا والبساطة. والقديس دومنيك St Dominic (١١٧٠-١٢٢١م) أحد أبناء أسبانيا، قام بالوعظ فى جنوب فرنسا ضد طائفة الالبيجنسيين وآمن بوجود إخوة رهبان مدربين كرجال لاهوت ووعاظ نذروا أنفسهم للفقر وحياة البساطة، ومحاولة استمالة الطوائف الدينية التى لاتؤمن بالمذهب الكاثوليكى عن طريق تقديم الحجج والبراهين والخطابة والقدوة[١٦١]. وما لبثت جماعة الدومنيكان أن حصلت على موافقة البابوية سنة ١٢١٦م، فاجتازوا مرحلة التوسع والازدياد، وبمرور نصف قرن انتشروا فى كل أنحاء العالم المسيحى خاصة وأن مبادىء هذه المنظمة وأهدافها كانت أكثر وضوحاً من الجماعة الأخرى[١٦٢]. غير أنه لم يجر وقت طويل حتى تباعدت هذه المنظمات عن مبادئها الأولى فى الزهد والبساطة والفقر، لتلعب

---

(١٥٩) هلستر : نفسه ص ٢٣٨

(160) Camb. Med. Hist. V. 6, p. 737

(١٦١) هلستر : أوربا ص ٢٣٧

(162) Southern : op. cit. p. 281

دوراً آخر في الحياة وفى المجتمع فى أوربا فى أواخر العصور الوسطى اذ قدمت الجماعة أعظم الفلاسفة ورجال الدين واللاهوت فى عصرهم ،فضلاً عن النشاط التبشيرى بين المغول فى آسيا(١٦٣) . وبمرور الوقت سقط المبدأ المثالى الخاص بالفقر المشترك، وأنه لايصح لهؤلاء أن يستجدوا الصدقات، فبدأ اتجاه أكثر علمانية فى الظهور ببطء، ولم يعد الشباب يندفعون أفواجاً للانخراط فى النظم الديرية وانتهى الامر بالعزوف عن هذه المنظمات فانتهى عصر هذه الجماعات فى القرن الرابع عشر(١٦٤).

وهكذا كانت قصة الرهبانية والمنظمات الديرية فى أوربا فى العصور الوسطى. وعلى الرغم من أن نظام بندكت وما تبعه من حركات إصلاحية ديرية فى الغرب الأوربى كان فى كل مره ينساق إلى نفس الخطأ، ويتناسى الديريون الأسس القويمة للديرية بمعناها الأول ويتباعدون عن مبادئها المثلى، حتى وصل الأمر حد فساد تلك النظم برمتها فى أواخر العصور الوسطى(١٦٥) ، إلا أن الحركة الديرية تركت أثراً عظيماً فى جميع مجالات الحياة فى أوربا فى ذلك الوقت، وأسهمت إسهاماً كبيراً فى الحياة الدينية والروحية فى كل أنحاء أوربا .

– فقد شارك الديريون مشاركة هامة فى عملية البناء والانتاج التى حافظت على كيان الحضارة الأوربية بعد غزوات البرابرة منذ

---

(163) Painter : op. cit. p. 321

(١٦٤) هلستر : نفسه ص ٢٤٠

(165) Camb. Med. Hist. V. 6, p. 727

القرن الخامس ، وبذلوا جهوداً مضنية فى صيانة تلك الحضارة في العصر المظلم الذى تبع انهيار امبراطورية شارلمان والكوارث التى نزلت بغرب أوربافى القرن التاسع(١٦٦) . والدليل على ذلك أن هجمات الفيكنج الوثنيين فى القرن التاسع الميلادى تركزت على الأديرة والكنائس في غرب أوربا للقضاء على ما كانت تمثله هذه المؤسسات وما كانت تنهض به من أعباء(١٦٧) .

– كما مهد الديريون لنهضة حضارية تمتع بها غرب أوربا فى القرن الثانى عشر حين غدت الأديرة تمثل عنصر الاستقرار الوحيد فى المجتمع الغربى، وأضحت مراكز الاشعاع الفكرى والعلمى والمراكز الاساسية للثقافة والدراسات المتنوعة(١٦٨) فضلاً عن الفنون فيما بين القرن الخامس ونهاية القرن الحادى عشر الميلادى، حتى يمكن القول أنه لولا نشاط الأديرة ودورها الايجابى فى ذلك لتناقص التراث الثقافى الذى خلفته أوربا فى العصور الوسطى إلى حد كبير .

– وبالإضافة إلى ذلك وقع عبء نشر الديانة المسيحية والحضارة اللاتينية بين الشعوب الوثنية على كاهل الديريين، وهم الذين وجهوا النشاط الروحى للحياة الديرية نحو تنصير المجتمع(١٦٩) ،والقيام بالتبشير ونشر الحضارة اللاتينية بين الشعوب الوثنية والقبائل الضارية بجانب جهود كبار الفاتحين من أمثال شارلمان(٧٦٨-٨١٤م)

---

(166) Eyre : op. cit. p. 238

(167) Cantor : Med. Hist. pp. 203-4

(١٦٨) عاشور : أوربا ج٢ ص ٢٤٨

(١٦٩) هلستر : أوربا ص ٢٣٢

وألفرد العظيم (٨٤٨-٨٩٩م) [١٧٠] . فلقد كان جريجوري الأول أو العظيم صاحب البعثات التبشيرية المعروف راهباً، وكذلك كان القديس أوغسطين الصغير الذى كان له فضل تحويل إنجلترا إلى المسيحية فى أواخر القرن السادس الميلادى كان هو الآخر ورفاقه من الرهبان البندكتيين أى من الديريين الأوائل فى أوربا [١٧١] . فضلاً عن التصدى للحركات الخارجية أو المعادية للكنيسة الكاثوليكية على الرغم من تعدد هذه الحركات والتصدى أيضاً للنزعات الفلسفية التى كانت ترمى أحياناً إلى محاولة التوفيق بين الإيمان الكاثوليكى والعقل البشرى، والتى آمن بها بعض الفلاسفة مثل بطرس أبيلارد Peter Abelard فيلسوف القرن الثانى عشر الشهير[١٧٢] .

-كما كان للديرية أثر واضح في التقدم الاقتصادى والاجتماعى الذى أصابته بلدان الغرب الأوربى في العصور الوسطى، فقد كانت المنظمات الديرية من أولى الهيئات التى منحها ملوك الغرب الأوربى كثيراً من الإعفاءات والامتيازات، فأدى ذلك إلى امتلاك الأديرة لأكبر نسبه من الأراضى الزراعية، وفي شتى أنحاء أوربا في القرن الثانى عشر وكان الرهبان بمثابة الرواد في الحركة التعميرية[١٧٣] ، وفي ظل معرفتنا بمقدرة الديريين الزراعية وخبرتهم وكفايتهم في هذا الميدان نستطيع أن ندرك أن الأديرة كانت من عوامل التمدن ومظهراً من

---

(١٧٠) موس : ميلاد العصور الوسطى ص ٣٥٢ ،
Einhard : "Life of Charlemagne" in Med. World. by Cantor . p. 142
Haskins : The Normans in European Hist. p. 31
Rayner : A Consise Hist. of Britiain. p. 16
(١٧١) دوسن : تكوين أوربا ص ٢٨٣ ، Dudden : op. cit. I. p. 283
(١٧٢) هلستر : نفسه ص ٢٣٢
(١٧٣) كانتور : التاريخ الوسيط ق٢ ص ٦٠٩

مظاهر الانتاج الحضارى والاستقرار السلمى، فقد تحولت الأراضى والمناطق التى نزل فيها الرهبان إلى أكثر بقاع أوربا ازدهاراً وأحرز هؤلاء من التقدم فى الزراعة ما جعلهم من أبرز مـلاك الأراضى، وكثير من الأديرة كونت لنفسها رءوس أموال كبيرة استخدمها رؤساء هذه الأديرة فى إقراض أصحاب الأراضى والفقراء[١٧٤] ، وعلى العموم كان الديريون من عوامل التقدم الحضارى والانتعاش الاقتصادى فى مجال الزراعة. ونفس الشيء يمكن أن نضيفه بالنسبة للنشاط الصناعى، فقد أضحت كثير من الأديرة مراكز صناعية متخصصة، ضمت بعض مصانع يدوية صغيرة لمختلف الصناعات كالسروج والأسلحة والجلود وغيرها[١٧٥] .

وهكذا أسهمت الحركة الديرية فى بناء المجتمع الأوربى ولعبت دوراً هاماً فى حفظ التراث الغربى فى ظل ظروف بالغة الخطورة .

---

(١٧٤) هلستر : أوربا ص ٢٣١
(١٧٥) عاشور : أوربا ج٢ ص ٢٥١

الفصل السادس

الفكر السياسى وتطور القانون والتشريع فى أوربا فى العصور الوسطى

على الرغم من أن الإمبراطورية الرومانية قد انهارت في أواخر القرن الخامس الميلادى، وبدأت حقبة مظلمة فى تاريخ أروبا[١]، إلا أن الفكر السياسى ظل فى طابعه تفكيراً عالمياً يدور حول عالم واحد يمثل تراث الإمبراطورية الرومانية وسلطاتها جانبه الدنيوى وتمثل المسيحية وكنيستها جانبه الروحى[٢]، وكان قيام مجتمع مسيحى يهيمن عليه كل من البابا والإمبراطور هيمنة مشتركة هو حلم رجال السياسة والدين فى أوربا منذ مطلع العصور الوسطى، نظراً لما كان يختلج في بعض العقول من الاعتقاد بأن مجتمعاً يقوم على هذه القاعدة هو المجتمع الذى أراده الله للناس[٣].

ويمثل تفكير دانتى السياسى نموذجاً واضحاً لمفكرى أوربا في العصور الوسطى السياسيين، إذ اعتبر دانتى الإمبراطورية الرومانية قائمة لم تذهب بزوال الوثنية أو بانتقال مركز الثقل فيها إلى الشرق، بل اعتبرها قائمة ومستمرة في ظل المسيحية، فلما تم إحياؤها في الغرب اعتبرها دانتى وريثة التراث الرومانى القديم[٤]. وبدا ذلك أكثر وضوحاً

---

(1) Bury : Hist. of the Later Roman Empire, I, p. 406

Katz : op. cit. p.73, ديفز : شارلمان ص ١٧٨ - ١٧٩ (ترجمة العريني)

(2) Eyre : European Civilization, V. 3, pp. 278-9

(٣) فشر : تاريخ أوربا فى العصور الوسطى ق٢ص٣٥٥ (ترجمة زيادة والعرينى والعدوى)

(4) Bowle : Western political Thought, p. 235

عاشور : أوربا ج٢ ص ٣٨٦

في مقالة دانتى عن " الملكية"، فلابد وأنه كتبها للدفاع عن حقوق الامبراطور وسلطاته لأنه يقول أن مصلحة الجنس البشرى تتحقق على نحو أفضل فى ظل الحكم الملكى ... وأن السلطة السياسية لا تقوم على أساس من القانون الطبيعي والإلهى فقط،وإنما تتأسس أيضاً على الضرورة الاجتماعية(٥)، وإن أنحى دانتى باللائمة على العالم الأوربى لانحرافه عن جادة الصواب وبعده عن سواء السبيل الذى أرادته العناية الإلهية للناس،فقد رأى أن البابوية أفسدتها الثروة والامبراطورية وقد تهدمت وانخمدت(٦) وذهب ريحها ولم يعد لها ما كان لها من قوة من قبل .

قامت فكرة الغربيين إذن عن المجتمع على أساس أنه مجتمع سياسى دينى،يضم جميع الناس ويقوم من أجل الهدف المشترك ويحكم وفق قانون واحد يمثل فى جانبه الدنيوى التقاليد الرومانية،وفى جانبه الدينى تقاليد المسيحية، خاصة عندما تحقق نوع من التحالف بين الكنيسة والدولة(٧) ،إذ كان من المسلم به أن الكنيسة والدولة لا انفصام بينهما شأنهما فى ذلك شأن الروح والجسد(٨).

وما لبث الفكر السياسى أن أخذ يزداد تعمقاً حتى توصل مفكرو العصور الوسطى، وخاصة القديس أوغسطين،إلى ما سبق أن توصل إليه أرسطو من أن الأساس الأول للمجتمع هو طبيعة الإنسان نفسها،لأن

---

(٥) كانتور : التاريخ الوسيط ق٢ ص ٧٥٠- ٧٥١

(٦) فشر : المرجع السابق ق٢ ص ٣٥٦

(7) Eyre : op. cit. V. 3, p. 10

(٨) كولتون : عالم العصور الوسطى ص ٢٧١

الإنسان اجتماعى بطبعه[٩]، ولهذا كان الغرض مـن النظـم الاجتماعيـة هو تنفيذ القـانون الطبيعـى، أى أن النظريـة السياسـية لـدى مفكـرى العصور الوسطى نهضت على أساس تصور قانون طبيعى ودولة طبيعية. والقانون الطبيعى في عرفهم هو مجموعة ضخمة مـن المبـادىء الخلقيـة التى تعتبر ملائمة لجميع البشـر، واتفـق عليهـا فـى كـل بقـاع العـالم المتحضر،كما أنها تختلف اختلافاً بيناً عن القوانين الوضعيـة المحليـة وتسـمو عليهـا وتبزهـا[١٠]. وبـرزت هـذه الفكـرة فـى كتـاب القديـس أوغسـطين (٣٥٤-٤٣٠م) عـن "مدينـة ا لله De Civitas Dei " كمـا وضحـت المقارنـة بـين مدينـة ا لله هـذه ومدينـة الأرض Civitas Terrana، ويقصـد بهـا الوحـدة السياسـية أو الدولـة التـى اصطنعهـا الناس[١١]، وكانت الامبراطورية الرومانية فـى رأى القديـس أوغسـطين عبارة عن مدينة Civitas ،وكذلك الكنيسة التى كانت لا تزال تطـالب لنفسها بمزيد من السيادة العالمية[١٢]، ولما كان نظامها قد شكل بصفـة نهائية وفقاً لنظام الدولة،فقـد أصبح النظـام أكـثر مرونـة، وقـد ألقـى انهيار السلطة المدنيـة علـى عـاتق الكنيسـة كافـة المسـؤليات المتعلقـة بالشئون الاجتماعية[١٣]. غير أنه اتضح للمفكريـن بمـرور الوقـت مـدى التباين والاختلاف بين القانون الطبيعى والقانون الوضعى، فـالأول لـه قيمه خلقية جوهرية عظيمة فى حين قام الآخـر علـى أسـاس تجريبـى بحت، ربما أدى إلى الأغراض النافعة فى المجتمع لكن ينقصه الطـابع الشامل[١٤].

---

(9) Bowle : op. cit. p. 62

(10) Carlyle : A Hist. of Med. Political Theory in the West V. I , pp. 5 - 6 , عاشور : أوربا ج٢ ص ٣٨٨

(11) Carlyle : op. cit. V. I, pp. 126-8

(١٢) كولتون : عالم العصور الوسطى ص ٢٦٥ (ترجمة د. جوزيف نسيم)

(١٣) كولتون : نفسه ص ٢٧٠

(١٤) سعيد عاشور : أوربا ج٢ ص ٣٨٨

وعلى هذا فالفجوة واسعة بين الحالة المثالية للإنسان كما تصورها الطبيعة، وبين النظم السياسية القائمة فعلاً على أساس القوانين الوضعية، فكأن قيام الدولة – فى رأى مفكرى العصور الوسطى– ينافى القانون الطبيعى للبشرية لأنه القانون الذى يقضى بالمساواة التامة بين جميع الأفراد أمام الله، والذى يحول دون تحكم الإنسان فى أخيه الإنسان، فقد اعتبر مفكرو العصور الوسطى الدولة وليدة الإثم وأخطاء البشر، وإن لم تكن كذلك على طول الخط[١٥]، ولهذا ففى ظل القانون الطبيعى يجب ألا تكون هناك حكومة أو حكام ومحكومين، لأن جميع الناس أحرار وسواسية لأن القانون الطبيعى يقضى بألا يتحكم الإنسان فى أخيه الإنسان[١٦]. وينبغى ألا يهبط أيضاً فريق من الناس إلى مرتبة الرق والعبودية، ويرتفع آخرون إلى مرتبة السيادة، وإذا كان لابد من وجود الرق، فقد أوصى القديس أوغسطين السادة بأن يعاملوا عبيدهم معاملة طيبة، إذا كانوا يؤمنون با لله ويخشونه[١٧]، كما ينبغى ألا يبقى أى أثر للملكية الفردية، بل يتمتع جميع الناس الأحرار بما خلقه لهم ا لله فى الأرض فى مساواة وحرية[١٨].

تلك هى نظرة جمهرة المفكريين فى العصور الوسطى إلى قوانين المجتمع، وإلى أسس القانون الطبيعى وتطبيقاته، وهى نظرة مثالية دون شك، كان لابد وأن تصطدم بحدود الواقع الفعلى فى المجتمع

---

(١٥) عاشور : النهضات الأوربية فى العصور الوسطى ص ٢٠٣

(16) Camb. Med. Hist. V. 6, pp. 606-8

(17) Carlyle : op. cit. pp. 126-8

(١٨) سعيد عاشور : أوربا ج٢ ص ٣٨٨

الأوربى فى ذلك الوقت[١٩] ،فلم يكن مفكرو العصور الوسطى بمعزل عن المجتمع بل أدركوا مثالب هذا المجتمع وصعوبة تطبيق النظرة المثالية التى ينطوى عليها القانون الطبيعى،فلا يمكن الاستغناء عن الحكومة أو السلطة التى تنشر النظام وتحفظ الأمن وتسير أمور الناس، لأن الدولة أمر ضرورى قدره الله لمصلحة البشر[٢٠] ،كما أشار إلى ذلك دانتى فى رسالته " فى الملكية **De Monarchia** "، ولا يمكن أيضاً تصور المجتمع بدون ملكية فردية لأن مصالح الأفراد وأطماعهم تجمعت لتعبر عن مصالح الأمم وتطلعاتها والملكية والاستحواذ كلها مرادفات لما جبل عليه الانسان منذ الأزل من الطمع والمغالاة فى الجشع، ولا يمكن تصور المجتمع أيضاً بدون رق وعبودية[٢١] ،وقد غدت من أركان البناء الاجتماعى فى أوربا،بعد أن ركن الأوربيون منذ عصر الرومان للعبيد والأقنان وصار الرق من مستلزمات الوجاهه فى ذلك المجتمع الذى دلف إلى العصور الوسطى بهذا التراث وهذه التركة من العصور القديمة بصرف النظر عن خطئها أو صحتها[٢٢] .

لهذا كان لابد لمفكرى أوربا أن يوفقوا بين ما هو مثالى نظرى فى القانون الطبيعى، وما هو واقع فعلى مستمد من القانون الوضعى، فخرجوا على الناس بنظرية تردى الإنسان وسقوطه[٢٣] ، فقالوا أنه كان يمكن أن يسود القانون الطبيعى ويكتفى به لو أن الإنسان كان لايزال طاهراً نقياً لم يترد فى الرذيلة والخطيئة، أما وقد سقط الإنسان وتردى فعلاً، فلابد من وجود قوانين وضعية تتمشى مع

---

(19) Heer: op. cit. pp. 360-3

(٢٠) فشر : تاريخ أوربا فى العصور الوسطى ق٢ ص ٢٧٥

(21) Heer: op. cit. pp. 361-3

(22) Ganshof: Feudalism, p. 4

(٢٣) عاشور : أوربا ج٢ ص ٣٨٩

الوضع الجديد وتعالج الأخطـاء وتوقـف الشـرور والمفاسـد التـى تـردى ويتردى فيها الإنسان[٢٤] . وعلى هذا فقد ساير مفكرو العصور الوسطى الاتجاه التوفيقى بين القانون الطبيعى والقـانون الوضعـى ، ففـى حـين اعتبروا القانون الطبيعى سام فى أهدافه ومبادئه وفـى المجتمـع الـذى ينبغى أن يسود فيه ، جعلوا القوانين الوضعية دونه مكانة وسمواً، لكن لابد من وجودها لعلاج مفاسد الإنسان وخطايـاه، فالحكومـة الدنيويـة مثلاً جاءت وليدة الخطأ والإثم،ولكن بقاءها أصبح ضرورياً لعلاج ذلـك الخطأ والإثم[٢٥] .

وما لبث بعض مفكرى العصور الوسطى أن ألبسوا التفرقـة بـين القانون الطبيعى والقانون الوضعى صيغة لاهوتية ، فقال القديس إسيدور فى القـرن السـابع (٥٦٠-٦٣٦م) " إن جميـع القوانـين إمـا إلهيـة أو بشرية ،فالقوانين الإلهيةتعتمد على الطبيعة ، فى حين تعتمـد القوانـين البشرية على العرف ،ولهذا فإن هذه القوانـين الأخـيرة تتبـاين بتبـاين الأمم " . وكتب جراشيان فى القرن الثانى عشر قائلاً : " هنـاك قوتـان تحكمان البشـر ، همـا قـوة القـانون الطبيعـى وقـوة العـاده والتقـاليد . والقـانون الطبيعـى هـو مـا نصـت عليـه التشـريعات السـماوية والإنجيل"[٢٦] . وكان جراشيان من مفكـرى بولونـا الذيـن نشـطوا فـى الكتابة عن القانون الكنسى والقواعـد المتصلـة بـالعقيدة، وكـل مـا مـن شأنه تنظيم الحكومة الكنسية[٢٧] .

---

(24) Eyre : op. cit. p. 281

(25) Camb. Med. Hist. V. 6, p. 629

(٢٦) عاشور : أوربا ج٢ ص ٣٩٠

(27) Rowling : Every day life in Med. Times , p. 175
Heer : The Med. world , p. 111 , p. 239
Keen : Hist. of Med. Europe, p. 78

وعلى هـذا فنظرة مفكرى العصور الوسطى للنظم الاجتماعية والسياسية قامت على أساس تصور القانون الطبيعى على أنه يعبر عـن أقصى حالات السمو البشرى، وأنه مسـتمد مـن الفكر الإلهـى ليكـون مصدراً للأخلاق، وأن القوانين الوضعية ونظم الدول العلمانية تختلف اختلافاً جوهرياً عن القانون الطبيعى وتتبـاين وتختلف من مكـان إلى مكان، وأنها أخذت بالتقاليد والعرف،وقامت علـى أساس الحـد مـن رذائل الإنسان وآثامـه[٢٨] .وفـى ظـل هـذه النظـرة المميزة بـين نوعـى القانون عالج مفكرو العصور الوسطى ثلاث مشاكل هامه، هى: الـرق، والملكيةالفردية، والدولة[٢٩] . وهى أهم الجوانب فى المجتمع فى ذلـك الوقت .

أما موضوع الرق فإنه كان مثار جدل منذ أيـام الإغريـق،وتوصل أرسطو إلى نتيجة هامة تتعلق بهذا الموضوع،فذهب إلى أنه أمـر طبيعـى لابد من وجوده، لأن بعض الناس لايصلحون لشـىء سـوى أن يكونـوا عبيداً وشاعت هذه النظرية قديماً،ولم يكن ثمة من يدحضـها[٣٠] . غير أن مفكرى العصور الوسطى خرجوا على هذه النظرية وغايروها، ونادوا بأن الناس جميعاً يتساوون أمام الله، وأن روح العبد تعادل تمامـاً روح السـيد الحـر، ولاشك أن هـذا القـول مسـتمد مـن تعـاليم الديـن المسيحى[٣١]، يـدل علـى ذلـك أن القديـس تومـا الإكوينـى دافـع عـن العبوديـة والقنيـة ليـس لأنهمـا جهـاز اقتصـادى سـليم فحسـب ، بـل لأنهمـا يستحـقـان الدفـاع عنهمـا معـنويـاً ، وكـان ويكليـف

(28) Eyre : op. cit. p. 282 ,

عاشور : نفسه ج٢ ص ٣٩٠

(٢٩) عاشور : نفس المرجع ج٢ ص ٣٩٠

(30) Carlyle : op. cit. v. I, p. 7

(31) Camb. Med. H ist. v. 6, pp. 613-4

Wyclif المعلم الوحيد الذى رفض تبرير العبودية نظرياً، ولكنه لم يبد - مع ذلك - أية محاولة فعلية لمقاومتها[٣٢] .

ومعنى هذا أن وجود الرق يصبح فى ظل هذه النظره أمراً غير طبيعى ينبغى زواله، أى أن مفكرى العصور الوسطى غايروا أرسطو فى نظرية الرق و العبوديه، ولم يوافقوا ضمنياً على بقاء الرق فى المجتمع، لأن ذلك يتنافى مع ما نادت به المسيحيه من المساواه بين الناس، وهو أحد المبادىء الساميه التى جاءت به المسيحيه ودعت إليها، إذ أن المساواه أقرب إلى الله من التمييز بين الناس[٣٣] . وهكذا تصطدم هذه النظريه بواقع الأمر فى المجتمع فى ذلك الوقت. فالرق كان قائماً ولابد وأن يظل قائماً، فلهذا التمس له المفكرون مبرراً للبقاء استند فى مجموعه إلى نواحى عرفيه ليصبح أمراً تقليدياً فى المجتمع، ظهر نتيجة الخطيئه ولابد له أن يظل ليوقف بعض الإتجاهات الخاطئه فى المجتمع الإنسانى[٣٤] . وعلى هذا فمفكرو العصور الوسطى لم يحكموا على الرق بعدم الصلاحيه أو البطلان كلية ،ولكنهم أنكروا وجود الرق الطبيعى و سمحوا للرق أن يظل فى صورته قائماً كمسألة عاده و عرف أكثر منها أى شىء آخر،لكنهم خففوا من وقع هذا الإستمرار بأن نادوا بضرورة معاملة العبيد معامله كريمه، وأن يسلك كل سيد مسلكاً طيباً تجاه عبيده[٣٥] ، أوصى بذلك القديس أوغسطين في كتابه عن مدينة الله وجاراه في ذلك البابا

---

(٣٢) كولتون : عالم العصور الوسطى ص ١١٧-١١٨ (ترجمة د. جوزيف نسيم)
Myers : England in the Late Middle Ages, pp. 66-72
Mckisack : Fourteenth century , pp. 510-22

(٣٣) فشر : تاريخ أوربا ق١ ص ٨

(34) Keen : op. cit. , p. 205

(35) Carlyle : op. cit. V.I , pp. 126-8

جريجورى السابع فى القرن الحادى عشر ثم البابا انوسنت الثالث والبابا بونيفيس الثامن فى القرن الثالث عشر [٣٦] .

أما بالنسبه للملكيه الفرديه ،فقد ورثت العصور الوسطى أيضاً وجهة النظر القديمه والتى نادت بأن القانون الطبيعى لا يعترف بالملكيه الفرديه ، وأن الوضع الأمثل هو أن يمتلك جميع الناس جميع الأشياء من أجل صالحهم ومنفعتهم المشتركه ولكن هذه النظريه اصطدمت بواقع الحياه القائمه و مطالبها العمليه – كما حدث فيما يختص بموضوع الرق – ولهذا فقد اعترف مفكرو العصور الوسطى بالملكيه الفرديه على أساس أن القوانين الوضعيه تبرر بقاءها[٣٧] . فإذا كانت الملكيه الفرديه غير معترف بها فى نظر مفكرى العصور الوسطى ، إلا أن هؤلاء عادوا إلى الإتجاه التوفيقى بين ما هو مثالى نظرى و ما هو واقع فعلى فالتمسوا للملكيه الفرديه الوجود، مجاراه لما ذهبوا إليه من أن الإنسان قد تردى وهوى و لا سبيل إلى المثاليه فى ظل هذا التردى، ولهذا ينبغى أن تظل الملكية الفردية فى ظل القوانين الوضعيه التى أباحت وجودها وبررت هذا الوجود.

وعلى الرغم من أن مفكرى العصور الوسطى اكتشفوا آثاراً لنظرية الإشتراكيه المتطرفه فى الإنجيل، نظراً للطابع الروحى الذى امتاز به الدين السماوى الجديد[٣٨]، إلا أنهم لم يأخذوا مطلقاً بها ، وانما حكموا التباين بين الطبيعه والعرف ، وذهبوا إلى القول بأن جميع الممتلكات وفقاً للقانون الطبيعى تعتبر ملكاً لله الذى منحها لجميع عباده يشتركون معاً فى الإفاده منها[٣٩] ، وعاد مفكرو العصور

(36) Camb. Med. Hist. V. 6, pp. 606 - 8
(37) Keen : op. cit. pp. 206-7
(٣٨) سعيد عاشور : أوربا ج٢ ص ٣٩٢
(39) Camb. Med. Hist. V. 6 , p. 614

الوسطى يحكمون نظرية تردى الإنسان وسقوطه فبرروا بقاء الملكية الفردية بأنه عندما تردى الإنسان فى الخطيئه، أدى حرصه وبخله إلى استحالة بقاء هذا الوضع الخاص بشيوع الملكيه، ولهذا فقد أصبحت الملكيه الفرديه أمراً ضرورياً لمواجهة جشع الإنسان ولكبح جماح هذا الجانب غير الطيب فى تصرفاته (٤٠) .

وحيث أن هذه الملكيه الفرديه كانت نتيجة الخطيئه البشريه، وأصبح بقاؤها ضرورياً لعلاج هذه الخطيئه، ومقاومة الجشع الإنسانى، فقد نادى مفكرو العصور الوسطى بأن هذه الملكيه ينبغى أن يحسن إستخدامها (٤١) ،و قال القديس أوغسطين بأن الفرد الذى لا يحسن استخدام أملاكه يجب أن يفقد الحق فى الاحتفاظ بها . وقال القديس توما الإكوينى **Thomas Iquinas** بأن الملكيه الفرديه ليس معناها حيازة الأشياء فحسب بل أيضاً حسن استخدامها . وعلى هذا لم يعترف مفكرو العصور الوسطى بالملكيه الفرديه المطلقه بالمعنى الحديث المتداول بيننا الآن، وإنما اعتبروا الملكيه الفرديه نوعاً من الأمانه أو العهده التى حصل عليها الفرد بتخويل من العرف (٤٢) .

أما مشكلة قيام الدوله العلمانيه أو الوحده السياسيه، وهى المسأله التى عالجها مفكرو العصور الوسطى، فقد شغلت حيزاً كبيراً فى اهتمام المفكرين حينئذ . و الشعور الغالب نحو هذه المسأله هو العداء الذى ظهر جلياً فى أفكار القديس أوغسطين فقد انتهى أوغسطين إلى أن الدوله فى حد ذاتها ليست سوى " عصابه من القراصنه " (٤٣) ووضح هذا العداء أيضاً فى فكر البابا جريجورى

---

(٤٠) عاشور : المرجع السابق ج٢ ص ٣٩٢

(41) Carlyle : op. cit. V.I , pp. 140-2 ,

عاشور : نفس المرجع السابق ج٢ ص ٣٩٣

(٤٢) عاشور : نفسه ج٢ ص ٣٩٣

(٤٣) كانتور : التاريخ الوسيط ص ١٥٨

السابع و البابا أنوسنت الثالث والبابا بونيفيس الثامن [٤٤] .

ويمثل كتاب مدينة ا لله للقديس أوغسطين اتجاه المفكرين فى ذلك الوقت وشعورهم نحو هذه المسأله ، إذ ينبغى رؤية هذا الكتاب باعتباره نقطة تحول هامه فى المفهوم التاريخى [٤٥] . إذ يدور الكتاب حول المقارنه بين مدينة ا لله ، وهى التى تضم المؤمنين ومدينة الأرض Civitas Terrana والتى يقصد بها الوحده السياسيه أو الدوله بوجه عام [٤٦] ، أو كما يقول أحد المؤرخين المحدثين أن أوغسطين قسم الإنسانيه إلى مجموعتين أو مدينتين : إحداهما هى مدينة ا لله وهى مجتمع أولئك الذين انتصرت بداخلهم الإراده الروحيه ، والمجتمع الآخر هو المدينه الأرضيه حيث أولئك الذين تسود بداخلهم الإراده الجسديه [٤٧] ،و المدينه الأرضيه هى التى وصفها بأنها تمثل روح الشر و الاثم لدى الإنسان، لأنها نشأت من شهوة الإنسان و رغبته الجامحه فى السيطره والتحكم، كما أن بقاءها قائم على أساس سفك الدماء والحرب و إحداث الخراب والدمار [٤٨] .

ولكن على الرغم من ذلك فلا زال المؤرخون يتجادلون حول ما إذا كان أوغسطين يقصد بالمدينه الأرضيه الوحده السياسيه أو الدولة ، ويقصد بمدينة ا لله الكنيسه المسيحيه ،فمن الصعوبه بمكان فى

---

(٤٤) كولتون : عالم العصور الوسطى ص ٢٧٢, ص ٢٧٣ ,
Camb. Med. Hist. V. 6 , pp. 606-8
(46) Carlyle : op. cit. V.I , p. 127
(٤٥) كانتور : التاريخ الوسيط ق١ ص ١٤٦
(٤٧) كانتور : المرجع السابق ق١ ص ١٤٤
(٤٨) عاشور : أوربا ج٢ ص ٣٩٤

رأى البعض القول بأن أوغسطين كان يقصد بمدينة الأرض الإمبراطوريه الرومانيه الوثنيه ، كما أن الكنيسه المسيحيه ليست فى رأيه مدينة ا الله على الرغم من وجود علاقه مهمه بين كـل مـن الإمبراطوريـه و المدينـه الأرضيه وكل من الكنيسه و مدينة ا الله (٤٩) .

وظل العداء للدولـه فـى العصـور الوسـطى ، ورفـض الوحـده السياسيه تسيطر على أفكار المفكرين قرون عدة بعد أوغسـطين ، حتـى برزت من جديد فى القرن الحادى عشـر الميـلادى وعلـى عهـد البابـا جريجورى السابع ، وكذلك فى القـرن الثـالث عشـر علـى عهـد البابـا أنوسنت الثالث و البابا بونيفيس الثامن ،فكل من هـؤلاء أظهـر شـعوراً عدائيـاً تجـاه الدولـه فـى العصـور الوسـطى و فكـرة قيـام الوحـده السياسيه (٥٠) . وأشار جريجورى السابع إلى رفض فكرة تسـلط الملـوك والأمراء على شعوبهم ،و استجابة هؤلاء الحكـام لنـوازع الشـر و تحكـم الشيطان وخضوعهم لشهوة الحكم و السيطره علـى بنـى جلدتهـم مـن البشر ، لأن سيطرة الإنسان على أخيه الإنسان فى ظل النظم السياسيه أمراً مرفوضاً ، وجاراه فى ذلك أنوسنت الثالث و البابا بونيفيس الثامن فى القرن الثالث عشر الميلادى (٥١) .

وعلى الرغم من هذا التطرف فى العـداء نحـو الدولـه أو الوحـده السياسيه ، إلا أنه لم يكن النموذج الغالب لتعاليم العصور الوسطى ، إذ لم ينكر بعض الكتاب المتطرفين ممن أظهروا ذلك العداء مـبررات قيـام الدولـة فـى بعـض المواضـع . فـإذا كـانت الوحـدة السياسـية وليـدة الإثم والشـر ، وإذا كان القانـون الطبيعـى يقضـى بالمسـاواة التامـة بيـن

(٤٩) كانتور : المرجع السابق نفسه ق١ ص ١٤٤

(50) Carlyle : op. cit. V . I, pp. 126-8

(51) Eyre : op. cit. p. 285

الناس أمام الله،وأنه ليس لفرد – بحكم الطبيعة – أن يدعى السيطرة على غيره من البشر[٥٢] ،لأن القانون الطبيعى يقضى بألا يتحكم الانسان فى أخيه الانسان، إلا أن الدولة لم تكن آثمة تماماً، فقد نتج عن الخطيئة التى تردى فيها الانسان، أن ظهرت نزعات العنف ورغبات السيطرة، ولهذا فقد أصبح بقاء الحكومة العلمانية أمراً ضرورياًلعلاج الشرور والمفاسد التى تردى فيها الانسان[٥٣] .

ويوضح دانتى هذه الفكرة لأن دفاعه عن السلطة الامبراطورية ليس فقط على أساس التراث والقانون ونصوص الكتاب المقدس، وإنما أيضاً انطلاقاً من مذهب بسيط وثورى عن الضرورة النفعية، فهو يقول أن مصلحة الجنس البشرى تتحقق على نحو أفضل فى ظل الحكم الملكى ... فالسلطة السياسية لا تقوم على أساس من القانون الطبيعى والإلهى فقط وإنما تتأسس أيضاً على الضرورة الاجتماعية[٥٤] .فقد جاءت الحكومة الدنيوية اذن عن طريق الخطأ،ولكنها أصبحت العلاج الإلهى للأخطاء البشرية، ومن ثم وجب احترامها وطاعتها[٥٥] .ويبدو هذا الاتجاه قوياً فى كتاب دانتى عن الملكية **De Monarchia** ،إذ ينادى بأن الحكومة الدنيوية قائمة على أسس من الخطيئة والإثم، ولكن يعترف بأن السلام لايمكن أن يستتب إلا بقيام سلطة قاهرة تمنع العنف وتقيم العدل،أى أن الضرورة الاجتماعية تحتم قيام الدولة[٥٦] .

---

(52) Camb. Med. Hist. V. 6, pp. 606

(٥٣) عاشور : أوربا ج٢ ص ٣٩٥

(٥٤) كانتور : التاريخ الوسيط ق٢ ص ٧٥١

(٥٥) عاشور : المرجع السابق ج٢ ص ٣٩٥

Carlyle : op. cit. V. 2, pp. 146-7

(٥٦) كانتور : المرجع السابق ق٢ ص ٧٥١

وعلى هذا فالدولة فى فكـر العصـور الوسـطى قـامت مـن أصـول خاطئة وأوضاع آثمة ، إلا أن بقاءها كـان ضروريـاً لعـلاج أخطـاء وآثـام البشرية ، وهى فى علاجها لهذه الآثام تعتمد على الله ، ولهـذا وجـب أن تطاع وتحترم وتحظى بالتأييد[٥٧] ، وقد وضحـت هـذه الفكـرة فـى كتـاب " المدافـع عـن السـلام " الـذى نشـره مارسـيليو البـادوانى Marsilio of Padua (ت ١٣٤٣) الـذى عـارض المذهـب القـائل بـأن سلطة الدولة تخضع لنظام مطلق من القيم والمثـل العليـا ، لأن الكنيسـة مثل أى هيئة أخرى فى الدولة تخضع للقـانون ، فبـدلاً مـن أن تكـون الدولة خاضعة للكنيسة ، كانت الكنيسة هى التى تخضع لإرادة الدولة المطلقة[٥٨] .

نظرية حق الملوك الإلهى أو المقدس :

وضح من خطبة إيوزيبيوس التى ألقاها فى مدح قنسطنطين سـنة ٣٣٦م ، أن المنصب الإمبراطورى قد خلق بنعمة الرب ورحمته ، فأصبح الامبراطور نائباً لله على الأرض ، واتضحت هذه الفكـرة تمامـاً خـلال القرون التالية وتمت صياغتها جيداً[٥٩] ،وفى غضون قرنين من الزمـان بعد قنسطنطين صارت هذه النيابة الشخصية نيابـة رسميـة عـن الله ، فأصبح من مهام منصب الامبراطور أن يكون حاكماً على كل من الدولـة العالمية والكنيسة العالمية أيضاً تباركه سجايا وخصـال مقدسـة ،فـأصبح بمثابة ملك وكاهن Rex ét Sacerdus فى آن واحد[٦٠] .

---

(57) Eyre : op. cit. p. 268 ,   عاشور : المرجع السابق ج٢ ص ٣٩٦

(٥٨) كانتور : التاريخ الوسيط ق٢ ص ٧٥١

كولتون : عالم العصور الوسطى ص ٢٧٦-٢٧٧

(٥٩) كانتور : المرجع السابق ق١ ص ١٥٠-١٥١

(٦٠) كانتور : نفس المرجع ق١ ص ١٥١-١٥٢

وفى القرنين الخامس والسادس الميلاديين، مضت النظرية إلى أبعد من ذلك فغدا ينظر إلى الامبراطور على أنه يماثل المسيح ذاته، فكما أن فى السماوات إله واحد يجمع فى ذاته كل السلطة والقوة، كان على الأرض ملك واحد أيضاً[٦١] . وأضف إلى ذلك القول أن السلطة الزمنية لها وجه دينى مقدس فى محاربة الآثام والشرور والمفاسد، وأن للحكومة الزمنية وظيفة مقدسة فى محاربة الآثام والشرور والمفاسد وأن للحكومة وظيفة مقدسة فى علاج هذه الآثام، فأدى هذا إلى ظهور نظرية حق الملوك الإلهى أو المقدس**Divine Right of Kings** ،وانتشرت هذه النظرية فى غرب أوربا[٦٢] .

ولقد أدى النزاع بين الامبراطورية والبابوية إلى تطور هذه النظرية ورسوخها، حين أصر أباطرة الغرب على القول بأن الامبراطور يستمد سلطته من الله مباشرة،يساندهم فى ذلك نوع من الشعور القومى الذى كان ينمو بقدر مايلحق سلطان البابوية السياسى من انحلال[٦٣]. غير أن الفكرة الاساسية التى استندت إليها نظرية حق الملوك الإلهى بوجه عام هو رأى مفكرى العصور الوسطى، فيما يتعلق بمسألة الدولة والحكومة والنظرة لهذا الحاكم العلمانى على أنه أداة الله فى القضاء على الشر والإثم، وممثلة فى ضمان السلام والسكينة على الأرض[٦٤] .

---

(٦١) كانتور : نفسه ق١ ص ١٥٣

(62) Gierke : Political Theories of the Middle Ages , p. 31,

عاشور : النهضات الأوربيه ص ٢٠٤

(٦٣) كولتون : المرجع السابق ص ٢٧٤

(64) Gierke : op. cit. pp. 30-32

ولا يعنى ذلك ألايكون الملك أو الامبراطور غير مسئول عن أفعاله وأعماله، وإنما اعتبره مفكرو العصور الوسطى متولياً وظيفة وأمانة يتحتم عليه الوفاء بالتزاماتها، وأصبحت الحكمة من بقائه هى رعاية مصالح الأفراد، وأن الحكم أمانة ينبغى تأديتها، وأن الحاكم العلمانى عليه واجبات ينبغى أن ينهض بها[٦٥] ،وليس للحاكم أن يفرض التزامات غير مشروطة على هؤلاء الأفراد، وهذه الفكرة تحدد العلاقة بين الحاكم والمحكوم على أساس مجموعه من الحقوق والواجبات المتبادلة لأن مفكرو العصور الوسطى، عارضوا مبدأ عدم مسئولية الحكام العلمانيين وأنكروا ذلك مجاراة لأفكارهم عن الحكومة الزمنية والدولة[٦٦] .

وهكذا عالج مفكرو العصور الوسطى نظرية الحق الإلهى المقدس للملوك، وخلصوا إلى أن هذا الحق ليس مطلقاً، لأن الحكمه من بقاء الحاكم هو رعاية الأفراد،و عبر عن ذلك القديس توما الإكوينى (١٢٢٦-١٢٧٤م) بقوله " إن المملكه ليست ملكاً للملك و إنما الملك ملك للمملكه "، لأن الله أقام ملوك الأرض لا لتحقيق مصالحهم ومكاسبهم الخاصه، و إنما لتحقيق الصالح العام [٦٧] . و أكد ذلك كثير من مفكرى العصور الوسطى، وأوضحوا وجوب خضوع الملك لقوانين الجماعه التى يحكمها، ومن هؤلاء المفكرين القديس آمبروز و هو أسقف مدينة ميلان فى أواخر القرن الرابع الميلادى، وعلى عهد الإمبراطور فالنشيان الثانى (٣٧٤-٣٩٧م) [٦٨] ،و كذلك القانونى

---

(65) Eyre : op. cit. p. 286
(66) Camb. Med. Hist. V. 8 , p. 642
(٦٧) عاشور : أوربا ج٢ ص ٣٩٧
(68) Ker : The Dark Ages , p. 205
La Monte : The World of the Middle Ages , p. 77
Barrow : The Romans , p. 195

الفرنسى بومانوار Beaumanoir فى القرن الثالث عشر (٦٩) ،و كــذلــك حنا الإبليني Jean d'Ibelin فى دستوره الخاص بمملكة بيت المقدس الصليبيه و هو القانوني القبرصى الذى رتـب هـذه القوانـين فـى القـرن الثالث عشر الميلادى (٧٠) ،و منهم أيضاً المفكـر والمشـرع الانجليـــزى براكتون Bracton (٧١) .

وعلى الرغم من سطوة الدولة العلمانية والحكومة الزمنية، إلا أن بعـض مفكـرى العصـور الوسـطى لم يـترددوا فـى نقـد نظريـة الملكيـة المطلقة، وذهب حنا سالسبورى فى القرن الثانى عشر إلى التفرقـة بـين الملك والطاغية (أو الدكتاتور)، ونادى بأن الأول يرتكز فى حكمه علـى الخضوع للقانون فى الوقت الذى يدير الثانى ظهره للقانون ولا يلتفـت إليه، وحيث أن الملكية نظاماً إلهياً مقدساً، فإن إساءة الملك اسـتخدام سـلطته تعتـبر خيانـة فـى حـق الله (٧٢) ، ووجـب اسـتخدام السـيف لمعاقبته على استبداده وخيانته، بل إن قتل الطاغية فى هذه الحالة لا يعتبر أمراً مصرحاً به فحسب، بل يعتبر أيضاً حقاً وعدالة (٧٣).

ومن أوائل من شن هجوماً على نظرية الحكم الثيوقراطى، القديس آمبروز فى القرن الرابع الميلادى، وكـان رئيسـاً لأسـاقفة ميلانـو سـنة ٣٩٤م ،وكرس نفسه لتأييد سلطة الكنيسـه في مواجهـة الأبـاطره، كما قال آمبروز أن الراعى مسئول أمام الله عـن أرواح رعيتـه ويـجب على

---

(69) Keen : A Hist. of Med. Europe , p. 11

(٧٠) فشر : تاريخ أوربا ق١ ص ١٨٣

(71) Eyre : op. cit. V. 3 , p. 288

(72) Ibid. p. 288

(٧٣) سعيد عاشور : أوربا ج٢ ص ٣٩٨

هؤلاء التدخل في سلطة الحاكم اذا انتهكت الدولة المبادىء [٧٤] . ولابد وأن حنا سالسبورى تأثر فى نظريته عن الملكية بالفكرة الاقطاعية التى تجعل القانون والعرف فوق سلطة الملك، فقد تنقل حنا سالسبورى بين إنجلترا و إيطاليا و فرنسا و جمع بين الثقافات فى تلك البلاد، واتصل بحكامها خاصة الملك هنرى ملك إنجلترا، أصبح مقرباً من البابا هادريان الرابع، واحتل حنا سالسبورى بذلك مكانة هامة بين مفكرى القرن الثانى عشر فى الغرب الأوربى [٧٥] . ونادى القديس توما الإكوينى بمقاومة الطاغية وجعل ذلك فرضاً على محكوميه، وأفرد دانتى للطغاه والمستبدين نهراً خاصاً في الجحيم يغلى بالدماء ليعذبوا فيه، وهكذا كانت فكرة العصور الوسطى عن مسئولية الحكام، وهذه الآراء فى مجموعها تمثل فكرة العصور الوسطى عن الحرية وعن الحقوق والواجبات فى نظم الدولة العلمانية [٧٦] .

وهكذا حملت تعاليم العصور الوسطى كثيراً من دلائل الديمقراطية ومبادئها واقتربت كثيراً من مبدأ سيادة الشعب، نظراً لمناداتها بالمساواه الطبيعية بين الناس وضرورة التزام الحاكم بمراعاة الصالح العام لرعاياه وحق هؤلاء فى عصيانه اذا أخل بواجباته و على هذا فإن أهم ما أنتجه الفكر السياسى في أوربا في العصور الوسطى هى فكرة تحديد سلطة الحكومة من جهة و فكرة المساواة الأصليه الطبيعيه بين جميع الأفراد و الطوائف من جهة أخرى [٧٧] .

---

(٧٤) كانتور : التاريخ الوسيط ق١ ص ١٥٥-١٥٩

(75) Camb. Med. Hist. V. 6 , pp. 921-2
Carlyle : op. cit. V. 2 , p. 250

(٧٦) عاشور : المرجع السابق ج٢ ص ٣٩٨ ,
Eyre : op. cit. V. 3 , p. 287

(77) Camb. Med. Hist. V. 6 , p. 629

القانون الرومانى :

ويمكن تتبع النشاط التشريعى لأوربا فى العصور الوسطى بدراسة القانون الرومانى وما أصابه من تطور بمرور الأجيال، و أثره فى النظم التشريعية التى عرفتها أوربا فى العصور الوسطى . فالمعروف أن القانون الرومانى جاء استجابة لحاجة الإمبراطورية لتنظيم العلاقات بين أهالى الإمبراطورية المختلفين خاصة بعد أن اتسعت الدولة و ضمت عناصر جديدة و شعوب متباينة الأمرالذى تطلب من الحكومة إصدار قوانين و تشريعات تناسب ذلك العدد الضخم من الشعوب التى اختلف بعضها عن بعض فى تراثها التاريخى و حضاراتها و لغاتها ودياناتها [٧٨] ودعت الحاجة إلى رعاية شئونها ،وتنظيم علاقاتها فيما بينها و بين الدولة ،و لهذا فقد أدخلت على القوانين التقليدية الرومانية القديمة كثير من التعديلات بغية إكسابها مرونة و إعطائها شمولاً يتناسب و الأوضاع الجديدة [٧٩]، ومحاولة تطويع القانون الرومانى و ملاءمته ليساير هذه الأوضاع ،و أدى ذلك إلى ظهور ما عرف بقانون الأمم [٨٠]، واشتملت هذه التعديلات على كثير من التشريعات الهامة الخاصة بالزواج و الميراث و الشركات و الحجج ،ولبعض الوقت سارت القوانين المدنيه القديمة جنباً إلى جنب مع التشريعات المستحدثة ثم ما لبثا أن امتزجا ليكونا معاً القانون الرومانى المعروف[٨١] .

ولهذا يروق لعلماء العصور الوسطى اعتبار القانون الرومانى

---

(٧٨) عاشور : أوربا ج١ ص ١٢

(79) Thompson : The Middle Ages , pp. 4 - 5

(٨٠) العرينى : تاريخ أوربا فى العصور الوسطى ص ١٣٨ (بيروت) ,

Camb. Med. Hist. V. 5 , p. 700

(81) Eyre :op. cit. p. 41

مجموعة قوانين منطقية و شاملة بشكل فريد، إذ أصبح القانون الرومانى القاعدة الأساسية لمعظم الأنظمة القانونية فى القارة الأوربية حيث ساعد على جعل الحكومة أكثر نظاماً واستبداداً (٨٢) . و على الرغم من حرص بعض الأباطرة لاسيما دقلديانوس على اعتبار إرادتهم ممثلة فى مراسيمهم و عدم إقامة وزن كبير لغير ذلك من قوانين بغية إقالة الإمبراطورية من عثراتها و التزام الحزم فى علاج اضمحلالها، وإرغام القضاة على تنفيذ مشيئة الإمبراطور، إلا أن ذلك لم يؤد إلى القضاء على قواعد القانون الرومانى وإجراءاته (٨٣) ، وبتعاقب الأباطرة وصدور مراسيم إمبراطورية مختلفة ظهر نوع من الفوضى فى الشئون القضائية، ولهذا فقد تطلب الأمر جمع المراسيم الصادرة منذ عهد قنسطنيطين و تبويبها، وهذا ما حدث فى عهد الإمبراطور ثيودسيوس الثانى سنة ٤٣٨م (٨٤) ،و لهذه المجموعة Codex Theodosianus أهمية كبيرة فى التطور القانونى فى الإمبراطورية كلها، قبل ظهور مجموعة جستنيان ومنذ عصر قنسطنطين الكبير، و ذاعت هذه المجموعة في الشرق و في الغرب على حد سواء تحت اسمى الإمبراطورين ثيودسيوس الثانى وفالينشيان الثالث، وكان لها أثر واضح فى وحدة الإمبراطورية فى ذلك الوقت (٨٥) ،كما كان لها فضل فى حفظ جانب من القوانين الرومانية التى أثرت فى بعض الجماعات الجرمانية، بعد سقوط الإمبراطورية، فضلاً عن أن غزوات أولئك البرابرة لم تؤد إلى القضاء على أسس القانون الروماني في أجزاء كثيرة من أوربا (٨٦) .

---

(٨٢) هلستر : أوربا ص ٢٥٥

(83) Stephenson : Medieval Hist. p. 36

(84) Ostrogorsky : Hist. of the Byzantine State , p. 51

(85) Ibid. p. 51

(86) Camb. Med. Hist. V. 2 , pp. 55 - 6

وفي أوائل القرن السادس الميلادى كانت المحاكم تعتمد على مجموعتين قانونيتين، إحداهما تشريعات الاباطرة، والأخرى كتابات الفقهاء والمشرعين من رجال القانون . وبرغم ما قام به ثيودسيوس من محاولة جمع وتبويب المجموعة الإمبراطورية ،إلا أنها ظلت حتى ذلك الوقت مفككة ينقصها الانسجام والتنظيم . أما المجموعة الأخرى فقد كانت قد أوشكت على الاندثار نتيجة اهمالها وصعوبة الرجوع إليها فى مكان واحد(٨٧) ،لأن بعضها أصبح بعيد المنال لا سبيل إلى الوصول إليه ،وبعضها الآخر قد أصبح مهجوراً ومن ثم كثر ظهور التضارب والتناقض، ومن هنا لم يعد رجال القانون يشعرون بالاطمئنان الى هذه القوانين(٨٨) .

لهذا رأى جستنيان (٥٢٧-٥٦٥م) جمع تلك القوانين وتنظيمها مما خلد اسمه فى التاريخ، وكان له أثر بالغ بالنسبة للقانون الرومانى خاصة وتاريخ أوربا عامة . فقد نظمت هذه القوانين كل الشئون العامة والخاصة و العامةللدولة وللأفراد و كذلك حياتهم وعلاقاتهم بعضهم ببعض و أعمالهم و شئونهم الخاصة (٨٩) .

فقد كلف جستنيان بعد ولايته مباشرة لجنة من رجال القانون على رأسها تريبونيان لجمع ونشر الدساتير الامبراطورية ،فنجحت هذه اللجنة بعد نحو عامين فى إصدار المجموعة الامبراطورية سنة ٥٢٩م، التى ضمت اكثر من أربعة آلاف وستمائة وخمسون مرسوماً وتشريعاً إمبراطورياً بعضها أصدره جستنيان والآخر أصدره أسلافه ،وصدرت فى مجلد واحد مؤلف من عشرة كتب وهو المعروف " بمجموعة جستنيان

---

(87) Camb. Med. Hist. V. 5 , pp. 702-3

(٨٨) موس : ميلاد العصور الوسطى ص ١٩٢

(89) Ostrogorsky : op. cit. pp. 69-70

القانونية " (٩٠) تتضمن القوانين منـذ فـترة حكـم هادريـان فـى القـرن الثانى إلى عصـر جسـتنيان فـى القـرن السـادس الميـلادى، فـأصبحت المجموعـة القانونيـة الوحيـدة فـى الإمبراطوريـة وألغـت المجموعـات الثلاث القديمة(٩١) ،ونسبت هذه المجموعة إلى جستنيان وعرفت باسـم Codex Justinanus (٩٢) ، وأطلق على الأوامر والمراسـيم التـى اسـتمر جستنيان فـى اصدارهـا بعدئـذ اسـم المتجـددات أو القوانـين الجديـدة Novellae Constitiones وهى المراسيم التى صدرت بعد سـنة ٥٣٤م، والتى سميت Novels أو Novellae Leges كمـا يذكـر فـازيلييف(٩٣) . على أن جستنيان عهد إلى الجنة بمهمـة أصعـب هـى جمـع وتبويـب تـراث المشرعين ورجـال القـانون الرومـانى وكتابـات فقهـاء الرومـان وأقوالهم التى كادت تضيع وتندثر لطول إهمالها وصعوبة الرجوع إليها فى مكان واحد،على الرغم من أنها كانت مـن أعظـم مـا خلفـه الفكـر الرومانى وما أنتجته الحضـارة الرومانيـة القديمـة(٩٤) وهـذه الكتابـات لكتاب القانون الرومان مع المراسيم والتشريعات الامبراطورية معاً كانت تشكل الهيكل الرئيسى والعمود الفقرى للقانون المتداول(٩٥) والتى غدت منذ ذلك الوقت الشرح الوحيد المعترف به فـى الدولـة. وبعـد مجهـود شاق وفقت اللجنة فى إصدار ما عرف باسم الموسوعة Digesta ،وهـى تجمع خلاصة ما كتبه فقهاء القانون فـى خمسـين كتابـاً ينقسـم كـل كتـاب إلى فقـرات يـأتى علـى رأس كـل فقـرة اسـم القـانونى أو الفقيـه المنسـوبة إليـه الفقـرة ومـوضوع الفقـرة والكتـاب

---

(٩٠) موس : المرجع السابق ص ١٩٢

(91) Vasiliev : Hist. of the Byzatine Empire , V. 1, p. 143

(92) Camb. Med. Hist. V. 2, p. 59

(93) Vasiliev : op. cit. p. 145

(94) Camb. Med. Hist. V. 5, pp. 702-3

(95) Ostrogorsky : op. cit. p. 69

الذىحواها[٩٦] ،وكـان علـى اللجنـة أن تختـار مـن كتابـات الفقهـاء المعترف بقدرهم نصاً واحداً للقانون عن نقطة وأن تغير عبارات المؤلـف كلما تطلب الوضوح ذلك أو دعت إليه مقتضيـات الزمـان[٩٧] . وخـلال فـترة جمـع وتصنيـف الموسـوعة واجـه تريبونيـان وزميـلاه القانونيـان الشـهيران ثيوفيلـوس أسـتاذ القـانون بالقسـطنطينية ودوروثيـوس Dorotheus أستاذ القانون ببيروت[٩٨] مشكلة أخرى وهى ضخامة هذه المجموعة أو هذه الموسوعة وضخامة قانون جستنيان، فكان عليهـم أن يصدروا ملخصاً لطلاب القانون الذين لايتحملـون قـراءة هـذه الموسـوعة الضخمة وقـانون جنسـتيان الكبـير، ولذلـك كلفهـم جسـتنيان بـإصدار ملخص لذلك كله يسهل على الطلاب الرجوع إليه وسمى هـذا الموجـز بالقواعد أو Instition ،وصدر هذا الموجز سنة ٥٣٣م وعنون to youth eager to know the laws للشباب المتعطشين لمعرفة القوانين[٩٩] فكـان جستنيان قد أمر بإصدار موجز لهذه الموسوعة ليسهل على طلاب العلم الرجوع إليها . ومن مجموعة الدساتير الإمبراطورية والموسـوعة وموجـز القوانين نتج ما عرف باسـم مجموعـة القـانون المدنـى Corpus Juris Civilis ،وهى المجموعـة التـى خلـدت اسـم جسـتنيان وجعلتـه مـن عمالقة التاريخ الأوربى الوسيط[١٠٠] ،وعد قانون جستنيان أكـبر إنجـاز قانونى للحضارة الغربية، وجرى اتخاذه بعد ذلك أساساً لكل المبادىء والنظم القانونية فى القارة الأوربية كلها[١٠١] .

---

(96) Vasiliev : op. cit. I, pp. 144-5

(٩٧) موس : ميلاد العصور الوسطى ص ١٩٢-١٩٣

(98) Vasiliev : op. cit. 1 , p. 144

(99) Ibid. pp. 144-5

(100) Hussey : op. 144-5

(101) Cantor : The Med. World 300-1300 , p. 83

وتكمن عظمة هذا العمل فيما انطوى عليه من أثر فى حفظ تراث روما وعبقرية فقهائها فى مجال التشريع ونقله إلى الأجيال التالية، ولاشك أن أجمل ماعبرت به روما عن نفسها وعن عظمتها يصح التماسه فى فن التشريع، فما اتسمت به صيغها القانونية من الرشاقة وما اتشحت به حلولها من الروعة والجمال أشياء لاسبيل إلى مباراتها[١٠٢]، فضلاً عن إبراز ما كان للمسيحية كدين سماوى من آثار تهذيبية فى القانون الرومانى زمن جستنيان بالاضافة إلى أن هذه المجموعة غدت بعد ذلك أساساً لما جرى من تطور قانونى فى غرب أوربا، واستمد منها بعض ملوك غرب أوربا نظرية الحق المطلق في الحكم أو مبادىء الحكم الاستبدادى للامبراطور لما خلفه القياصرة منها من سجل حافل، واقتفت الكنيسه أثره فى إصدار مجموعة القانون الكنسى التى عرفت باسم : Corpus Juris Canonici [١٠٣]، فضلاً عن أنه تجلى فيها السمات الإنسانية لاعترافها بحقوق الفرد وما تفرضه من قيود على السلطة الأبوية [١٠٤].

القانون الرومانى و نهضة أوربا التشريعية في النصف الثانى من العصور الوسطى :

غدت مجموعات القوانين الرومانية ذخيرة كبيرة أمام المهتمين بدراسة القانون، وكانت الموسوعة بصفة خاصة عملاً عضيماً حفظ جهود المشرعين والفقهاء على امتداد أجيال طويلة أعطت إمكانية قيام نهضة قانونية وتشريعية كبيرة لأوربا في العصور الوسطى، غير أن الظروف الحالكة التى مرت بها أوربا في النصف الأول من العصور

(١٠٢) موس : المرجع السابق ص ١٩٣

(103) Ostrogorsky : op. cit. p. 70
Vasilier : op. cit. V. I , pp. 145-6

(١٠٤) موس : ميلاد العصور الوسطى ص ١٩٤

الوسطى و حتى القرن الحادى عشر [١٠٥] لم تسمح بقيام هذه النهضة، لكن الظروف أخذت تتبدل فى أوربا ابتداءً من القرن الثانى عشر، واستتبع ذلك عناية فائقة بالدراسات القانونية و إحياء التشريعات الرومانية التى أمكن بعثها من مجموعة جستنيان، فقد زادت جاذبية مجموعة قوانين جستنيان فى نظر العلماء الذين كان يحكمهم إحساس أقوى بالتراث الكلاسيكى و تحركهم حماستهم للامبراطورية الرومانية[١٠٦] .

فقد شهد القرن الحادى عشر نشاطاً ملحوظاً فى إحياء الدراسات القانونية ،حتى اعتبر أهم العصور فى تاريخ القانون منذ العصر الرومانى القديم، و ربما ساعد على ذلك اشتداد الصراع بين البابوية والامبراطورية فى ذلك القرن، فأدى ذلك إلى الاهتمام بالقانون لحاجة كل فريق إلى تدعيم مركزه و اتخاذ القانون أداة ليسمو على خصمه[١٠٧] . ويعتبر إرنريوس (ت١١٢٥) رائد النهضة القانونية فى القرن الثانى عشر، فقد جعل مدينة بولونا الايطالية مركزاً لمدرسة قانونية شهيرة، فغدت بولونا **Bologna** من أكبر مراكز دراسة القانون، ووصف إرنريوس بأنه مصباح القانون أو مشكاة القانون، وأول من ألقى الضوء على العلوم [١٠٨] ، فى بولونا كانت البداية كما

---

(١٠٥) لغزوات الجرمان وهجمات الفيكنج وشيوع النظام الاقطاعى القائم على العرف والعادات والتقاليد القديمه.أنظر Oman : The Dark Ages , pp. 7-9
Lot : The end of the Ancient World , pp. 203-4
Katz : op. cit. pp. 88-9
وكوبلاند و فينوجرادوف : الاقطاع ص ١٥-١٦

(١٠٦) كانتور : التاريخ الوسيط ق٢ ص ٥٠٢

(١٠٧) عاشور : النهضات الأوربية ص ١٦١

(108) Rowling : Evryday Life in Med. times , p. 175

يشير المؤرخون حيث درس إرنريوس و أتباعه القانون المدنى القديم هادفين إلى تأسيس أصول للعدالة (١٠٩) . و استفاد إرنريوس كثيراً من تمتعه برعاية ماتيلدا أميرة تسكانيا فجعل من بولونا أعظم مدرسة لتعليم القانون الرومانى، واتخذ من مجموعة جستنيان محوراً لتدريس القانون في بولونا مفسحاً المجال للمناقشة والبحث والشرح، واضعاً دون شك أسس النهضة القانونية الفعلية فى أوربا، ولهذا خرجت بولونا أعظم أساتذة القانون (١١٠) ، واجتذبت شهرة إرنريوس الطلاب من شتى أنحاء أوربا، إذ كانت شروحه علمية و تطبيقية فى آن واحد لأنه لم يقنع بشرح النص إنما كان يحاول أيضاً أن يطبق القانون على المواقف التى يحويها النص (١١١) .

على أن النهضة القانونية ازدهرت بفضل تلامذة إرنريوس، وهم الذين أطلق عليهم لقب الشراح Glossators على مدى قرن من الزمان بعد إرنريوس، وبرز أربعة بصفة خاصة من تلامذة إرنريوس فى العلوم القانونية، أطلق عليهم اسم الدكاتره الأربعة Four Doctors و هم بلجاروس و مارتن و حاكوب (يعقوب) و هوجو (١١٢) وهم الذين واصلوا دمج القانون الرومانى فى حضارة القرن الثانى عشر (١١٣). فقد وجه خلفاء إرنريوس هؤلاء من أعلام القانون الرومانى جهودهم نحو شرح وتفسير مواد القانون، و من هنا لصق بهم لقب الشراح (١١٤). وكانت شروحهم فى البداية قليلة مختصرة ثم ما لبثت أن طالت

(109) Keen : A Hist. of Med. Europe , p. 80

(110) Heer : op. cit. p. 239

(١١١) كانتور : التاريخ الوسيط ق٢ ص ٥١٠

(112) Heer : op. cit. p. 239

(١١٣) كانتور : المرجع السابق ق٢ ص٥١٠

(114) Camb. Med. Hist. V. 2 , pp. 736-7

وتنوعت و برزت بين السطور إلى الهوامش، و فاقت فى بعض الأحيان حجم النص الأصلى نفسه، حتى صار النص المشروح مرجعاً لابد لكل من يريد أن يصبح خبيراً فى القانون المدنى أن يدرسه بعناية (١١٥)، حتى خصصت فى النهاية كتب خاصة لشرح النصوص القانونية والتعليق عليها .

وثمة عوامل مختلفة ساعدت على قيام النهضة القانونية فى الشطر الأخير من العصور الوسطى من ذلك : إزدهار التجارة و ما استتبع ذلك من الحاجة للدراية بالاصول القانونية فى المعاملات التجارية (١١٦) ،فكأن النشاط التجارى و الاقتصادى فى حوض البحر المتوسط و شمال إيطاليا كان سبباً من أسباب النهضة القانونية فى الشطر الأخير من العصور الوسطى . ومن هذه الأسباب أيضاً الانهيار الذى أصاب النظام الاقطاعى و قيام الملكيات القومية التى احتاجت إلى قوانين أشمل وأعم من القوانين المحلية الضيقة (١١٧)، فضلاً عما ترتب على التطور السياسى والنشاط الاقتصادى من كثرة الاتصالات بين الدول و الممالك وتضارب المصالح، فالتمس كل حاكم فى القانون ما يؤيد موقفه وما يثبت حقه تجاه الآخرين، فقد أوضحت حماسة فردريك بربروسا مثلاً كيف كان لأعمال الشراح أن تتحول إلى ميزة تفيد منها الحكومات الملكية في شمال أوربا (١١٨) ومنها أيضاً قيام النزاع بين البابوية و الامبراطورية و حاجة كل فريق لتدعيم مركزه بالحجج و الأسانيد القانونية،فقد لجأ الامبراطور فريدريك الأول بربروسا إلى القانون الرومانى لإثبات سمو الامبراطورية على البابوية

---

(١١٥) كانتور : المرجع السابق ق٢ ص ٥١٠

(116) Heer : op. cit. pp. 239-40

(117) Keen : op. cit. p. 93 , p. 125

(١١٨) كانتور : المرجع السابق ق٢ ص ٥١٠-٥١١

و لتأييد حقوقه فى السيطرة على المدن الايطالية و خاصة و قد اتجه القانون الرومانى إلى تأييد الأباطرة المطلق [١١٩] ، فاستطاع بربروسا أن يستغل البراهين التى تضمنتها مجموعة قوانين جستنيان فى تأييد سيادته على المدن الإيطالية من ناحية ، و أن يؤكد استبداده السياسى و زيادة سلطته فى ألمانيا من ناحية أخرى [١٢٠] .

وما لبثت المدارس المختلفة فى أوربا أن أولت القانون عناية أكبر ، ثم بدأت الجامعات الناشئة تعطيه أهمية متفاوته ، برزت في كثير منها فى أنحاء أوربا لتكتمل النهضة القانونية والتشريعية في العصور الوسطى ، وخرجت جامعة بولونا وغيرها أعداداً كبيرة من الخريجين المتخصصين في القانون يمكن أن يفوا بحاجات الملكيات الأوربية[١٢١] .

القانون الكنسى :

إذا كان القانون المدنى الرومانى قد شهد هذا التطور الكبير استجابة لحاجة المجتمع الأوربى فى العصور الوسطى ، و إذا كان تأثير إحياء مجموعة جستنيان عميقاً على النظم القانونية فى غرب أوربا ، فقد كان تأثير هذا الإحياء عميقاً أيضاً داخل الكنيسة نفسها ، وكان لتقدم دراسة القانون المدنى أثره فى مساعدة رجال القانون الكنسى على استكمال عملهم [١٢٢] ، فشهد القانون الكنسى أو القانون الدينى الذى أخذت به الكنيسة الغربية هو الآخر تطوراً كبيراً تمشياً مع السلطات الواسعة التى تمتعت بها الكنيسة الغربية في أوربا في

---

(119) Keen : op. cit. p. 80 , p. 93

(١٢٠) كانتور : المرجع السابق ق٢ ص ٥١٠-٥١١

(١٢١) كانتور : نفس المرجع ق١ ص ٢٠٩

(١٢٢) كانتور : نفسه ق٢ ص ٥١٢-٥١٣

ذلك الوقت [١٢٣] ، فلم تكن الكنيسة أقل حاجة من الدولة إلى قانون خاص بها، بعد أن أصبحت قوة كبيرة تمتعت بكل ما للدولة العلمانية من مقومات . فقد كان لها رئيسها الأعلى و هو البابا، و لها أراضيها و ممتلكاتها الواسعة، و رعاياها من المسيحيين فى مختلف البلدان الأوربية، بل غدت الكنيسة دولة عالمية تخطت حدودها كافة الحدود السياسية المحلية و تمتعت بكل ما للدولة من مقومات [١٢٤] ،كما كان لها أحكامها و قوانينها و محاكمها وسجونها و باشرت دور القضاء الكنسية نفوذاً واسعاً فى غرب أوربا،و أصبحت المحكمة البابوية تمثل محكمة استئناف عليا تستأنف أمامها القضايا من مختلف الأقطار الاوربية فى الغرب [١٢٥] . و أصبحت هذه المحكمة البابوية بمثابة المحكمة العليا و لها السيطرة الكاملة على أية محكمة كنسية أخرى فى أوربا [١٢٦] .

وحيث أن القانون الكنسى كان يتألف من مجموعة من الأحكام التى أخذت عن الكتاب المقدس و كتابات آباء الكنيسة و أقوال القديسين، فضلا عن قرارات المجامع الكنسية و المراسيم البابوية، التى تعالج شئون الكنيسه [١٢٧]، نظراً لأن المبادىء الأولى لهذا القانون إنما ترجع إلى عصر الامبراطورية [١٢٨]، فقد حدث نوع من الارتباك والتضارب و التناقض بتكاثر هذه المصادر وتعددها، و أصبحت الحاجة ماسة لوجود عدد كبير من المتخصصين فى هذا القانون من جهة ، وإلى

---

(123) Camb. Med. Hist. V. 5 , p. 705

(١٢٤) سعيد عاشور : النهضات الأوربية ص ١٧٠

(125) Camb. Med. Hist. V. 5, p. 705

(١٢٦) كانتور : التاريخ الوسيط ق٢ ص ٥١٣

(١٢٧) كولتون : عالم العصور الوسطى ص ٢٤٨

(128) Camb. Med. Hist. V. 5, p. 705

ترتيب المادة و تنظيمها و تبويبها ليسهل الرجوع إليها من جهة أخرى .

و كان على الجيل الأول من القانونيين الكنسيين أن يجابهوا كما ضخما من المواد التى و ضعت سوياً دون التزام بأى مبدأ نقدى أو عقلى، و التى كان بعضها يتعارض مع البعض الآخر . فمحاولة تنظيم القوانين الكنسية و جمعها من بين طيات الكم الهائل غير المرتب من الأحكام و التراث المتراكم، كانت تحتاج إلى جهد كبير [١٢٩] .وعلى الرغم من أهمية عملية ترتيب وتنظيم القانون الكنسى، إلا أنه لم تحدث محاولات جادة فى هذا الميدان قبل القرن الحادى عشر، حين قام بعض الأساقفة بمحاولات باهته لتنظيم القانون الكنسى. وكان أول من بدأ هذا العمل الصعب بعض الأساقفة من أبناء الشمال هما: بيرشر الورمزى Burcher of Worms ، وإيفو الشارترى Ivo of-Chartres[١٣٠]، وكذلك أنسلم أسقف لوكا Anselm of Lucca[١٣١]. وحرصت البابوية على توجيه عملية تجميع القانون الكنسى وتصنيفه. ومع مطلع القرن الثانى عشر، كان قد تم انجاز الشطر الأكبر من هذا العمل على أيدى العلماء الإيطاليين، وتحت الإشراف البابوى لتضمن تأكيد مذهب السلطة البابوية المطلقة[١٣٢]. لكن أهم محاولة جرت فى هذا الميدان هى التى قام بها جراشيان Gratian في القرن الثانى عشر[١٣٣]، وهو الذى نجح فى فصل اللاهوت عن القانون الكنسى

---

(١٢٩) كانتور : المرجع السابق ق٢ ص ٥١٣

(١٣٠) كانتور : نفسه ق٢ ص ٥١٢

(131) Eyre: op. cit. p. 275

(١٣٢) كانتور : التاريخ الوسيط ق٢ ص ٥١٣

(133) Rowling: op. cit. p. 175

وتنظيم هذا القانون وترتيبه[١٣٤]، ولهذا أطلق عليه بعض المؤرخين "مؤسس القانون الكنسي الجديد" أو واضع أسس القانون الكنسي الجديد Founder of the new Canon Law[١٣٥]، والذى أسس أيضاً دراسات القانون الكنسى فى بولونا الايطالية .

ويحتمل أن جراشيان قام بهذا العمل سنة ١١٤٢م، وكان عنوان كتاب جراشيان هو : " التوفيق بين القوانين الكنسية المتعارضة "، ويوضح هذا العنوان هدف جراشيان الأساسى وإن اتخذ كتابه بعد ذلك عنوان : " مرسوم جراشيان "، فقد حاول فيه تصنيف المراسيم البابوية تصنيفاً علمياً ورتبها حسب الموضوع،على غرار القانون المدنى، وأيضاً بعض التعليقات، استهدف منها التوفيق بين المواد المتناقضة أو المتعارضة[١٣٦]. فقد وضع كل مبدأ متناقض وراء الآخر، أى أنه كان يضع النظرية فى مواجهة النظرية المضادة لها، ثم يقوم بمناقشة هدفها بغية الوصول إلى حل منطقى للمتناقضات[١٣٧]. فلاشك أنه كان يبغى إجلاء مجموعات القانون الكنسى المضطربة، والتى تتعلق بالعقيدة والنواحى الروحية،والتى أهملت خلال قرون طويلة لتنظيم حكومة الكنيسة[١٣٨] .

وضع جرشيان مجموعة القانون الكنسى التى نسبت إليه فى ثلاث أقسام. القسم الأول: ويتألف من مائة باب،تعالج مصادر القانون الكنسى . والقسم الثانى ويشمل نحواً من ست وثلاثين قضية مختارة

---

(١٣٤) سعيد عاشور : أوربا ج٢ ص ٤٠٧
(135) Heer : op. cit. p. 111, p. 239
(١٣٦) كولتون: عالم العصور الوسطى ص ٢٥٠ –٢٥١
(١٣٧) كانتور : المرجع السابق ق٢ ص ٥١٤
(138) Rowling : op. cit. p. 175

مع مناقشة هذه القضايا فى ضوء القانون الكنسي. ويشمل القسم الثالث خمسة أبواب فى العبادة والطقوس الكنيسة[١٣٩]. وسرعان ما اعتبرت هذه المجموعة بمثابة كتاب أساسى فى القانون الكنسى، لاسيما فى مدرسة القانون فى بولونا وفى باريس واكسفورد، وصارت مرجعاً ثقة في المحاكم فى جميع أنحاء أوربا، واجتذبت الكثير من الشراح والمعلقين منذ القرن الثانى عشر فصاعداً، وهى تشكل الجزء الأول من مجموعة القوانين الكنسية[١٤٠].

ولم تلبث الكنيسة أن وضعت مجموعة جراشيان فى مقدمة مجموعة القانون الكنسى التى أطلق عليها إسم:- Corpus Juris Canonic ،وهو اسم مطابق لاسم مجموعة جستنيان فى القانون المدنى Corpus Juris Civilis[١٤١]، كما أضفت البابوية على مجموعة جراشيان وضعاً قانونياً، بحيث ظلت هى الأساس الذى يقوم عليه القانون الكنسى حتى يومنا هذا[١٤٢]، وجاءت مطابقة القانون الكنسي للقانون المدنى تؤكد أن القانون الكنسى اقتفى أثر القانون المدني الرومانى فى تطوره . فالقانون الرومانى كان مصدراً من مصادر القانون الكنسى من جهه، كما أن القانون الكنسي كان رد فعل للقانون الرومانى، حاولت البابوية أن تستمد منه سنداً قوياً يعزز مكانتها في صراعها مع الامبراطورية[١٤٣]، لذلك كان لابد من أن تعقب جهود جراشيان محاولات أخرى متصلة الحلقات، حتى يتلاءم القانون

---

(١٣٩) عاشور : أوربا ج٢ ص ٤٠٧

(140) Greoffrey Barracough : The Med. papacy, p. 96,p. 103

(141) Camb. Med. Hist. V. 2, p. 60
Hussey : op. cit. pp. 20-21

(١٤٢) كانتور : التاريخ الوسيط ق٢ ص ٥١٤

(143) Keen : op. cit. p. 79

الكنسي مع رغبة البابوية وجهودها فى السيطرة على العـالم المسيحى كله[١٤٤] .

على أن القانون الكنسى كان موضـع عنايـة كثـير مـن البـابوات الذين اهتموا باستمرار تنظيمه وتبويبه وترتيبه ، وخاصة البابـا إسكندر الثالث (١١٥٩-١١٨١م)، والبابا أنوسنت الثـالث (١١٩٨-١٢١٦م)، والبابا جريجورى التاسع (١٢٢٧-١٢٤١م) الذى أصدر مجموعـة سنة ١٢٣٤م لتكون بمثابة كتاب إضافى للقانون الكنسى[١٤٥] ،وسـرعان ما غدا القانون الكنسى مادة قائمة بذاتها، أخذت تدرس فـى الجامعـات الأوربية الناشئة، إلى جانب القانون الرومانى[١٤٦] . إذ كان بمقدور مـن يتخرج من إحدى جامعات العصـور الوسطى بعد دراسـة القـانون أن يدخـل في خدمـة أى حـاكم علمـانى، كمـا كـان باسـتطاعة بعـض الخريجين أن يواصلوا تدريبهم بعد التخرج فى مجال القانون الكنسـى ليعملوا فى خدمة الكنيسة ،فإذا تبـع الخريـج المجـال الأول كـان مـن المحتمل أن يصير يوماً وزيراً لأحد الملوك المنافسين للبابويـة، وإذا مـا اتخذ السبيل الثانى أى دراسـة القـانون الكنسـى كـان مـن الممكـن أن يختتم حياته بإرتقاء العرش البـابوى نفسـه، وجميـع البـابوات الذيـن اعتلوا عرش القديس بطـرس فيمـا بـين سـنتى ١١٥٠، ١٣٠٠م، تلقـوا تعليمهم الأول فى القانون الكنسى باستثناء واحد فقط[١٤٧] .

وحيث أن القانون الرومانى كان يمجد دائماً سلطـة الامبراطورية

---

(١٤٤) عاشور : النهضات الأوربية ص ١٧٣

(١٤٥) كانتور : نفسه ق٢ ص ٥١٥، Camb. Med. Hist. V.5, pp.713-14

(146) Rowling : op. cit. p. 175

Keen : op. cit. p. 80

(١٤٧) كانتور : نفسه ق٢ ص ٥١٦

والأباطرة، فقد رأت البابوية فيه منافساً خطيراً يتعارض مع رغبتها فى اتساع نفوذها، وقوة شكيمتها، لذلك لجأت فى سنة ١٢١٩م إلى تحريم دراسة القانون الرومانى لرجال الدين فى جامعة باريس[(١٤٨)] وربما استهدفت البابوية من وراء القضاء على ذلك المنافس، إتاحة الفرصة للقانون الكنسى كى ينتشر ويعم غرب أوربا، مما يؤدى إلى زيادة نفوذ البابوية والكنيسة الغربية[(١٤٩)].

وهكذا كانت النهضة القانونية والتشريعية فى أوربا في العصور الوسطى، وهي نهضة بدت واضحة المعالم في النصف الأخير من العصور الوسطى، ابتداءً من القرن الحادى عشر الميلادى، سبقتها محاولات باهتة دون شك في هذا الميدان لكنها بلغت حداً لا بأس به في نهاية تلك المرحلة، لتؤكد تفوق الفكر السياسى والنشاط التشريعى لأوربا في العصور الوسطى، وبلوغه مرتبة هامة دون شك .

---

(١٤٨) عاشور : المرجع السابق ج٢ ص ٤٠٨

(١٤٩) عاشور : النهضات الأوربية ص ١٧٤

الفصل السابع

العلوم فى أوربا فى العصور الوسطى :

ليس من شك فى أن أوربا عرفت قدراً من العلوم والدراسات العلمية بالقدر الذى سمح به نشاطها الفكرى المتفاوت خلال مراحل تطورها فى العصور الوسطى، على عكس ما يظن البعض من جهلها جهلاً مطلقاً بتلك العلوم بمعناها الحديث إبان تلك الحقبة الزمنية. ويمكن تلمس ثلاث مراحل زمنية فى التأريخ للعلوم فى أوربا فى تلك العصور[١] :

– مرحلة أولى امتدت لتشمل الفترة المظلمة فى تاريخ أوربا وعلى مدى نحو خمسة قرون، من بداية القرن الخامس الميلادى حتى نهاية القرن التاسع الميلادى، وتمثل معبراً لبقايا التراث الفكرى القديم إلى الأوربيين فى المرحلة التالية. خاصة وقد أمد العالم القديم أوربا بكثير من التراث وبصور من الحياة المادية والروحية غدت صالحة للاندماج فى الحياة الجديدة. فكأن العالم القديم وعالم العصور الوسطى التقيا وسط الطريق، أو على الأقل عرف كل منهما كيف يقابل الآخر[٢] .

– مرحلة ثانية تشمل الفترة الممتدة من بداية القرن العاشر الميلادى حتى نهاية القرن الثانى عشر، أى على مدى ثلاث قرون تقريباً، وتميزها عملية تدفق المعارف والعلوم العربية على الغرب الأوربى، بعد أن شيد المسلمون أعظم حضارة عرفتها الدنيا فى العصور الوسطى، وبدأ المسلمون من حيث انتهت الأمم القديمة، بعد أن حازوا تراث هذه الأمم ودرسوه جيداً وصححوا ما فيه من أخطاء وأضافوا إليه وترجموه إلى العربية ونقلوه إلى أوربا عبر المعابر المعروفة فى ذلك

---

(١) سعيد عاشور : أوربا ج٢ ص ٤٠٩

(2) Seidlmayer : Currents of Medieval Thought , pp. 26-27 (trans. by Barker)

الوقت، واعترف عدد كبير من مؤرخى العالم بفضلهم على العالم والانسانية[٣] .

– مرحلة ثالثة تبدأ ببداية القرن الثالث عشر وتمتد إلى نهاية العصور الوسطى، وتمثل عصر ازدهار العلوم والدراسات العلمية، الذى أدى إلى النهضة العلمية فى العصر الحديث، خاصة بعد أن نشأت الجامعات الأوربية، وظهر عدد من العلماء كان لهم أثرهم فى انهاض الفكر العلمى الأوربى وبعضهم كان من أساتذة الجامعات[٤] .

المرحلة الأولى فى فجر العصور الوسطى :

أما فيما يختص بالمرحلة الأولى، فلعل السبب الذى يكمن في تأخر الغرب الأوربى في هذا الميدان، يرجع إلى أن الامبراطورية الرومانية لم تكن جادة في الأخذ بكل ما خلفته الحضارة الإغريقية من تراث أو مهتمة بنقل كل ذلك التراث إلى أوربا في العصور الوسطى[٥]، وإنما اكتفى الرومان بمختصرات أبحاث اليونان، دون أصول هذه الأبحاث الأمر الذى ترتب عليه تحصيلهم لبعض القشور وترك الأصول مجهولة، حتى نجح العرب فى نقلها إلى أوربا فى القرن الثانى عشر الميلادى، بعد أن شعر الأوربيون بتخلفهم عن العرب وحاجتهم إلى الاغتراف من هذا المعين الجديد والنهل من هذا النبع، فترجموا الكتب العربية إلى اللاتينية وبدأ ذلك في القرن الثالث عشر[٦] .

وعلى الرغم من ذلك فقد أبدى بعض العلماء فى أوربا حينئذ

---

(٣) د. عبد الحليم منتصر : أثر العرب والاسلام فى النهضة الأوربية ص ٢٠٦ (مجموعة مقالات)

(٤) منتصر : المرجع السابق ص ٢٠٧

(5) Seidlmayer : op. cit. p. 27

(٦) عبد الحليم منتصر : المرجع السابق ص ٢٠٧ ، Heer : op. cit. p. 97

اهتماماً كبيراً ببعض الكتب والمختصرات اليونانية، خاصة كتابات جالن Galen وكلسوس Celsus في الطب واستفادوا كثيراً منها. وحينما وصلت أصول هذه الكتب إلى أوربا في القرن الحادى عشر عن طريق العرب مترجمة عن اليونانية لقيت اهتماماً أعظم، خاصة في مدرسة سالرنو التي اشتهرت بدراسة الطب في العصور الوسطى[٧]، وجرى بها امتزاج ثقافي قوى كان العلماء فيها قادرين على الإغتراف من التراث الاسلامى[٨]، فضلاً عن الأطباء اليونان واللاتين واليهود يعلّمون ويتعلمون فيها، وظلت حتى القرن الثانى عشر أكبر المعاهد الطبية في أوربا اللاتينية، وكانت النساء يدرسن فيها التمريض والقبالة[٩].

وفى مجال الرياضيات أبدى الرومان أيضاً شغفاً عظيماً بالتخطيط والمساحة حتى صرفهم ذلك عن الرياضيات البحته[١٠]، التى غدا لها شأن عظيم فى العصور اللاحقة، والتى مثلت ركناً أساسياً فى النهضة الأوربية فيما بعد، بعد أن دخلت علوم الرياضة اليونانية والعربية فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر بلاد أوربا الغربية[١١].

أما فى مجال الفلك فيمثل العالم السكندرى منلاوس Menelaos النموذج الحى لهذا الفرع من العلوم، فقد قام هذا العالم ببعض الابحاث

---

(7) Rowling : op. cit. p. 220

(٨) هلستر : أوربا ص ٢٥٣

(9) Garrison,f : Hist. of Medecine , p. 148 (Philadelphia 1929)

(١٠) سعيد عاشور : أوربا ج٢ ص ٤١٠

(11) Durant, will : The Story of Civilization the Age of faith , p. 989 (New York 1950)

الفلكية فى روما سنة ٩٨م، كما قام ببحث فى حساب الاوتار وبحث آخر فى الكرويات[١٢] .وظلت هذه الابحاث منسية حتى عرفتها أوربا الغربية لأول مرة فى القرن الثانى عشر،حين ازدهرت التجارة، ونشط التجار لرعاية مصالحهم وجرى استخدام هذه العلوم لخدمة التجار ولضبط حساباتهم، وكذلك رسم الخرائط، فقد كانت علوم الرياضة والطبيعة والفلك وثيقة الصلة بعضها بالبعض الآخر،ومن كتب فى أحدها أفاد العلمين الآخرين[١٣] .

لم تكن أوربا إذن معنية بنقل كل تراث الإغريق أو الأخذ بكل ما خلفته الحضارة الإغريقية من علوم وثقافة فى هذه المرحلة الأولى من فجر العصور الوسطى وحتى نهاية القرن التاسع الميلادى، ومع هذا لم يعدم هذا العصر وجود بعض الدراسات العلمية وظهور التفكير العلمى الدقيق، وإن جاءت هذه الدراسات نماذج قليلة وسط جهل مطبق، ميز هذه الفترة من العصور الوسطى[١٤] .ومن هذه الدراسات ما دونه المفكر المعروف بؤثيوس **Boethius** (٤٨٠-٥٢٤م) من مدونات . إذ يشير المؤرخون إلى أنه بذل جهداً كبيراً لسد الثغرة التى تفصل الوثنية عن المسيحية، بعد أن تعلم أحسن ما يمكن أن تقدمه روما لأبنائها، ثم قضى ثمانية عشر عاماً فى مدارس أثينا ثم عاد إلى إيطاليا، معتزماً انقاذ الثقافة اليونانية واللاتينية التى رأى أنها آخذة فى الزوال[١٥]. فدون عدداً من الرسائل الهامة، إحداها فى علم الهندسة النظرية لخص فيها كتب إقليدس فى هذا العلم ، وثانيها فى علم

---

(١٢) عاشور : المرجع السابق ج٢ ص ٤١٠

(١٣) وهيب إبراهيم سمعان : الثقافة و التربية فى العصور الوسطى ص ١٢٨

(14) Camb. Med. Hist. V. 3 , p. 535

(١٥) وهيب سمعان : المرجع السابق ص ١١٢-١١٣

الحساب حيث لخص ما كتبه العالم نقوماخوس Nicomachus في هذا العلم أيضاً، وثالثة في الموسيقى، فضلاً عن كتابه "سلوى الفلاسفة" الذى أمد فيه أوربا الغربية لعدة قرون بمعظم ما عرفته عن الفكر اليوناني[١٦] . كما كتب المفكر مارتيانوس كابلا Martianus Capella المتوفى سنة ٥٠٠م موسوعة كاملة في تسعة أجزاء تناول فيها : مجموعة العلوم الرباعية وهي الحساب والهندسة والفلك والموسيقى والثلاثية وهى النحو والجدل والبلاغة، وهو التقسيم العلمي الذى ظل متبعاً طوال العصور الوسطى[١٧] ،وعلى الرغم من ذلك كله، لايمكن القول بأن التفكير العلمى كان طابع هذه المرحلة من العصور الوسطى والممتدة حتى نهاية القرن التاسع الميلادى .

لكن ليس من شك فى أن هذه البحوث الفردية كانت على حد تعبير أحد المؤرخين الغربيين بمثابة ومضات خاطفة فى سماء أوربا الحالكة الظلام، لم تستطع أن تزيل غمة التأخر والجهالة عن صدرها أو تدفع عنها تهمة الجهل والسلبية خلال تلك الفترة[١٨] . إذ يبدو أن تشبع العصر باللاهوت وسيادة عقائد الدين ومفاهيمه والاهتمام الذى لقيه الدين والنظم الدينية، قد قيد الحركة العلمية ،ولم يطلق عقالها أو يدع لها حرية الحركة .فالعقيدة المسيحية - كما نادى المعاصرون - قامت على اساس الإيمان البحت، فى الوقت الذى يعتمد فيه العلم على العقل والتعقل و شتان بين هذا وذاك[١٩] .وحسب المؤرخ أن ينظر

---

(16) Durant : op. cit. p. 101 ,
Seidlmayer : op. cit. p. 7
(17) Camb. Med. Hist. V. 3 , p. 533 ,
وهيب سمعان : نفسه ص ١١٤
(18) Seidlmayer : op. cit. pp. 26-28
(19) Camb. Med. Hist. V. 8 , p. 661

فى كتابات مفكرى العصور الوسطى وآباء الكنيسة الأول، ليعلم إلى أى حد أسهم هؤلاء فى كبت التطور العلمى، وحاربوا الفكر الحـر وطبعـوا أوربـا بخـاتم الجمـود فـى العصـور الوسـطى. إذ لم يرحـب العلمـاء المسيحيون كثيراً باستخدام الفنون التى رأوا أنها فنوناً وثنية(٢٠) . هـذا فضلاً عـن دأب الكنيسـة علـى حـث النـاس علـى التطلـع إلى الحيـاة الذاتية الداخلية، وصرفهم عن التطلع إلى العالم الطبيعى مـن حولهـم، وأثر ذلك فى حصر ملكاتهم و قيد فكرهم(٢١) .

فالقديس أوغسطين (٣٥٤-٤٣٠م)، يدهش من أن الناس يهملون التأمل فى أنفسهم، ويذهبون بعيداً للتأمل فى ارتفاع الجبال أو دراسـة الكواكب أو غير ذلك، مما يطلق عقال فكرهم، بل إنه يهزأ من أولئـك الذين أعلنوا فكرة كروية الأرض التى توصل لها اليونـانيون مـن قبـل، وأن كل ما يبنى على هذه الفكرة ليس سوى هرطقة(٢٢) . و فضـلاً عـن هذا التأخر العلمى و الجهل و الانحطاط الفكرى انتشرت الرؤيات بـين السذج و العامة و سرى الاعتقاد فى الخرافات و الخزعبلات، وذاعـت المعجزات بين الناس، حتى قضى السحر و الشعوذة على البقية الباقية من المعرفة و الدراسات العلمية(٢٣) .

فإزدور الاشبيلى Isidore of Seville (٥٦٠-٦٣٦م)، على الرغـم من أنـه كـان عالمـاً مجـداً إلا أن بحوثـه كـانت خليطـاً مـن الاشـتقاق العجيـب و المعجـزات التى لا يقبلهـا عقـل ومـن تفسيـرات مجازيـة

---

(٢٠) وهيب سمعان : نفسه ص ١١٨

(٢١) سعيد عاشور : أوربا ج٢ ص ٤١٠

(22) Coulton : Life in the Middle Ages , V.I , pp. 41-4
Huizinga : The Waning of the Middle Ages , p. 255

(23) Rowling : op. cit. p. 240

خيالية للكتاب المقدس، ومن العلوم الطبيعية و التاريخ، صورت لكى تثبت مبادىء أخلاقية، وكتابه الذى سماه " عشرون كتاباً فى الاشتقاقات و الأصول " يدل على ما كان فاشياً فى هذا العهد من جهالة[٢٤] .

ولم ينج الشطر الشرقى من أوربا أيضاً من هذه الظلمة والجهالة، إذ لم يكن لهيمنة الامبراطورية البيزنطية على أقدار هذا الجزء من أوربا أثر فى تمييز هذا الجزء عن الجزء الآخر فى شىء، بل إن الامبراطور جستنيان برغم كل ما حققه من مجد للامبراطورية، آثر أن يغلق مدارس أثينا سنة ٥٢٩م، ويخمد أنفاس العلوم اليونانية والفلسفه الإغريقية القديمة، فأسهم بذلك فى إطفاء شعلة العلم و الفكر فى هذا الجانب الأوربى، وأجبر علماء تلك المدارس على الفرار إلى البلاط الفارسى[٢٥] ،الذى فتح لهم صدره و آواهم و إستفاد منهم كثيراً، ليصبح الشرق أعظم مركز ثقافى و علمى فى تلك الفترة، حيث ازدهرت الرياضيات و العلوم الطبيعية و الفلسفة التى التقت بتيارات الفكر الهندى القادم من الشرق[٢٦] . وما لبث الاسلام أن ظهر و امتد ليشمل بلاد العرب و فارس و بلاد الرافدين و الشام و مصر، وينتقى من هذه الشعوب أبرز ما خلفته من تراث فكرى و علمى، ويستوعب المسلمون بسهولة تراث اليونان و الفرس و الهندوس، ولتصبح بغداد فى القرن الثامن الميلادى مركز إشعاع فكرى

---

(24) Durant : op. cit. pp. 159-160
Keen : op. cit. p. 78

وهيب سمعان : المرجع السابق ص ١١٤-١١٥

(25) Ostrogorsky : op. cit. p. 71
(26) Vasiliv : op. cit. V.I , p. 150
Ostrogorsky : op. cit. p. 71

و علمي عظيم، وتصبح مركزاً لنهضة علمية عريضة في ذلك الوقت[٢٧] . إذ أخذ العلماء المسلمون يترجمون الدخائر العلمية وينقلون إلى العربية علوم الإغريق و الرومان و الفرس و الهنود، فترجموا عن الإغريقية و الفارسية و القبطية و الآرامية، وأقيمت دور الكتب والمكتبات ونقلت ألوف الكتب من المكتبات القديمة[٢٨] .

و إذا كان غرب أوربا قد قدر له أن يشهد في نفس الوقت نهضة جديده ممثلة في النهضة الكارولنجية، فإن تلك النهضة اقتصرت على الناحية التعليمية وإحياء الآداب، وتعلم اللآتينية القديمة و سير الآباء و القديسين و دراسة النصوص الكلاسيكية و كتابة الأشعار[٢٩] . أى الاهتمام بإحياء الآداب دون العلوم التى لم تحظ بنصيب في تلك الحركة، بل إن أقصى ما وصلت له المعرفة العلمية في غرب أوربا فيما بين القرن السابع و التاسع لا يعدو أن يكون بعضاً من الجهود الفردية التى لم تمثل تياراً علمياً راسخاً أو نموذجاً عاماً لاتجاهات علمية أوربية[٣٠] . فباستثناء موسوعة إيسيدور القشتالى المتوفى سنة ٦٣٦م و المشار إليه من قبل و الذى كان من أساتذة العصور الوسطى لأنه كان دائرة معارف بكل ما تعنيه الكلمة من معنى، ونموذج للمعرفة فريد يمكن أن يقدمه العالم القديم و الوثنية والمسيحية معاً . لأنه بدأ بدراسة الدين و تقدم مع كتابة التاريخ والجغرافيا والعلوم الطبيعية والفلكلور وغير ذلك من المعارف[٣١]، وباستثناء مؤلفات بدى Bede المتوفى سنة ٧٣٥م والذى كان قد نشأ

---

(٢٧) هلستر : المرجع السابق ص ١٠٨-١٠٩

(٢٨) منتصر : المرجع السابق ص ٢٠٤

(29) Keen : op. cit. p. 49

(30) Camb. Med. Hist. V. 3 , p. 535

(31) Seidlmayer : op. cit. p. 12

كراهب منذ صغره،ثم قدم سلسلة من الأعمال فى تفسير العهد القديم و الجديد، وكذلك فى علم التهجئة والرياضيات ومجموعة من المعارف الطبيعية والتاريخ، وعمل جداول توضح التواريخ الدقيقة للأحداث مرتبة بحسب تسلسلها الزمنى و بفضله أصبح من المستطاع عد السنوات وترتيبها منذ مولد السيد المسيح[٣٢] باستثناء هؤلاء وأعمال هؤلاء لا نجد ثمة أعمال علمية يمكن أن تغير طابع المعرفة في أوربا الغربية في هذه المرحلة أو تشير إلى رقى في الدراسات العلمية هناك.

المرحلة الثانية : و صول علوم العرب إلى غرب أوربا :

فى الوقت الذى انحطت فيه علوم الغرب الأوربى، كانت الحضارة الاسلامية آخذة بأسباب الرقى والعظمة بفضل من أنجبتهم من العرب و المستعربين، الذين درسوا جميعاً باللغة العربية التى غدت لغة عالمية، والتى سادت فى المنطقة الممتدة من مشارف الصين و الهند شرقاً حتى حدود فرنسا و أسبانيا غرباً[٣٣] ، وكذلك بفضل ما امتازت به الحضارة الاسلامية من طابع عالمى منذ البداية، ميزها عن غيرها من الحضارات المحلية . فقد قدر للدولة الاسلامية أن تصبح ملتقى التيارات الفكرية المختلفة مثل الرياضيات الهندية، التى تقدمت وتطورت بعيداً عن تأثير الرياضيات اليونانية، ثم عاد التياران للالتقاء معاً في رحاب المدارس الاسلامية وفي كنفها، بما يعنيه ذلك من دفع للتيار الفكرى الاسلامى في هذا المجال[٣٤] .

فقد نهل العلماء المسلمون من تراث الأمم بمختلف فروعه

---

(32) Ibid. p. 12

(٣٣) عبد الحليم منتصر : المرجع السابق ص ٢٠٤

(٣٤) سعيد عاشور : أوربا ج٢ ص ٤١٣

وفنونه، وترجموا الدخائر العلمية من علوم الإغريق و الرومان والسريان و الفرس و الهنود، وأقيمت دور الكتب و المكاتب و فتح الخلفاء والأمراء قصورهم للعلم و العلماء، وتنافسوا في رعاية العلم والعلماء وتسابقوا في الإنفاق في سخاء في هذا المجال[٣٥]، وقبل الرشيد الجزية كتباً، كما دفع المأمون وزن ما كان يترجم من كتب ذهباً، وغدا الجامع المنصور في بغداد و الجامع الأموى في دمشق والجامع الأزهر بالقاهرة وجامع القيروان بتونس وجامع القرويين في فاس وجامع قرطبة بالأندلس والجامع الكبير بصنعاء، إلى جانب بيت الحكمة في بغداد ودار العلم في الموصل و مكتبة ابن سوار بالبصرة و مكتبة ابن الشاطر بالشام و دار الحكمة في القاهرة، كانت جميعاً بمثابة معاهد للعلم في أرقى صورة[٣٦].

على أن عظمة الحضارة الاسلامية لا تتجلى فقط في استيعاب هذه التيارات وهضمها بقدر ما تتجلى في تعديها النطاق المحدود، والتأثير في غيرها من الحضارات و الشعوب، وليس من شك في أن ذلك كان نتاج جهود علمية كبيرة، وحصاد أعمال عظيمة لرجال عظام أعطوا الحضارة الاسلامية شهرة ذائعة، وجعلوها نبراساً للهداية في مختلف أنحاء الدنيا في ذلك الوقت بل أصبح العلماء العرب في القرنين العاشر والحادى عشر أعظم علماء عصرهم، ومنهم استمد الأوربيون... شطراً هاماً للغاية من معارفهم في مجالات الفلسفة والعلوم وغير ذلك[٣٧].

فقد تضافرت جهود العلماء العرب لخلق مفاهيم علمية جديدة

---

(٣٥) منتصر : نفسه ص ٢٠٤

(٣٦) منتصر : نفسه ص ٢٠٤-٢٠٥

(٣٧) كانتور : التاريخ الوسيط ق١ ص ٢٤٧

وتصحيح كثير من المفاهيم السائدة، والرقى بالدراسات العلمية على أسس جديدة،فقد عالجوا نظرية التطور و تحدثوا فى الجاذبية، وشرحوا الدورة الدموية الصغرى وتناولوا طبيعة الضوء وسرعته وانكساره و قاسوا محيط الأرض، وقدروا حجم الكواكب وما بينها من مسافات، وابتدعوا الأرقام فى الحسابات وألفوا في النبات والحيوان والمعادن والفلك والرياضيات والكيمياء والصيدلة وحساب المثلثات والهندسة والطب والموسيقى قبل علماء أوربا بقرون[٣٨]، ولا نستطيع الإشارة إلى كل العلماء الذين أسهموا فى تلك النهضة العلمية، وحسبنا أن نشير إلى بعضهم منهم : في القرن الثامن العالم العربى الذائع الصيت جابر بن حيان الذى يعتبر شيخ الكميائيين دون جدال ومؤسس علم الكمياء بالمعنى الحديث، فقد عرف جابر بن حيان كثيراً من العمليات الكميائية كالتبخير و التقطير و الترشيح و التكليس والإذابة والتبلور و التصعيد و حضر كثيراً من المواد الكميائية وعرف خواصها مثل نترات الفضة وحامض الازوتيك[٣٩] . ولقد ترجمت كتب ابن حيان في الكمياء و غيرها إلى اللاتينية، وظلت مراجع معتمدة عدة قرون درسها علماء الغرب مثل كوب وكراوس و سارتون[٤٠]، وأنصفه العالم هوليارد حين وضعه في القمة بين علماء العرب، وكذلك سارتون الذى أرخ به حقبة من الزمن فى تاريخ الحضارة العلمية الإسلامية[٤١].

و في القرن التاسع نبغ الخوارزمى في كثير من العلوم مثل الرياضيات و الفلك و الجغرافيا و وضع قواعد علم الجبر و ألف فيه

(٣٨) منتصر : نفسه ص ٢٠٥-٢٠٦

(39) Camb. Med. Hist. V. 8 , p. 667

(٤٠) جورج سارتون : مقدمة تاريخ العلم

(٤١) عبد الحليم منتصر : المرجع السابق ص ٢٣٧-٢٣٩

كتباً ، كما كان كتابه فى الحساب الكتاب الأول من نوعه ، ولذلك نقل إلى اللاتينية ، وظل مرجعاً للعلماء الحاسبين ، ويرجع الفضل إلى محمد بن موسى الخوارزمى هذا فى نقل الأرقام الهندية و استعمالها وهو أول من أوردها فى مؤلفاته و كتبه ، وكذلك كان أول من ألف فى الجبر بطريقة منتظمة ، وغدا كتابه " الجبر و المقابلة " المصدر الذى اعتمدت عليه أوربا ، فأصبح الخوارزمى هو واضع علمى الحساب و الجبر [٤٢] .

و فى القرن العاشر عد البتانى (المتوفى سنة ٩٢٩م) أحد أعلام الفلك العالميين بفضل ما توصل إليه من نتائج هامة و جديدة فى علم الفلك ، وعده بعض العلماء من " العشرين فلكياً المشهورين فى العالم كله" ، واشتهر كتابه " الزيج الصابىء " كثيراً لأنه استدرك على بطليموس السكندرى ، وله رسائل أخرى فى الفلك و ترجمت كتب البتانى إلى اللاتينية و اللغات الأجنبية الأخرى[٤٣] .

و كذلك حاز الرازى المتوفى سنة ٩٢٣م شهرة ذائعة فى علم الطب ، فقد صنف كثيراً من الكتب و المراجع الطبية وقال عنه بعض العلماء أنه انتهى إليه الطب الاكلينيكى عند العرب ، ولعله أكبر الأطباء الذين نشأوا على منهج الخبرة المنظمة عقلياً ، فقد درس الطب اليونانى ، وكان كثير الاطلاع وينصح الأطباء بذلك ، ولذلك جمع الرازى بين الإطلاع و الخبرة ثم تولى إدارة البيمارستان العضدى الشهير ، فتجلت مواهبه أستاذاً و مؤلفاً و ممارساً و ترجم كتابه

---

(٤٢) انظر : " الجبر و المقابلة " لمحمد بن موسى الخوارزمى – تحقيق د. على مصطفى شرفة و د. محمد مرسى

(٤٣) منتصر : نفس المرجع ص ٢٣٢

" الحاوى " إلى اللاتينية[٤٤] .

إلا أن ابن سينا المتوفى سنة ١٠٣٧م، غدا أشهر الأطباء المسلمين على الإطلاق، واعتبر كتابه " القانون " أكبر دائرة معارف طبية عرفها العالم فى الشرق والغرب فى العصور الوسطى[٤٥]، ولابن سينا فضل على الأطباء أنه فيلسوف ممتاز، وكان له على الفلاسفة فضل أنه طبيب ممتاز، جمع فى كتابه بين أسلوب الفلسفة وحقائق الطب. وكتابه " القانون " من الكتب العالمية مثله مثل فلسفة أرسطو وهندسة أقليدس وكتاب سيبويه فى النحو[٤٦] .

وفى القرن الحادى عشر ذاعت شهرة العالم العربى الحسن بن الهيثم المتوفى سنة ١٠٢٠م، في علم الطبيعة، فقد شغف بهذا العلم، واشتغل بالعدسات والبصريات، وألف فى الضوء والمرايا كتباً مختلفة، كانت مصدراً خصباً لبعض مفكرى الغرب فى العصور الوسطى، لاسيما روجر بيكون، وعده العلماء في مقدمة علماء الطبيعة في جميع العصور، فقد كان من أئمة علماء الضوء وعرفته أوربا باسم "الهازن" وهو تحريف لكلمة الحسن، وألف في علم الطبيعة نحو أربعة وعشرين كتاباً، ورأى علماء آخرون أن بن الهيثم سبق "روجر بيكون" بكثير وكان فى مقدمة علماء الطبيعة النظرية والطبيعة التجريبية والطبيعة التطبيقية أيضاً[٤٧] .

---

(٤٤) د. محمد كامل حسين : الطب و الأقربازين -ضمن مقالات كتاب " أثر العرب والإسلام فى النهضة الأوربية "ص ٢٧٧-٢٨١

(45) Camb. Med. Hist. V. 4 , p. 297

(٤٦) محمد كامل حسين : المرجع السابق ص ٢٨٣

(٤٧) عبد الحليم منتصر : المرجع السابق ص ٢٣٣

ثم كان عمر الخيام أشهر الرياضيين في أواخر القرن الحادى عشر والربع الأول من القرن الثانى عشر الميلادى، وأبرز علماء المسلمين فى تلك الفترة . بل عده البعض أكبر قادة الفكر فى تلك الفترة على الإطلاق(٤٨)، فالإضافة إلى كونه شاعراً مجيداً، حاز علوم الرياضيات والفلك، وكان صديقاً للوزير السلجوقى الشهير نظام الملك(٤٩) .

وهكذا كانت الحضارة الإسلامية، حضارة خصبة والفكر الإسلامى فكراً متطوراً استطاع أن يأخذ بزمام الحركة العلمية فى العالم أجمع فى العصور الوسطى عدة قرون، بعد أن حقق العلماء المسلمون إنجازات علمية هامة وحصّلوا معارف كثيرة، وأبدعوا فى كل فروع العلم ونقلوا ذلك كله إلى غيرهم من الأمم خاصة أوربا الغربية، الأمر الذى أجبر الغربيين أنفسهم على الاعتراف بأن الحضارة الإسلامية كانت أعظم حضارة عرفتها الدنيا على الإطلاق في العصور الوسطى(٥٠)، وأن المسلمين حققوا مالم يحققه غيرهم فى تلك الفترة فى الوقت الذى غرقت فيه أوربا فى ظلام الجهالة، وضربت فى التخلف وسيطر الدين ورجال الدين على أقدار المجتمع إلى حد جعل الناس يتوجسون خيفه " من طمس الفرق بين الروحانيات والماديات "(٥١).

واذا أحصينا بعض انجازات الحضارة الإسلامية فى المجال العلمى وجدنا أنه فى مجال الرياضيات استخدم العرب نظام الأعداد الهندى، وتوصلوا إلى استخدام الصفر فى الحساب،و إلى أصول علم

(٤٨) فشر : تاريخ أوربا ق١ ص ١٨٨

(٤٩) كرستوفر دوسن : تكوين أوربا ص ٢٠١

(50) Thompson : op. cit. V. 2 , pp. 778-9 , عاشور : أوربا ج٢ ص ٤١٤

(51) Huizinga : The Waning of the Middle ages . p. 140

الجبر، فقد أخذ العرب عن الهنود نظام الترقيم، وأدركوا سهولة استعمال هذه الأرقام إذ غدا من السهولة بمكان ترتيب أى عدد مهما كان كبيراً من هذه الأرقام، فضلاً عن تغير قيمة الرقم حسب موضعة فى خانة الآحاد أو العشرات أو المئات الخ[٥٢] ... كما كان الصفر الذى ابتكره العرب ميزه كبيرة فى الحساب قال عنه أحد العلماء الغربيين أنها كانت أعظم هدية قدمها العرب لأوربا فى ذلك الوقت[٥٣] ،لأنه حل معضلات كثيرة فى علم الحساب . و يشير أحد المؤرخين المحدثين إلى أن الأرقام الهندية دخلت إلى بلاد المسلمين فى الشرق فى النصف الأول من القرن التاسع الميلادى، ثم نقلت إلى الغرب فى آواخر القرن العاشر و دخلت علوم الرياضة العربية بلاد أوربا الغربية فى القرنين الحادى عشر و الثانى عشر عن طريق أسبانيا و صقلية[٥٤] .

كذلك كان العرب أول من استعمل كلمة " جبر " للدلالة على العلم المعروف بهذا الاسم و ما تزال كلمة **Algebra** مستعملة فى اللغات الأجنبية حتى الأن، وعرف العرب حل المعادلات الجبرية ذات المجهولين[٥٥] . و فى الهندسة و حساب المثلثات لم يقفوا عند معلومات اليونان، وإنما أضافوا معارف جديدة لم يعرفها غيرهم، فلهم مؤلفات كثيرة فى المساحات و الأحجام وتحليل المسائل الهندسية وتقسيم الزوايا . إذ استخرجوا الاوتار فى الدائرة بخواص الخط المنحنى و مساحة المثلث بدلالة أضلاعه، حتى قال أحد العلماء

---

(٥٢) عبد الحليم منتصر : المرجع السابق ص ٢١٦-٢١٩

(53) Eyre : op. cit. p. 298

(54) Durant : op. cit. p. 989

(٥٥) منتصر : نفسه ص ٢١٨

" أن أوربا لم تكد تعرف الهندسة إلا عن طريق العرب "[٥٦]. كما كان العرب من أوائل واضعى علم حساب المثلثات، فإذا اعتبر علم الهندسة إغريقياً، فإن علم حساب المثلثات عربى، فقد عرف العرب القاعدة الأساسية لعمل الجداول الرياضية والمثلثات الكروية، ولهم بحوث في استخراج الأوتار و تناسب الجيوب و غيرها[٥٧] .

و فى الميكانيكا أضافوا الكثير و تقدموا بهذا العلم و شرحوا ضغط السوائل وتوازنها وصعود مياه الفوارات والعيون إلى أعلى، وأوجدوا مراكز الثقل، ووصفوا الأجهزة العلمية التى كانت معروفة فى ذلك العصر[٥٨] . أما فى الفلك فقد كان إسهام العرب فى هذا العلم إسهاماً كبيراً، إذ درسوا كتب الأقدمين و أعمال الإغريق و علماء الاسكندرية والسريان والفرس والهنود، وأضافوا إبتكارات جديدة وهامة فى علم الفلك، وأقاموا المراصد فى معظم بلدان الشرق والمغرب و الأندلس[٥٩]، وتوصلوا إلى نظرية دوران الأرض و الكواكب الأخرى حول الشمس وقاسوا أبعاد النجوم بطرق هندسية حسابية، وقالوا باستدارة الأرض وحسبوا طول السنة الشمسية، واستخدموا البصلة والأسطرلاب ، وأخذها عنهم الأوربيون فى الغرب لأول مرة، وصححوا ما وقع فيه غيرهم من أخطاء خاصة بطليموس السكندرى، وقاسوا محيط الأرض ، ورصدوا آلاف النجوم و صوروا كثيراً من الكواكب[٦٠].

---

(٥٦) قدرى طوقان : تراث العرب العلمى فى كتاب " أثر العرب و الاسلام فى النهضة الأوربية " ص ٢٢٢

(٥٧) طوقان : نفسه ص ٢٢٤

(٥٨) منتصر : المرجع السابق ص ٢٣٤

(59) Camb. Med. Hist. V. 4 , pp. 298-9

(٦٠) جورج سارتون : مقدمة تاريخ العلم فى نفس المرجع السابق ص ٢٣١

وفى مجال الطبيعـة توصـل المسـلمون إلى نتـائج فائقـة الدقـة فى سرعة الصـوت وسرعة الضـوء وتولـد السـحب مـن الأبخـرة الرطبـة، والعلاقة بين الهواء و وزنه، وإيجاد الكثافة للاجسام الصلبة والسائلة، وتحدثوا عن الجاذبية، واختلاف قوة الجـذب وعلاقتـه ببعـد المسـافة بين الجسم و مركز الجذب[٦١]. وفـى علـم الكيمـاء اسـتخدم المسـلمون لأول مـرة أجهـزة لم يعرفهـا غـيرهم، وتوصلـوا إلى معرفـة كثـير مـن العناصر وحاولوا تحليلها و معرفة تركيبها، وعرفوا كثيراً من العمليـات الكميائية، وحضروا كثيراً من المواد و عرفوا خواصهـا[٦٢]، ونجحـوا فى استخدام القوة الناجمة عن انفجار البارود فى دفع قذائف إلى مسـافات بعيدة[٦٣].

و كان تفوق المسلمين فى الطب مثار إعجاب العالم أجمع لأنهـم خطـوا بهـذا العلـم خطـوات واسـعة فـى التشـخيص و وصـف الـدواء والتوصل إلى معرفة أسباب كثير من الأمـراض المسـتعصية و اسـتخدموا تفوقهم فى علم الكمياء لمحاولة تركيب أدوية ناجحة لتلك الامـراض، وتوجوا كل ذلك بتصنيف كثير من الكتب و المراجع الطبية فى وصـف الأمراض وطرق علاجها، وخصائص الأدوية و آثارهـا، غـدت مراجـع علمية هامة فى العصور الوسطى، نهل منها الغربيون فى ذلك الوقت، وأفادوا منها كثيراً واعترفوا بفضلها[٦٤]، فى الوقـت الـذى كـانت فيـه الأمم اللاتينية تجهل الطب جهلاً يكاد يكون تامـاً . و كـان حتمـاً أن يأخذوه عـن العـرب، فعـرفـوا من الطب العربى القـدر الـذى سمح بـه

---

(٦١) قدرى طوقان : تراث العرب العلمي في نفس المرجع ص ٢٣٤
(٦٢) منتصر : المرجع السابق ص ٢٣٨
(٦٣) عاشور : أوربا ج٢ ص ٤٥١
(64) Camb. Med Hist. V. 8 , p. 667

تقدمهم الفكرى حينئذ[٦٥]، بعد أن تفشى الجهل فى المجتمع الأوربى فترة طويلة، وسيطر الدين على عقول الناس، واختلط ذلك بكثير من الخزعبلات والخرافات وخشى البعض - كما سبق أن أشرنا - أن يطمس الفرق بين الروحانيات و الماديات[٦٦] .

و هكذا فى الوقت الذى كانت أوربا تتخبط فى ظلمات الجهل، كانت الحضارة الإسلامية فى أوج عظمتها تشع على الدنيا كلها بنور العلم و الثقافة وتفيض منها على كل الأرجاء، فاغترفت أوربا من هذه الحضارة كثيراً، ونهلت من معين هذه المعارف، وأكدت النتائج العلمية التى توصل لها علماء العرب و اعترفت بفضلها، قبل أن تبدأ الحضارة الاسلامية فى الذبول، وتستنفد قوتها تدريجياً منذ القرن الثانى عشر الميلادى[٦٧] .

وكانت أسبانيا و صقلية و الشرق هى المعابر الرئيسية التى انتقلت منها حضارة الاسلام إلى أوربا، إما بالاتصال الشخصى أو عن طريق النقل و الترجمة، فقد أتاحت الحروب الصليبية فرصة الاتصال المباشر بين مسيحى الغرب و المسلمين دام نحو قرنين من الزمان (القرن الثانى عشر و الثالث عشر)، وإن كانت الآثار الثقافية لهذا الإتصال محدودة إلى حد ما لأن الغربيين لم ينعموا كثيراً فى تلك الفترة بالهدوء اللازم للبحث و الدراسة ،و لم تفسح الخصومة الدينية المجال كثيراً لتبادل ثقافى و فكرى[٦٨] .

---

(٦٥) محمد كامل حسين : المرجع السابق ص ٣٠١-٣٠٢
(66) Huizinga : op. cit. p. 140
(67) Camb. Med. Hist. V. 8, p. 667
(٦٨) د. إبراهيم بيومى مدكور: فى أثر العرب والإسلام فى النهضة الأوربية ص ١٦٢-١٦٣

ولكن اتصال مسيحى الغرب بالمسلمين فى الأندلس وصقلية كان أوثق و أعمق، فأفاد الغرب كثيراً من حضارة الاسلام وثقافته، وبلغ التبادل الثقافى فى صقلية قمته على عهد الامبراطور فردريك الثانى فى القرن الثالث عشر الميلادى، الذى أولع كثيراً بالعلوم العربية وعرف قدرها[٦٩]. واتصل المسيحيون بالمسلمين فى الأندلس اتصالاً وثيقاً بعد أن أقام المسلمون فى الأندلس نحو سبعة قرون، وشيدوا فيها حضارة لا تقل عن حضارتهم فى المشرق الاسلامى، فكان الأندلس مشعل النور فى أوربا أمدها بالعلم و الثقافة الاسلامية، واستغرق ذلك نحو ثلاثة قرون، وأسهم اليهود الذين تعلموا العربية ودرسوا العلوم والفنون الاسلامية فى نشر الثقافة الاسلامية فى الغرب، نشروها بأنفسهم أو بكتبهم التى ترجمت إلى اللاتينية فكانوا حلقة اتصال بين الاسلام والمسيحية فى ذلك المعبر بالذات[٧٠] .

و إلى جانب الاتصال الشخصى لعبت الترجمة و النقل عن العربية دوراً بارزاً فى حمل الحضارة الاسلامية إلى أوربا، و لا شك فى أن الثقافة الإسلامية هى التى دفعت اللاتين إلى الترجمة و النقل عن العربية . و إذا كانت الاتصالات الثقافية بين الغرب المسيحى والشرق الاسلامى قد جرت محدودة شيئاً ما قبل القرن الحادى عشر، ربما بسبب صعوبة تعلم اللغة العربية، إلا أن فريقاً من الباحثين الأوربيين قد تنبه إلى أهمية الدراسات العربية ،فأقبلوا على ترجمتها إلى اللاتينية[٧١] . فقد انشئت معاهد لتعلم العربية و العبرية واليونانية

---

(69) Ibn Sab'in , Correspondance philosophique avec L'Empereur Frederic II , Paris 1943.

وانظر أيضاً مدكور : نفسه ص ١٦٣

(70) Heer : op. cit. p. 301 , مدكور : نفسه ص ١٦٤

(71) D'Alverny : Le traductions Latines d'Ibn-Sina, Millenaire d'Avicenne , Le Caire 1952 , pp. 59-69

وأسست فى طليطلة مدرسة لتعليم العربية و العبرية، وجرى تخصيص كرسي للغات الأجنبية في الجامعات الأوربية(٧٢)، وثابر الأوربيون على الترجمة من العربية فى صبر وحماسة، فكان لذلك أبلغ الأثر فى انكباب الغرب الأوربى على الاغتراف من معين هذه الدراسات، حتى غدت طليطلة وبالرمو أكبر مركزين للترجمة فى أوربا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين(٧٣).

ومن هؤلاء المترجمين الأوربيين قسطنطين الإفريقى الذى كان من مواليد قرطاجة والذى رحل إلى الشرق، ثم انتهى به المقام فى دير مونت كاسينو بإيطاليا سنة ١٠٥٦م، حيث انتظم فى سلك الرهبانية إلى أن توفى فى سنة ١٠٨٧م. وأهم عمل لهذا المترجم ترجمته لبعض مؤلفات العرب خاصة كتاب ألفه على بن العباس فى الطب فى القرن العاشر الميلادى، وإن كانت ترجماته فى هذا المجال ينقصها الدقة فضلاً عن ركاكتها إلى حد بعيد(٧٤) .كما ترجم بعض المؤلفات اليونانية التى كان العرب قد نقلوها إلى العربية فأسهم فى النهضة التى عرفها جنوب إيطاليا بعدئذ، حتى أن مدرسة الطب في سالرنو وهى التىتحولت إلى أشهر جامعة لدراسة الطب هناك تدين بنشأتها إلى تراجم هذا الرجل(٧٥).

---

(72) Wulf: Histoire , II , p. 310

(73) D'Alverny: op. cit. pp. 59-69

De Vaux : La premiere d'averres chez les Latins , Rev. des Science Philos.et theol. No. 22 , 1933 , pp. 193 - 242

(٧٤) مدكور : المرجع السابق ص ١٦٥

(٧٥) عاشور : المرجع السابق ج٢ ص ٤١٥-٤١٦

وهنـاك فـى أحـد أديـرة سويسـرا البندكتيـة وهـو ديــر ريشــنو Reichenau ،ظهـر راهـب كسـيح يســمى هرمــان (١٠١٣-١٠٥٤م) Herman the Cripple ،دوّن أبحاثاً على جانب كبير من الأهمية فـى الرياضيات والفلك عبرت عن كثير مـن التيـارات والمؤثـرات العربيـة ، على الرغم من أن معرفتـه باللغـة العربيـة كـانت موضـع شـك كبـير، وخاصـة وأن عاهتـه ربمـا حـالت بينـه وبــين السـفر إلى أسـبانيا إو الشرق ،لكن يحتمل وصول تلك المؤثرات العربية عن طريق رجال العلـم المتنقلين بين الشرق والغرب فى ذلك الوقت(٧٦) .

ثم بـدأت حركـة الترجمـة الحقيقيـة فـى القرنـين الثـانى عشـر والثالث عشر، وغـدت طليطلـة في أسـبانيا وبـالرمو في صقليـة تلعبـان دورهما كأكبر مركزين للترجمة فى الغرب فى تلك الفترة،فجمعت فـى طليطلـة كثـير مـن المصـادر العربيـة بفضـل توسـط اليهـود، وصلتهـــم بالطرفين، فتوافر لطليطلة بعض كبار المترجمين، فجرى أول النقل من العربية إلى العبرية ثم إلى اللاتينية(٧٧) .كما فعل العرب فى الشرق مــن قبل حين كانوا ينقلون من اليونانية إلى السريانية، لأن من كان يجيـد اليونانية قليلون، ثم يصبح من اليسير ترجمـة السـريانية إلى العربيـة، ومع هذا فقد كان بين اللاتـين مـن يـترجم مـن العربيـة إلى اللاتينيـة رأساً، كما كان بين العرب من يترجم مـن اليونانيـة إلى العربيـة رأسـاً أيضاً(٧٨) .

فجرى في صقلية ترجمة كتاب المرئيات لبطليمــوس السكنــدرى

---

(٧٦) عاشور : نفسه ج٢ ص ٤١٦

(77) D'Alverny : op. cit. p. 60

(٧٨) مدكور :نفسه ص ١٦٦

عن العربية سنة ١١٥٠م،على يد مترجم يدعى إيوجينيوس البالرمى Eugenius of Palermo ،وتبع ذلك ترجمة بعض مؤلفات بطليموس الأخرى في الرياضيات والفلك عن العربية ، وحاز أحد المترجمين الصقليين شهرة كبيرة فى القرن الثالث عشر وهو فرج بن سالم اليهودى المتوفى سنة ١٢٨٥م(٧٩) .ومر بطليطلة أغلب المشتغلين بالترجمة.ومنهم من استقر فيها،وأقام بها،ومن هؤلاء ابراهيم بن داود الاسرائيلى (١١٨٠م) وجيرار الكريمونى (١١٨٧م) الذى ترجم في الطب والكمياء والرياضة(٨٠) .فقد كانت أسبانيا معبراً أنشط للثقافة والعلوم العربية إلى الغرب الأوربى، حيث ازدهرت فيها الثقافة الإسلامية، وغصت مدنها بأمهات الكتب العربية فى مختلف العلوم، كما كانت ملتقى للغتين العربية واللاتينية. فلما سقطت طليطلة فى أيدى المسيحيين سنة ١٠٨٥م زاد إقبال الطلاب عليها لدراسة الحضارة الإسلامية والإغتراف من منابع الفكر العربى الإسلامى(٨١)، ودراسة الكتب العربية سواء كانت أصيلة أو منقولة عن اليونانية. فغدت طليطلة بالذات المركز الرئيسى لحركة الترجمة عن العربية، ومنها تدفقت ترجمات كتب العلوم إلى أوربا كلها، فأحدثت ثورة فكرية شاملة أيقظت الأوربيين من سباتهم وأفاقتهم من ظلمة الجهالة التى عاشوا فيها ردحاً طويلاً من الزمن. ومن الذين قصدوا أسبانيا لدراسة كتب العرب وترجمتها إلى ا للاتينية أديلارد الباثى وهرمان وروبرت الشسترى وغيرهم، ولاشك أن الثقافة الإسلامية هى التى أغرت اللاتين بالترجمة،بعد أن وقف هؤلاء على ذخائر العرب الفكرية

---

(٧٩) سعيد عاشور : أوربا ج٢ ص ٤١٦

(٨٠) مدكور : المرجع السابق ص ١٦٦-١٦٧

(٨١) مدكور : نفسه ص ١٦٥

ورغبوا فى الاستفادة منها[٨٢] ؛ إذ أنشأ ريموند رئيس أساقفة طليطلة مكتباً لترجمة الكتب العربية التى زخرت بها طليطلة فى النصف الأول من القرن الثانى عشر،فأنعش حركة الترجمة عن العربية.

وما لبثت أوربا الغربية أن استفادت كثيراً فى شتى فروع العلم، ففى الحساب نقلت عن العرب نظام الأعداد الهندى[٨٣] ،الذى وصل إلى أوربا بعد نشأته بنحو أربعة قرون،وعرف بنظام الأعداد الهندى – العربى، الذى ذاع فى الغرب عن طريق العرب[٨٤] .ويبدو أن البابا سلفسترا الثانى Sylevester II الذى صار بابا فى سنة ٩٩٨م [٨٥] والمتوفى سنة ١٠٠٣م، كان من الرواد الأول الذين نقلوا نظام الأعداد العربى إلى الغرب الأوربى، لأنه قضى بعض السنوات فى شمال أسبانيا. ويشير المؤرخون إلى أن هذا النقل جرى لفرنسا سنة ١٠٠٠م على يد جربرت Gerbert هذا الذى اعتلى كرسى البابوية باسم سلفستر الثانى[٨٦] .

وحين ترجم روبرت الشسترى كتاب الخوارزمى فى الجبر إلى اللاتينية، نقل إلى الغرب علماً جديداً لم يسبق لهم معرفته هو علم الجبر الذى عرفه الغرب لأول مرة عن العرب. ثم ترجمت كثير من المؤلفات العربية فى الهندسة وحساب المثلثات إلى اللاتينية لاسيما

---

(٨٢) عاشور : نفسه المرجع ج٢ ص ٤١٧

(83) Eyre : op. cit. p. 298
(84) Rowling : op. cit. p. 171
(85) Keen : op. cit. p. 29
(86) Durant : op. cit. p. 989
Keen : op. cit. p. 29
Seidlmayer : op. cit. p. 47

الجـداول التى وضعها الخوارزمـــى فـى حســاب المثلثــات، ونقلــت إلـى الغرب عن هذا الطريق، ثم ترجم كتاب "الزيج الصابىء"[٨٧].كمـا ترجم الأوربيون بعض كتب الحسن بن الهيثم المتوفى فى سنة ١٠٢٠م فى مجال الطبيعة وكذلك كتب الخازن البصرى المتوفـى سنة ١٠٣٨م إلى اللاتينية،وعن هذه المؤلفات استقى جروسيتست Grossetest ورجر بيكون Roger Bacon وغيرهما معلوماتهما فى هذا العلم. كما ترجمـت كتب العالم العربى جابر بن حيان فى علم الكمياء واستفاد منها الغرب كثيراً، وكذلك مؤلفات الرازى وابن سينا فى الطب وهى التـى حـازت شهرة كبيرة فى أوربا فى ذلك الوقت[٨٨] .

المرحلة الثالثة : ازدهار العلوم فى غرب أوربا :

لم تكد الدراسات والمعارف الجديدة تنتشر فى غرب أوربا حتـى فزعت الكنيسة خشية أن تصرف تلـك المعـارف النـاس عـن اللاهـوت والدين[٨٩] ؛ حتى اضطرت الكنيسة إلى احراق بعض البحوث العلميـة فى هذه الفترة ووصفتها بأنها من البحوث الشيطانية[٩٠] . ولما كان من الصعب أن تمنع الكنيسة تداول تلك العلوم ودراستها فقد لجأ رجالهـا إلى محاولة التوفيق بينها وبين اللاهوت،مثلما حدث من قبـل بالنسبة للفلسفة اليونانية، فقد وضحت الحاجة إلى ضرورة التوفيق بين الأفكـار والمعتقـدات الدينيـة والاهتمامـات الدنيويـة أى التوفيـق بـين مطـالب الإيمان ومطالب العقل الانسانى[٩١] . ولكـن لم يمنـع ذلـك فريقـاً مـن المفكرين إلى الإتجاه نحو قصر اهتمامهم على دراسـة اللاهـوت البحـت

---

(٨٧) عاشور : أوربا ج٢ ص ٤١٨

(88) Camb. Med. Hist. V. 8 , p. 667

(89) Coulton : op. cit. pp. 58-62 , عاشور : نفسه ج٢ ص ٤١٨

(٩٠) وهيب سمعان : المرجع السابق ص ١٣١

(٩١) وهيب سمعان : نفسه ص ٩٦

و صرف فريق آخر اهتمامهم على العلوم البحته.

وهكذا ظهر فى القرن الثالث عشر فريقان من العلماء :فريق من العلماء اللاهوتيين الذين انكبوا على دراسة الدين أمثال ألكسندر أوف هاليس Alexander of Hales وتوما الإكوينى، وأثبت هذا الفريق من العلماء أنهم تقليديون، حصروا اهتمامهم فى اللاهوت وكانوا فى خدمة الكنيسة(٩٢) ،فقد ثبت من كتابات ألكسندر الهاليسى، أنه ارتكز على التقاليد الأوغسطينية المتحفظة، والتى جرى دمجها مع دراسة القانون الكنسى وممارسات المحكمة الكنسية القائمة على أنه لايسمح بتضليل الضمائر أو جرفها إلى طريق الضلال،وأن الهرطقة ينبغى ان يوجد لها طريق الهداية والاقناع أو تصفى نهائياً ويتخلص من أصحابها(٩٣). وكذلك كان توما الإكوينى دومنيكانياً متحفظاً يفخر به الدومنيكانيون على غيرهم ويعدونه من أعظم من أنجبتهم هذه الجماعة لمناداته بخدمة الدين ودراسة اللاهوت وكل ما يخدم الكنيسة(٩٤) .

أما فريق المفكرين المعنيين بالعلوم البحته أمثال روبرت جروستيست المتوفى سنة ١٢٥٣م، والذى درس فى جامعة أكسفورد وجامعة باريس ثم عاد إلى أكسفورد ليقوم بالتدريس بها، فقد كان أيضاً من الفرنسيسكان، ثم أصبح أميناً للجامعة،وتوفى وهو أسقف لنكولن، ولاشك أن هذا العالم تأثر كثيراً بالثقافة الاغريقية، التى كانت تشع فى عصره وتجذب العلماء والدارسين(٩٥) ،وكذلك ميخائيل سكوت،الذى عاصر الامبراطور فردريك الثانى،وتمتع بعطف هذا

(92) Seidlmayer : op. cit. p. 97

(93) Heer : op. cit. p. 145

(٩٤) فشر : تاريخ أوربا ق١ ص ٢٣٩

(95) Heer : op. cit. p. 290

الامبراطور،وترجم له بعض الكتب ونال الحظوة عنده[٩٦]، وكذلك ألبرت العظيم المتوفى سنة ١٢٨٠م، وكان أيضاً من الدومنيكان مثل توما الإكوينى وكلاهما كانت تفخر به هذه الجماعة[٩٧]، وكذلك روجر بيكون المتوفى سنة ١٢٩٤م، وكان من العلماء الفرنسيسكان، ولعب دوراً رئيسياً فى نهضة البحث العلمى فى انجلترا في القرن الثالث عشر الميلادى[٩٨]، وحق للفرنسيسكان أن يفتخروا به أيضاً، فأعظم عباقرة العصور الوسطى كان فرنسيسكانياً من أكسفورد، الذى اتسمت نظرياته وتجاربه بالجرأة البالغة،وامتاز عقله بالذكاء والعمق وسعة الافق[٩٩]. والشيء الذى يسترعى الانتباه بالنسبة لهؤلاء العلماء أن معظمهم كانوا من منظمة الدومنيكان أو من منظمة الفرنسيسكان، كما كان معظمهم من الانجليز باستثناء ميخائيل سكوت الذى كان من أصل أيرلندى، وكان بعضهم أيضاً من أساتذة الجامعات مثل جروسيتست وألبرت العظيم وروجر بيكون[١٠٠].

وعلى الرغم من أن عقلية العصور الوسطى لم تستطع أن تدرك وحدة الطبيعة فى ظل الاعتقاد بأن كل شيء فى هذا الكون له قيمته وأهميته المنفصلة،فإن روجر بيكون هو الذى توصل إلى أن الظواهر الطبيعية جميعها متوافقة و متآلفة تآلفاً يؤدى إلى وحدة الطبيعة وتكاملها[١٠١]. فنادى هذا المفكر بأن جميع فروع العلم كالكمياء والطبيعيات والرياضيات والفلك تؤدى لشيء واحد هو الطبيعة،ونادى

---

(96) Keen : op. cit. p. 139

(٩٧) فشر : المرجع السابق ق١ ص ٢٣٩

(٩٨) هلمتر : أوربا ص ٢٣٩

(٩٩) فشر : المرجع السابق ق١ ص ٢٣٩

(١٠٠) عبد الحليم منتصر : المرجع السابق ص ٢٠٧

(101) Heer : op. cit. p. 287 , pp. 292-3

كما نادى جروسيتست أيضاً بأنه لا شيء يمكن أن يفهم في فلسفة الطبيعة و فن البحوث التجريبية بدون الرياضيات، و كان يعنى بصفة خاصة علم الهندسة[١٠٢] ،هذا بالإضافة إلى إيمانه بأهم ما ساد عصره من اتجاهات أهمها أن الدراسات العلمية و الفلسفية يبتغى بها خدمة اللاهوت، و هو فى هذا يتحدث بلسان الفرنسيسكاني المتحمس، و إن اتسمت نظرياته كما سبق أن رأينا بالجرأة و التعمق[١٠٣] .

غير أن أهم النتائج التى توصل إليها روجر بيكون –الذى يعتبر بحق رائد العلم بمعناه الحديث[١٠٤] –هى : أن النظام الذى حاول وضعه لمعرفة الطبيعة يعتمد قبل كل شيء على المشاهدة و التجربة، مجاراة لما ذهب إليه جروسيتست و جاليليو فى هذه النظرية المرتكزة على فهم الطبيعة و معرفتها من خلال البحوث التجريبية القائمة على التجربة والمشاهدة Empirical investigation[١٠٥] وكذلك إدراكه أهمية الإلمام باللغات الاجنبية و القديمة، فنشط فى تعلم اللغة اليونانية و العبرية و كذلك اللغة العربية، و كان الأوربيون قد نشطوا فعلاً لتعلم هذه اللغات وأنشأت من أجل ذلك معاهد علمية وجرى تخصيص كراسي للغات فى الجامعات الأوربية الناشئة[١٠٦] .بالاضافة إلى أنه طبق نظامه التجريبى فى الوصول إلى نتائج هامة فى الفلك والجغرافيا والبصريات والعدسات والرياضيات. والعلم التجريبى الذى أخذ به روجر بتكون الفرنسيسكانى الانجليزى هذا

(102) Ibid. p. 291
(103) Ibid. p. 291

(١٠٤) عاشور : أوربا ج٢ ص ٤٢٠

(105) Heer : op. cit. p. 291
(106) Wulf : op. cit. p. 310
D'Alverny : op. cit. pp. 59-69

ومن جاء بعده قد أصبح منذ ذلك الوقت وخلال القرن الرابع عشر الميلادى وما بعده اكثر أهمية لأنه أكد أنه بفضله حقق بيكون ما حققه من انجازات[١٠٧] .

فقد تنبأ بيكون بإمكان اختراع سفن تسير فى أعالى البحار بالآلات، وطائرات تحلق فى الفضاء يحرك الانسان أجنحتها كالطير، وقنابل ومفرقعات لها قوة تدميرية كبيرة تستخدم فى الحروب للقضاء على الأعداء، وروافع ضخمة لرفع الأثقال، ومبيدات سامة تبيد الحشرات الضارة، إلى غير ذلك من الإختراعات التى نجح الإنسان فعلاً فى الوصول إليها فيما بعد[١٠٨] .

وهكذا لم يكن علماء العصور الوسطى جهلاء بالقدر الذى يعتقده البعض، إذ لم ينقصهم النشاط الفكرى، وإن أعوزهم التنفيذ العملى. فقد توصلوا إلى كروية الأرض وسبب كسوف الشمس، وتوصل عالم منهم وهو أديلارد الباثى إلى نظرية معقولة عن المد والجزر، بعد أن قضى نحو عامين فى دراسة هذه الظاهرة[١٠٩] ، كما قال بمبدأ خلود المادة و عدم فنائها، و إن لم يستطع أن يثبت هذا المبدأ، لعدم توافر المعامل و الأجهزه لديه، كما أفاض روجر بيكون فى وصف العدسات و البصريات التى أخذها من علماء العرب، و تحدث عن أهمية العدسات فى تكبير الكتابة و رؤية ما تعجز العين المجردة عن رؤيته[١١٠] . حقيقة كانت المجاهر – النظارات المكبرة – معروفة لدى اليونانيين القدماء، و لكن يبدو أن صنع هذه النظارات بحيث تجمع الأشعة جمعاً

(107) Seidlmayer : op. cit. p. 146

(١٠٨) عاشور : نفسه ج٢ ص ٤٢٠

(١٠٩) سعيد عاشور : أوربا ج٢ ص ٤٢١

(١١٠) عاشور : نفسه ج٢ ص ٤٢١

صحيحاً وهى قريبة من العين كان لابد أن يتأثر البحوث التى أجراها مثل هذا العالم و غيره فى هندسة انكسار الضوء[١١١] .

وبهذا قدمت العصور الوسطى كثيراً من قواعد التقدم العلمى للعصور الحديثة ، إذ بلغت المعرفة فى القرن الثالث عشر درجة من التنوع و الغزارة فى جذب اهتمام الناس وفتح آفاق جديدة أمامهم[١١٢] . و كذلك انتشرت الجامعات وتكونت الجمعيات العلمية ، واتسعت آفاق المعارف العلمية وزادت فروع العلوم الطبيعية ، وابتكر العلم من الأجهزة والأدوات و وسائل النشر ما يسر لـه التقدم و جعلـه يعدو وثباً نحو مشارف العصر الحديث[١١٣] .

غير أن ازدهار العلوم فى القرن الثالث عشر يقترن بشخصية هامة كان لها دور كبير فى تشجيع العلم و رعاية العلماء فى عصره، ألا وهو الامبراطور فردريك الثانى (١١٩٤-١٢٥٠م)[١١٤] ، إمبراطور ألمانيا وجنوب إيطاليا وصقلية ، وكان يفضل كثيراً جزيرة صقلية عن بقية أملاكه ، و كانت صقلية قد حازت تحت حكم المسلمين و النورمان ثم الألمان مكانة هامة كملتقى للثقافات العربية و النورمانية والشمالية ، وأولع فردريك الثانى كثيراً بالعلوم و أغرم بدراسة الحيوان و الطير وشجع العلماء[١١٥] ، وكانت له أياد بيضاء على العلم والعلماء، حتى أن ما ساد بلاط هذا الامبراطور في صقلية من حرية التفكير في القرن الثالث عشر الميلادى، كان أمراً غريباً

(١١١) وهيب سمعان : المرجع السابق ص ١٣٠

(112) Thompson : op. cit. v. 2, p. 786

(١١٣) عبد الحليم منتصر : المرجع السابق ص ٢٠٨

(114) Eeer : op. cit. p. 284

(115) Rowling : op. cit. p. 254

بالنسبة لهذه الفترة من العصور الوسطى[١١٦] . فقد شغف هذا الامبراطور بكل ما هو غريب لمحاولة الوقوف على حقيقته كما شغف بشتى العلوم و الرياضيات و الفلسفة و الدراسات اللغوية[١١٧] ،و عظم كثيراً الحضارة الاسلامية و أكبرها ،و قرب العلماء المسلمين حتى يقال أنه أتقن اللغة العربية و تذوق الشعر العربى ،و أولع كثيراً بعلوم العرب و فنونهم ،حتى جرى اتهام هذا الامبراطور فى الغرب بأنه عدو المسيحية Anti-Chrest[١١٨] ،خاصة و أنه انزلق إلى معاداة البابا إنوسنت الثالث و أمعن فى تسفيه البابوية[١١٩]. و انتهز فرصة قدومه إلى الشرق على رأس الحملة الصليبية المعروفة بالسادسة ،فحاول إرواء ظمئه و شفاء غلته من المعارف الشرقية و الحضارة الاسلامية ،فأخذ يبحث فى أمور تتعلق بالهندسة و الفلك و المنطق و البصريات و غيرها ،فضلاً عن اهتمامه بالطب و العلاج و وظائف الأعضاء فى الجسم[١٢٠].

ولقد انعكس اهتمام فردريك الثانى بهذه العلوم على شموله بعض العلماء برعايته و كريم عنايته ،فحظى ميخائيل سكوت Scot بمنزلة سامية فى بلاط هذا الامبراطور سنة ١٢٢٧م ،و كتب له عدة أبحاث فى الطبيعة و الكمياء و المنطق و الفلك و الميتافيزيقا و غير ذلك من العلوم[١٢١] ،فضلاً عن أنه ألف له مجملاً أو خلاصة عن تربية العرب

---

(116) Seidlmayer : op. cit. p. 100

(١١٧) عاشور : أوربا ج٢ ص ٤٢١

(118) Heer : op. cit. p. 323

(119) Ibid. p. 326

(120) Keen : op. cit. p. 139
Rowling : op. cit. p. 255

(121) Keen : op. cit. p. 139

للحيوانات،فقد أغرم الامبراطور كثيراً بدراسة الحيوان والطير، وكتب له ميخائيل سكوت أيضاً عن التنجيم و علم الفراسة و الأرصاد الجوية[١٢٢] .

كذلك نال ليوناردو البيزى **Leonard of Pisa** رعاية الامبراطور فاتصل ببلاطه و حل عدة مسائل رياضية فى حضرة الامبراطور،و ألف له بعض الكتب الرياضية و غيرها[١٢٣]. وكان فردريك يمنح كل عالم يتقدم بشىء جديد فى ميدان العلم جائزة سخية،مما جعله قبلة العلماء و الباحثين،و جعل منه أكبر راع للعلم و العلماء فى ذلك الوقت[١٢٤] .

و لهذا خطت العصور الوسطى بخطى واسعة نحو التقدم و نحو التفوق العلمى واقتربت فى أواخرها من مرحلة الثورة العلمية بمعناها الدقيق، إذا أخذنا فى الاعتبار انحسار التأثير اللاهوتى وتحكم رجال الدين شيئاً ما، وانطلاق العلماء إلى آفاق جديدة فى مجال البحث والدرس، ولهذا أسلمت هذة الفترة للفترة التالية أسس نهضة علمية وحضارية هامة و أسهمت فى نفس الوقت فى وضع دعائم هذه النهضة وأسس هذا التقدم . ففى سنة ١٤٥٣ وهى السنة التى اصطلح كثير من المؤرخين على تعيينها نهاية للعصور الوسطى و بداية للعصور الحديثة – مع ما فى هذا من تجاوز – قدم عالمان فى أوربا بحثين علميين هامين،وكان أحد هذين العالمين بلجيكى والآخر بولندى، رأى كثير من الدارسين أن هذين البحثين أول البحوث التى قامت على

---

(122) Rowling : op. cit. p. 255
(123) Ibid. p. 255
(١٢٤) عاشور : أوربا ج٢ ص ٤٢٢ ،
Rowling : op. cit. p. 255

أساس الطريقة العلمية التجريبية التى جعلتهما أقرب إلى التفكير الحديث منه إلى التفكير الوسيط[١٢٥]. تناول البحث الأول تركيب الجسم الانسانى وبنائه وتناول الثانى حركة الأجرام السماوية ودورانها، رأى الدارسون أن هذين البحثيين توافرت فيهما أسس التفكير السليم وشروط البحث بمعناه الحديث والتزما بالمنهج العلمى الدقيق . فعدوا كلاً منهما إرهاصاً لما عرفه العصر الحديث من تقدم علمى، ورأوا فيهما علامات تؤكد بداية مرحلة جديدة فى التفكير العلمى وإيذاناً بإنتهاء العصور الوسطى وحلول العصر الحديث، فقد كانا نقلة هامة إلى مرحلة جديدة فى تاريخ البشرية وتطور الحضارة[١٢٦] وبهذا تكون العصور الوسطى قد قدمت خدمة جليلة للعصور الحديثة فى أوربا واسهمت فيما جرى فى الفترة الجديدة من تقدم وازدهار.

---

(١٢٥) سعيد عاشور : أوربا ج٢ ص ٤٢٢

(١٢٦) عبد الحليم منتصر : المرجع السابق ص ٢٠٨-٢١١
عاشور : نفسه ج٢ ص ٤٢٢

الفصل الثامن

الآداب في أوربا في العصور الوسطى :

بدأت الحضارة اللاتينية واللغة اللاتينية تتدهور شيئاً فشيئاً في القسم الغربى من الامبراطورية الرومانية فى أواخر العصور القديمة، في الوقت الذى استمر فيه الجزء الشرقى من تلك الامبراطورية مزدهراً في هذا المجال بحكم استمرار تأثير الحضارة الهللينية وعظم بريقها في هذا الجانب من العالم القديم، ولقد عبر كل من دقلديانوس ومن بعده قنسطنطين عن إحساسهما بأهمية الجانب الشرقى من إمبراطوريتهم وسمو مكانته الحضارية بالمقارنة بالجانب الآخر من الامبراطورية، فنقلا العاصمة إلى الشرق مؤكدين اعترافهما بانتقال مركز الثقل إلى هذا الجانب من العالم القديم .

ولكن ما لبث الانحلال أن أخذ يدب فى أوصال الإمبراطورية الرومانية شيئاً فشيئاً ليشمل جميع مناحى الحياة فى الجوانب الاقتصادية والإدارية والإجتماعية و الحضارية، خاصة فيما يتعلق باللغة اللاتينية والأدب القديم، وكان التدهور فى الجانب اللغوى والأدبى أوضح وأسرع فى غرب أوربا عنه فى القسم الشرقى من الإمبراطورية.

تطور الآداب فى فجر العصور الوسطى :

تعرضت اللغة اللاتينية لعوامل التغيير فى الفترة الواقعة بين القرن الثانى والقرن الخامس الميلاديين، بسبب انتشار المسيحية وانتقالها إلى الغرب الأوربى من ناحية، وبعد أن اختفت كتب أعظم مبدعى الأساليب الخلابة وانزوت فى زوايا النسيان، أو نالها الاحتقار والازدراء من ناحية أخرى[1]، فالأساس الجوهرى للتفرقة بين

---

(١) مقالة "الادب" ضمن مجموعة مقالات ضمها كتاب "تراث العصور الوسطى" ج ٢ ص٢١٧ أشرف على تحريرها : كرمب وجاكوب وترجمها محمد سليم سالم ومراجعة محمد بدران

اللاتينيـة الأدبيـة الراقيـة واللاتينيـة العاميـة هو نوع الفكر الذى تُعبر عنه[٢] . واستتبع انتشار المسيحية وانتقالها إلى الغرب الأوربى إدخال ألفاظ جديدة وابتكار تعبيرات لم تكن مستخدمة، لتناسب المعتقدات والشعائر الدينية الجديدة ونظراً لانتشار المسيحية بين كافة الطبقات فى تلك المرحلة لاسيما طبقة العامة، فقد تحتم إدخال كلمات لاتينية دارجة، غدت تستخدم فى اللغة اللاتينية الفصحى، وتوسع كتاب العصر المسيحى فى استخدام الالفاظ الدارجة لتوصيل الآراء والأفكار للعامة الأمر الذى ترتب عليه أن بعدت لاتينية ذلك العصر عن اللاتينية الفصحى التى كتبها كل من بترارك وششيرون[٣] .

وهكذا تغيرت اللاتينية تغيراً كبيراً عما كانت عليه أيام الرومان، حتى إنه أصبح هناك ما يمكن أن يطلق عليه لاتينية العصور الوسطى[٤] ، وانتشر خليط من اللهجات المشتقة من اللاتينية الدارجة، خاصة فى جنوب أوربا وغربها، وهى اللغة التى كان عامة الناس يتحدثون بها فعلاً[٥]. وأسهم الجرمان فيما أصاب اللغة اللاتينية من تغير، فقد أدخل الجرمان ألفاظاً كثيرة على اللاتينية، لتنساب هذه الكلمات فى اللغة ولتبعدها بمرور الأيام عن اللغة التى عرفها العالم الرومانى فى الغرب، خاصة وقد هيمن الجرمان على مقدرات هذه الامبراطورية، إذ احتلوا أسبانيا وغالة وإيطاليا والجزر البريطانية وغيرها من بقاع الغرب الأوربى[٦]. ولم يكن استخدام الألفاظ والمصطلحات الجديدة قاصراً على أناس بعينهم، وانما أخذت الكلمات

---

(2) Abott : Classical Philology ,pp. 444-460

وانظر أيضاً : موس : ميلاد العصور الوسطى ص ٣١٤

(٣) وهيب سمعان : المرجع السابق ص ١١٩

(٤) وهيب سمعان : نفسه ص ١١٩

(٥) كانتور : التاريخ الوسيط ق١ ص ٣١٤

(٦) عاشور : أوربا ج٢ ص ٤٢٤

الأجنبيـة تجـرى فـى الاسـتعمال فـى أوسـاط علـى جـانب كبـير مـن الثقافة[٧] .

وهكذا انقضى عصر البلاغة والبيان اللاتينى القديم، حيـث كـان الأسلوب اللاتينى يتميز بدقة اختيار اللفـظ وانسـجام العبـارة، وحسـن تركيب الجملة، وحل عصر لم تراع فيـه تلـك الأصـول أو يتقيـد بهـذه القواعد[٨] ،بعد أن أهمل ترتيب الكلمـات وضبطهـا، والإعـراب الـذى يتيسر به عادة هذا الترتيب[٩] ،بل تدفقت الكلمـات في انسـياب وفـق انسياب الأفكار، وأهملت قواعـد النحـو، ولم تـراع أصولهـا، ولم يعـد الفعل يأتى في نهاية الجملة كما جرى الأمـر في اللاتينيـة الكلاسـيكية بـل صـار الفعـل يـأتي حيـث شـاء لـه الفكـر دون مراعـاة لقواعــد أو أصول[١٠] . ويستطيع القارىء الوقوف على مصادر الاضطراب فى النطق والهجاء ويلمس التغير العجيب الذى انتاب النحو فى القـرن السـادس وما تلاه[١١] . وهكذا حلت بمرور الوقت لاتينية عامية أو دارجــة محـل اللاتينية الفصحى، وصارت تلك اللاتينية الدارجة أما للغات الرومانية فى أوربا، وهى اللغات المشتقة عــن أصـل رومـانى لاتينـى كالفرنسـية والإيطالية والأسبانية والبرتغالية، فضــلاً عـن تـأثر اللاتينيـة الجديـدة باللغات القومية التى برزت فى أقطار الغرب مثل الألمانية والانجليزيـة والهولندية وغيرها[١٢] .

---

(٧) كرمب وجاكوب : تراث العصور الوسطى ص ٢٢٠ "الأدب- ترجمة محمد سـليم سالم ومراجعة بدران"

(8) Brunot in Petit de Julleville , Histoire de La Langue et de Ritterature Francaise , II , p. 471

(9) Fosler : The Spirit of Language in Civilization pp. 57-75

(١٠) عاشور : نفسه ج٢ ص ٤٢٤

(١١) تراث العصور الوسطى ، أشرف على تحريرها كرمب وجاكوب ص ٢٢٢

(١٢) وهيب سمعان : المرجع السابق ص ١٢٠ ، كانتور : نفسه ق١ ص ٣١٤

ولـم يكـن التدهـور فـي اللغـة اللاتينيـة قاصـراً علـى الأسلـوب و تركيب الجملة وإهمال قواعد النحـو ، بل أيضاً تخطـى كـل ذلـك إلى تدهور الخط نفسه وانحطاط الكتابة في الوثائق الحكوميـة المعـاصرة وكتابة المخطوطات، ودونت الكتب على رقائق من الجلد مقطوعة علـى هيئة مربعات قائمة الزوايا، والتي ميزت مخطوطات العصر الميروفنجي أو القوطي ، غير أن انتشار الجهل،وتدهور اللغة أدى الى فسـاد الخـط ووقوع الكتاب في أخطاء فادحة، أفسدت الكتابة كثيراً، ولعـل النظـر في الترجمة اللاتينيـة للإنجيـل فـي ذلـك العصر، توضح عظم هـذه الأخطاء وتعددها[١٣] .

ويشمل الأدب كما كان الحال في كل عصر، النثر والشعر فكـان تأثير كل من القديس جيروم والقديس أغسطين فيه عظيماً، بـل أنهمـا أرسيا دعـائم الأدب اللاتينـي فـي ميـدان النـثر دون جـدال[١٤]؛ الأول بترجمته للإنجيـل، وهـي التـي أصبحـت النسـخة اللاتينيـة المعتمـدة والمعترف بها في العالم، والتي حلت عملياً محـل النـص الأصلـي[١٥]، ومن خلال ذلك أغنى جيروم اللغة اللاتينية بمحصول جديد من التعبير اللغـوي ، إذ لم ينـس أبـداً جـيروم حبـه الدافـق لششـيرون أعظـم الخطباء"الذي اعتلى قمة الفصاحة الرومانية ، وأمير الخطبـاء ومهـذب اللغة اللاتينية[١٦] " ، والتقى فـي شـخص جـيروم التيـاران الروحيـان العظيمان ، وهما الأدب الكلاسيكي والإنجيـل ، ومـن شـخصه انبثـق هذان التياران مرة أخرى وامتزجا فـي تيـار واحـد إرتـوت منـه ثقافـة العصور الوسطـى [١٧]. أمـا الثاني فهـو القديـس أغسطين فقـد أسهـم

(١٣) عاشور : أوربا ج٢ ص ٤٢٤ – ٤٢٥
(١٤) عاشور : أوربا ج٢ ص ٤٢٥
(١٥) كولتون : عالم العصور الوسطى ص ٥٣
(١٦) دوسن : تكوين أوربا ص ٦٧ – ٦٨
(١٧) دوسن : نفسه ص ٦٩

بكتاباته اللاهوتية لاسيما "مدينة الله" و " الاعترافات " فـى إرسـاء دعـائم الأدب اللاتينـى . فقـد تـأثر اللاهـوت والقوانـين والتشـريعات والتـاريخ بشـكل واضـح بترجمـة الإنجيـل إلى اللاتينيـة التـى وضعهـا جيروم، الذى قدم لقـراء العصـور الوسـطى – علـى حـد قـول الكتـاب والمؤرخين – ذلك المزيج الممتاز من الفكر والأدب العتيق[١٨]، فى حـين قـادت كتابـات الثـانى (أغسـطين) فـى الإعترافـات بـالزهد والتقـوى والورع، وظهرت فى قالب فلسفى يتسم بطابع أفلاطونى حديث، كان له أثر فى فلسفة العصور الوسطى[١٩].

كذلك بـرز كتـاب فـى مجـال النـثر فـى تلـك الحقبـة والحقبـة التالية، كتبوا فى مجالات مختلفـة فـى اللاهـوت والتـاريخ والسياسـة والفلسفة، لعل أبرزهـم سـلبكوس سـفروس **Selpicius Severus** الـذى أظهر ميولاً دينية، وأعجب بالرهبنة والرهبان، فصنف مؤلفاً عن حيـاة القديس مارتن التورى، فكان لهذا الكتاب فضل عظيم فى نشر الديريـة فى الغرب الأوربى، فضلاً عن تمـيز أسـلوبه اللاتينـى بالدقـة وسـلامة الـتركيب، ممـا أضـاف إلى النـثر ثـراء فـى تلـك الحقبـة[٢٠] . وهنـاك شخصية أخرى قال عنه المؤرخون أنه يمثل روح ولغة العصور الوسـطى أصدق تمثيل وهو جريجـورى التـورى **Gregory of Tours** (٥٣٨ – ٥٩٤م)، فقـد لاحـظ الدارسـون خلـو كتاباتـه مـن أى أثـر للطـابع الكلاسيكى القديم أو التقاليد الوثنية، فضلاً عن أن كتابه عـن " تـاريخ ملوك الفرنجة " يعتبر مصدراً هاماً وأساسياً من مصادر تاريخ غالة فـى ذلك الوقت، ويمتاز بسهولة أسلوبه وخصب معلوماته[٢١] .

---

(١٨) موس : ميلاد العصور الوسطى ص ١٨٥

(19) Eyre : op. cit. p. 806

(20) Thompson : op. cit. v. 2, p. 798

(٢١) عاشور : أوربا ج٢ ص ٤٢٧ – ٤٢٨

أما بالنسبة للشعر فقد تغير تغيراً ملحوظاً، إذ أصبح يعتمد على أوزان إيقاعية، وتخلى عن المقاييس القديمة المعروفة، مما جعل الترانيم والأناشيد الكنسية تمتاز بنوع من الإيقاع الموسيقى، ساعد على استساغتها لدى العامة وانتشارها وبالتالى انتشار المسيحية بين الشعوب البدائية[٢٢]. ومن أبرز شعراء المسيحية القديس آمبروز فى القرن الرابع الميلادى، صاحب الترانيم المعروفة، والذى درس الأدب اليونانى، وكان يدين للمؤلفات اليونانية أكثر مما يدين لأى تراث آخر[٢٣]، كما عمد آمبروز إلى تزيين مواعظه بمقتطفات من فرجيل وهوراس، وانسابت الأشعار الدينية لتمثل لوناً هاماً من ألوان الشعر فى تلك الفترة، وامتازت بقدرتها على هز المشاعر وبعث الأمل فى النفوس، فضلاً عن القوة والقدرة على بث الحماسة والثقة فى قلوب أبناء المسيحية الأوائل، وزرع الخوف والهلع فى نفوس رجال السلطة الحاكمة الذين اضطهدوا أتباع المسيحية[٢٤]. ومن هؤلاء الشعراء كوميديان **Commodean** وبرونتيوس الأسبانى وبولينوس أوف نولا **Paulinus of Nola**، فى الوقت الذى ظل فيه شعراء غالة يحتفظون بكثير من التقاليد الكلاسيكية فى شعرهم، وبمذاق كلاسيكى وثنى مثل أوزونيوس **Ausonius** وسيدونيوس أبوليناريس **Sidonius Apollinaris** وفورتناتوس **Fortunatus** وغيرهم فى الفترة من القرن الرابع إلى القرن السادس الميلادى[٢٥].

وإذا كانت غالة قد أخذت بزمام النشاط الأدبى فى تلك الحقبة من فجر العصور الوسطى، فإن إيطاليا لم تتمكن من الإدلاء بدلوها فى

---

(٢٢) عاشور : أوربا ج٢ ص ٤٢٦

(٢٣) دوسن : تكوين أوربا ص ٦٦

(24) Waddell : Med Latin Lyrics , p. 297, عاشور : نفسه ج٢ ص ٤٢٦

(25) Thompson : op. cit. v. 2, p. 796

هـذا الميدان، قبل القرن السادس الميلادى بعد استقرار الأحوال فيهـا، تحت حكـم ثيودريـك القوطى، واحتـل الفيلسـوف بؤثيـوس (٤٧٠ - ٥٢٥م) مكانة بارزة بين أدباء الغرب المسيحى قاطبة، وعـد مـن أعظـم أدباء إيطاليا فى ذلك الوقت، فقد التقت فـى كتاباتـه مظـاهر الـتراث الكلاسيكي القديم والطابع الوثنى جنباً إلى جنب مع مثاليـة المسيحية وفلسفتها[٢٦] . ولعل أهم ما قدمه هـذا الفيلسـوف فـى هـذا الميدان إلى الفكر الغربى كتابه " سلوى الفلاسفة " الذى كتبه وهو فى قمة محنتـه فى السجن قبل أن يلقى ربه، حاول أن يقدم فيه ترجمة روحية لنفسه كما فعل أوغسطين فى الاعترافات، فأمد فيه بؤثيوس الغـرب الأوربـى ولعدة قرون بمعظم ما عرفه الغرب عن الفكر اليونـانى[٢٧] ،هـذا فضـلاً عن ترجمته منطق أرسطو إلى اللاتينية،وكان يهدف من وراء ذلك انقـاذ الثقافة اليونانية واللاتينية، التى رأى أنها آخذة فى الـزوال[٢٨] . ومـن إيطاليـا لدينـا مثـل آخـر لكـاتب مـن طـراز جديـد هـــو كاســيدورس Cassiodorus الذى كان وزيراً لثيودريك، والذى كتب رسـائل هامـة، ألقت الضوء على أحوال إيطاليا السياسية والحضارية على عهـد القـوط الشرقيين[٢٩]، ونشط كاسيدورس لإرساء دعائم حياة علمية فـى إيطاليـا وانشاء المؤسسات الثقافية، وكان يأمل فى تأسيس مؤسسة ثقافيـة فـى روما تضاهي مدرسة الاسكندرية فى مصـر وهـى التـى ذاع صيتهـا فـى الخافقين[٣٠] .

وعلى الرغـم مـن أن كاسيـدورس لـم يكـن شاعـراً أو فيلسوفـاً

(٢٦) عاشور : أوربا ج٢ ص ٤٢٨

(٢٧) وهيب سمعان : المرجع السابق ص ١١٢ - ١١٣

(28) Camb. med. hist. v. 3, p. 535

(٢٩) سعيد عاشور : أوربا ج٢ ص ٤٢٨

(30) Chadwick : op. cit. pp. 251 - 2

أو أديباً خالصاً، إلا أنه أثر كثيراً فى أدب العصور الوسطى، لأنه حاول إثبات أهمية العلوم الدنيوية وفائدتها فضلاً عن تحمسه ومثابرته على البحث والكتابة، وإيمانه أن الأديرة أكثر الأماكن ملاءمة للتعليم، كما اعتبرها المراكز الأدبية فى المجتمع الجديد(٣١).وفيما عدا كتاب" تاريخ القوط " للمؤرخ جوردان **Jordans** لم يصلنا من إيطاليا مدونات تاريخية من العصر القوطى وربما تكمن أهمية هذا المؤلف فى أنه أول كاتب من البرابرة يصلنا انتاجه المدون، الذى تميز بأسلوبه اللاتينى الخشن المحشو بالقصص والأساطير الجرمانية(٣٢) ، على الرغم من أنه أطلق لنفسه الحرية فى استعمال المصادر التى وجدها، ولكنها كانت باللاتينية وكان هو أجنبى عنها وعلمه بنحوها وصرفها لم يكن قد استقر(٣٣) . ولكن على الرغم من ذلك أسهمت إيطاليا فى تقديم الكتابة التاريخية التى هى نوع من النثر التاريخى الأدبى .

أما أسبانيا فقد أنجبت كاتباً قديراً هو أروزيوس **Orosius** الذى تتلمذ على أوغسطين، والذى صنف مؤلفاً بعنوان : " سبع رسائل تاريخية للرد على الوثنيين " . وقد كتبه فى القرن الخامس الميلادى ليقدم قاعدة أصيلة للمادة التاريخية لمؤلفات عالم العصور الوسطى(٣٤). وعلى الرغم من أن هذا الكتاب لايعتبر تاريخاً حقيقياً، إلا فى الجزء الأخير منه المنتهى بحوادث سنة ٤١٧م ،إلا أنه حاز شهرة كبيرة فى العصور الوسطى فى أوربا(٣٥). هذا وقد ظهرت شخصية أخرى فى أسبانيا على عهد القوط الغربيين هى شخصية إيسيدور أسقف اشبيلية

(٣١) كانتور : التاريخ الوسيط ق١ ص ٢٦٧

(٣٢) عاشور : أوربا ج٢ ص ٤٢٩

(٣٣) كرمب وجاكوب : تراث العصور الوسطى ص ٢٢٠

(34) Heer : op. cit. p. 278

(٣٥) عاشور : نفسه ج٢ ص ٤٢٩

المتوفى سنة ٦٣٦م والذى كان بارعاً فى التعبير امتازت كتابته بأسلوبها الرشيق وحلاوة التعبير وعكست نضج تفكيره وخصوبته وعمقه[٣٦]، ولذلك أعطى إيسيدور لهذا القطر الأوربى دوره فى التطور الأدبي، وعده المؤرخون أعظم موسوعى أو كاتب موسوعات فى كل العصور، فقد بدأ بالعلوم الدينية، وتقدم مع التاريخ والجغرافيا والعلوم الطبيعية والفولكلور وغيرها[٣٧]، ليضع أسبانيا على خريطة الكتابة والنثر التاريخى والعلمى .

غير أن الاهتمام بالدراسات الكلاسيكية أخذ يخبو شيأ فشيئاً، حتى اعتلى البابا جريجورى الاول أو العظيم (٥٩٠- ٦٠٤م) الكرسى البابوى، فراح يصرف الجهود حوله نحو التبشير والوعظ والإرشاد ودراسة حياة القديسين والدراسات اللاهوتية فأسهم بذلك فى صرف الأبصار عن الآداب والأبحاث الكلاسيكية[٣٨]. إذ يشير المؤرخون إلى أن هذا البابا شعر بالخزى يوماً عندما سمع أن أسقفاً كان يدرس آداب اليونان والرومان القدماء ودراسة فرجيل مع امتداحه لجوبيتر بوصفه رب الأرباب[٣٩]، ولهذا كرس هذا البابا جهوده نحو الدراسات اللاهوتية، فبدأت الكتب والمجلدات الخاصة بتراث اليونان والرومان القدماء تقل نسبياً[٤٠]،وراح الناس ينصرفون عن دراسة الآداب القديمة.

---

(36) Camb. Med. Hist. V. 3, p. 501

(37) Seidlmayer : op. cit. p. 12

(38) Suillivan : Heirs of the Roman Empire , pp. 1-8 , p. 48-9
LaMonte : The world of the Mid. Ages , p. 13 , pp. 72-9
Seidlmayer : op. cit. pp. 3 -4

(39) Pool : Medieval thought and leerning ,7 ,
وكولتون : عالم العصور الوسطى ص ٥٤

(٤٠) كولتون : نفسه ص ٥٤

ثم جاء إغلاق جستنيان لمدارس أثينا الفلسفية القديمة سنة ٥٢٩م[٤١]، وتأسيس القديس بندكت لديره المعروف فى مونت كاسينو فى نفس الوقت تقريباً عاملاً هاماً بالنسبة لأفول نجم الأدب القديم فى الغرب الأوربى[٤٢]. فالمسيحية على حد قول بعض المؤرخين هى التى أنضبت حصن الأدب القديم والنظم القديمة، لأن الكنيسة المسيحية سرعان ما شعرت بحاجتها إلى إعلان النضال على الثقافة اليونانية والرومانية القديمة، لأنها كانت مضطرة إلى معاداة كل ما كان نتيجة لمعتقدات فاسدة[٤٣].

ولكن على الرغم من كل ذلك، فقد ساعد إعجاب بعض المعاصرين بسحر الأدب اللاتينى الكلاسيكى وسمو مستواه على حفظ ذلك التراث من الضياع؛ ومحاولة تنصير الثقافة القديمة لا القضاء عليها؛ وقد بلغ ما حفظ من تلك الثقافة القديمة حداً قيل معه أن عمل العصور الوسطى كان تنصير الثقافة اليونانية والرومانية القديمة لا القضاء عليها، ذلك أنه كان لسحر الثقافة اللاتينية واليونانية من الجاذبية والقوة ما يجعلها عظيمة التأثير[٤٤]،هذا فضلاً عن رغبة ملحة أظهرتها الطبقة المثقفة فى المجتمع الأوربى لحفظ التراث الرومانى القومى من جهل البرابرة الذين تدفقوا على غرب أوربا وهددوا حضارتها فى القرنين الخامس والسادس الميلاديين،فقد كان لهؤلاء مشاغل أخرى وخط آخر،وكانت ثقافتهم تسير فى طريق الاضمحلال[٤٥] ولايمكن مقارنتها

---

(41) Vasiliev : op. cit. V. I, p. 150
Osttogorsky : op. cit. p. 71

(42) Seidlmayer : op. cit. p. 45

(٤٣) كرمب وجاكوب : تراث العصور الوسطى ص ٢٥٣

(٤٤) كرمب وجاكوب : تراث العصور الوسطى ص ٢٥٣ – ٢٥٤

(٤٥) كرمب وجاكوب : نفسه ص ٢٦٠

بالثقافة اليونانية أو اللاتينية . وبالاضافة إلى ذلك كله ظهـرت نهضـة عظيمـة فـى أيرلنـدا فـى القرن السابع وأوائل الثامن لأن المسيحية أكسبت الأيرلنديين حوافز روحية جعلت منهم فى أظلم مراحل التاريخ الأوربـى – أول أنـوار الثقافـة المسـيحية(٤٦) . وقـد يبـدو غريبـاً أن الأيرلنديين الذين لم يكونوا من العالم الرومانى والانجليز الذيـن كـانوا حتى القرن السادس قوماً وثنيين لاتربطهم بعالم البحر المتوسط صـلات هم الذين قاموا بهذا الدور الكبير فى تكوين أوربا الأولى(٤٧) .

وتزعمت الكنيسة والأديرة الأيرلندية هذه النهضة ، وقدر لهـا أن تحفظ الكثير من مظاهر التراث الأوربى الكلاسـيكى مـن الضيـاع ، فقـد جلبت البعثات التبشيرية التـى بـدأت تنشـر المسيحية معهـا نظامهـا التعليمى الشامل(٤٨) ،وغدت أيرلندا بفضل نهضتها مركز إشـعاع فكـرى وسط ظلمة انتشرت ومظاهر فوضى سادت واضطراب استشرى فى بلاد الغرب الأوربى(٤٩) . وأدى حب الأيرلنديين للهجـرة إلى انتشـار مظـاهر نهضتهـم وذيوعهـا فـى الأقطـار المجـاورة ، فضـلاً عمـن قصدهـا مـن الدارسين للتعلم والدراسة متتبعين الطرق القديمة للتجارة مـن اللـوار إلى كورك Cork فـى نحـو ثلاثـة أيـام(٥٠) . وتحمـل الأيرلنديـون الذيـن لم ينعموا قط بثمار الحضارة الرومانية الكثير فى سبيل تأسيس العديد مـن المكتبات الكـبرى التـى كـانت تضم النصـوص الكلاسـيكية ، وبرعـوا فى اللغـة اليونانيـة ، كمـا صـار العلمـاء الانجليـز فى القـرن السابـع

---

(٤٦) فشر : تاريخ أوربا ق٢ ص ٣٠٩

(٤٧) كانتور : التاريخ الوسيط ق١ ص ٢٨٢

(٤٨) كانتور : نفسه ص ٢٨٥

(49) Rowling : op. cit. pp. 137- 8

(50) Ibid. p. 131

وأوائل القرن الثامن أتباعاً متعصبين للكنيسة الرومانية[٥١] .

واستمر تقدم النهضة الأوربية خاصة بعد ان تزعم الأيرلنديون حركة تأسيس لأديرة شهيرة في قلب القارة الأوربية ، ظلت رمزاً لنهضة أوربية فكرية ودينية عدة قرون[٥٢] ،إذ كان الرهبان الأيرلنديون يمثلون استثناء من حيث رقى تعليمهم وغيرتهم الدينية ، فقد قاموا بأعمال تبشيرية ممتازة، كما كانوا رواداً في تحويل الوثنيين إلى المسيحية ، وفى محاولات إصلاح الكنيسة[٥٣]. وبلغت هذه النهضة ذروتها في القرن الثامن على عصر بدى **Bede** (٦٧٥- ٧٣٥) الأديب الانجلو-سكسونى الذائع الصيت الذى يعطينا صورة واضحة للنهضة فى ذلك الوقت[٥٤]، فقد تخرج بدى من أحد الأديرة فى شمال انجلترا فصار أعظم الباحثين الأنجلو - ساكسون[٥٥]، وغدا بعد ذلك يمثل مرحلة اكتملت فيها صورة الأدب اللاتينى فى العصر الوسيط، فضلاً عن تضلعه فى كثير من العلوم، ومن هذه الجزيرة انبثقت أيضاً حضارة شمال غرب أوربا وبدأت تشع فيما حولها، وهى التى أثرت فى كثير من بقاع أوربا الجرمانية، وشدت غزاتها إلى الثقافة والحضارة المتأثرة بحضارة جنوب البحر المتوسط والشرق[٥٦] .ولم تكد تمضى أيام على وفاته حتى ولد ألكوين (٧٣٥- ٨٠٤م) الذى يعتبر حلقة الوصل بين النشاط الفكرى والأدبى فى أيرلندا وبريطانيا من ناحية وغالة وبقية الغرب من ناحية أخرى، والذى غدا أبرز أعلام النهضة التي تعهدها

---

(٥١) كانتور : نفسه ق١ ص ٢٨٢

(52) Ibid. p. 138

(٥٣) كانتور : نفسه ق١ ص ٢٦٣

(54) Rowling : op. cit. p. 137

(٥٥) كانتور : التاريخ الوسيط ق١ ص ٢٨٥- ٢٨٦

(56) Seidlmayer : op. cit. p. 13, p. 15 , p. 35

شارلمان بالرعاية فى أواخر القرن الثامن الميلادى[٥٧]. حتى غدا ألكوين أحد مؤسسى الحركة الجديدة وأحد باعثى تلك النهضة[٥٨].

النهضة الكارولنجية :

وضح من العرض السابق أن الأدب اللاتينى تعرض للذبول والإضمحلال فى القرن السابع وأوائل القرن الثامن، ولولا الجهود التى بذلها الأيرلنديون للحفاظ على جانب من هذا التراث لتعرض للضياع والاندثار، ولأصبح من العسير التكهن بمصيره فى الفترة اللاحقة[٥٩]. ثم قدر لنهضة جديدة أن تبث فيه روحاً جديدة وتمنحه قوة دافقة هى النهضة الكارولنجية، ومن حسن حظ أوربا والحضارة الأوربية أن الانحلال السياسى الذى ساد غرب أوربا فى القرن التاسع لم يستتبعه تدهور فى الدراسات الأدبية، مما جعل القرن التاسع والقرن العاشر يحتفظان بمستوى ثقافى مناسب لاسيما فى الشعر والتاريخ[٦٠].

فقد كان شارلمان رائد تلك النهضة الجديدة شغوفاً بشتى فروع العلم والمعرفة حفياً بالعلم والعلماء معنياً بوضع أسس نهضة كبيرة، ولذلك جعل بلاطه فى آخن (إكس لاشابل) ملتقى لأبرز علماء العصر وأكثرهم شهرة وعلماً، فجمع حوله العلماء من كافة أنحاء أوربا مثل ألكوين من يورك فى انجلترا وبولس اللمباردى **Paul the Deacon** من لمبارديا وجون سكوت **John the Scot** من أيرلندا[٦١]، وبطرس البيزى وثيودلف الأورليانى بالاضافة إلى سكرتيره ومؤرخه الشهير إينهارد

---

(٥٧) سعيد عاشور : أوربا ج٢ ص ٤٣١

(58) Seidlmayer : op. cit. p. 35

(59) Eyre : op. cit. V. 2, p. 363

(60) Camb. Med. Hist. V. 3, p. 517

(61) Keen : op. cit. P. 49

Einhard وتلميذه أنجلبرت[٦٢] .

وكانت النهضة الكارولنجية نهضة تعليمية ابتغى بها شارلمان تعليم الناس وتثقيف رجال الدين والرقى بهم وجعلهم فى مستوى لائق بالمهمة التى وكلت إليهم، إذ غلب على هذه النهضة الدين وطبعت بالطابع الدينى واتسع أفق القائمين عليها وطمحوا إلىالهيمنة على التعليم والثقافة، وحظى التدوين التاريخي والتأريخ باهتمام شارلمان والرجال الذين أسهموا فى هذه النهضة[٦٣] ، لذلك صنف إينهارد كتابه الشهير " حياة شارلمان " الذى غدا أهم كتب التراجم التى ألفت فى ذلك الوقت، والمثل الذى احتذته الكتابات فى هذا المجال فى العصور الوسطى، كما ألف بولس اللمباردى مصنفاً بعنوان " تاريخ اللمباردين"[٦٤] . غير أن الحوليات أو الكتب التى تسرد أحداث السنوات المتعاقبة برزت حينئذ كطريقة من طرق التدوين التاريخى، واقتنع شارلمان بأهميتها بصورتها التى وصلت إليه وأمر بإتباع طريقتها فى التدوين التاريخى، الأمر الذى أدى إلى أن تظل قائمة إلى نهاية العصور الوسطى[٦٥] .

والواقع أن هذا النوع من الكتابه التاريخية بدأ لأول مرة فى نورثمبرلاند بانجلترا حيث جرت عادة الأديرة هناك على تدوين

---

(٦٢) ألكوين من انجلترا وهو أنجلو - سكسونى (ت ٨٠٤) ، وبولس الشماس Paul the Deacon اللمباردى (ت ٧٩٩) وبطرس البيزى Peter of Pisa (ت ٧٩٥)، والقوطى الغربى ثيودلف أوف أورليان Theodulf of Orleans (ت ٨٢١م) والفرنجى الشرقى اينهارد Einhard (ت ٨٤٠م) .
أنظر : Seidlmayer : op. cit. p. 35

(63) Keen : op. cit. p. 49

(64) Rowling : op. cit. p. 28

(65) Thompson : op. cit. v. 2, p. 802

الأحداث أولاً بأول . ويبدو أن ألكوين هـو الذى نقل هـذا النظـام إلى غالة ، حيث جذب انتباه شـارلمان فـأمر الأديـرة باتباعـه فـى الكتابـة التاريخية[٦٦] . وهكذا عرفت هذه الحوليات بالحوليـات الديريـة ، وإلى جانب هذه الحوليات الديرية وجدت حوليـات ملكيـة ، كتبـت تحـت إشراف رجال البلاط وتناولت تاريخ الكارولنجيين ، منـذ تقسـيم شـارل مارتل المملكـة ، بـين أبنائـه. وفضـلاً عـن ذلـك وجـدت الكتـب التـى تتحدث عن سير القديسين ، وكذلك كتـب التـاريخ العـام التـى تتنـاول الحوادث وأخبار الحروب المختلفة[٦٧] . وتدل المخطوطات التى ترجـع للعصر الكارولنجى على أن العالم الكـارولنجي أفـرز نمـاذج تـدل علـى التخطيط والإبداع ، فبينما تكاد تستحيل قـراءة الخـط الميرفنجى ، فـإن قارىء اللاتينية يمكنه قراءة الوثائق والمخطوطات الكارولنجية فى يسـر وسهولة[٦٨] ،فقد حفظـت لنـا الأيـام مئـات الصفحـات مـن المدونـات التاريخية ... التى تغطى الفـترة فيمـا بـين سـنة ٧٥٠م وسـنة ٩٠٠م ،لأن ارتقاء التعليم فى ظل الدولة الكارونجية يعتبر مؤشـراً علـى تقـدم الحضارة وآية على تخطى آثار الغزوات الجرمانية[٦٩] .

ويحتل الشعر ركناً هاماً مـن أركـان النهضـة الكارولنجيـة ، فقـد كان الاتجاه السائد هو استعمال الشعر فى مختلف شئون الحياة، حتى أن معظم الأدباء المعاصرين أمثال ألكويـن وبولـس اللمبـاردى وثيودلـف الأورلياني وأنجلـبرت ، كتبـوا قصـائد شـعرية واسـتخدموا الشـعر فـى حياتهم، وكرس هؤلاء أنفسـهم لتنظيـم وترتيـب كراسـات مـن الشـعر اللاتينى، فضلاً عن اقتباسهم للنصـوص الكلاسيكيـة ، فقـد كـان بهـم

---

(66) Ibid. p. 802

(٦٧) سعيد عاشور : أوربا ج٢ ص ٤٣٣

(٦٨) كانتور : التاريخ الوسيط ق١ ص ٣٢١

(٦٩) كانتور : المرجع السابق ق١ ص ٣١٣

هوى إلى الإعتماد على المجموعات والمختارات الأدبية، فأضفوا بذلك مسحة ثقافية رومانية على البلاط الكارولنجى[٧٠]. ولم يمض ذلك العصر إلا وقد خلف لنا نحو سبعين أو ثمانين قطعة شعرية من أغانى المآثر التى عالجت بعض أعمال شارلمان وبعض الأحداث الهامة التى جرت فى عصره[٧١]، ثم ظهرت بعد ذلك الأناشيد القصصية التى تعبر عن الأعمال العظيمة للأبطال الوطنيين وتبرز فيها فضائل الشجاعة فى الحرب والولاء للدين، وكثيراً ما كانت هذه الأناشيد القصصية تدور حول شارلمان وبعض القادة والشخصيات العامة فى التاريخ الغربى[٧٢].

وكان الطابع الغالب على الشعر الكارولنجى هو الطابع الدينى لأن معظم ناظميه كانوا من رجال الكنيسة، حتى قام سدوليوس سكوت بترجمة أجزاء من الانجيل فى قالب شعرى، وما زالت بعض الأشعار الدينية تستخدم فى ترانيم الكنيسة حتى اليوم. وعلى أية حال فأهم ما يؤخذ على الشعر الكارولنجى بعده عن الحياة العامة، وضعف الصلة التى تربطه بالحياة الشعبية[٧٣].

وشملت النهضة الكارولنجية أيضاً العناية بالنثر والتدوين الأدبى، وجرى الاهتمام بإعادة نسخ المخطوطات القديمة فى القرن التاسع، حتى بلغ عدد تلك المخطوطات الكلاسيكية ،التى أعيد نسخها أكثر من ثلاثمائة مخطوط[٧٤] وأوضحت قوائم المكتبات والمخطوطات التى جرى إحيازها وإعادة نسخها ، أن النهضة

---

(٧٠) كانتور : نفسه ق١ ص ٣٢٠
(71) Camb. Med. Hist. v. 6, pp. 816-24
(٧٢) وهيب سمعان : الثقافة ص ١٢١
(٧٣) سعيد عاشور: أوربا ق٢ ص ٤٣٤
(74) Thompson : op. cit. V. 2, p. 802

الكارولنجيــة أولــت مجاميــع كبـيرة من الكتب عنايــة كبيرة ، وهذه الكتب تضمنت الكتب المسيحية المقدسة وكذلك الكتب الوثنية[٧٥]. فقد وجدت مكاتب نسخ نشطة وكبيرة فــى إثنــى عشـرة مدرسـة ديريـة أو أكثر، فضلاً عن تلك المكاتب التى وجدت فى الأديرة والتى أسســها أو أعاد لها النشاط من جديد الرهبان الانجلوسكسـون أو الأيرلنديـون فـى القرن السابع والثامن، وهذه المكاتب حفظت نصـوص الكتـاب المقـدس وجميع كتابات الآبـاء ونشـرتها، ويمكـن الوقـوف علـى مـدى الجهـد الثقافى الذى كرسه علماء القـرن التاسـع لدراسـة الكتـاب المقـدس مـن خلال المخطوطات المصـورة الرائعـة التـى أنتجوهـا[٧٦] . وبـرز ألكويـن كرائد لتلك الحركة العظيمة الذى اهتم كثـيراً بتصحيـح ونسـخ وتنظيـم المخطوطات التى تعرضت للإهمال والـتزييف فـى الفـترة بـين القرنـين السادس والثامن، وأهم ما قام بــه ألكويـن فـى هـذا المجـال مراجعتـه للترجمة اللاتينية للكتاب المقـدس مراجعـة دقيقـة شـاملة، فضـلاً عـن نشره ما يخص طقوس الخدمة الكنسـية الرومانيـة وهـى التـى صـارت أساساً لما عرفه العالم الغربى فى العصور الوسطى فى هذا المجال[٧٧] . فقد كان ألكوين يناضل فى سبيل فرض نمط من التعليم الأساسى علـى الكنيسة الكارولنجية[٧٨] .

أما فيما يتعلـق بـالأدب الجرمـانى القومـى، فـالواقع أنـه كـان يحاول أن يجد له طريقاً وسط هذه التيارات التى مـاجت بهـا حضـارة الغرب الأوربى الكنسية والكلاسيكية. وكان شارلمان نفسـه بحكـم كونه جرمانياً فى أصله وطبيعته حريصاً على أن يترك الفرصة لهـذا الـتراث

(75) Rowling : op. cit. p. 29

(٧٦) كانتور : التاريخ الوسيط ق١ ص ٣١٩ - ٣٢٠

(77) Keen : op. cit. pp. 49 -50
Rowling : op. cit. p. 28

(٧٨) كانتور : المرجع السابق ق١ ص ٣١٩

الجرمانى ليجد لنفسه ذلك الطريق، فإذا كان شارلمان قد شجع على إحياء الدراسات اليونانيـة والرومانيـة القديمـة، فقـد جمـع فـى نفـس الوقت الأساطير التيوتونية القديمـة[٧٩] ، بـل حـاول أن يجمـع قواعـد اللغة الجرمانية، وأطلق على الأشـهر وعلـى الريـاح أسمـاء جرمانيـة، كذلك حاول شارلمان حين شعر بقـرب زوال مجـد التيوتـون الوثنـى أن ينقذ أناشيدهم من خطر النسيان[٨٠] ، فاحتفظ بمجموعـة مـن الأغـانى والأشعار الجرمانية التى كانت معظمهـا أناشـيد فـى الحـب والحـرب والمغامرة ، والتى وقفت الكنيسة منها موقفاً معادياً باعتبارها صورة مـن صور الوثنية ، فاضطر لويس التقى خليفة شارلمان إلى إحراقها وتسـبب فى حرمـان الأجيـال اللاحقـة مـن مصـدر خصـب لـلآداب الجرمانيـة والأصول اللغوية لذلك الأدب[٨١] .

وهكـذا جـاءت النهضـــة الكارولنجيـة بعثـاً جديـداً لـلآداب الكلاسيكية ومجددة الاهتمام بالتدوين التاريخى والشـعر والنـثر ونسـخ المخطوطات وإعادة تصحيحها وتنظيمها بعد فترة إهمال وضيـاع لذلـك الـتراث[٨٢] ، فظهـر فـى آداب العصـــور الوســطى وبفضـــل النهضـــة الكارولنجية سمات هامة لم يعرفها الأدب من قبل من سلاسة العـرض إلى وضع التعليقات إلى الملحمة السكسونية القديمة التى بقيت شـذرات منهـا ، إلى الأقـاصيص التـى لاتحصـى عـن القديسـين إلى الترجمـات والاقتباسات من النصوص اللاتينيـة[٨٣] . وشملت تلك النهضة غالـة وجـزءاً مـن ألمانيـا باعتبارهـا الجهـات التى مثلت قـلب الامبراطوريـة

(٧٩) كرمب وجاكوب : تراث العصور الوسطى ص ٢٦٦

(٨٠) كرمب وجاكوب : المرجع السابق ص ٢٦٧

(٨١) عاشور : أوربا ج٢ ص ٤٣٥

(٨٢) كانتور : نفسه ق١ ص ٣١٩ – ٣٢٠ ، Rowling : op. cit. p. 29

(٨٣) كرمب وجاكوب : تراث العصور الوسطى ص ٢٦٧ – ٢٦٨

الفرنجية فى القرن التاسع، لكن مالبثت ألمانيا أن نهضت فى ظل الأسرة السكسونية فى القرن العاشر، واستتبع ذلك انتقال النهضة الأدبية إلى شمال ألمانيا حيث ازدهرت فى أديرتها(٨٤) .

وكما كان شارلمان باعث النهضة الكارولنجية فى غالة والامبراطورية الفرنجية أصبح الامبراطور أوتو العظيم باعث النهضة الجديدة فى ألمانيا والامبراطورية الجديدة، حيث أخذت الثقافة فى ألمانيا تزدهر وتنشط فى رعاية ذلك الامبراطور العظيم(٨٥) . وكان برونو Bruno رئيس أساقفة كولونيا (ت ٩٦٥) رائد تلك الحركة الفكرية والذى أظهر حماسة بالغة فى تشجيع العلم والثقافة، كما دفعه ولعه بعلوم القدماء إلى تعلم اللغة اليونانية من الرهبان الأيرلنديين فى ألمانيا؛ فضلاً عن إسهامه مع بعض الأساقفة فى تأسيس المدارس الكتدرائية التى بدأت تبرز وتتفوق على المدارس الديرية منذ منتصف القرن العاشر الميلادى تقريباً فى عهد النهضة الأوتية(٨٦) . وأنجبت هذه النهضة الأوتية أو السكسونية بعض أعلام الفكر أيضاً من المؤرخين وكتاب القصص الدرامية، أصحاب الأسلوب اللاتينى الممتاز والكتابة الأدبية الرفيعة المستوى(٨٧) . فقد أدار برونو ورفاقه من كبار الأساقفة العمل فى ألمانيا ليجمعوا بين واجباتهم الدينية تجاه رعاياهم وبين الخدمات السياسية التى يؤدونها للامبراطورية، مع تشجيع كبير لكل أنواع الثقافة وأدوات التقدم والرقى(٨٨) .

---

(84) Keen : op. cit. pp. 28- 9 , Rowling : op. cit. p. 65

(٨٥) سعيد عاشور : أوربا ج٢ ص ٤٣٥ - ٤٣٦

(86) Seidlmayer : op. cit. p. 44

(٨٧) عاشور : المرجع السابق ج٢ ص ٤٣٦

(88) Seidlmayer : op. cit. p. 44

ولم تلبث إيطاليا أن أسهمت فى هذه النهضة الجديدة فى القرن العاشر بموهبة فذة فى شخص ليتوبراند أسقف كريمونا (ت ٩٧٠م)[٨٩]، الذى أجاد اليونانية إجادة تامة، جعلت الامبراطور أوتو الأول يختاره مبعوثاً إلى القسطنطينية، ويمثل ليتوبراند شخصية الأديب المثقف الذى يجمع أشتات المعارف ،فبالاضافة إلى ما كتبه من أبحاث بعضها يتعلق بوصف الحياة والعادات فى الدولة البيزنطية خلف أيضاً أبحاثاً أخرى تجمع بين المعلومات التاريخية والجدل والهجاء والدعابات الفكاهية[٩٠]. ويبدو أن ما حازه ليتوبراند من معارف أدبية ولغوية، إنما يرجع الفضل فيه إلى أنه تخرج فى مدارس إيطاليا العلمانية التى احتفظ النحويون فيها بشىء من خطابة العصور الرومانية السابقة ولهذا نافس خريجوها العلماء الديريين فى علومهم وفاقوهم فى الثقافة وقوة اللسان[٩١] .

وإذا كانت كل من ألمانيا وإيطاليا قد أخذت بزمام الحركة الفكرية فى النهضة الأدبية الجديدة، فإن فرنسا كانت فقيرة فى هذا المجال فى القرن العاشر، على الرغم من ازدهار مدارسها الكتدرائية فى شارتر وريمس وليون وأورليان وباريس فى الفترة التالية[٩٢] فكان متوقعاً أن تنجب فى القرن العاشر عدداً من المبرزين فى الأدب ليسهموا فى النهضة الأدبية التى شهدتها بعض أقطار أوربا فى ذلك الوقت[٩٣]. فباستثناء مؤرخين وحيدين كتبا فى التاريخ والأحداث المعاصرة لا نجد فى فرنسا ثمة انتاج خصب فى هذا المجال.

---

(89) Ibid. p. 45

(٩٠) عاشور : نفسه ج٢ ص ٤٣٦

(٩١) دوسن : تكوين أوربا ص ٣٥١ – ٣٥٢

(92) Heer : op. cit. p. 97

(93) Seidlmayer : op. cit. , pp. 44-45

أما المؤرخ الأول فهو فلودوارد Flodoard مؤلف حوليات ريمس (٩٢٢- ٩٦٦م)، الذى امتاز بالدقة والأمانة فيما عرض له من أحداث، بينما كان الثانى ريتشر Richer مؤلف " أربع رسائل في التاريخ" الذى حاول أن يؤرخ لانقلاب سنة ٩٨٧م الذى أسفر عن قيام أسرة كابيه في حكم فرنسا والذى تميز أسلوبه بالصعوبة والخشونة(٩٤).

كان القرن العاشر إذن وكما هو واضح قرن نشاط أدبى وفكرى فى غرب أوربا بعكس القرن الحادى عشر الذى جاء قرن ركود من هذه الناحية، ويبدو أن الظروف المختلفة التى مرت بها أوربا فى ذلك القرن، مثل انتشار حركة الإصلاح الكلونية والنزاع حول التقليد العلمانى بين البابوية والامبراطورية، وازدياد نفوذ البابوية فى الغرب، وغزو النورمان لصقلية وجنوب إيطاليا، فضلاً عن غزوهم لانجلترا وقيام الحروب الصليبية بعد ذلك كل هذا كان له أثر فى صرف أنظار الناس عن النشاط الأدبى والأدب(٩٥) ، فمضى ذلك القرن دون أن يخلف لنا شيئاً ذي بال باستثناء ما تركه فى ميدان التدوين التاريخى وأبرز المؤرخين فى ذلك القرن هو آدم أوف بريمن Adam of Bremen وهو صاحب كتاب " أعمال رؤساء أساقفة هامبورج " الذى يحوى معلومات تاريخية هامة عن شمال ألمانيا، ولاسيما عن القبائل السلافية على نهر الإلب(٩٦) ، ولهذا المؤلف كتاباً آخر عن أحوال اسكنديناوة وأيسلند وجرينلند فى تلك العصور ، عالج فيه أحوال تلك البلاد من كافة النواحى التاريخية والجغرافية والبشرية والاقتصادية ، خاصة تجارة الفراء وما كان تمثله من أهمية لسكان نوفجرود ،وكيف جعل الفراء الروسى الألمان سادة بحر البلطيق، وكيف ناضل تجار الفراء فى سبيل

(٩٤) عاشور : أوربا ج٢ ص ٤٣٧

(95) Thompson : op. cit. v, 2, p. 804

(96) Heer : op. cit. p. 86, p. 354 , عاشور : نفسه ج٢ ص ٤٣٧

تجارتهم[٩٧] . وهناك راهب يدعى برونو كتب على عهد الامبراطور هنرى الرابع كتاباً بعنوان " تاريخ ثورة سكسونيا " تميز بتوخى الدقة والأمانة فى عرض الأحداث . وبالإضافة إلى هذه الكتب التاريخية التى ظهرت بألمانيا فى القرن الحادى عشر ظهرت بعض التراجم التى ترجمت لبعض أعلام الأساقفة[٩٨] ، وفى فرنسا وإيطاليا ظهرت بعض كتب التاريخ وتناولت الأحداث الهامة ، مثل غزو النورمان لجنوب إيطاليا وأخبار كبار الآمراء الإقطاعيين فى فرنسا مثل أمراء بيت أنجو Anjo ،فضلاً عن كتب التراجم مثل تراجم كبار أعلام العصر كأميرة تسكانيا الشهيرة ماتيلدا[٩٩] .

وهكذا كانت الحركة الأدبية والفكرية فى أوربا بين مد وجزر، سمت فى أدوار لتصل إلى حد النهضة الشاملة ، ثم فترت فى أدوار لتصبح مجرد مظهر من مظاهر الحياة الفكرية العادية بين الشعوب الأوربية . فقد تبلورت فى شكل نهضة كبيرة فى القرن العاشر، ثم فترت فى القرن الحادى عشر[١٠٠] ،ثم عادت من جديد فى القرن الثانى عشر لتتحول إلى نهضة كبيرة فى مدارس الغرب الأوربى، نتيجة للأحداث التى مرت بها أوربا فى ذلك القرن، وما ترتب عليها من يقظة شعوب غرب أوربا من ناحية وزيادة الاتصال مع المسلمين فى الشرق والغرب من ناحية أخرة[١٠١] .

---

(97) Heer : op. cit. p. 86

(٩٨) عاشور : أوربا ج٢ ص ٤٣٧

(99) Thompson : op. cit. v. 2, pp. 804-5

(100) Keen : op. cit. pp. 28-9
Rowling : op. cit. p. 65
Thompson : op. cit. v. 2, p. 804

(101) Eyre : op. cit. pp. 269-70

على أن النشاط الأدبى والدراسات الانسانية احتلت مكاناً بارزاً فى تلك النهضة التى شهدها القرن الثانى عشر والتى بدأت منذ أواخر القرن الحادى عشر ،بل ربما منذ منتصف القرن الحادى عشر نفسه أى منذ سنة ١٠٥٠ ،وقد اتسم الازدهار الثقافى فى القرن الثانى عشر بأن مدى اهتمامه كان أوسع كثيراً من مدى اهتمام النهضات الأخرى[١٠٢] ، لذلك لم يكن النمو الثقافى محدوداً بحدود بلد واحد على الرغم من أن الزعامة كانت لفرنسا فى ذلك القرن، إذ أسهمت كل من انجلترا وألمانيا فى الانجازات الفكرية التى جرت فى القرن الثانى عشر[١٠٣] ، فجرى إحياء الأدب اللاتينى الكلاسيكى، بعد فترة ركود أصابته إبان القرن العاشر، وكان جربرت أوف ريمس Gerbert of Reims قد تولى حركة إحياء الأدب الكلاسيكى، فتوافد طلاب العلم من كل بقاع أوربا ليتعلموا على يديه، وبثورة غيرت نظم تعليم العصور الوسطى مهد جربرت الطريق لنهضة القرن الثانى عشر العظيمة فى أوربا[١٠٤] .

ثم انتقلت هذه الحركة من ريمس إلى شارتر على يد الأسقف فلبرت Fulbert الذى كان تلميذاً لجربرت، فأسس فى شارتر نظامه التعليمى العظيم، وعلى الرغم من أنه اهتم بدراسة الطب إلا أنه أظهر حماسة أيضاً لدراسة الأدب والشعر والقانون الرومانى والكنسى وقدم طلاب العلم من كل أنحاء أوربا للدراسة فى مدرسته[١٠٥] . وبرز فى ميدان الشعر اللاتينى شاعر موهوب هو هلدبرت أوف لافاردين Hildbert of Lavardin (١٠٥٦ - ١١٣٣م) الذى توفى وهو أسقف

---

(١٠٢) كانتور : التاريخ الوسيط ق٢ ص ٥٠٢

(١٠٣) كانتور : نفسه ق٢ ص ٥٠٢

(104) Rowling : op. cit. p. 168

(105) Ibid. pp. 173-4

تورز Tours .فربما يعد هذا المثل الفريد للشعراء اللاتين الكلاسيكيين فى عصره. والذى ترك أثره وبصمته على كل نهضة القرن الثانىعشر. فكانت أشعاره على شفاه كل الناس، فقد كان مؤلف قصائد الهجاء وترانيم الطقوس الدينية وقصائد المراثى(١٠٦) ، واشتهر بسلامة أسلوبه وجمال تعبيره خاصة فى تلك المراثى الرائعة والمؤثرة التى كتبها عن روما . وفضلاً عن ذلك أنجب القرن الثانى عشر الشعراء الفرنسيين والأسبان والألمان الذين ما زالت مؤلفاتهم تحظى بحفاوة وتقدير النقاد الأوربيين وتجذب جمهرة من القراء(١٠٧) .

ولم يجد الأدب الكلاسيكى القديم خطراً فى هذه المرحلة من قبل أولئك المنادين بإعدامه بحجة أنه صورة من صور الوثنية القديمة لأنهم كانوا قلة لايخشى منهم، ولكن الخطر الحقيقى الذى صادف الأدب الكلاسيكى فى ذلك القرن هو منافسة المعارف الجديدة له لاسيما منطق أرسطو والنهضة العلمية الجديدة فى العلوم والرياضيات والفلسفة والطب والقانون(١٠٨) ،لأن الأوربيين بحثوا فى ذلك الوقت عن نقطة انطلاق صوب اتجاهات وأبعاد جديدة فى شتى جوانب الحياة المتحضرة : فى الدين والقانون والحكومة والاقتصاد والاخلاق والتعليم والأدب والفن والفلسفة والعلوم(١٠٩) ، الأمر الذى لم يترك مجالاً واسعاً للدراسات الأدبية الكلاسيكية،ولكن برغم ذلك ظهرت كتابات لاتينية أدبية نالت الاعجاب والتقدير من المعاصرين(١١٠) .

---

(106) Heer : op. cit. p. 119

(١٠٧) كانتور : التاريخ الوسيط ق٢ ص ٥٦٠

(١٠٨) كانتور : المرجع السابق ق٢ ص ٥٠٢

(١٠٩) كانتور : نفسه ق٢ ص ٥٠٢

(110) Thompson :op. cit. v. 2 , p. 809 عاشور نفسه ج٢ ص ٤٣٩

وأسهم القساوسة الذين كان معظمهم من العاملين في الكاتدرائيات في كتابات القرن الثاني عشر بعد أن كان الرهبان هم غالبية الكتاب في الفترة السابقة مباشرة على ذلك القرن[١١١] ، وعلى الرغم من ذلك ظلت الأديرة البندكتية هي مراكز العناية بتلك النهضة الكلاسيكية وإحياء الآداب الكلاسيكية بحكم أقدميتها ووراثتها للنهضة الكارولنجية وبحكم عدم مشاركتها للمنظمات الديرية الجديدة في الاصلاحات الكنسية والزج بنفسها في التيارات السياسية المعاصرة[١١٢] . وظلت تلك الأديرة تؤدى دورها في الحفاظ على الدراسات القديمة حتى أسلمتها للمدارس الأسقفية التي التقت فيها العناية بالدراسات الكلاسيكية والعناية أيضاً بغير ذلك من العلوم الجديدة والمعارف المستحدثة وفي القرن الثاني عشر، كان هناك قدر هائل من الأدب يكتب باللغة اللاتينية بل إن بعضاً من أفضل القصائد اللاتينية ظهرت بعد سنة ١١٠٠م، كما أن الطقوس الكنسية الكاثوليكية ورثت تراثاً غنياً من القرن الثاني عشر[١١٣] .

ومن الجوانب الأدبية التي احتلت مكانة بارزة في آداب القرن الثاني عشر كتابة الرسائل وفن الإنشاء، كأحد جوانب البلاغة في ذلك العصر، فشهدت مدرسة بولونا، وهي أعظم مدارس القانون حينئذ ازدهار هذا الفن[١١٤]، ثم مالبث أن انتقل هذا النشاط إلى فرنسا، حيث برزت مدرسة أورليان في هذا الفن كثيراً، وتميزت الرسائل التي كتبت فيها، وكذلك في تورز على عهد فيليب أوغسطس(١١٨٠-١٢٢٣ م) ، بأنها كانت قطعاً راقية من النثر اللاتيني والأدب البليغ.

---

(١١١) كانتور : المرجع السابق ق٢ ص ٥٦١

(١١٢) عاشور : أوربا ج٢ ص ٤٣٩

(١١٣) كانتور : نفسه ق٢ ص ٥٦١ - ٥٦٢

(114) Keen : op. cit. p. 80 , pp. 125-6

فقد كان الأدب ينمو ويتطور خطوة خطوة وجنباً إلى جنب مع اللغة اللاتينية العامة والمتاحة فى ذلك الوقت[115]،فخلف هذا القرن نماذج هامة من الأدب الراقى، وقد تناولت تلك الرسائل محاورات خيالية بين الشتاء والربيع وبين الروح والجسد وبين الانسان والشيطان[116].

وكما حازت الرسائل الأدبية شهرة فائقة فى آداب القرن الثانى عشر، بلغ الشعر أيضاً درجة كبيرة من الرقى والكثرة والتنوع، غير أنه تأثر إلى حد ما بالشعر الكلاسيكى من جهة والطابع الدينى من جهة أخرى[117] . فقد ظهر الأثر الكلاسيكى جلياً فى قصائد الشاعر هلدبرت (المتوفى سنة ١١٣٣م) ، والذى سبقت الاشارة إليه لإبداعه فى قصائد الهجاء والترانيم الدينية والمراثى خاصة مراثيه فى روما، وما أصابها من محن وضياع مجدها السالف وعزها القديم[118] . فقد عد هلدبرت أعظم شعراء عصره دون جدال . وبرز الطابع الدينى أيضاً فى قصائد بعض شعراء ذلك القرن مثل أبيلارد[119] (١٠٧٩ - ١١٤٢م) ، إذ كان من رجال الدين ،واشتغل بالفلسفة . ونظم كثيراً من الأشعار والأناشيد الدينية، وكذلك ماربورد Mar Bod (١٠٣٥-١١٢٣م) ، وكان مؤلفاً لنوعين من الشعر : الشعر الغنائى الذى كرسه لسيدات الطبقة العليا فى المجتمع، وأيضاً الشعر الوعظى التعليمى المقدس وتوفى ماربود وهو أسقف رينز Rennes [120] ، وكتب قصائد فى

---

(115) Heer : op. cit. p. 98

(١١٦) عاشور : أوربا ج٢ ص٤٤٠

(117) Heer : op. cit. p. 97

(118) Ibid. p. 119

(119) Seidlmayer : op. cit. pp. 89- 90

(120) Heer : op. cit. p. 119

الحب والمغامرة بجانب أشعاره الدينية[١٢١] . وبرز الطابع الدينى أيضاً فى كثرة الاشعار الدينية التى عالجت سير القديسين وبعض قصص الكتاب المقدس، ولكن برغم كل ذلك فقد تنوعت أغراض الشعر وتعددت مجالاته، وعالجت القصائد معظم الفنون كالمدح والرثاء والقيم الخلقية والدينية[١٢٢] . وكانت الترانيم والاغانى هى أخصب أنواع الشعر فى ذلك الوقت وامتازت الترانيم الدينية، بأن معظمها دار حول القصة الأزلية المتعلقة بالله والانسان، كما جاءت فى الكتاب المقدس، وامتاز أسلوبها بالتفخيم واختيار الألفاظ الكفيلة بإضفاء المهابة والجلالة على الحياة الدينية، مثل الترانيم الجريجورية فى صيغتها المعروفة اليوم، ومثل قصائد سان برنارد وترانيمه الدينية[١٢٣] . ولقدأصبحت الترانيم الجريجورية أساس الطقوس الدينية فى العالم الرومانى الغربى[١٢٤] .

أما الشعر الغنائى، فقد ظهر منه نوع عرف باسم الشعر الجليياردى أو الشعر الجوليياردى **Goliardic Poetry** نسبة إلى شخصية مجهولة غامضة اسمها جولياس **Golias** أو جوليات**Goliath**، ويفترض أنه مرادف للشيطان[١٢٥] وظن الناس أنه مصدر الإلهام لشعراء هذا النوع من الشعر وهو يعبر عن العواطف الانسانية وحب الطبيعة والتعلق بمفاتنها ، وامتاز بطابعه الدنيوى وروحه الفكاهية الخفيفة التى عبرت

---

(121) Ibid. p. 119
(122) Ibid. p. 119
(١٢٣) كانتور : التاريخ الوسيط ق٢ ص ٥٦٢
(124) Keen : op. cit. pp. 49-50
Rowling : op. cit. p. 28
(١٢٥) كانتور : المرجع السابق ق٢ ص ٥٦٢

عن الرغبة فى الاستمتاع بلذات الحياة من شباب وخمر ونساء[١٢٦]، حتى عدها البعض قصائد شيطانية تحض على مغريات الحياة والمجون ، وجاء تعبيراً عن مدى التنوع والتعقيد فى حياة المجتمع فى القرن الثانى عشر[١٢٧] ،الأمر الذى جعله يتعارض تعارضاً تاماً مع آراء الكنيسة ورجال الدين، ولهذا فقد نفث الشعراء الجوليارديون عن ضيقهم تجاه رجال الدين بالسخرية اللاذعة منهم والنقد الحاد لهم، ولم يسلم من ذلك الأساقفة والبابوية ذاتها، بل والمسيح نفسه، مما أفزع الكنيسة وكان سبباً فى عقد بعض المجامع الدينية التى أعلنت تحريم هذا النوع من الشعر وإحلال اللعنة بناظميه[١٢٨] .

ويبدو أن معظم الشعراء الجوليارديين كانوا من طلبة العلم الجائلين الذين كانوا ينتقلون من مدرسة إلى مدرسة ومن بلد إلى آخر، يرددون شعرهم الخفيف ويجدون فى فكاهته بعض العزاء والسلوى من متاعب الحياة وآلامها، ففى شعرهم تعبير عن الشكل النمطى للطالب أو الدارس فى أى عصر من العصور، بطموحه الكبير واستخفافه الظاهرى بالأمور ومغامراته العاطفية والمرات التى يقبل فيها على شرب الخمر[١٢٩] . وأفضل ما تبقى من قصائد طلاب العلم هؤلاء كتبها اثنان من خريجى جامعات العصور الوسطى: الأول كبير الشعراء **Archpoet** الذى كان كاتباً فى حاشية المجلس الاستشارى لفردريك بربروسا[١٣٠]، وكان شاعراً لاتينياً مجهولاً وواحداً من أفضل الشعراء الجوالين ، وأطلقوا عليه هذا الإسم تعبيراً عن إعجابهم به وامتدح هذا

---

(126) Thompson :op. cit. V. 2, p. 807 , عاشور : نفسه ج٢ ص ٤٤١

(١٢٧) كانتور : المرجع السابق ق٢ ص ٥٦٢

(١٢٨) عاشور : أوربا ج٢ ص ٤٤١

(١٢٩) كانتور : التاريخ الوسيط ق٢ ص ٥٦٢

(١٣٠) كانتور : المرجع السابق ق٢ ص ٥٦٢

الشاعر المجهول فى قصائده الحب والخمر والنساء، ويبدو من قصائده أنه عاش فى ريف منطقة الراين بألمانيا وانتقد أيضاً الكنيسة، وتناولت قصيدته الشهيرة " الاعتراف " قصة شاعر يخوض فى الرذيلة والخمر والنساء وهى مصادر إلهامه، التى تمهد له الطريق إلى الفردوس، وفى أشعاره تمنى أن يموت فى حانة خمر[١٣١]، أما الثانى فهو هيو أوف أورليان Hugh of Orleans (١٠٩٠-١١٥٠م)، الذى كان رجل قانون كنسى بارز فى كتدرائية أورليان، وعد هيو هذا أبرز الشعراء الجولياردبين، فقد تعلم فى باريس وعلم بها، ثم فقد ثروته ومنصبه وانتقل إلى شمال فرنسا، فراح يخفف عن نفسه بهذا النوع من الشعر الفكاهى، وساعده على إجادة هذا الشعر ونبوغه فيه إجادته التامة وتعمقه فى الدراسات الكلاسيكية ومعرفته الجيدة بأوزان الشعر اللاتينى الكلاسيكى[١٣٢].

الآداب الشعبية والمحلية :

الواقع أن بقاء اللغة اللاتينية لغة الكنيسة والمتعلمين، جعل الأدب الغربى يعنى فى حقيقة الأمر الأدب اللاتينى[١٣٣]، على الرغم من أن ذلك لم يكن كل جوانب الحياة الأدبية فى العصور الوسطى، فلقد ظلت اللاتينية هى اللغة العالمية حتى القرن الثانى عشر، ولكن بعد ذلك بدأ استخدام اللغات المحلية فى العمل الإدارى وساحات القضاء وفى الحديث بين قطاعات كبيرة من الناس . حقيقة ظل هناك قدر هائل من الأدب فى القرن الثانى عشر يكتب باللاتينية، كما ظلت

---

(١٣١) انظر د. قاسم عبده قاسم : حاشية رقم (٣) فى ص ٥٦٢ من ترجمته لكتاب كانتور : التاريخ الوسيط ق٢ ص ٥٦٢

(١٣٢) عاشور : أوربا ج٢ ص ٤٤٢

(133) Thompson : op. cit. V. 2, pp. 796-8

الطقوس الدينية الكنسية تمارس باللاتينية[١٣٤] إلا أن ذلك لم يكن إلا جانباً واحداً من الصورة، فقد كان للناس لغاتهم المحلية التى نمت وتطورت بمرور الأجيال، وظل الناس يستعملون لهجاتهم الخاصة فى اتصالاتهم العادية[١٣٥] ،فأصبح لعامة الناس تبعاً لذلك تراثهم الخاص وأدبهم الشعبى الخاص بهم، إذ لم يكن عامة الناس يعرفون اللغة اللاتينية الفصحى التى تبلور حولها الأدب الغربى فى ذلك الوقت، بل عرفوا اللغة التى توارثوها عن أجدادهم سواء كانت هذه اللغة لاتينية دارجة أم لغة جرمانية . حقيقة لم تنهض اللغات الوطنية المحلية بالتعبير عن النشاط الأدبى قبل القرن الحادى عشر[١٣٦]، إلا أن عامة الناس من سلالة الجرمان والكلت كانت لهم آدابهم الشعبية وتراثهم المحلى، على الرغم من أنه أدب غير مدون، لكنه كان ينتقل من جيل إلى جيل على شكل قصص وأساطير حتى توارت إنجازات الأدب اللاتينى فى القرن الثانى عشر خلف ظلال المؤلفات الكثيرة التى كتبت باللغات المحلية آنذاك، وتسللت أيضاً هذه اللهجات شيئاً فشيئاً إلى الوثائق المكتوبة فى صورة شروح أو هوامش على النصوص اللاتينية وإلى الوثائق القانونية[١٣٧] . فقد كان من الشائع فى العصور الوسطى الباكرة أن تستخدم اللغة المحلية فى المحادثات العادية[١٣٨]، ولذلك كان هناك الأدب الرسمى أى اللاتينىالذى يزعم أصحابه، أنهم يواصلون السير على التقاليد اللاتينية، وهناك من ناحية إخرى الآداب القومية، وهى آداب لها بعض الحق فى أن تدعى أنهـا انتاج تلقائى للأمم الجديدة[١٣٩] .

---

(١٣٤) كانتور : المرجع السابق ق٢ ص ٥٦١

(١٣٥) كرمب وجاكوب : تراث العصور الوسطى ص ٢٧٥

(136) Thompson : op. cit. v. 2, p. 809

(١٣٧) كرمب وجاكوب : نفسه ص ٢٥٧– ٢٥٨

(١٣٨) كانتور : المرجع السابق ق٢ ص ٥٦٣

(١٣٩) كرمب وجاكوب : نفسه ص ٢٥٥ ، Heer : op. cit. p. 366

ولم يلبث تيار اللغات المحلية أو الوطنية، أن أخذ يقوى ويشتد فى الأدب اللاتينى، حتى لم يعد هذا الأدب فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر أدباً لاتينياً خالصاً، فمهد ذلك لظهور اللغات الحديثة الخاصة بمختلف بلدان غرب أوربا، مما يجعل النصف الأخير من ذلك القرن مرحلة انتقال من الأدب اللاتينى الخالص إلى الآداب الوطنية الناشئة[١٤٠] . وبدأاستخدام اللهجات الرومانسية الأدبية فى التعبير الأدبى فى ذلك الوقت، ولم يظهر الأدب الألمانى المحلى سوى عند نهاية القرن الثانى عشر أما فى إيطاليا فقد تأخر استخدام اللغة الدارجة قليلاً، نظراً لشدة تأثير اللاتينية على الأدب الشعبى وحول هذا التاريخ أيضاً، أنتجت اللغة الفرنسية التى انبثقت من اللغة الرومانية، التى كانت هى الصيغة الدارجة من اللاتينية الكلاسيكية، أنتجت أول مؤلفاتها الأدبية حوالى منتصف القرن الثانى عشر[١٤١] .

ويميل المؤرخون إلى تحديد المصادر التى نبعت منها الآداب المحلية فى العصور الوسطى وتعديدها، على الرغم من أن هذه المصادر كانت قد تداخلت وامتزجت تياراتها على مر السنين بعضها ببعض، مع احتفاظها بشىء من الفروق والاختلافات واضحة جلية، أى أن هذه المنابع الفكرية جرى دمجها فيما بينها بتقدم الأجيال والقرون، وإن ظلت محتفظة ببعض الفروق والتمايزات فيما بينها دون أن تمتزج إلا امتزاجاً غير مؤثر، لايلغى هويتها كلية أو يطمس معالمها على طول الخط[١٤٢] .

---

(١٤٠) عاشور : أوربا ج٢ ص ٤٤٣

(١٤١) كانتور : التاريخ الوسيط ق٢ ص ٥٦٤

(142) Thompson : op. cit. v. 2, p. 810

وبديهي أن تكون الآداب القديمة اليونانية واللاتينية، هي أقدم منابع هذه الآداب المحلية أو الوطنية في أوربا الوسيطة. فالتراث الكلاسيكي القديم كان له سحره وله جاذبيته، وليس من المتوقع أن تنمو آداب محلية دون أن تتأثر بذلك التراث العظيم، الذى ظل الكثيرون يجدونه ويرون فيه تراثاً خصباً لأمة عظيمة[١٤٣]. فلا زالت القصص والأساطير والروايات التاريخية القديمة معروفة ومتداولة بين الناس فى غرب أوربا، ولابد لها أن تجد طريقاً إلى عقول وفكر الأدباء المحليين فى كثير من بقاع أوربافى ذلك الوقت، ولهذا صار التراث الكلاسيكي بشقيه اليونانى واللاتينى منبعاً من منابع الفكر فى الآداب المحلية فى أوربا فى العصور الوسطى لأنه لم يختف فى أى وقت من الأوقات، وليس من الحكمة أن نفترض ذلك[١٤٤].

ثم أصبح الإنجيل مصدراً آخر للإلهام الأدبى مع انتشار المسيحية، وذيوع تعاليم الكنيسة،لأن الانجيل حوى موضوعات وقصصاً وأحداثاً صارت مادة للتعبير الأدبى، سواء كان ذلك نثراً أو شعراً[١٤٥]، بل أن لغة الكتاب المقدس، ربما أثرت تأثيراً كبيراً حتى فى أناس لايعرفون القراءة، ولقد امتزجت الفرنسية باللاتينية فى بعض الجهات امتزاجاً غريباً أثر فى لغة الناس، وبقى أثره حتى بعد أن شاعت المواعظ التى تكتب بالفرنسية والانجليزية والمستمدة من الإنجيل، أى باللهجات القومية، إذ يقول أحد المؤرخين، إن واعظاً أبكى المصلين فى ويلز بموعظة لاتينية مع أنهم لم يفقهوا من اللاتينية حرفاً[١٤٦].

---

(١٤٣) كرمب وجاكوب : تراث العصور الوسطى ص ٢٥٣-٢٥٤

(١٤٤) كرمب وجاكوب : نفسه ص ٢١٨

(١٤٥) عاشور : أوربا ج٢ ص ٤٤٤

(١٤٦) كرمب وجاكوب : تراث العصور الوسطى ص ٢٢٤ ، ص ٢٣١

وحملت الشعوب التـى غـزت أوربـا والتـى أسـهمت فـى صنـع التاريخ الأوربى الوسيط، مثل الكلت والجرمان والفيكنج، حملت معهـا تراثها القبلى الذى غدا مصدراً أيضاً من مصادر الأدب المحلى فى أوربا فى العصور الوسطى، إذ كان لهذه الشعوب تراثهم وأغانيهم الحماسـية وأبطـالهم الذيـن دارت حـول أعمـالهم وبطولاتهـم كثـيرمن القصـص والأساطير، فصار تراث هذه الشعوب مصـدراً للإلهـام الأدبـى. أيضـاً فى العصور الوسطى، فكان للجرمـان تراثهـم مثلمـا كـان للكلـت، بـل إن الفيكنج كانت لهم ثروتهم الأدبية التـى وصلـت إلينـا فـى الترجمـات المختلفة للساجات Sagas[١٤٧]، والقصـص الإخباريـة وكذلـك القصـص الإدية Eddic Poems ، التى تنم عن ثروة أدبية وفيرة وإحساس أدبـى مرهف[١٤٨]، خاصة ساجات أيسـلندا فـى القـرن الحـادى عشـر التـى يمكن وصفها بأنها قصص مزجت بين التاريخ والخيال فى حديثها عن الأعمال العظيمةلكبار المحاربين الاسكندنافيين[١٤٩].

وإذا كان التراث اللاتينى القديم والإنجيل وتراث شعوب الكلـت والجرمان والفيكنج مصادر هامة للإلهام الأدبى ومثلـت منـابع لـلآداب المحلية أو الوطنية فـى العصـور الوسـطى فقـد أسـهم تـراث المسـلمين وبعـض العناصـر الشرقيـة فى ذلـك أيضـاً ، وعـد أيضـاً أحـد المصـادر

---

(١٤٧) أنظر للمؤلف : – الممالك الجرمانية فى أوربا فى العصور الوسطى ص ٢٨٢
– تاريخ أوربا فى العصور الوسطى ص ٣٢٠ . وانظر أيضاً :
Haskins : The Normans in European Hist. p. 39
Trevelyan : Hist. of England , part I, p. 75

(148) Corpus Poeticum Boreale , I , p. 281

(١٤٩) أنظر المؤلف :– تاريخ أوربا فى العصور الوسطى ص ٣٢٠
– الممالك الجرمانية فى أوربا فى العصور الوسطى ص٢٨٣ .
وانظر أيضاً : Camb. Med. Hist. V. 6, p. 837

الهامة لـلآداب المحليـة فـى أوربـا فـى العصـور الوسـطى[١٥٠] . فقـد اتصلـت أسـبانيا والبرتغـال بـالعرب والأمـم الشـرقية اتصـالاً مباشـراً مستمراً، وكان أثرهم فيهما عظيماً جداً طبق جميع الأرجاء، كذلك فـى صقليـة وجنـوب إيطاليـا ومـن خـلال التجـارة ومـا حملـه البحـارة والصليبيون والحجاج، وإن كان أثر العرب من خلال التجارة والبحـارة والصليبيين أقل من أثرهم فى أوربا فى الجهات المشار إليها[١٥١]. فقـد التقى الأوربيون بالمسلمين وبعض العناصر الشرقية منذ بدايات العصـور الوسطى، وعبرت آداب المسلمين والعناصر الشـرقية المعـابر المعروفـة في طريقها إلى أوربا الغربية، منذ أن استولى المسلمون على أسبانيا وجنوب فرنسـا، وغـدت لهـم مراكـز هامـة بـين فرنسـا وإيطاليـا وعلـى طـول الساحل، ومنذ أن استولوا أيضاً على صقليـة وجنـوب إيطاليـا، فضـلاً عما حمله الصليبيون معهم إلى أوربا من مؤثرات الحضارة الإسـلامية في مجال الأدب، فلابد وأن كل ذلك كان لـه ضلـع فـى أن يكـون تـراث المسلمين والشرق أحد مصادر ومنابع الأدب المحلى فى أوربا في العصور الوسطى[١٥٢] .

على ان أهم الميادين التى ظهرت فيهـا الأداب الوطنيـة الناشـئة فى أواخر العصور الوسطى كانت : أشعار الملاحم وأشعار التروبـادور . أما الملاحم فقد أثبتت البحـوث الحديثـة أنهـا جـاءت عمـلاً ابتكاريـاً وليست تحويراً أو جمعاً لانتاج سابق، يعكس ما سـاد مـن اعتقـاد مـن قبل فى أن تلك الملاحم التى عرفتها العصور الوسطى، كانت وليدة نمو

---

(150) Thompson : op. cit. v. 2, pp. 811-12

(١٥١) كرمب وجاكوب : تراث العصور الوسطى ص ٢٦٦

(١٥٢) انظر د. سهير القلماوى ود. محمود على مكى فى كتاب أثر العرب والاسـلام فى النهضة الاوربية. ص ٢٤ وما بعدها .

أدبى بطىء[١٥٣] ، وأنها كانت فى القرن التاسع والعاشر نوعاً من الأغانى والقصص الشعرية حتى كانت الحروب الصليبية، فظهر بعض الكتاب الذين جمعوا هذه القصص والأغانى وحولوها إلى ملاحم مترابطة. وهكذا ثبت أن اللغات الوطنية كانت قد بلغت درجة من النضج فى القرن الثانى عشر سمحت لها بالتعبير عن المشاعر والمعارف فى شكل قصص خصبة قوامها النوازع البشرية المختلفة من حب وكره وخوف وأمل ويأس وغير ذلك [١٥٤] .

والمعروف أن الملاحم تعتبر مرآة تعكس صور المجتمع فى كافة النواحى الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والسياسية، فمثلما زخر تراث الشرق الاسلامى بمجموعة من الملاحم الهامة أو القصص الشعبية الذائعة مثل قصص سيف بن ذى يزن والاميرة ذات الهمة وأبو زيد الهلالى والظاهر بيبرس، كانت ملاحم الغرب الأوربى مرآة تعكس صورة المجتمع الوسيط هناك[١٥٥]. وتعتبر فرنسا مهد أكبر مجموعة من شعر الملاحم فى العصور الوسطى، وخاصة الملاحم التى تعكس صورة المجتمع الاقطاعى وحياة الفرسان، وارتبطت هذه الملاحم بشمال فرنسا بالذات، وكانت تصور أعمال البطولة وغيرها من جوانب الحياة فى مجتمع النبلاء الاقطاعيين، ومن المؤكد أنها كتبت لتسلية البلاط الأرستقراطى، ولذلك عكست حياة السادة الاقطاعيين، وجاءت صورة مثالية للحياة الاقطاعية[١٥٦] وأيضاً المجتمع الدينى هناك .

---

(١٥٣) سعيد عاشور : أوربا ج٢ ص ٤٤٤

(١٥٤) عاشور : نفسه ج٢ ص ٤٤٤-٤٤٥

(155) Heer : op. cit. p. 161

(١٥٦) كانتور : التاريخ الوسيط ق٢ ص ٥٦٥

وقد اتخذت تلك الملاحم شخصية شارلمان محوراً لكل ما صاغته من أشعار، واحتل هذا الرجل المكانة الأولى فى أغانى المآثر أو ما عرف باسم Chansons de Geste[١٥٧] التى دونت باللغة الوطنية والتى ذاعت شهرتها وانتشرت انتشاراً واسعاً فى عصر الحروب الصليبية . أما أغنية رولان Chanson de Roland ، فقد ظهرت لأول مرة على عصر الحملة الصليبية الأولى، واستوحت فكرتها من وحى الحروب بين المسيحيين والمسلمين في الأندلس واتخذت من شارلمان بطلاً مدافعاً عن المسيحية، وألبسته ثوباً صليبياً، وأضفت عليه حماسة صليبية[١٥٨] . وقد مكن أسلوب هذه الأغنية الجميل فى قالبه الفرنسى الناشىء الجامع بين البلاغة وقوة التأثير وروعة الصياغة مكن رجال الدين من استغلال هذه الاغنية فى الدعوة للحروب الصليبية فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر[١٥٩] ، فقد جعلت من شارلمان بطلاً مدافعاً عن المسيحية ضد المسلمين فى أسبانيا والفارس الذى استهل عهد الحروب الصليبية هناك[١٦٠] . ويتضح من هذه الأنشودة أن بطلها واحد من الكونتات وفّى بقسمه الذى قطعه على نفسه بالولاء لشارلمان، حتى لو أدى ذلك إلى موته المؤكد[١٦١] . وبحلول القرن الثانى عشر غدا بوق رولان أو النفير الذى استخدمه هذا الفارس فى الحرب وكذلك سيف شارلمان كنوزاً مستهدفة من جمهرة كبيرة لاتحصى من الحجاج المؤمنين الذين رغبوا فى التبرك والتمسح فى تلك البقايا التذكارية المقدسة[١٦٢] .

---

(157) Huizinga : op. cit. p. 282
Heer : op. cit. p. 162

(158) Heer : op. cit. p. 131

(١٥٩) عاشور : أوربا ج٢ ص ٤٤٥

(160) Camb. Med. Hist. V. 6. pp. 816-17

(١٦١) كانتور : التاريخ الوسيط ق٢ ص ٥٦٦

(162) Rowling : op. cit. p. 16

ويبدو أن كثيراً من أغانى المآثر هذه كانت نوعاً من الدعاية الدينية في العصور الوسطى، اتخذت شكل ملاحم كبيرة هدفت فى معظم الأحيان إلى تشجيع الناس على الحج إلى الأماكن المقدسة سواء فى فلسطين أو فى أوربا، وأن معظم هذه الأغانى كتبها رجال الدين لهذه الأغراض[١٦٣] .

غير أن نوعاً آخر من أشعار الملاحم نظم أيضاً باللغات الوطنية الناشئة، وهذه الأشعار هى المعروفة بأشعار الملك آرثر أو الأساطير الآرثرية[١٦٤] ، والتى تدور حول البطل الأسطورى الملك آرثر فى انجلترا وهو من الكلت البريتون، والذى اشتهر بنجاحه فى صد الغزو الانجلوسكسونى فى غرب بريطانيا فى مطلع القرن السادس الميلادى، وكسب عدداً من المعارك ضد الغزاة وذاع فيما بعد – خاصة فى القرنين التاسع والعاشر – أنه بطل مسيحى حارب ضد الأنجلوسكسون الوثنيين[١٦٥] ، ثم تحولت هذه القصة منذ بداية القرن الثانى عشر الميلادى إلى شخصية أسطورية، ثم صارت هذه الرواية أساساً لأعمال أدبية كثيرة، ظهرت فى فرنسا خاصة فى شمبانى، وكرست لها قصائد وروايات خيالية تمجد الفروسية وتمجد الفرسان كمحاربين من ناحية وحكماء مسيحيين من ناحية أخرى، وفى بداية القرن الثالث عشر تزايد عدد هذه القصائد وكتب بعضها بالألمانية[١٦٦] .

وصورت هذه الأساطير الآرثرية المجتمع الإقطاعى فى تلك الفترة

---

(١٦٣) عاشور : المرجع السابق ج٢ ص ٤٤٥ – ٤٤٦

(١٦٤) كانتور : المرجع السابق ق٢ ص ٥٧٥

(١٦٥) انظر : د. قاسم عبده قاسم : حاشية (٦) فى ص ٥٧٤–٥٧٥ من ترجمته لكتاب كانتور :التاريخ الوسيط .

(١٦٦) قاسم عبده قاسم : نفس المرجع ص ٥٧٥

في ضوء نظم الفروسية وتقاليدها الشائعة فى أوربا فى العصور الوسطى كما حاولت تصوير الفروسية على أنها نظام ديني مقدس تباركه الكنيسة وتشترك فى صنعه ويجرى طبعه بطابعها، إذ يجرى تدشين الفارس دينياً فى احتفال مهيب، ويصبح محتماً عليه قضاء الليلة السابقة لتدشينه بجوار مذبح الكنيسة ليتطهر من آثامه وشروره، ويغتسل بماء طهور طبقاً للطقوس الدينية، وتنتهى تلك الشعائر الدينية بالصلاة من أجل العذراء[١٦٧] . وكانت هذه الأشعار مصدراً لكثير من القصص الخيالي الذى انتشر فى جميع أنحاء أوربا[١٦٨] . وليس من قبيل المصادفة أن الرقعة التى انتشرت فوقها هذه القصص والأساطير الآرثرية بتلك السرعة تتطابق تماماً مع الوجود الكلتى الأول فى أوربا، وهى منطقة تمتد فى إقليم عريض يقع بين اسكنديناوة وثورنجيا وشمال إيطاليا[١٦٩] . ومن المحتمل أن آرثر كان شخصاً حقيقياً عاش فى القرن الخامس الميلادى، وكان أميراً مسيحياً مات وهو يحارب الغزاة الانجلوسكسون الوثنيين، وقام مواطنو آرثر بتحويله إلى بطل مسيحى ذى قدرات خارقة، وانتشرت الأسطورة الآرثرية باتجاه الشرق فى أنحاء أوربا بسرعة. وفى أثناء انتشارها كانت تزداد تعقيداً وعاطفية ... ومن شامبنى وصلت الملحمة الآرثرية إلى ألمانيا الغربية أواخر القرن الثانى عشر، فقد كانت تلك هى الفترة الإبداعية فى الأدب المحلى الألمانى[١٧٠] .

ويرتبط بموضوع الملاحم انتشار طبقة من الناس عرفهم الغرب الأوربى منذ مطلع العصور الوسطى ، وهم الرواة والمنشدون و الحواة

---

(١٦٧) عاشور : أوربا ج٢ ص ٤٤٦

(168) Keen : op. cit. pp. 81-2

(169) Heer : op. cit. pp. 164-5

(١٧٠) كانتور : التاريخ الوسيط ق٢ ص ٥٧٥

والمشعوذون، الذين دأبوا على التنقل بين الأديرة والحصون والأسواق والضياع وطرق الحجاج ينشدون أغانيهم الشعبية ويعرضون ألعابهم ويتعيشون من وراء ذلك، وشابهوا الغجر فى سوء سلوكهم الاجتماعى والخلقى الأمر الذى جعل الكنيسة تصدر عدة تشريعات ضدهم[١٧١] .

وأما النوع الثانى من الآداب المحلية أو الميدان الثانى الذى ظهرت فيه الآداب الوطنية الناشئة فى أوربا فى أواخر العصور الوسطى فهو شعر التروبادور والأشعار الغنائية، فليس من شك فى أن الشعر الغنائى المنظوم باللغات المحلية والوطنية نشأ أول ما نشأ فى جنوب فرنسا أو إقليم برفنسال على وجه التحديد أواخر القرن الحادى عشر وفى النصف الأول من القرن الثانى عشر[١٧٢]، وعلى الرغم من أن الشعر البروفنسالى يدين بقسط ما للشعر اللاتينى الذى عرفته العصور الوسطى، إلا أنه تأثر أيضاً بالموشحات الأندلسية العربية وهى الأشعار التى تدور حول الغزل العفيف والحب العذرى، والتى تتميز بخفة أوزانها ورقتها وخصب خيالها[١٧٣]. ويمكن القول أن الأسبان أخذوا عن العرب عناصر غنائية، ويرجح بعض الباحثين أن سلسلة من الملاحم الأسبانية ترجع أيضاً إلى تأثير العرب وما من شك فى أن العرب تركوا وراءهم ذوقهم وحبهم للجزالة الشرقية[١٧٤] .

وقد عرف الشعراء الذين تغنوا بهذا النوع من الشعر البروفنسالى باسم " التروبادور " وهى تسمية لايستبعد أن تكون تحريفاً لعبارة

---

(171) Thompson :op. cit. v. 2, p.820, عاشور : أوربا ج٢ ص ٤٤٦

(١٧٢) كانتور : نفسه ق٢ ص ٥٦٨

(173) Rowling : op. cit. p. 95

Heer : op. cit. pp. 173-4 , p. 316

(١٧٤) كرمب وجاكوب : تراث العصور الوسطى ص ٢٦٦

"طرب دور" بمعنى" دور الطرب"بالعربية[١٧٥]. وأول شعراء التروبادور الذى وصلت إلينا أشعاره هو وليم التاسع، وهو الكونت السابع لبواتيه والدوق التاسع لأكوتين (١٠٨٧- ١١٢٧م)[١٧٦] وهو الذى اشتهر بالمرح وحب الموسيقى والغناء، وعلى الرغم من أنه كان محارباً صليبياً فى الشرق وفى الأندلس، إلا أنه جلب على نفسه غضب وضيق رجال الدين بسبب أشعاره الداعرة الفاحشة وقصصه العديدة حول المرأة[١٧٧].

وما لبث شعراء التروبادور أن كثروا وراحوا يتجولون ويتنقلون من مكان إلى آخر، وقد حمل كل منهم قيثارته ليتغنى بأشعاره على أنغامها، ثم أصبح بعض شعراء التروبادور شعراء محترفين يتعيشون من الغناء فى بلاد الأمراء، وكان البعض الآخر منهم من النبلاء أنفسهم ومنهم بعض دوقات أكوتين (اكويتانيا) الأقوياء[١٧٨] فلقد كانت الفكرة التى تكونت عن الفروسية فى فرنسا فى العصور الوسطى هى التى أمدت العالم بالأغانى الملكية، التى نشأت فى بروفانس وقصص الحب والهيام التى وجدت فى بريطانيا[١٧٩] . وسرعان ما انتشر هذا الشعر فى جميع أنحاء أوربا مثل أغانى المآثر والملاحم وقصص الملك آرثر أو الأساطير الآرثرية .

وتعبر قيم التروبادور ومثلهم العليا بوضوح عما اصطلح على تسميته بقانون الفروسية إذ كانت الفروسية ترتبط بقيم وممارسات العلاقات الغرامية فى البلاط ، ففى أغنيات التروبادور تتم مخاطبة

---

(١٧٥) عاشور : أوربا ج٢ ص ٤٤٧

(176) Heer : op. cit. p. 154

(177) Ibid. p. 154

(١٧٨) كانتور : التاريخ الوسيط ق٢ ص ٥٦٨

(١٧٩) كرمب وجاكوب : تراث العصور الوسطى ص ٢٦٥

السيدات بأسلوب رقيق عاطفى لم يكن يعرفه السادة الأفظاظ فى العصور الوسطى الباكرة[(١٨٠)] . فشعراء التروبادور فى فرنسا وألمانيا الذين جعلوا من حب وتبجيل المرأة، موضوع شعرهم الرئيسى، هدفوا أيضاً من رفع عواطفهم للطبقة العليا فى المجتمع على أن يكون ذلك باسم وبأمر الفروسية وطبقاً لقواعدها وقوانينها[(١٨١)] . فأصبح لشعراء التروبادور أثر فعال فى رفع مستوى فرسان أوربا وتعليمهم أساليب التغنى بالغزل العفيف[(١٨٢)] . وهكذا يسود الاعتقاد بأن هذه الغراميات أسهمت مساهمة بارزة فى الثقافة الغربية، حين أعلت من شأن المرأة وأثرت الأدب الأوربى بعنصر رومانسى جديد[(١٨٣)] .

وحظيت الآداب المحلية الناشئة ومن بينها أشعار التروبادور برعاية الأمراء والملوك والأباطرة، مثل هنرى الأسد بسكوسنيا وأمراء شامبنى وهنرى الثانى بانجلترا[(١٨٤)] ، وفى القرن الثالث عشر جمع الامبراطور فردريك الثانى حوله العلماء والأدباء وشجع الأدب والعلم، كما حضرت مجموعة من شعراء التروبادور حفل تتويجه فى روما سنة ١٢٢٠م[(١٨٥)] .

ومما يتصل بآداب العصور الوسطى فى الغرب الأوربى أيضاً انتشار نوع آخر من الشعر هو الشعر القصصى والتمثيلى ، والذى امتازت قصصه بقصرها وغلبة روح الفكاهة عليها والبعد عن التكلف

---

(١٨٠) كانتور : المرجع السابق ق٢ ص ٥٦٨ - ٥٦٩

(181) Rowling : op. cit. p. 95

(١٨٢) عاشور : أوربا ج٢ ص ٤٤٨

(١٨٣) كانتور : التاريخ الوسيط ق٢ ص ٥٧٠

(184) Heer : op. cit. p. 170

(١٨٥) عاشور : نفسه ج٢ ص ٤٤٨

في أسلوبها ،وقد انتشر هذا النوع من الشعر فيما بين القرنين الثانى عشر والرابع عشر، وظل يعبر عن الذوق الشعبى أصدق تعبير[١٨٦]، فكأنه كان يمثل أدب الأسواق العامة، ويعكس أغانى المآثر والملاحم التى كانت تعبر عن أدب الحصون وأدب الطبقة الأرستقراطية الحربية فى المجتمع الإقطاعى فى العصور الوسطى، ويعبر عن نمط الحياة التى كانت تحياها الطبقة الارستقراطية فى أكوتين (أكويتانيا) وشمبانى وألمانيا[١٨٧] .

أما بالنسبة للتمثيليات الدينية، فقد نشأت داخل الكنيسة، ودارت موضوعاتها ومناظرها وصيغ أسلوبها من وحى الكنيسة وطبعت بطابعها، ومثلها رجال الدين من القساوسة والرهبان أمام جمهور من العلمانيين . وتطورت الأدوار التمثيلية ثم انتقلت من الكنيسة إلى حرمها عندما دخلت فيها عناصر غير دينية، ويظهر أن وقع المسرحيات الدينية على العامة كان أعظم منه على الخاصة لأن هؤلاء كانوا يجدون ما يستمتعون به فى قلاعهم وفى ملاحم البلاط وغزله[١٨٨]. ويذهب البعض إلى أن هذا النوع من التمثيليات لم يكن موجوداً قبل القرن الحادى عشر، لكن كان لهذه التمثيليات فضل في إدخال كثير من ألفاظ اللغات الوطنية كالإيطالية والفرنسية والأسبانية وهى اللغات التى كانت آخذة بأسباب التطور والنمو منذ فترة فى لغة الكنيسة اللاتينية[١٨٩]، وشيئاً فشيئاً صارت هذه التمثيليات تجرى باللغة الوطنية وتستغنى كلية عن اللاتينية، كما تطور الأمر حد الإقلاع عن اختيار الموضوعات الدينية وتمثيل موضوعات دنيوية

---

(١٨٦) عاشور : نفسه ج٢ ص ٤٤٩

(١٨٧) كانتور : المرجع السابق ق٢ ص ٥٧٣، Rowling : op. cit. p. 95

(١٨٨) كرمب وجاكوب : تراث العصور الوسطى ص ٢٧٢

(189) Thompson : op. cit. V. 2, pp. 823 - 25

بحتـة ، وهكـذا انسـلخت التمثيليـة عـن الكنيسـة وأصبحـت انتاجـاً دنيوياً بحتاً[١٩٠] .

ومـن الواضـح أن نشـاطاً أدبيـاً سـرى فـى معظـم بلـدان الغـرب الأوربى خاصة فى فرنسا وألمانيا وبريطانيا ، لكن إيطاليـا وإن شـاركت فى النهضة الأدبية إلى حد ما لكنها لم تقدم فـى هـذا النشـاط عبقريـة أدبية طوال الشطر الأول من العصور الوسطى حتى القرن الثالث عشـر ، واقتصر نشـاطها الأدبـى في تلـك الآونـة علـى مشـاركة بقيـة الشـعوب الأوربية في إنتاج أدبى محدود ، دون أن يرقى إلى إنتـاج ملحمـة تفخـر بها وترقى بأدبائها إلى مكانة بارزة بـين الأدبـاء الأوربيـين في العصـور الوسـطى[١٩١] . وربمـا يرجـع ذلـك إلى انصـراف الإيطـاليين حينئـذ إلى نـاحيتين مـن نواحـى الـنزاع السياسـى ، وهمـا الصـراع بـين البابويـة والامبراطورية وكذلك جهاد المدن الإيطالية لنيل استقلالها ، ولهذا قلت جهود الإيطاليين فى ميدان الأدب واللاهـوت والفنـون إلى حـد مـا ، في حين برزت في ميدان النشاط السياسى والدراسات القانونية[١٩٢] ، حيث غـدت بولونـا أكـبر مركـز للدراسـات القانونيـة فـى أوربـا فـى ذلـك الوقت[١٩٣] .

غير أن اللغة الايطالية مـالبثت أن أخـذت تنهـض وتـبرز شـيئاً فشيئاً ، شأنها فى ذلك شأن بقية اللغات الوطنية الناشئة ، حتى غدت فى الفـترة السابقة لمولـد العبقرى الإيطالى دانتى لغـة صالحـة للتعبـير

---

(١٩٠) عاشور : أوربا ج٢ ص ٤٤٩

(191) Thompson :op. cit. v. 2, p. 818, عاشور : نفسه ج٢ ص ٤٥٠

(192) Rowling : op. cit. pp. 175 -7

(193) Heer : op. cit. p. 239

Keen : op. cit. p. 80

الأدبى شعراً ونثراً، خاصة فى صقلية وجنوب إيطاليا، هذا فضلاً عما أظهره الامبراطور فردريك الثانى من حب لهذه اللغة الناشئة، وما حباه إياها من رعاية وعطف[١٩٤] ؛ ولهذا ظل تأثيره باقياً فى حلبة الأدب، فقد لجأ إليه بعض الشعراء البروفنساليين أو شعراء التروبادور فراراً من الاضطهاد الدينى فى فرنسا، فلقوا كل ترحيب فى بالرمو ونالوا عطفه وتسامحه المشهور، وغدت دائرة الشعراء الذين أحاطوا بالامبراطور الشاعر مصدراً لنبع من الشعر الصقلى الرقيق .. وما زال حتى صار نهراً دافق الأنغام فى دانتى والكوميديا الإلهية[١٩٥]. واستمرت رعاية فردريك الثانى للغة الناشئة حتى بلغ من جمعهم في بلاطه من شعرائها نحو ثلاثين شاعراً، كانوا أول من استعمل الإيطالية الوطنية فى الكتابة، وأول أيضاً من ابتكر ذلك النوع من القصائد المعروفة باسم السونت Sonnet ،وهى نوع من القصائد يغلب عليها الطابع الغزلى، وكانت تنظم على هيئة مجموعات، وتمتاز بوزنها الخاص الذى يتطلب ترتيب الأبيات وفق نظام خاص[١٩٦].

وفى وسط هذه الظروف الجديدة، أنجبت إيطاليا رجلها العبقرى، وعالمها ذائع الصيت دانتى اليجيرى (١٢٧٥-١٣٢١م) وهو الشاعر الذى كتب عدة أشعار شهيرة عالج فى القسم الأول منها الحياة الجديدة التى استلهمها من غرامه وحبه لسيدة لم يستطع الزواج منها، والتى لم تخاطبه سوى مرة واحدة . فقد خلد فى كتابه " الحياة الجديدة " هيامه بمعشوقته هذه واسمها بياتريس، ولكنها توفيت فجأة فلازمه الحزن بعد وفاتها سنة ١٢٩٠ م[١٩٧] ، غير أن " الكوميديا

---

(١٩٤) عاشور : أوربا ج٢ ص ٤٢١ ، ص ٤٥٠
(١٩٥) فشر : تاريخ أوربا ق١ ص ٢٥٥
(١٩٦) عاشور : أوربا ج٢ ص ٤٥٠
(١٩٧) انظر حاشية رقم (٢) من ص ٥٦ من ترجمة د.جوزيف نسيم لكتاب كولتون: عالم العصور الوسطى .

الالهية" هى أروع ما خلفه لنا دانتى، تلك الملحمة الدينية الدنيوية التى وضعها شعراً باللغة الإيطالية المعاصرة بدلاً من اللاتينية، والتى لخص فيها ما وصل إليه خيال العصر الوسيط[١٩٨].

وبالاضافة إلى ذلك كتب دانتى باللاتينية دفاعاً عن اللغة الوطنية هدف به إطلاع المثقفين على اقتراحاته وآرائه للنهوض باللغة الإيطالية الجديدة، والتوحيد بين لهجاتها حتى تصبح أداة فعالة فى التعبير الأدبى[١٩٩]. وفى رسالة أخرى له باللاتينية تعرض دانتى لطبيعة الدولة، فكتب عن الملكية **De Monarchia** والتى سبقت الإشارة إليها من قبل. غير أن دانتى نال شهرته ومكانته من كتابته للكوميديا الإلهية أو المقدسة، وهى التى نظمها بالايطالية، وتخيل فيها رحلة إلى العالم الآخر فى أسلوب رائع وتصوير جميل، تضمنت آراء جريئة ومعانى عميقة فضلاً عن أنها جاءت أول إنتاج إيطالى كامل ومؤلف ضخم بالايطالية الصحيحة[٢٠٠]. وتعبر الكوميديا الإلهية عن الكره والحب البشرى الفريد الذى كنه دانتى لمدينة فلورنسا التى أجبر على الخروج منها[٢٠١].

وعلى الرغم مما حازته الكوميديا الإلهية من شهرة فى الخافقين أعطت هذا العبقرى مكانته بين رجال العصر فى أواخر العصور

---

(١٩٨) نفسه ص ٥٦ – ٥٧ وانظر أيضاً :

Burckhardt: The Civilization of the Renaissance, pp. 49-50
Coulton : Med. Panorama , p. 207 - 222
Hay : The Italian Renaissance , pp. 55-7 , 74-7

(١٩٩) عاشور : أوربا ج٢ ص ٤٥١

(٢٠٠) عاشور : نفسه ج٢ ص ٤٥١

(201) Heer : op. cit. p. 65

الوسطى، فثمة دلائل تشير إلى أنه تـأثر فـى كتابتهـا برسـالة الغفـران للفيلسوف والشاعر العربى الشهير أبى العلاء المعرى، الذى عـاش فـى القرن الحادى عشر الميـلادى (الخـامس الهجـرى) فـى عصـر يسـبق دانتى بنحو قرنين من الزمان .

فلقد أثبتت البحوث الحديثة أن دانتى لم يكن مبتدعاً أو مبتكراً لكل ما جاء فى الكوميديـا الإلهيـة، وخاصـة فـى حديثـه عـن النعيـم والجحيم والرحلة إلى العالم الآخـر التـى جمـع فيهـا الهراطقة بجـوار الجنة يتسامرون ويتناقشون في أسلوب جذاب وحوار ممتع وأفكار وآراء جريئة، لأن كل هذه الجوانب سبقه إليها أبو العلاء المعرى فى رسـالة الغفران .

ومهما يكن من أمر، فقد أعطى دانتى إيطاليا مكانتها فى ميـدان الإنتاج الأدبى في الجزء الأخير من العصور الوسطى، ونال هو فوق ذلك مكانة سامية وشهرة ذائعة بين أدباء وعباقرة العصر فى أوربا فى ذلـك الوقت .

أولاً : المراجع العربية والمعربة :

ابراهيم أحمد العدوي (دكتور) :
- المجتمع الأوربي في العصور الوسطى (القاهرة ١٩٦١)

جوزيف نسيم يوسف (دكتور) :
- نشأة الجامعات في العصور الوسطى (الاسكندرية ١٩٧٣م)

جيبون (ادوارد) :
- اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها
ج١ (ترجمة محمد على أبو درة - مراجعة نجيب هاشم)
ج٢ (ترجمة لويس اسكندر - مراجعة نجيب هاشم)
ج٣ (ترجمة محمد سليم سالم-مراجعة محمد على أبو درة)

ديفز (H.W.C.) :
- أوربا في العصور الوسطى (ترجمة د. عبد الحميد حمدي - الاسكندرية سنة ١٩٥٨م)

ديوارنت (ول) :
- قصة الحضارة ج٢ ، ج٣ (ترجمة محمد بدران - ط جامعة الدول العربية)

رءوف حبيب :
- تاريخ الرهبنة والديرية في مصر وآثرهما الانسانية على العالم

سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) :
- الحضارة والنظم الأوربية في العصور الوسطى - القاهرة ١٩٦٣م
- أوربا العصور الوسطى ج٢ (ط ١٩٧٦م)
- النهضات الأوربية في العصور الوسطى وبداية الحديثة بالاشتراك (القاهرة ١٩٥٦م)

السيد الباز العريني (دكتور) :
- تاريخ أوربا في العصور الوسطى (بيروت سنة ١٩٦٨م)
- مصر البيزنطية (القاهرة ١٩٦٢م)

عبد الرحمن بدوي (دكتور) :

– فلسفة العصور الوسطى – الطبعة الثانية القاهرة ١٩٩٦م

عزيز سوريال عطيه ومنير شكري :

– عبقرية الأنبا باخوم وأثرها على الرهبنة والحضارة الغربية

عمر طوسون :

– وادي النطرون ورهبانه

فشر (هـ . ا . ل .) :

– تاريخ أوربا في العصور الوسطى (ترجمة زيادة والعريني والعدوي سنة ١٩٥٠م)

– تاريخ أوربا في العصور القديمة (ترجمة نصحي وعواد – القاهرة ١٩٥٠م)

كانتور (نورمان ف .) :

– التاريخ الوسيط – قصة حضارة : البداية والنهاية (ترجمة د. قاسم عبده قاسم) قسمان (القاهرة ١٩٨١ ، ١٩٨٣م)

كرستوفر دوسن :

– تكوين أوربا (ترجمة سعيد عاشور ومحمد مصطفى زيادة – القاهرة ١٩٦٧م)

كرمب وجاكوب :

– تراث العصور الوسطى (مجموعة بحوث – مترجمة – مراجعة بدران وزيادة القاهرة سنة ١٩٦٥م)

كوبلاند وفينوجرادوف :

– الاقطاع والعصور الوسطى بغرب أوربا (ترجمة زيادة – القاهرة سنة ١٩٥٨م)

كولتون (ج – ج) :

– عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة (ترجمة د. جوزيف نسيم يوسف – الاسكندرية سنة ١٩٨٣م)

مجموعة مقالات عن اثر العرب والاسلام في النهضة الأوربية نشرت بالتعاون مع منظمة اليونسكو
محمد محمد مرسي الشيخ (دكتور):
- تاريخ أوربا في العصور الوسطى (الاسكندرية سنة ١٩٩٠م)
- تاريخ الامبراطورية البيزنطية (الاسكندرية سنة ١٩٩٤م)
- الممالك الجرمانية في أوربا في العصور الوسطى (الاسكندرية سنة ١٩٧٦م)
- دولة الفرنجة وعلاقتها بالمسلمين في الأندلس (الاسكندرية سنة ١٩٨١م)
مراد كامل:
- حضارة مصر في العصر القبطي القاهرة
موس (هـ.):
- ميلاد العصور الوسطى (ترجمة عبد العزيز جاويد ومراجعة العريني - القاهرة سنة ١٩٦٧م)
نظير حسان سعداوي (دكتور):
- تاريخ انجلترا وحضارتها في العصور القديمة والوسطى (القاهرة سنة ١٩٦٨م)
نور الدين حاطوم:
- تاريخ العصر الوسيط في أوربا (دمشق ١٩٦٧م - ١٣٨٦هـ)
هلستر (س. ورن):
- أوربا في العصور الوسطى (ترجمة د. محمد فتحي الشاعر القاهرة ١٩٨٨م)
وهيب ابراهيم سمعان (دكتور):
- الثقافة والتربية في العصور الوسطى (القاهرة سنة ١٩٦٢م)
يوسف كرم:
- الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط (القاهرة سنة ١٩٥٧م)

ثانياً : المراجع الأجنبية :

ATIYA (A.S.) :

- Crusade ,Commerce and Culture.(Bloomington 1962)
- The Crusade in the Later Middle Ages.(London 1938)

BALDWIN (M.W.) :

- The Medieval Church. (N. Y. 1960)

BARROW (R.H.) :

- The Romans. (London 1945)

BENZ (N.) :

- The Eastern Orthodox Church. (Chicago 1963)

BLOCH (M.) :

- Feudal Society . trans. from the french by L . A Manyon . (London 1961)

BOWLE (J.) :

- Western political Thought . (London 1948)

BURCKHARDT (J.) :

- The Age of Constantine the great . trans. by Hadas, (London 1964)
- The Civilization of the Renaissance, trans . by S. G. C. Middlemore . (London 1944)

BURY (J. B.) :

- History of the Later Roman Empire 2 vols. (London 1923)

BUTTS , FREEMAN :

- A Cultural History of Education. (N. Y . 1947)

Cambridge Medieval History , 8 vols . (Cambridg 1924)

CANTOR (N . F .) :

- (ed.) The Medieval world 300 - 1300.(N. Y. 1968)
- Medieval History. (N . Y . 1964)

CARLYLE (R. W.) :

- History of Mieval political theory in the west.(1928)

CARY :

- A History of Rome down to the Reign of Constantine .

CHADWICK (H .) :

- The early Church . (London 1967)

CHAPMAN :

- Stndies in the early papacy .

COULBORN :

- Feudalism in History. (Princeton 1950)

COULTON (G . G .):

- Social life in Britain.
- Medieval Village, Manor and Monastery (N.Y.1960)
- Medieval Panorama. (N . Y . 1955)

CRUMP (C . G .), JACOB (E . F .):

- (ed.) The Legacy of the Middle Ages (Oxford 1962)

DAVIS (H. W. C.):

- Charlemagne. (London 1929)

DEANESLY:

- A History of early Medieval Europe.

DEITZ:

- A Political and Social History of England. (N . Y. 1937)

DE WULF (M .):

- History of Medieval Philosophy. (London 1925)

DURANT, WILL:

- The Storyof Civilization - The Age of Faith. (N. Y. 1950)

EYRE (E .) :

- European Civilization , Vols. 3 the middle ages, (London 1935)

FLICH (A .) :

- L' Europe Occidentale du 888 à 1122 (Paris 1930)

GANSHOFF (F . L.) :

- Feudalism . (London 1952)

GARRISON (F .) :

- History of Medecine . (Philadelphia 1929)

GIERKE (O .) :

- Political theories of the Middle Ages . (Cambridge 1927)

GLOVER :

- The Conflict of Religions in the early Roman Empire.

GOOD (H . G .) :

- A History of western Education . (N . Y . 1949)

GRASS :

- The Lagacy of the Middle Ages .

HARDY:

- Studies in Roman History.

HASKINS (C. H.) :

- The Normans in European History. (N. Y. 1959)
- The Rise of Universities. (N. Y. 1923)
- Studies in Medieval Culture. (Oxford 1929)

HAY (D.):

- The Italian Renaissance in its Historical Background. (Cambridgs 1961)

HEARNSHAW (F. J. C.):

- The Social and political Ideas of some great Medieval Thinkers. (London 1921)

HEATON (H.):

- Economic History of Europe. (N. Y. 1948)

HEER (F.):

- The Medievel world, Europe from 1100 to 1350. (trans. from the German by J. Sondheimer)

Hodges :

- The early Church. (N. Y. 1915)

HUIZINGA (J.) :
- The waning of the Middle Ages.
(trans. by F. Hopman)

HUSSEY (J. M.) :
- The Byzantine world. (London 1969)

JAMES :
- History of Chivalry (London 1830)

JONES (C. W.) :
- Medieval Literature in Translation (N. Y. 1950)

JOINVILLE (J. DE) :
- Histoire de Saint Louis (Paris 1874)

KATZ (S.) :
- The Decline of Rome and the Rise of Medieval
(N. Y. 1955)

KEEN (M.) :
- A History of Medieval Europe (London 1967)

KER (W. P.) :
- The Dark Ages (London 1955)

LAMONTE (S. L.):

- The world of the middle Ages. (N. Y. 1949)

LAISTNER (M. L. W.):

- Thought and Letters in western Europe. (N.Y. 1920)

LANGMEAD:

- English Constitntional History. (London 1911)

LAVISSE (E.):

- Histoire de france. (Paris 1911)

LEA :

- Superstition and Force. (Philadelphia 1892)

LEACH (A. E.) :

- Schools of Medieval England. (London 1915)

LEFF:

- Medieval Thought, St. Augustin to Ockham.

LEVISON:

- England and the Continent in the eight century. (1946)

LOT (F.) :

- The End of the Ancient world and the begining of the Middle Ages. (London 1961)

MCKISACK (M.) :
- The Fourteenth Century 1307 - 1399 . (Oxford 1959)

MEINARDUS (O. F. A.) :
- Monks and Monasteries of the Egyptien deserts .
(by the American Unv. in Cairo Egypt 1961- 1989)

MONROE (P.) :
- A Textbook in the History of Education.(N. Y. 1933)

MUNRO , SONTAG :
- The Middle Ages 395 - 1500 . (N . Y . 1940)

MYRES (A . R .) :
- England in the Late Middle Ages 1307 - 1530 .
(London 1953)

OMAN (SIR CHARLES) :
- The Dark Ages 476 - 918 . (London 1962)

ORTON (J. B.) :
- A History of Europe .

OSTROGORSKY (G.) :
- History of Byzantine State . (Oxford 1956)

PAINTER (S.) :

- A History of the Middle Ages. (N . Y . 1954)
- Medieval Society. (N . Y . 1955)

PIRENNE (H.) :

- Medieval cities , trans. Halsey. (Princ. 1934)
- Economic and Social History of Medieval Europe. (London 1947)

PIRENNE, COHEN, FOCILLON :

- La Civilisation Occidentale au Moyen Age. (Paris 1933)

POOLE (R. L.) :

- Illustration from the History of Medieval Thought. (N. Y. 1920)

RASHDALL (H.) :

- The Universities of Europe in the Middle Ages ,3 vols. (Oxford 1951)

RAYNER (R. M.):

- A consise History of Britain. (London 1939)

RENARD :

- Guilds of the Middle Ages. (London 1918)

RICE (D . T .) :
- Byzantines. (London 1964)

ROBINSON :
- An Introduction to the History of western Europe. (Boston 193)

ROSTOVTZEF :
- A HISTORY OF Ancient world , 2 vols.

ROWLING (M .) :
- Everyday life in Medieval Times. (London 1973)

SANDYS (J. E.) :
- A History of classical Scholarship. (Cambridge 1921)

SEIDLMAYER (M.) :
- Currents of Medieval Thought , trans. by Barker. (Oxford 1960)

SOUTHERN (R. W.) :
- The Making of the Middle Ages. (London 1960)
- Western Society and the Church in the Middle Ages. (B. 1979)

STALLAERT AND HEGEN :
- DE L'Instruction Publique au Moyen Age. (B. 1950)

STEPHENSON (C.) :

- Medieval Feudalism. (N. Y. 1942)

STRAYER, MUNRO :

- The Middle Ages. (N. Y. 1942)

STENTON (D. M.) :

- English Society in the early Middle Ages 1066 - 1307, (Mid 1952)

SULLIVAN (R. E.) :

- Heirs of the Roman Epire. (N. Y. 1960)

THOMPSON (J. W.) :

- The Middle Ages 2 vols. (London 1931)
- Economic and Social History of the Middle Ages. 300- 1500 (N . Y. 1923)

TREVELYAN (I. M.) :

- History of England. (London 1926)

VASILIEV (A. A.) :

- History of the Byzantine Empire 2 vols. (1971 - 1973)

WALSH (J. J.) :

- The Thirteenth the greatest of centuries, (1920)

West (A. F.) :
- Alcuin. (N. Y. 1916)

WILLIAMSON :
- From Feudalism to Despotism. (London 1925)

الفهرس

الشهاب للطباعة والنشر
نهاية ش درويش بك أمام مزلقان غبريال
رمل الاسكندرية ☎ : ٥٧٠٨٦١٨